مارسيل بروست مكتبة ٦

بحثاً عن الزمن المفقود

الشاردة



ترجمة: إلياس بديوي

مراجعة: د. جمال شحيد

منشورات الجمل

رواية



مارسيل بروست

بحثاً عن الزمن المفقود

– 6 –

ألبيرتين المختفية (الشاردة)

الياس بديوي (١٩٣٠-١٩٩٧)، من مواليد قرية المسمية في حوران. حاصل على إجازة في اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة السوربون ١٩٥٦. عُيِّنَ موجّهاً للغة الفرنسية في وزارة التربية السورية (١٩٦٦-١٩٨٣) وأستاذاً للترجمة الفورية في جامعة دمشق. كان عضواً في هيئة تحرير مجلة **الآداب الأجنبية** التي يصدرها اتحاد الكتّاب العرب. له العديد من الترجمات المنشورة، منها: ميشيل كاروج: **أندريه بروتون والمعطيات الأساسية للحركة السريالية** (دمشق، ١٩٧٣)؛ اولفن فنك: **فلسفة نيتشه** (دمشق، ١٩٧٤)؛ آلن تورين: **إنتاج المجتمع** (دمشق، ١٩٧٧)؛ الأجزاء الخمسة الأولى من سباعية مارسيل بروست: **بحثاً عن الزمن المفقود** (دمشق، ١٩٧٧-١٩٩٧).

جمال شحيّد (مواليد عام ١٩٤٢). دكتوراه في الأدب المقارن (السوربون الجديدة، ١٩٧٤). من أعماله النقدية: **في البنيوية التكوينية** (بيروت، ١٩٨٢؛ **الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة** (بيروت، ٢٠١١)؛ **خطاب الحداثة في الأدب. الأصول المرجعية** (دمشق، ٢٠٠٥). بعض مترجماته: **رحلة لامارتين إلى الشرق** (الكويت، ٢٠٠٦)؛ الجزآن الأخيران من سباعية **بحثاً عن الزمن المفقود** لمارسيل بروست (القاهرة، ٢٠٠٣-٢٠٠٥)؛ كلاريس هيرينشميدت: **الأبجديات الثلاث، اللغة والعدد والرمز** (البحرين، ٢٠٠٧)؛ دومينيك أورفوا: **المفكرون الأحرار في الإسلام** (بيروت، ٢٠٠٨)؛ جاك لوغوف: **التاريخ والذاكرة** (بيروت، ٢٠١٧)؛ مارسيل بروست: **المسرات والأيّام** (أبو ظبي، ٢٠١٤). جورج فيغاريلّو: **تاريخ الجمال** (بيروت، ٢٠١١). ادغار موران: **المنهج** (الجزآن الثالث والرابع) (بيروت، ٢٠١٢). جيل دولوز: **سينما (الصورة الحركة، الصورة الزمن)** (بيروت، ٢٠١٤-٢٠١٥).

مارسيل بروست



بحثاً عن الزمن المفقود

– 6 –

ألبيرتين المختفية (الشاردة)

رواية

ترجمة: د. جمال شحيد

منشورات الجمل



مارسيل بروست

بحثاً عن الزمن المفقود – 6: ألبيرتين المختفية (الشاردة)، رواية، الطبعة الأولى

ترجمة: د. جمال شحيد

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Marcel Proust: *A La recherche du temps perdu VI: Albertine disparue (La Fugitive)*, 1925

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الفصل الأول(*)



«إن الآنسة ألبيرتين قد رحلت!» كم يكون الألم النفسي أعمق غوراً من علم النفس ذاته! منذ لحظة، بينما كنت أحلل نفسي، ظننت أن هذا الفراق النهائي هو ما رغبت فيه فعلاً؛ وقارنت المتع التافهة التي كانت تؤمنها لي «ألبيرتين» بغنى الرغبات التي كانت تمنعني من تحقيقها (وبينها أن تأكيد حضورها في بيتي، وضغط الجو الأخلاقي لدي، قد شغلا مكان الصدارة في نفسي. ولكن عندما وافاني أول خبر عن رحيلها لم يعودا يستطيعان الدخول في منافسة معها، لأنهما تبددا دون تأخير)، فوجدت نفسي في وضع دقيق واقتنعت أنني لم أعد أريد رؤيتها وأنني لم أعد أحبها. ولكن هذه الكلمات «إن الآنسة ألبيرتين قد رحلت!» راحت تثير

(*) نُشر هذا النص عام ١٩٢٥، أي بعد وفاة مارسيل بروست بثلاثة أعوام. لقد اعتُمد هذا المتن (بالفرنسية)، بناءً على مخطوط الكاتب نفسه. ولكنّ فقدان بعض الصفحات جعلنا نعتمد لحلّها على الطبعة الأصلية. أما النسخة المضروبة على الآلة الكاتبة التي اعتمدتها هذه الطبعة فلم نحصل عليها.
إن مخطوط «الشاردة»، شأنه شأن جميع دفاتر بروست، مليء بالإضافات والقصاصات التي أُلصقت بالنص الأصلي والتي ضاعفت حجمه مرتين أو ثلاثاً.
ويبدو أن المخطوط مؤلف من جمع نصيّن صدرا في فترتين مختلفتين. وكُتب النص الأول، وهو الأقدم على الأرجح، بأسلوب دقيق ومكثّف وغير مجهَد ولكنه رصين. أما الثاني - ويشكّل المتن الأساسي في النص - فقد كُتب بأسلوب فضفاض وأكثر تسرعاً، ونجده أيضاً في عدد من التصويبات والإضافات التي أجريت على صفحات النص الأول. ونستطيع الافتراض أن بروست، الذي عكف

ألماً في قلبي، ألماً يخالجني لن أقوى على مقاومته طويلاً. كان عليَّ أن أوقف هذا الألم حالاً. ولأنني أعطف على نفسي كما تعطف أمي على جدتي المحتضرة، كنت أقول بنفس النية الطيبة التي تدفعنا إلى تجنيب أحبابنا آلامهم: «إصبِرْ لحظة اخرى، سيجدون لك دواء، كن هادئاً، لن يتركوك تتألم هكذا». وخمنت تخميناً غامضاً أن رحيل ألبيرتين، عندما قرعت الجرس، كان قد بدا لي غير مهم، لا بل مرغوباً فيه، إلا لأنني ظننته مستحيلاً؛ ووفقاً لطريقة التفكير هذه، بحثت غريزة البقاء عندي عن المسكّنات الأولى التي ستوضع فوق جرحي المفتوح: «لا أهمية لهذا كله، لأني سأرجعها فوراً. سأنظر في الوسائل، ولكنها ستكون هنا هذا المساء على كل حال. إذن من العبث أن أشغل بالي بذلك». «لا أهمية لهذا كله»، لم أكتف بهذا القول، بل حاولت أن أُشعِر «فرنسواز» بذلك، دون أن أُظهر لها ألمي، لأن حبي المبرح كان يجب أن يَظهر لها حباً

بعد سنوات عديدة من وضعه نص «الشاردة»، قد أدخل بعض المقاطع المأخوذة من الصياغة الأولى، واعتبر من غير المفيد إعادة كتابتها. ومهما يكن من أمر، فإنه لم يحظ بالوقت الكافي ليُعنى بتعشيق النصين فعرف المتن بعض التشابكات والقطوع. ولنذكر أن أحدث الإضافات والتصويبات أوردت أن الموسيقي الذي كان يرعاه «السيد دو شارلوس» يدعى «موريل» أو «شارلي». وكان اسمه في كل النصوص السابقة «سانتوا» أو «بوبي».

وحول حادثة الإقامة في مدينة البندقية، اعتمد الناشرون، مع بعض الفوارق الطفيفة، النص الذي ظهر في العدد الرابع من **صفحات الفن** (الصادر في ١٥ ديسمبر ١٩١٩) بعنوان «إلى البندقية»، وكان جزء من هذا النص قد صدر في صحيفة **لو ماتان** بعنوان «السيدة فيلباريسيس في البندقية» وظهر في زاوية «ألف صباح وصباح» في ١١ نوفمبر ١٩١٩، وهو اليوم الذي حصل فيه بروست على جائزة غونكور لكتابه **الفتيات**. إذن اعتمدوا هذا النص بدل أن يعتمدوا نص المخطوط. ونرى أن نص **الدفاتر** هو أغنى وأكمل من نص «صفحات الفن» والنص الأصلي. وسندرجه مغفلين نقطة واحدة؛ فحول حادثة العشاء الذي جمع السيد «نوربوا» والسيدة «فيلباريسيس»، لا تقدّم **الدفاتر** سوى نص أقل تطوراً من النص المطبوع. وسنعتمد إذن هذا الأخير، مدرجين نص المخطوط في الحاشية (ص ١٠٥١-١٠٥٤ من النص الفرنسي).

سعيداً ومتبادلاً، لا سيما وأن فرنسواز لم تكن تحب ألبيرتين وكانت تشك دائماً في صدقها.

نعم، قبل وصول فرنسواز بقليل ظننت أنني لم أعد أحب ألبيرتين، وظننت كمحلل دقيق ألا أترك شيئاً جانباً؛ كما ظننت أيضاً أنني أعرف أغوار قلبي تمام المعرفة. ولكن ذكاءنا، مهما كان ثاقباً، لا يستطيع أن يرى العناصر التي تؤلفه والتي لا يخامره بشأنها أي شك، ما دامت هناك ظاهرة تستطيع تحويلها من حالة التبخر التي غالباً ما توجد فيها هذه العناصر إلى عزلها دون أن تخضعها لبداية تَجَمّد. لقد أخطأت عندما ظنت أنني أرى بوضوح في قلبي. ولكن هذه المعرفة التي لم تُتِحْها لي أدق الإدراكات العقلية، قد تجلت لي قاسية ساطعة غريبة، كذرة ملح متجمدة، تجلت هكذا بسبب لاعجة الألم المفاجئة. كنت معتاداً أن أرى ألبيرتين إلى جانبي، وفجأة رأيت وجهاً جدياً لهذا الاعتياد. وقبل ذلك كنت أعتبر الأمر بخاصة كسلطة ماحقة تلغي الابتكار لا بل تلغي وعي الإدراكات. أما الآن فأراه كإله رهيب يحملق فينا ويغوص وجهه التافه في قلبنا، وعندما ينفصل عنا ويتنكب لنا، تسبب لنا هذه الألوهة التي لا نكاد نتبينها آلاماً لا أفظع منها وأقسى آلام الموت.

وكان الأمر المستعجل هو أن أقرأ رسالتها، لأنني كنت أريد التفكير في وسائل إرجاعها. كنت أشعر بأنني أملك هذه الوسائل؛ ولكن - لأن المستقبل لا يزال في تفكيرنا - يبدو وكأنه قابل للتعديل إذا ما تدخلت إرادتنا في اللحظة الأخيرة. إلا أنني في الوقت ذاته تذكرت أن قوى أخرى غير قوتي تؤثر فيه ولا أستطيع صدها، مهما أتيح لي من وقت. ماذا يفيدنا أن الوقت لم يحن بعد، إذا كنا لا نستطيع شيئاً حول ما سيحدث فيه؟ عندما كانت ألبيرتين كنت قد قررت اتخاذ زمام المبادرة بالنسبة لانفصالنا. ثم ذهبت. فتحت رسالة ألبيرتين. وكان نصها كالتالي:

سامحني يا صديقي لأنني لم أجرؤ على أن أقول لك بالصوت الحي الكلمات الوجيزة التالية، ولكنني جبانة جداً، وأمامك كنت أشعر دائماً

بالخوف؛ ومع بذل الجهد، لم أملك الشجاعة في ذلك. إليك ما وجب عليَّ أن أقوله لك: صارت الحياة بيننا من رابع المستحيلات، وقد لاحظت في المشادة التي وقعت ذلك المساء أن شيئاً ما قد تغير في علاقتنا. ما استطعنا تدبيره في تلك الليلة قد لا نستطيع إصلاحه في الأيام القادمة. وبما أننا حظينا بفرصة المصالحة، من الأفضل إذن أن ننفصل كأصدقاء أعزاء. لذا يا عزيزي أرسل لك هذه الرسالة، وأرجو أن تسامحني طيبتك إن سببت لك بعض الحزن، مع العلم أن حزني سيكون شديداً. يا كبيري العزيز، لا أريد أن أصبح عدوتك، قراري حازم، وقبل أن أعطي رسالتي لفرانسواز كي تسلمها إياك، كنت سأطلب منها حقائبي. وداعاً، أترك لك أفضل ما فيّ. «ألبيرتين».

فقلت لنفسي إن كل هذا لا يعني شيئاً، لا بل هذا أفضل مما فكرت فيه، ولأنها لم تفكر إطلاقاً في كل هذا فإنها بالطبع لم تكتبه إلا لتخبط خبطة كبيرة كي تخيفني. ولكن يجب أن أفكر في ما هو أكثر استعجالاً، أي في أن ألبيرتين وصلت هذا المساء. من المحزن الظن أن عائلة «بونتان» (Bontemps) هم أناس مشبوهون يستخدمون بنت أخيهم لتبتزني في مالي. ولكن لا بأس. حتى لو اضطررت إلى إعطاء السيدة «بونتان» نصف ثروتي، كي تبقى ألبيرتين هنا هذا المساء، سيبقى لنا، لألبيرتين ولي، ما يكفينا لكي نعيش برغد. وفي الوقت نفسه كنت أحسب وقتي لكي أوصي هذا الصباح على اليخت والسيارة الرولزرويس التي كانت تشتهيها، ولم أعد أفكر، بعد أن مات كل تردد لدي في أن إعطاءهما لها يفتقر إلى الحكمة. حتى ولو كان قبول السيدة «بونتان» غير كاف، في حال أن ألبيرتين رفضت أن تطيع عمتها واشترطت - لكي تعود - بأن تحصل على استقلالها الكامل؛ سأترك لها هذا الاستقلال، مهما غمّني ذلك، فستخرج وحدها وكما تشاء. يجب على المرء أن يعرف كيف يقوم بتضحيات، مهما كانت أليمة، من أجل ما نتعلق به أكثر، على الرغم مما طرأ ببالي هذا الصباح من أفكار دقيقة وعبثية أن ألبيرتين تعيش هنا. هل أستطيع بالتالي

أن أصرّح بأن إعطاءها هذه الحرية سيكون مؤلماً لي؟ لا، سأكون كاذباً. غالباً ما شعرت بأن تركها حرة لتفعل الشر بعيدة عني كان أقل من ذلك الألم الذي طلبت مني فيه الذهاب إلى مكان ما، كان السماح لها بذلك، مع العلم أنها كانت تعقد حفلات مجون، شيئاً شنيعاً بالنسبة لي. ولكن إذا قلت لها: «اذهبي بمركبنا أو بالقطار وابقي شهراً في ذلك البلد الذي لا أعرفه ولن أعرف شيئاً عما تفعلينه هناك»، كان يعجبني في أغلب الأحيان أن أفكر في أنها إذا أقامت المقارنة وهي بعيدة عني فستفضلني وستكون سعيدة بالعودة. أضف إلى ذلك أنها تبغي ذلك بالتأكيد؛ إنها لا تفرض إطلاقاً تلك الحرية، فبتوفيري لألبيرتين متعاً جديدة، سأصل بيسر إلى الحصول يوماً بعد يوم على شيء من التقتير. كلا، ما أرادته ألبيرتين هو أن أكف عن إزعاجاتي غير المحتملة لها وأن أقرر بخاصة الزواج منها، كما فعلت «أوديت» (Odette) في الماضي مع «سوان». وعندما نتزوج، ستتخلى عن التشبث باستقلاليتها، وسنبقى كلانا هنا في غاية السعادة. على الأرجح ستتخلى عن مدينة «البندقية». ولكن كم ستصبح المدن التي نحبها حباً جماً شاحبة ولامبالية وميتة - وأكثر من البندقية بكثير، دوقة «دو غيرمانت» والمسرح - عندما نرتبط بقلب آخر ارتباطاً ممضاً يمنعنا من الابتعاد. وألبيرتين محقة تماماً في مسألة الزواج هذه. وكانت أمي نفسها تجد كل هذا التسويف مضحكاً. كان عليَّ أن أتزوجها منذ زمن طويل، وهذا ما يترتب عليَّ الآن أن أفعله، وهذا ما دفعها لكتابة رسالتها دون أن تفكر في كلمة من كلماتها. ولإنجاح ذلك تخلت لبضع ساعات عما عليها أن ترغب فيه وعما أرغب في أن تفعله: أي العودة إلى البيت. نعم، هذا ما أرادته، وهذا ما صممت على فعله، حسبما قال لي عقلي المتعاطف. ولكنني كنت أشعر بأن عقلي عندما قال لي ذلك كان يضع نفسه في الفرضية نفسها التي تبنّتها منذ البداية. والحال أنني شعرت بوجود فرضية أخرى أكّدتها لي الأيام، ولكن ربما لم تكن هذه الفرضية على درجة كافية من الجسارة لتعبّر بصراحة عن وجود علاقة لألبيرتين مع الآنسة «فانتوي»

(Vinteuil) وصديقتها. ومع ذلك، عندما غمرني هذا الخبر الجديد واجتاحني أثناء دخولنا إلى محطة «أنكارفيل»، تم التثبّت من الفرضية الثانية. ثم إن الآنسة «فانتوي» لم تفكر قط في أن ألبيرتين قادرة على هجري وحدها وبهذه الطريقة، أي دون إخطاري وإعطائي الوقت الضروري للحؤول دون هذا الهجر. ومع ذلك كان واقع الحياة الذي يفرض نفسه عليّ، بعد القفزة الجديدة الهائلة التي طرأت في حياتي، جديداً كذلك الواقع الذي اكتشفه أحد علماء الفيزياء، وأقوم فيه بتحقيق يشبه ما يفعله قاضي التحقيق، أو أصل إلى اكتشاف كما يفعل مؤرخ وجد خلفية الجريمة أو الثورة، إن هذا الواقع كان يتجاوز التوقعات الهزيلة في افتراضي الثاني، ولكنه كان مع ذلك يحققها. لم تتأسس هذه الفرضية الثانية على الذكاء، فالهلع الذي أصابني في ذلك المساء الذي لم تقبّلني فيه ألبيرتين وفي ذلك الليل الذي سمعت فيه صوت النافذة، لم يُبْنَ على العقل. وبما أن الذكاء ليس الوسيلة الأدق والأقوى والأنسب لفهم الحقيقة - وتتمة الأحداث ستظهر ذلك أكثر - فالأَوْلى البدء بالذكاء وليس بحدسية مرتبطة باللاوعي وبإيمان بالاستشعارات الجاهزة مسبقاً. إن الحياة هي التي تسمح لنا تدريجياً وحسب الحالات أن نلاحظ أن أهم شيء لقلبنا أو بالنسبة لعقلنا، لا نتعلمه من التفكير بل من قدرات أخرى. وعندما يلاحظ الذكاء تفوّق هذه القدرات يستقيل أمامها من التفكير ويقبل بأن يصبح مشاركاً لها وخادماً. إنه إيمان تجريبي. وبدا لي أن البؤس غير المتوقع الذي واجهته، قد عرفته وقرأته في إشارات عديدة (كانت ألبيرتين تقيم علاقة صداقة مع سحاقيتين؛ بالرغم من تصريحات عقلي المتعارضة المستندة إلى أقوال ألبيرتين نفسها)، وكنت قد تبيّنت مللها وهلعها من أن تعيش عيشة العبيد. وكم من مرة ظننت أن هذه الإشارات مكتوبة، ولكن بحبر غير مرئي، خلافاً لما ينمّ عن ناظري ألبيرتين الحزينين والخفيضين وعن خديها اللذين كانا يتأججان فجأة بحمرة لا مبرر لها، لدى انفتاح هذه النافذة بغتة وصريرها. ويبدو أنني لم أجرؤ على تفسير هذه الإشارات

بشكل كامل وعلى تكوين فكرة صريحة عن مغادرتها المفاجئة. وبروح جعلها حضور ألبيرتين تتوازن، لم أفكر إلا بمغادرة أعددتها أنا بنفسي في وقت غير محدد، أي وقت ينتمي إلى زمن غير موجود. وبالتالي لقد توهمت فقط أنني فكرت بمغادرة ما، شأني في ذلك شأن الناس الذين يتصورون أنهم لا يخشون الموت عندما يفكرون فيه وهم في عافيتهم، فيرمون في الواقع بفكرة سلبية جداً - مع العلم أنهم يتمتعون بصحة جيدة - يفسدها فعلاً اقتراب الموت. أجل إن فكرة رحيل ألبيرتين الذي أرادته هي كان من الممكن أن تخطر ألف مرة ببالي، وبكل جلاء ووضوح، بحيث لم أشتبه أكثر من ذلك بما سيحدثه فيَّ فعلاً هذا الرحيل الذي صار بالنسبة لي شيئاً جديداً وشنيعاً ومجهولاً، وصار علة مستجدة. لو كنت أتوقع هذا الرحيل لرأيت دائماً، وخلال سنوات وسنوات، أن جميع هذه الأفكار المتناثرة قد تركت تأثيراً خفيفاً لا يضاهى في الجحيم غير المتصور الذي كشفت «فرنسواز» النقاب عنه عندما قالت لي: «إن الآنسة ألبيرتين قد رحلت». لكي يتصور الخيال موقفاً مجهولاً لا نراه فإنه يلجأ إلى عناصر معلومة، ولذا فإنه لا يتصورها. ولكن الإحساس، مهما كان مادياً، فإنه كخط الصاعقة يتطبع بالحدث الجديد على جدته ورسوخه. وأكاد أتجرأ على أن أقول لنفسي إنني لو توقعت هذا الرحيل لعجزت ربما عن تصور شناعته كلها، ولكن ألبيرتين - حتى لو أعلمتني به - لما استطعت أنا - بعد تهديدي إياها وتوسلي إليها - أن أحول دونه. ما أبعد الرغبة في الذهاب إلى مدينة البندقية عني الآن! كأنها تشبه رغبتي في التعرف على السيدة «دو غيرمانت» في «كومبريه» سابقاً، عندما لم أكن أحرص إلا على شيء واحد، ألا وهو وجود أمي في غرفتي. أجل إن جميع التوجسات التي شعرت بها في طفولتي هرعت لتعزز هذا التوجس الجديد ولتندمج فيه فغدت كتلة متجانسة تشد خناقها عليّ.

صحيح أن طعنة القلب الناجمة عن فراق كهذا والتي يمتلك الجسد قدرة على تسجيلها، تجعل من الآلام شيئاً يعايش جميع مراحل حياتنا التي

عانينا فيها؛ صحيح أن طعنة القلب هذه التي قد تنظر لها قليلاً (وقلما يكترث الناس بألم الآخرين) تلك التي ترغب في تكثيف الندم تكثيفاً أعظمياً، إما لأن المرأة التي بدأت انطلاقة خاطئة تريد فقط أن تطلب شروطاً أفضل، وإما لأنها في رحيلها النهائي - نعم النهائي - تريد تسديد ضربة ما إما لتنتقم أو لتبقى معشوقة أو (حسب نوع الذكرى التي ستتركها) لتحطم بعنف تلك الشبكة من صنوف الملل وعدم الاكتراث التي شعرت بتشكلها - صحيح أننا قد تواعدنا تجنب هذه الطعنة القلبية واتفقنا على الانفصال حبياً. لكن من النادر جداً أن يفترق الناس حبياً، ذلك أنهم إن كانوا على وئام لما افترقوا. يضاف إلى ذلك أن المرأة التي نعاملها بكثير من اللامبالاة تشعر في دخيلتها أن الآخر عندما يمل منها بحكم العادة نفسها، يتعلق بها أكثر فأكثر، فتظن أن أحد العناصر الرئيسية في الفراق هو الفراق بعد إخطار الآخر. ولكنها بإخطارها تخشى منعه. وكلما تشعر امرأة بأن سلطتها على الرجل كبيرة ترى أن الوسيلة الوحيدة في الهجر هي الهروب. وهكذا تكون الشاردة سلطانة. صحيح أن هناك فاصلاً هائلاً بين ذلك الملل الذي أثارته منذ برهة وبين حاجة الرجل المهتاجة لأن يمتلكها من جديد، لأنها رحلت. ولكن لهذا الأمر أسباباً غير تلك الأسباب المذكورة في هذا الكتاب أو التي ستذكر لاحقاً. وفي البدء غالباً ما يحدث الرحيل عندما تشتد اللامبالاة - الفعلية أو المتخيلة - أي عندما يبلغ تحرك النواس درجته القصوى. فتقول المرأة: «كلا، لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا»، لأن الرجل لا يتكلم إلا عن الهجر، ويفكر فيه، ولكنها هي التي تهجره. وعندئذ يعود النواس إلى حده الأقصى الآخر، ويبلغ الفاصل درجة قصوى. وخلال لحظة واحدة يعود إلى هذه الدرجة، بمعزل عن جميع الأسباب المذكورة، وهذا أمر طبيعي جداً. فيختلج القلب وتكون المرأة الراحلة مختلفة عن المرأة التي كانت هنا. فترى فوراً أن حياتها التي قضتها إلى جانبنا وعرفناها بإفراط، تنضاف إلى الحيوات. وهكذا فإن الغنى الجديد لحياة المرأة الراحلة يفعل فعله طرداً على المرأة التي كانت

في كنفنا، وقد تستبصر رحيلها. وتتناسب سلسلة الأحداث النفسية التي يمكننا استخلاصها والتي تشكل جزءاً من حياة المرأة ومن مللنا المعلن منها، ومن غيرتنا أيضاً (وهي التي دفعت الرجال الذين هجرتهم نساء عديدات أن يتصرفوا بالطريقة نفسها بسبب طباعهم وردود أفعالهم المتماثلة دائماً والتي تستطيع تبيّنها، أي أن كل رجل له طريقته في مواجهة الخديعة، كما أن له طريقته في مواجهة الزكام)، تتناسب على الأرجح مع سلسلة من الأحداث التي جهلناها. لا بد أنها كانت منذ فترة تقيم علاقات مكتوبة أو شفهية، عن طريق الوسطاء، مع ذلك الرجل أو تلك المرأة، وتنتظر إشارة معيّنة قمنا بها عفوياً إذ قلنا لها: «لقد أتى السيد فلان أمس لرؤيتي»، ذلك أنها اتفقت معه عشية ذلك اليوم الذي كان عليها أن تلتحق به، ليأتي ويقابلني. ما أكثر الفرضيات الممكنة! أقول «الممكنة» فقط. كنت أبني الحقيقة ولكنني كنت أبنيها في الممكن فقط، إلى أن فتحتُ ذات يوم وعن طريق الخطأ رسالة موجهة لإحدى عشيقاتي، وكانت رسالة مكتوبة بأسلوب متفق عليه وتقول: **أنتظر دائماً إشارة للذهاب إلى المركيز دو سان لو (de saint-loup)، أخبرني غداً عن طريق الهاتف** فأعدت بناء رحيل متفق عليه. لم يرد اسم «المركيز دو سان لو» إلا للدلالة على شيء آخر، لأن عشيقتي لم تكن تعرف «سان لو» ولم تسمع باسمه؛ يضاف إلى ذلك أن التوقيع كان كناية عن لقب، دون أي شكل لغوي. والحال أن الرسالة لم تكن موجهة إلى عشيقتي، وإنما إلى شخص من البيت كان له اسم مختلف وقرئ خطأ. لم تكن الرسالة مؤلفة من إشارات متفق عليها، بل كانت مكتوبة بلغة فرنسية رديئة، لأن صاحبتها كانت أميركية، وأخبرني «سان لو» أنها كانت صديقته فعلاً. وكانت هذه الأميركية قد خطّت بطريقة غريبة بعض الحروف مما أعطى انطباعاً بأن الاسم الحقيقي والأجنبي كان لقباً. في ذلك اليوم أخطأت خطأ فادحاً في هواجسي. ولكن عتادي الذهني الذي ربط بين هذه الأحداث، الخاطئة كلها، كان الشكل المصيب الصارم للحقيقة؛ فبعد ذلك بثلاثة أشهر وعندما هجرتني عشيقتي (وهي

التي كانت تظن أنها ستُمضي حياتها كلها معي)، كان هجرها لي مشابهاً تماماً للهجر الذي تصورته في المرة الأولى. فوردت رسالة تحمل الخصائص نفسها التي نسبتُها خطأً إلى الرسالة الأولى، ولكنها هنا كانت تتحمل معنى إشارياً، إلخ...

لقد كانت هذه المأساة أفدح مأساة في حياتي. ورغم ذلك، كان فضولي لمعرفة أسباب هذه المأساة قد جعلني أتجاوز الألم الذي سببته لي: فمن اشتهت ألبيرتين؟ وبمن التقت؟ ولكن منابع هذه الأحداث الجسام كمنابع الأنهار، ومهما جبنا سطح الأرض، فلن نجدها. هل كانت ألبيرتين قد صممت على رحيلها منذ أمد طويل؟ لم أقل إنها منذ أن كفّت عن تقبيلي (إذ بدا لي الأمر وقتئذ من قبيل التكلف وسوء الطباع، وهو ما كانت تسميه «فرانسواز» بـ«العناد والحرد»)، بدت وكأن شيطانا تلبّسها، فكانت مستقيمة في حركاتها ولم تعد تبتسم البتة. لا يسعني القول إن أي حدث لا علاقة له بالخارج. وأخبرتني «فرنسواز» بعد مدة طويلة أنها عندما دخلت غرفة ألبيرتين عشية رحيلها بيومين، لم تجد فيها أحداً، وكانت الستائر مسدلة، ولكنها شعرت من رائحة الهواء ومن الصوت المنبعث أن النافذة مفتوحة. ووجدت ألبيرتين فعلاً على الشرفة. ولكننا لا نرى مع من كانت تتراسل من ذلك المكان؛ وفعلاً يفسر إسدال الستائر مع انفتاح النافذة بأنها كانت تعلم دون شك أنني كنت أخشى مجاري الهواء، وحتى لو كانت الستائر تحميني قليلاً من مجاري الهواء، فإنها حالت دون أن ترى «فرانسواز» من الممشى أن درفات النافذة قد فتحت في وقت مبكر جداً. لا، لا أرى شيئاً سوى حدث صغير يثبت فقط أنها في العشية كانت تعلم بأنها سترحل. أجل إنها في تلك العشية قد أخذت من غرفتي دون أن أدري، كمية من الورق وشريط ترزيم كان موجوداً فيها، وبها صرّت خلال الليل كله مناشفها العديدة وقمصانها الليلية كي تغادر في الصباح. كان هذا هو الحدث الوحيد، وهذا كل شيء. لا أستطيع أن أولي أهمية إلى أنها ردت لي بالقوة في ذلك المساء ألف فرنك كانت قد

استدانتها مني، ولم تكن في ذلك أية غرابة، لأنها كانت موسوسة للغاية في الأمور المالية.

نعم لقد أخذت في العشية ورق الترزيم، ولكنها لم تكن في العشية فقط تعلم أنها سترحل. ذلك أن الحزن لم يدفعها إلى الرحيل، وإنما عَزْمُها على الرحيل والتخلي عن الحياة التي كانت قد حلمت بها والتي أعطتها هذه المسحة الحزينة. كان حزنها بارداً معي ويكاد يكون صريحاً، ما عدا المساء الأخير بعد بقائها عندي أطول مما أرادته - مما أدهشني عندها لأنها أرادت دائماً الاستدامة - فقالت لي عند الباب: «وداعاً يا صغيري، وداعاً يا صغيري». ولكنني لم أحفل عندئذ بما قالت. وقالت لي «فرانسواز» في صباح اليوم التالي، عندما قالت لها إنها راحلة (وقد يُشْرح الأمر أيضاً بسبب التعب، فإنها لم تخلع ملابسها إذ أمضت الليل في الترزيم، ولكنها طلبت من «فرانسواز» الأشياء التي لم تكن في غرفتها وحجرة زينتها)، وكانت شديدة الحزن، شديدة الاستقامة، شديدة الجمود أكثر مما في الأيام السابقة، بحيث ظنت «فرانسواز» أنها ستسقط أرضاً عندما قالت لها: «وداعاً يا فرانسواز». عندما نتعلم هذه الأشياء نفهم أن المرأة التي تهاوى إعجابنا بها الآن بعكس جميع النساء اللواتي نلتقي بهنّ بسهولة كبيرة في النزهات العادية جداً واللواتي نلوم أنفسنا على التضحية بهن من أجلنا، تصبح على عكس ذلك المرأة التي نفضّلها ألف مرة. فلم تتعدّ المسألة مسألة متعة (أمست شبه غائبة، بحكم العادة وربما بحكم التفاهة) أو متع مغرية وساحرة، بل مسألة علاقة تلك المتع بشيء أقوى منها، أي الشفقة على الألم.

عندما وعدتُ نفسي أن ألبيرتين ستكون هنا هذا المساء، هرعت إلى ما هو أهم وعالجت بفكرة جديدة انسلاخ تلك التي عشتُ معها حتى الآن. ولكن ما إن تحرّكت غريزة البقاء عندي، حتى أُرتِج عليّ لحظة عندما كلمتني «فرنسواز»، وسعيت جاهداً لأقنع نفسي بأن ألبيرتين ستكون هنا هذا المساء، تولّدَ لدي ذلك الألم الذي شعرت به لحظة إقناع نفسي بهذه العودة

(أي اللحظة التي تلت هذه الكلمات: «لقد طلبت الآنسة ألبيرتين حقائبها، ورحلت الآنسة ألبيرتين»)، وعاودني ذلك الألم شبيهاً بما كان، أي كأنني ما زلت أجهل عودة ألبيرتين القادمة. وكان يترتب عليها أن تعود، ولكن من تلقاء نفسها. ففي جميع الاحتمالات يؤول التظاهر بالتساعي وبالطلب إليها أن تعود، يؤول إلى عكس المرتجى. أجل لم أعد أقوى على التخلي عنها كما استطعت التخلي عن «جيلبيرت». ما كنت أريده، أكثر حتى من رؤية ألبيرتين ثانيةً، هو وضع حدّ للقلق الجسدي الذي لم يعد قلبي المكلوم يستطيع تحمّله. ثم إنني لكثرة تعوّدي عدم الإرادة، إنْ في العمل وإن في مجالات أخرى، أصبحت أكثر جبناً. زد على ذلك أن هذا القلق صار أشدّ بشكل لا يضاهى ولأسباب عديدة ليس أهمها أنني لم أشعر قط بأية متعة جنسية مع السيدة «دو غيرمانت» ومع «جيلبيرت»، ولأنني لم أكن أراهما كل يوم وكل ساعة، إذ كنت أفتقر إلى التمكن من ذلك وبالتالي إلى الحاجة إليه، فقد اعتورت حبي لهما الطاقة الهائلة للعودة. ولأن قلبي الآن عاجز ربما عن الإرادة وتحمّل الألم طوعاً، فإنه لم يجد سوى حل واحد ممكن، ألا وهو عودة ألبيرتين بأي ثمن؛ وربما كان الحل المعاكس (أي التخلي الطوعي والإذعان التدريجي) حلاً روائياً لا يمكن أن يحدث في الواقع، لو لم أكن في الماضي اخترت هذه الفتاة، عندما حدث ما حدث مع «جيلبيرت». وكنت أعلم بالتالي أن هذا الحل الآخر قد يكون مقبولاً أيضاً، ويقبله رجل واحد، لأنني بقيت نوعاً ما كما كنت. ولكن الزمن لعب لعبته، الزمن الذي أهرمني، الزمن الذي وضع أيضاً ألبيرتين قربي دون انقطاع عندما كنا نعيش حياتنا المشتركة. ولكن ما بقي لي مما شعرت به نحو «جيلبيرت»، دون التخلي عنها، هو إبائي أن أكون لدى ألبيرتين لعبة مستكرهة إن طلبتُ منها أن تعود؛ كنت أريد أن تعود دون أن أبدو مصرّاً على ذلك. فنهضت كي لا أضيّع الوقت سدى، ولكن الألم منعني، وكانت المرة الأولى التي أنهض فيها بعد رحيلها. بيد أنه كان عليّ أن أرتدي ثيابي بسرعة كي أذهب لأستعلم من بواب منزل ألبيرتين.

عندما يكون الألم امتداداً لصدمة أخلاقية قسرية، فإنه يصبو إلى تغيير شكله؛ فنأمل القضاء عليه بإقامة المشاريع وبالبحث عن المعلومات؛ نريد أن يمر الألم بتحولات عديدة، وهذا يتطلب شجاعة أقل من المحافظة على الألم الصريح؛ ويبدو هذا السرير في غاية الضيق والقسوة والبرودة، عندما يرقد المرء فيه مع ألمه. لقد نهضت إذن مرة ثانية على قدميّ، ومشيت في الغرفة بحذر لامتناهٍ، وتقدّمت بحيث لا ألمح كرسيّ ألبيرتين والبيانو الصغير الذي كانت تضع بابوجها فوق دواستيه؛ وكان هذا البابوج هو الشيء الوحيد الذي كانت تستعمله من بين الأشياء التي تبدو - باللغة الخاصة التي علمتها إياها ذكرياتي - وكأنها تقدّم ترجمة ونصاً مختلفاً ينبئني مرة أخرى برحيلها. ولكنني، دون أن أنظر إليها، كنت أراها، فخارت قواي ووقعت جالساً على أحد الكراسي ذي الساتان الأزرق، وقبل ذلك بساعة، ما بين الظلمة والضوء داخل الغرفة التي خدّرها شعاع من النور، أهاج فيّ الدهان أحلاماً كانت مدغدغة ونأت عني الآن. من الأسف أنني لم أكن - سوى منذ دقيقة - قد جلست على هذا الكرسي، إلا عندما كانت ألبيرتين موجودة هنا. فلم أستطع البقاء عليه، فنهضت. وهكذا استفاقت «أنا» متواضعة من أنواتي الكثيرة التي تشكلني والتي ما زالت تجهل رحيل ألبيرتين، فوجب عليّ أن أنبئها - وكان هذا أكثر ضراوة مما لو كانت هذه الأنوات غريبة ولم تأخذ حساسيتي لتتألم - بالكارثة التي حلت على جميع الكائنات، على جميع هذه الأنوات التي لم تعرفها بعد. وكان يتعيّن على كل «أنا» منها أن يسمع للمرة الأولى تلك الكلمات: «لقد طلبت ألبيرتين حقائبها» (تلك الحقائب التي تشبه النعوش والتي عاينتُ تحميلها مع حقائب أمي عندما كنا في «بالبيك»)، «إن ألبيرتين قد رحلت». وكان عليّ أن أُعلم الجميع بحزني، ذلك الحزن لم يكن قطعاً نتيجة متشائمة مقتبسة بحريّة من انطباع خاص يأتي من الخارج ولم نختره نحن. وكان هناك بعض هذه الأنوات التي لم أرها ثانية منذ أمد طويل. والمثال على ذلك هو «الأنا» التي كنتها عند قصّ شعري (ولم

يخطر ببالي أن اليوم هو يوم الحلاق). فقد نسيت ذلك هذا الشهر، فجعل وصولها تأوهاتي تنفجر، شأنه في ذلك شأن وصول أحد الخدم المتقاعدين إلى مأتم وكان قد عرف المرأة التي توفيت مؤخراً. ثمّ تذكرت فجأة أنني، منذ ثمانية أيام، أصبت بهلع مريع لم أكن قد اعترفت به من قبل. ومع ذلك كنت وقتها أناقش قائلاً لنفسي: «من العبث أن أفكر بإمكانية رحيلها المفاجئ، أليس كذلك؟ لو بحت بذلك لرجل حصيف وذكي (وقد أفعله لأطمئن على نفسي، اللهمّ إذا لم تمنعني الغيرة من البوح)، لقال لي بكل تأكيد: «ولكنك مجنون، هذا مستحيل». (والحقيقة أننا لم نتخاصم مرّة واحدة). يغادر المرء لسبب، فيقوله. ثم نعطي الآخر حق الإجابة. لا يغادر الإنسان بهذا الشكل. لا، هذا تصرّف صبياني. هذه هي الفرضية الوحيدة العبثية. ومع ذلك كنت كل يوم، عندما أجدها ثانية في الصباح بعد قرع الجرس، أشعر بارتياح عميق. وعندما سلمتني «فرنسواز» رسالة ألبيرتين، تأكدتُ على الفور أن الأمر يتعلق بما لا يمكن أن يكون، أي بذلك الرحيل الذي أدركته بشكل ما قبل بضعة أيام، بالرغم من أن الأسباب المنطقية كانت مطمئنة. لقد قلت لنفسي، وكأنني ارتحت لتبصري في غمرة يأسي، كقاتل يعلم أنه يستحيل اكتشافه، ولكنه يخاف ويرى فجأة اسم ضحيته مكتوباً على أعلى ملف طلبه قاضي التحقيق...

وكان كل أملي أن تكون ألبيرتين قد ذهبت إلى منطقة «التورين» (Touraine) لتزور عمتها، وهنا كانت في المحصلة تشعر بأنها مراقبة جداً وبأنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً، حتى آتي وآخذها من هناك. وخشيت كثيراً أن تكون قد بقيت في باريس أو ذهبت إلى أمستردام أو «مونجوفان» (Montjouvain)، أي أنها فرّت لتنهمك بورطة معينة فاتتني مقدماتها، ولكنني في الحقيقة عندما أذكر باريس أو امستردام أو مونجوفان، وهي أمكنة متعددة، لا أفكر إلا في أماكن ممكنة. وأيضاً عندما أجابتني بوابة ألبيرتين أنها ذهبت إلى «التورين»، بدا لي ذلك المكان الذي ظننتني أحبه أبشع مكان، لأنه كان حقيقياً ولأنني، بعد أن عذبني يقين الحاضر وليس

يقين المستقبل، تصورت ألبيرتين تبدأ حياة أرادتها مفصولة عني، ربما لمدة طويلة وربما إلى الأبد، فتحقق هناك ذلك المجهول الذي طالما بعث فيَّ الاضطراب سابقاً، مع العلم أنني كنت سعيداً بامتلاكها وبدغدغة ذلك الوجه العذب الذي لا يسبر والذي فتنني. أجل كان ذلك المجهول هو الذي خلق حبي العميق.

أما ألبيرتين نفسها فلم تكن موجودة فيّ إلا باسمها، ما خلا تلك الهنيهات النادرة أثناء الاستيقاظ حيث كانت تنغرس في مخي ولا تبارحه. لو فكرت بصوت عال، لكررت وكررت ولكان هذري رتيباً ومحدوداً، كأنني تحولت إلى طائر يشبه طائر الحكاية الذي كان صراخه يقول دون انقطاع اسم حبيبته التي عشقها عندما كان إنساناً. يقول المرء ذلك لنفسه، ولأنه يبوح به فإنه يكتبه في ذاته على ما يبدو، ويترك أثره في مخه؛ ويترتب على هذا المخ أن يصبح في آخر المطاف مغطى تماماً باسم الحبيبة الذي كتبه ألف مرة، شأنه في ذلك شأن جدار تسلى بعضهم بالكتابة عليه. إن المرء يكتب الاسم مراراً في ذهنه ما دام سعيداً، ويكتبه أكثر إن كان تعيساً. وعندما يكرر الاسم الذي يقدم له شيئاً أكثر مما يعرف، يشعر بحاجة تتجدد دون انقطاع، ويشعر في النهاية بالتعب. لم أكن أفكر وقتها في المتعة الحسية، لا بل إنني لم أكن أرى في ذهني صورة هذه الألبيرتين، مع أنها أحدثت تغيراً كبيراً في كياني، لم أكن ألمح جسدها، ولو أنني أردت فصل الفكرة المتعلقة بالألم عندي - مع العلم أن هذه الفكرة موجودة - لأصبحت بالتناوب، فمن جهة أشك في الاستعدادات التي غاصت فيها مفكرة بالعودة أو غير مفكرة، ومن جهة أخرى ما هي الوسائل لإرجاعها. قد يكون هناك رمز وحقيقة في الحيز الضئيل من قلقنا، مرده ذاك الذي نربطه بها. صحيح أن شخصها ليس له إلا تأثير ضئيل؛ أما الذي يلعب الدور شبه الكامل فهو الانفعالات وأشكال القلق التي جرعتنا إياها قديماً هذه الصدفة أو تلك بالنسبة لها أو بالتي ربطتنا بها العادة. ما يثبت ذلك فعلاً (وأكثر من الملل الذي نشعر به أثناء السعادة)

هو كم نرى هذا الشخص بالذات أو كم لا نراه، وكم يقدّرنا أو لا يقدّرنا، وكم هو تحت تصرفنا أم لا، فيظهر لنا لامبالياً عندما نكف عن طرحها) ما خلا طرحها نسبياً عن الشخص ذاته - ذلك أننا ننسى عملية الانفعالات وأشكال القلق المرتبطة بها على الأقل، لأن هذه العملية استطاعت أن تتطور من جديد ولكنها انتقلت إلى شخص آخر. ومن قبل، أي عندما كانت لا تزال مرتبطة بها، كنا نظن أن سعادتنا منوطة بشخصها لأنها ترتبط فقط بنهاية قلقنا. وكان لاوعينا إذن أكثر حصافة منا عندئذ، إذ إننا قزّمنا صورة المرأة المحبوبة، وهي الصورة التي ربما نسيناها، والتي لا نستطيع أن نسيء معرفتها أو نظنها تافهة، ففي مأساتنا المريعة نستطيع الالتقاء بها ثانية كي نكف عن انتظارها، أن ما سيكلفنا حتى حياتنا بالذات. إنها حجوم مقزّمة لصورة المرأة، وتأثير منطقي وضروري لتطور شكل الحب، ومجاز واضح لطبيعة هذا الحب الذاتية.

إن العقلية التي دفعتها إلى الرحيل قد تشبه عقلية الشعوب التي تعد عمل دبلوماسيتها باستعراض جيوشها. لا شك أنها رحلت لتحصل مني على شروط أفضل وعلى مزيد من الحرية والرفاهية. ففي هذه الحال، أكون أنا الذي انتصرت بيننا، لو استطعت أن أنتظر وأنتظر أن تعود بذاتها، بعد أن تكون قد أدركت أنها لم تحصل على شيء. ولكن المرء يستطيع أن يقاوم الغش في لعبة الورق أو الخداع في الحرب - إذ المهم فيها هو الربح فقط -، إلا أن الشروط في الحب والغيرة والألم أيضاً مختلفة تماماً عن شروط لعبة الورق أو الحرب. ولو أنني - لأنتظر و«أصمد» - تركتُ ألبيرتين بعيدة عني أياماً عديدة وأسابيع عديدة ربما، لدمرت الهدف الذي صبوت إليه منذ أكثر من سنة ألا وهو منعها من أن تكون حرة ساعة واحدة. ولو تركت لها الوقت والسهولة لكي تخدعني ما شاءت، لذهبتْ كل احتياطاتي أدراج الرياح؛ ولو أنها استسلمتْ في آخر المطاف، لما استطعتُ من بعد أن أنسى الزمن الذي كانت فيه وحيدة؛ وحتى لو انتصرت أخيراً، لكنت في الماضي الشخصَ المهزومَ بالتأكيد.

أما وسائل إعادة ألبيرتين فقد تكسب حظاً من النجاح أكثر من الفرضية القائلة بأنها ما رحلت إلا لأنها كانت تأمل أن تستعاد بشروط أفضل، وتبدو هذه الفرضية أكثر اقتراباً من المنطق. ولا شك أن الناس الذين لم يؤمنوا بصدق ألبيرتين، ومن بينهم مثلاً «فرانسواز»، وهذا مؤكد، فإنهم أخذوا بهذه الفرضية. ولكن بالنسبة لعقلي الذي بدا له أن التفسير الوحيد لبعض الطباع السيئة ولبعض التصرفات، قبل أن يطلع على أي شيء، فإن مشروع رحيلها النهائي الذي أقدمت عليه يصعب تصديقه ويجب اعتباره، بعد أن حصل رحيلها، على أنه محض تظاهر. أقول هذا بالنسبة لعقلي، لا بالنسبة لي. إن فرضية التظاهر، على ريبتها، أصبحت عندي أكثر ضرورة، واكتسبت القوة التي فقدتها في احتمال وقوعها. فعندما يجد المرء نفسه على شفير الهاوية وعندما يبدو لك أن الله قد تخلى عنك، فإنك لا تتردد في أن تنتظر معجزة يجترحها لك. أعترف أنني في كل الأحداث كنت أقل رجال الشرطة تأثراً، مع أنني كنت أكثرهم تألماً ولكن هروب ألبيرتين لم يُعد لي الصفات التي أفقدتني إياها عادتي في مراقبتها عن طريق الآخرين. لم أكن أفكر إلا في شيء ألا وهو تكليف شخص آخر ليقوم بهذا التحري. فوقعت على «سان لو» الذي قبل بالمهمة. وعندما سلمت القلق الذي لم يبرحني أياماً طويلة لشخص آخر شعرت بالفرح، ولتأكدي من النجاح فركت راحتي يدي اللتين جفتا فجأة كما كان يحدث لي في الماضي، وفقدت العرق الذي تبلل مني عندما قالت لي «فرانسواز»: «الآنسة ألبيرتين قد غادرت».

أتذكر أنني عندما عزمت على العيش مع ألبيرتين لا بل على الزواج منها، كان ذلك لإبقائها ولمعرفة ممارساتها ولمنعها من الرجوع إلى عاداتها مع الآنسة «فانتوي». وحصل ذلك عقب بوحها الشنيع والجارح في «بالبيك»، عندما قالت لي بشيء من الطبيعية ونجحت في التظاهر بأنه طبيعي جداً، مع أنه أثار فيَّ أكبر شجن عرفته في حياتي. قالت ذلك الشيء الذي لم أجرؤ على تصوره حتى في أسوأ الافتراضات. (من

المدهش أن الغيرة التي تزجي وقتها في الافتراضات الصغيرة الخاطئة، ضعيفة الخيال عندما تسعى لاكتشاف الحقيقة). والحال أن هذا الحب الذي نشأ من حاجة، وهي منع ألبيرتين من ممارسة الرذيلة، حافظ على مساره الأصلي. لم أكن أكترث كثيراً بالبقاء معها، بشرط أن أقدر على منع «الهاربة» من أن تشرّق أو تغرّب. ولكي أحول دون ذلك، لجأت إلى العيون وإلى صاحباتها اللواتي كن يذهبن معها، وكانت هواجسي تتلاشى راضية مرضية، عندما كن يقدمن لي تقريراً صغيراً مطمئناً.

بعد أن أكدت لنفسي - وكان عليَّ أن أفعل ذلك - أن ألبيرتين ستعود إلى البيت هذا المساء بالذات، علّقتُ الألم الذي سبّبته لي «فرانسواز» عندما قالت لي إن ألبيرتين قد رحلت (ولأن كياني أصيب بالمفاجأة فإنه ظن لأول وهلة أن هذا الرحيل كان نهائياً). ولكن الألم الأول، بعد برهة الانقطاع، وبزخم حياته المستقلة، عاد تلقائياً إليّ، وكان بنفس الشناعة لأنه سبق الوعد العزائي الذي قطعتُه على نفسي بأن أعيد ألبيرتين في ذلك المساء بالذات. ولكن ألمي كان يجهل تلك الجملة التي قد تهدئه. ولتحريك الوسائل التي تكفل تلك العودة - لأنني أفلحت مرة أخرى في مثل هذا التصرف بل لأنني تصرفت دائماً هكذا منذ أن أحببت ألبيرتين - كُتِبَ عليَّ أن أتصرف كما لو أنني لا أحبها ولا أتألم لرحيلها، فكُتب عليّ أن أستمر في الكذب بحيث أتظاهر شخصياً بالتخلّي عنها. ونويت أن أكتب لألبيرتين رسالة وداع أعتبر فيها رحيلها نهائياً، بينما قد أُرسل «سان لو» (Saint-Loup) ليمارس، على غير علم مني، أشد الضغوط على «مدام بونتان» كي تعود ألبيرتين على جناح السرعة. لا غرو أنني قد جربّت مع «جيلبيرت» خطر الرسائل على اللامبالاة التي تكون في البداية مخاتلة ثم تصبح في النهاية حقيقية. وكان يترتب على هذه التجربة أن تمنعني من أن أكتب لألبيرتين رسائل على شاكلة تلك الرسائل التي كتبتها «لجيلبيرت». ولكن ما نسميه تجربة ليس في نظرنا إلا كشفاً لصفة في طبعنا يظهر عفوياً من جديد، ويظهر بقوة شديدة لا سيما عندما نميط اللثام عنه ذات مرة،

بحيث تصبح الحركة العفوية التي وجَّهتنا في المرة الأولى مدعَّمة بجميع اقتراحات الذاكرة. فالخداع البشري الذي يصعب على الأفراد تجنبُه (ويصعب أيضاً على الشعوب المواظبة على أخطائها وعلى الاستزادة منها)، هو انتحال الذات.

كنت أعلم أن «سان لو» في باريس فدعوته فوراً، فهرع بنفس السرعة والفعالية التي أثبتها سابقاً في «دونسيير» (Doncières)، وقبل أن يذهب حالاً إلى منطقة «التورين». وأعطيته التعليمات التالية. عليه أن ينزل إلى «شاتيلرو» (Châtellerault) ويستدل على منزل «مدام بونتان» وينتظر خروج ألبيرتين لأنها قد تعرفه. فقال لي: «ولكن هل تعرفني إذن الفتاة التي تتكلم عنها؟» فقلت له لا أظنها ذلك. لقد ملأني مشروع هذا المسعى بحبور لامتناهٍ. ومع ذلك كان المسعى يتناقض تناقضاً مطلقاً مع ما قطعته على نفسي في البداية، أي أن أتدبر أمري فلا أبدو وكأنني أبحث عن ألبيرتين. وسيكون هذا المسعى هكذا قطعاً، ولكنّ له مزية عظيمة على «ما كان يجب فعله» تخولني أن أقول لنفسي إن شخصاً أرسلته أنا سيرى ألبيرتين وسيعيدها على الأرجح. ولو عرفت في البداية أن أرى بوضوح في قلبي، لاستطعت توقّع هذا الحل الخبيء في الظلام والذي كنت أعتبره حلاً زريّاً بحيث يتقدّم على كل حلول الصبر التي قررت اعتمادها لعلّة في إرادتي. ولأن «سان لو» بدا متفاجئاً من أنني لم أكلمه سابقاً عن الفتاة التي سكنت معي شتاء بكامله، ولأنه من جهة أخرى حدثني كثيراً عن فتاة «بالبيك» دون أن أجيبه قط: «إنها تسكن هنا»، فقد أخذ ربما على خاطره لقلّة ثقتي به. صحيح أن «مدام بونتان» قد تكلمه عن «بالبيك». ولكنني كنت على أحرّ من الجمر ليذهب ويصل لأنوي التفكير ولأقوى على التفكير في النتائج المحتملة لهذه الرحلة. أما أن يتعرف على ألبيرتين (التي تجنب دائماً أن ينظر إليها عندما صادفها في «دونسيير»، فيستحيل ذلك، لأنها - كما يقول الجميع - قد تغيرت كثيراً وسمنت. وسألني إن كنت أملك صورة لألبيرتين. فأجبته أولاً بالنفي كي لا تتسنى له من خلال الصورة

الضوئية التي التقطتها لها في فترة «بالبيك» تقريباً، أن يحظى بالتعرف على ألبيرتين التي لم يشاهدها إلا مواربة داخل عربة قطار. ولكنني فكرت أن ألبيرتين «بالبيك» مختلفة جداً عن الصورة وأنها مختلفة عن ألبيرتين الحيّة الآن، وأنه لن يتعرّف عليها لا في الصورة ولا في الواقع. وأثناء بحثي له عنها، مرّر يده بنعومة على جبيني كي يعزيني. فتأثرت لمفعول عناء الألم الذي أدركه عندي. لقد سعى لينفصل في البداية عن «راشيل»، وما شعر به عندئذ لم يختلف كثيراً إذ تعاطف مع هذا النوع من الآلام واستشفق عليها استشفاقاً خاصاً، فالمصاب بمرضك نفسه يشعر أنه أكثر قرباً. أضف إلى ذلك أنه، لحنانه الجم تجاهي، لا يستطيع أن يتحمّل فكرة آلامي. وكان يُضمر لتلك التي سببتها لي مزيجاً من الحقد والإعجاب. فتصورني إنساناً متفوقاً بحيث ظن أن من سيخضعني يجب أن يكون خارقاً تماماً. ظننت أنه سيجد صورة ألبيرتين جميلة، ولكنني لم أتصور أنها ستؤثر فيه كما أثرت هيلانة في شيوخ طروادة، وقلت له بتواضع: «لا تشطح في تفكيرك، أولاً الصورة سيئة ثم إنها غير مدهشة، فهي ليست آية في الجمال، ولكنها لطيفة خاصة». فقال بحماس ساذج وصادق: «آه، إنها رائعة»، وراح يبحث في تصوره عن ذلك الكائن الذي استطاع أن يلقيني في مثل هذا اليأس والاضطراب. «إنني أبغضها لأنها آلمتك، ولكن من المستحسن أيضاً أن نفترض بأن إنساناً فناناً حتى سويدائه، إنساناً فناناً مثلك يحب الجمال في كل شيء ويعشقه، كُتب عليك أن تتألم أكثر من أي إنسان آخر عندما وجدت هذا الجمال في امرأة. وأخيراً وجدت الصورة الضوئية. «إنها رائعة بالتأكيد»، هذا ما استمر «روبير» في قوله، دون أن يلحظ أنني قدّمت له الصورة. وفجأة عبّر عن اندهاش بلغ حد البلاهة. وقال أخيراً: «هذه هي الفتاة التي تحبّها؟» قالها بلهجة سيطرت الدهشة فيها على خوفه من إغضابي. فلم يُبد أية ملاحظة، وأخذ شكلاً رصيناً وحذراً وبالضرورة شكلاً فيه شيء من الاحتقار عندما يكون المرء أمام أحد المرضى - حتى ولو كان حتئذ رجلاً متميزاً أو كان صديقك - ولكنه تجاوز كل ذلك لأن

سورة من الجنون استحوذت عليه فراح يتكلم عن كائن سماوي ظهر له وما زال يراه في المكان الذي لا تشاهد فيه، أنت الرجل السليم - إلا لحافاً. وفهمت على الحال دهشة «روبير»، وكانت دهشة تشبه دهشتي عندما لمحت عشيقته، مع فارق وحيد هو أنني وجدت فيها امرأة كنت أعرفها من قبل، بينما كان يظن هو أنه لم ير قط «ألبيرتين». ولكن من المرجح أن الفرق بين ما يراه كل منا في الشخص نفسه كان كبيراً جداً. لقد بعد بي الزمن عندما بدأت، بشكل ضئيل في «بالبيك»، أضيف إلى الأحاسيس البصرية لدى رؤيتي ألبيرتين، أحاسيس لها مذاق ورائحة وملمس. ثم انضافت إليها أحاسيس أشد عمقاً ولطفاً وغموضاً، ثمّ تلتها أحاسيس أليمة. وقصارى القول أن ألبيرتين - كحجر محاط بالثلج - لم تكن سوى مركز يخلق بناءً هائلاً كان يمر بشغاف قلبي. أما «روبير» الذي لم يكن يرى كل هذه الأحاسيس المتراتبة، فإنه لم يكن يدرك إلا راسباً كانت تمنعني من رؤيته. وما أغاظ «روبير» عندما شاهد صورة ألبيرتين لم يكن كاندهاش شيوخ طروادة عندما رأوا الجميلة هيلانة تمرّ فقالوا:

مصيبتنا لا تساوي نظرة من نظراتها

وإنما العكس تماماً يدفع إلى القول: «كيف، أيتحسر على شيء كهذا ويغتم بسببه ويُعترى بصنوف الجنون!» لا بدّ من الاعتراف بأن ردة الفعل هذه بعد مشاهدة الشخص الذي سبّب الآلام، وقلب الحياة رأساً على عقب، وأدى إلى الموت أحياناً، موت شخص نحبّه، هو أكثر حدوثاً مما حصل لشيوخ طروادة، أي أنه المألوف، في المحصلة. وذلك ليس فقط لأن الحبّ فردي، ولأننا - عندما لا نشعر به - نجد طبيعياً أن نتجنبه ونتفلسف حول جنون الآخرين. كلا، إنه عندما بلغ حداً أثار فيه مثل تلك الآلام، فإن بناء المشاعر القائمة بين وجه المرأة وناظري العاشق (العين الهائلة المكلومة التي تغلّفه والتي تخفيه كطبقة من الثلج تغلّف النبع وتخفيه) بلغت درجة عالية بحيث إن النقطة التي تتوقف عندها عين العاشق، النقطة التي يلاقي فيها متعته وآلامه، بعيدة عن النقطة التي يراه

فيها الناس بُعْد الشمس الحقيقية التي تجعلنا أشعتها المتكاثفة نراها في السماء. زد عليه أن العاشق أثناء ذلك، وفي غياهب تألمه وتوقه التي تجعله لا يرى في بدن المعشوق تلك التغيرات الفادحة، إذ شاخ وجهه وتبدّل. فإذا تباعد الوجه الذي رآه العاشق للمرة الأولى عن الوجه الذي يراه منذ بدأ يحبّ ويتألم، يكون - بمعنى معكوس - قد أبعدَ المسافة نفسها عن الوجه الذي يستطيع المشاهد المحايد أن يراه. (وماذا لو أن «روبير» الذي شاهد صورة تلك التي كانت فتاة قد شاهد صورة لعشيقة عجوز؟) لا بل لسنا بحاجة إلى أن نرى للمرة الأولى تلك التي عاثت فساداً كبيراً وأثارت فينا تلك الدهشة. إننا لا نعرفها في أغلب الأحيان كما كان جدي «أدولف» يعرف «أوديت». عندئذ لا يشمل الفارق البصري الشكل الخارجي بل يشمل الطباع أيضاً. من المحتمل جداً أن تكون المرأة التي تعذب عاشقها ما زالت فتاة طيبة مع رجل لا يهتم بها، كما كانت «أوديت» التي مارست ضراوتها مع «سوان»، ولكنها كانت مع جدي «أدولف» امرأة متيّمة به؛ ومن المحتمل أيضاً أن يظهر الشخص الذي يحسب مسبقاً كل قرار من قراراته ويحترز له كما لو كان قراراً صادراً عن أحد الآلهة، يظهر عن طريق عاشقة كشخص دون منطق يُسعد بأن ينفذ كل ما يراد منه، هذا في نظر من لا يحبّه؛ وكذا كانت عشيقة «سان لو» في نظري إذ لم أكن أرى فيها إلا تلك «الراحيل التي ذكرها الرب»(*) والتي اقترحوها عليّ مراراً كثيرة. أتذكر أنني عندما رأيتها للمرة الأولى مع «سان لو»، هلعت ظناً مني أنني قد أتعذب إن لم أعرف ماذا فعلته مثل هذه المرأة في أحد المساءات، وماذا قالته لأحدهم بصوت خفيض، ولماذا رغبت في القطيعة. الحال أنني كنت أشعر أن كل هذا الماضي - ماضي ألبيرتين -

---

(*) يعود بروست هنا إلى سفر التكوين من التوراة ويستشهد ببداية جملة ورد فيها اسم راحيل (راشيل)، انظر الآية ٢٢، «وذكر الله راحيل وسمع لها وجعلها ولوداً». وراحيل هي زوجة النبي يعقوب التي ولدت له يوسف. (المترجم).

الذي كانت نياط قلبي وحياتي تنحو نحو ألم مختلج وأخرق، كان يظهر لـ«سان لو» دون معنى؛ وأنني ربما كنت أنتقل تدريجياً من الحالة الفكرية التي كنت فيها وقتئذ إلى حالة «سان لو» الفكرية، إذ كنت ألامس لامعنى ماضي ألبيرتين أو صرامته، ذلك أنني لم أكن واهماً في ما خطر ببال «سان لو» ربما، وفي كل ما يستطيع العاشق أن يفكر فيه. ولم يكن ذلك يؤلمني إيلاماً زائداً. لنترك النساء الجميلات للرجال الذين يفتقرون إلى الخيال. أتذكر هذا التفسير المأساوي للكثير من الحيوانات ويمثل صورة عبقرية لا تمت بصلة لصورة «أوديت» حسب «إيلستير» (Elstir)، وهي صورة عاشقة أكثر منها صورة حبّ مشوِّه (بالكسر). ولم يكن ينقصها - على غرار الصور الكثيرة - إلا أن يرسمها رسّام كبير أو عاشق (وقال بعدئذ: هذا ما فعله «إيلستير» بصورة «أوديت»). وتثبت هذا التباينَ الحياةُ الكاملة التي عاشها عاشق لم يفهم أحدٌ سورات جنونه. وهي الحياة الكاملة لـ«سوان». ولكن عندما يتماهى العاشق بالرسام كما فعل «إيلستير»، تنداح كلمات الأحجية، فترى أخيراً تحت العينين تينك الشفتين اللتين لا تبصرهما العامة في تلك المرأة، كما ترى ذلك الأنف الذي لم يره أحد، وتلك المشية غير المشبوهة. وتقول الصورة: «ما أحببت، ما آلمني، ما رأيته دون انقطاع، هو هذا». وبحركة معاكسة، حاولت - أنا الذي سعيت بفكري أن أضيف لـ«راشيل» كل ما أضافه إليها «سان لو» نفسه - أن أنزع مساهمتي القلبية والذهنية في تركيب ألبيرتين وأن أتصورها كما ظهرت لـ«سان لو»، وكما ظهرت «راشيل» لي. ولكن ما أهمية هذا؟ عندما نتمكن من رؤية هذه الفروق، فهل يزداد إيماننا بها؟ في الماضي، عندما كانت ألبيرتين تنتظرني في أروقة «أنكارفيل» وتقفز إلى سيارتي، لم تكن قد «تسامكت» بعد، ولكنها بسبب التمارين المفرطة قد ذابت جداً ونحلت وتباشعت بقبعتها الشنيعة التي لم تكن تُظهر إلا طرفاً صغيراً من أنفها البشع وتُقدم نظرة جانبية لخدّين أبيضين كالدود الأبيض، ولم أكن أرى منها إلا النزر اليسير، ولكنني بهذا النزر كنت أتعرّف عليها عندما كانت تقفز إلى سيارتي

وكنت ألاحظ دقتها في المواعيد وأتأكد أنها لا تنتظرني في مكان آخر. وكان هذا يكفي. ما نحبّه هو مفرط في الماضي ومتموضع بإسراف في الزمن الضائع بحيث لا نحتاج إلى المرأة بكاملها. نريد أن نتأكد فقط من أنها هي، ومن أننا لم نخطئ في الشخصية التي تختلف أهميتها عن أهمية الجمال بالنسبة للعاشقين. قد يغور الخدان وينحل الجسم، حتى عند الذين كانوا في البداية أكثر تكبّراً. وفي نظر الآخرين وفي سيطرتهم على إحدى الفاتنات، يكون هذا الطرف الصغير من الخطم - أو هذه العلامة التي تختزل فيها الشخصية الدائمة لإحدى النساء، أو هذا البيان الجبري أو هذه الثابتة - كافياً لرجل منتظر بين حشد كبير، رجل يحبّها، لئلا يتمتع بأمسية معها، لأنه يمضي وقته في التمشيط والتشعيث فتنام المرأة التي يحبها، أو لأنه يريد فقط البقاء قربها كي يكون معها أو كي تكون معه أو فقط لئلا تكون مع آخرين.

-أمتأكد أنت - قال لي - من أنني أستطيع أن أقدّم هكذا لهذه المرأة مبلغ ثلاثين ألف فرنك للجنة زوجها الانتخابية؟ هل هي قليلة الشرف إلى هذا الحد؟ بدون أن تكون مخطئاً، ثلاثة آلاف فرنك ستكون ربما كافية.

-كلا، أرجوك، لا توفّر في أمر يعنيني جداً. يجب أن تقول ما يلي، وفيه قسط من الحقيقة: «لقد طلب صديقي الثلاثين ألف فرنك من أحد أقاربه، من أجل لجنة عمّ خطيبته. وبسبب هذه الخطبة أُعطيَ هذا المبلغ ورجائي أن آتيك به كي لا تعلم ألبيرتين شيئاً عنه. وبعد، ها هي ألبيرتين تهجره. فوقع في حيص بيص. ويتعيّن عليه أن يعيد الثلاثين ألف فرنك إن لم يتزوج ألبيرتين. وإن تزوجها، يجب شكلياً على الأقل أن تعود فوراً، لأن هروبها، إن طال، سيؤدي إلى نتائج سيئة. هل تعتقد أن هذا الأمر قد اختُلق قصداً؟

-كلا، أجابني «سان لو» بطيبة وكتمان ولأنه كان يعرف بالتالي أن الظروف غريبة أحياناً أكثر مما نظنّ.

وبعد كل شيء لم يكن من المستحيل أن تحمل قصة الثلاثين ألف

فرنك جانباً كبيراً من الحقيقة، كما قلت له. كان هذا ممكناً، دون أن يكون حقيقياً وكان هذا الجانب من الحقيقة أكذوبة فعلاً. ولكنني و«روبير» كنا نتكاذب، كما هي الحال في جميع المقابلات التي يرغب فيها صديق رغبة صادقة أن يساعد صديقه الذي تفترسه لواعج الحب اليائس. إن الصديق النصوح والداعم والمعزي قد يرثي لحال الآخر، دون أن يشعر بها، ويجد أنه من الأفضل لديه أن يكذب كثيراً. أما الآخر فيعترف له بما هو ضروري لينال المساعدة ويُخفي أشياء كثيرة. والسعيد هو من يكابد ويسافر وينفّذ مهمّة، دون الشعور بمعاناة داخلية. كان وضعي وقتئذ كوضع «روبير» في «دونسيير» عندما ظنّ أن «راشيل» قد هجرته. «أخيراً، كما تريد؛ إذا تعرضت لإهانة فإنني أتقبلها مسبقاً من أجلك. ثم يبدو لي ذلك مضحكاً بعض الشيء لأن هذه الصفعة غير مستورة تماماً، أعلم أن في عالمنا دوقات، لا بل دوقات مفرطات في الورع، يعملن أصعب الأشياء من أجل الحصول على ثلاثين ألف فرنك، بدل أن يقلن لابن أخيهن ألا يبقى في «التورين». وأخيراً أشعر بسرور مضاعف لأنني أؤدي لك خدمة، إذ كان عليّ أن أفعل هذا كي ترضى أن تراني. إذا تزوجتُ، أضاف قائلاً، ألن نتشاهد أكثر، ألن تجعل بيتي بيتك إلى حدّ ما؟... » وتوقف فجأة وفكرت قائلاً: إن أنا فَرَضاً تزوجت بدوري فلن تقوم علاقة حميمية بين ألبيرتين وزوجته. وتذكرتُ ما قالته عائلة «كامبريمير» (Cambremer) عن زواجها المحتمل مع بنت أمير «الغيرمانت».

بعد أن نظر إلى مواعيد السفر وجد أنه لا يستطيع الذهاب إلا في المساء. سألتني «فرانسواز»: «هل يجب أن ننقل سرير الآنسة ألبيرتين من غرفة العمل؟» فقلت: «على العكس، يجب ترتيبه». كنت آمل أن تعود من يوم لآخر، لا بل ما أردت أن يخامر «فرانسواز» أي شك حول ذلك. كان يتعيّن على مغادرة ألبيرتين أن تبدو كأمر اتفقنا عليه كلانا، مما لا يعني إطلاقاً أن حبّها تناقص نحوي. ولكن «فرانسواز» نظرت إليّ كأنها لا تصدق، أو على الأقل كأنها تشك. وكان عندها هي أيضاً احتمالان. كان

منخاراها يتوسعان وكانت تشم رائحة النزاع بيننا، وربما شمّتها منذ أمد طويل. وإن لم تتأكد من ذلك، فلأنها مثلي كانت ربما تتحدى نفسها من الإيمان الكامل بما سيغمرها سعادة. الآن الأمر منوط بذهني المجهَد بل بـ«سان لو». فتهلّلت لاتخاذي قراراً ولقولي لنفسي: لقد قاومتُ.

ما إن دَلَفَ «سان لو» إلى القطار حتى التقيت في غرفة الانتظار بـ«بلوك» (Bloch) دون أن أسمع دقة الباب، فاضطررت إلى استقباله للحظة. وكان قد التقى بي مؤخراً مع ألبيرتين (التي تعرّف عليها في «بالبيك»)، في يوم كانت فيه حادة المزاج. فقال لي: «لقد تعشّيت مع السيد «بونتان»، وبما أنني أؤثر فيه بعض الشيء قلت له حزني من أن بنت أخيه لم تكن لطيفة معك، وأنه ينبغي عليه أن يرجوها في هذا الموضوع». فاستشطت غضباً، لأن هذا الرجاء وهذا الالتماس قد يدمران كل مفعول المسعى الذي أقدم عليه «سان لو» ويضعانني مباشرة في دائرة الشك أمام ألبيرتين التي بدا عليّ أنني اناشدها. ومما زاد الطين بلة أن «فرانسواز» التي بقيت في غرفة الانتظار كانت تسمع كل هذا. فوبّخت «بلوك» بشدة وقلت له إنني لم أكلفه قط بمثل هذه المهمة وإن المبادرة بالتالي كانت خاطئة. ومنذ تلك اللحظة لم يعد «بلوك» يكف عن الابتسام، لا بسبب الفرح بل بسبب الحرج من تكديره لي. وتعجّب ضاحكاً من إثارته مثل هذا الغضب. وربما قال ذلك ليزيل عن ناظري شيئاً من الأهمية التي ارتبطت بمسعاه المكشوف، وربما قال ذلك بسبب طبعه الجبان العائش برغد وخمول في الأكاذيب، شأنه في ذلك شأن قناديل البحر التي تطفو على سطح الماء، وربما قال ذلك لأن الآخرين - حتى إذا كان هو من نوع بشري مختلف - لا يفهمون حجم البشر الذي قد تسبّبه أقوالهم الطليقة، إذ إنهم لا يستطيعون إدراك وجهة نظرنا. وما إن صرفته - لأنني لم أجد أي دواء أعالج به ما فعله - حتى قرع الباب فسلمتني «فرانسواز» استدعاء مثول أمام رئيس الأمن. فوالدا الفتاة الصغيرة التي استقدمتها إلى بيتي منذ ساعة قدّما شكوى عليّ يتهمانني فيها بحرف القاصرات. في الحياة

لحظات يولد فيها نوع من الجمال ينجم عن كثرة الهموم التي تحاصرنا وتتشابك كاللازمات الفاغنيرية، وتنجم أيضاً عن المقولة البازغة وقتئذ والتي تذكر أن الأحداث لا تقع في مجال الانعكاسات التي ترسمها المرآة الصغيرة البائسة ويُبرزها الذكاء ويحيله إلى المستقبل، فتخرج هذه اللحظات وتظهر فجأة كما يظهر شخص أُخِذ لتوه بالجرم المشهود. عندما يترك حدث لذاته فإنه يتغير، إما لأن الفشل يضخّمه لنا وإما لأن الرضى يقلصه. ولكنه نادراً ما يكون وحده. فالمشاعر التي يثيرها المرء تتعارض إلى حد ما، وهذا - كما شعرت عندما ذهبت إلى رئيس الأمن - هو محوِّل مؤقت على الأقل ومفعِّل للأحزان العاطفية أكثر من إثارته الخوفَ. وجدت في مركز الشرطة أهل الفتاة فشتموني وأعادوا لي الخمس مئة فرنك التي لم أرد استعادتها وقالوا لي: «إننا لا نأكل من هذا الخبز». أما رئيس الأمن الذي صرح أن تساهل قضاة محكمة الجزاء لا يضاهى، فكان يقتطع كلمة من كل جملة تفوهت بها وكان يستخدم هذه الكلمة في إجابته الطريفة والمزعجة. ولم يفكر أحد في براءتي في هذه القضية، وهي الفرضية الوحيدة التي لم يشأ أحد القبول بها ولو للحظة. ومع ذلك فإنني جابهتُ صعوبات الاتهام في هذه الورطة العنيفة جداً ببراعة، طيلة وجود أهل البنت. ولكن ما إن ذهبوا، حتى غيَّر رئيس الأمن، الذي كان يحب الفتيات الصغيرات، نبرته وراح يؤنبني كما لو كنت زميلاً له: «في المرة القادمة يجب أن تكون أكثر حذقاً. والله، لا يقدم الإنسان على فعلة كهذه بهذا الاستعجال، وإلا سيفشل. وستجد في كل مكان فتيات أفضل من هذه وبثمن أرخص. لقد كان المبلغ مسرفاً بجنون». وكم كنت أشعر بأنه لم يفهمني، لو حاولت أن أشرح له الحقيقة، ولكنني استفدت دون أن أنبس بكلمة من إعطائه إياي إذناً بالانصراف. وحتى وصولي إلى البيت، بدا لي جميع المارة كمفتشين مكلفين بمراقبة أعمالي وحركاتي. ولكن هذه اللازمة، بالإضافة إلى غضبي من «بلوك»، انطفأت لتترك فقط مجالاً للأزمة: رحيل ألبيرتين. وعاودني هذا الرحيل، ولكن بصورة شبه بهجة،

منذ أن ذهب «سان لو». ومنذ أن كُلِّف بالذهاب لمقابلة السيدة «بونتان»، لم يعد عبء المشكلة يثقل فكري المنهك، لأنه وُضِع على كاهل «سان لو». وأقول إن حبوراً ما قد اعتراني، عندما ذهب، لأنني قررت أنني «عاملتها بالمثل». فتبددت آلامي. وظننت صادقاً أن ذلك ارتبط بما فعلت، لأن المرء لا يعرف دائماً ما تخفيه نفسه. إن ما كان يبعث فيّ السعادة فعلاً لم يتعلق بتخلصي من ترددي الزائد حول «سان لو»؛ كما كنت أظن. وفوق ذلك، لم أخطئ إطلاقاً. وتكمن خصوصية الشفاء من واقعة تعيسة (وثلاثة أرباع الوقائع هي هكذا) في اتخاذ قرار، إذ إنها تسبب - إذا ما حصل انقلات مفاجئ في أفكارنا - قطعاً لزخم الأفكار الناجمة عن الحدث السابق الذي تطيل اهتزازَه، وتسبب كسراً ناجماً عن زخم مغاير لأفكار مغايرة يأتي من الخارج ومن المستقبل. ولكن هذه الأفكار الجديدة مريحة لنا على وجه الخصوص (وحصل ذلك للأفكار التي كانت تحاصرني في تلك الآونة)، عندما تُقَدِّم لنا أملاً ينطلق من عمق هذا المستقبل. وما أسعدني جداً هو يقيني السري أن مهمة «سان لو» لا يمكن أن تفشل وأن ألبيرتين لا تستطيع إلا العودة. هذا ما فهمته؛ ولكنني عدت إلى المعاناة، عندما لم أتلقَّ منذ اليوم الأول جواباً من «سان لو». لم يكن قراري وتسليمي إياه كامل سلطاتي هما سبب سروري الذي بدونهما لكان استمر، بل لأن عبارتي «فليكن ما يكون» كانت تعني بالنسبة لي «النجاح المضمون». ومجرد التفكير في أن شيئاً آخر غير النجاح يمكن أن يحدث (وهذا ما أثاره تأخره فيّ) كان شنيعاً جداً عندي لدرجة أنني فقدت سروري. وفي الواقع أرى أن استبصارنا وأملنا في وقوع أحداث سعيدة يغمراننا بالفرح وننسبها لأسباب أخرى، ثم تنتهي فتجعلنا نكتئب من جديد إذا فقدنا اليقين من أن ما نوده سيتحقق. إن هناك إيماناً غير مرئي يدعم صرح عالمنا الشعوري، وعندما نفقده يتداعى. ورأينا أنه يشكل قيمة الأشياء أو بطلانها بالنسبة لنا، كما يشكل ثَمَلَنا برؤيتها أو مللنا منها. وكذلك يجعلنا قادرين على تحمل حزن ظنناه سخيفاً لمجرد اقتناعنا أنه

سينتهي، أو لأنه تفاقم فجأة إلى أن ظهر شيء يضاهيه، لا بل أحياناً يتجاوز حياتنا.

أجل حدث شيء أنهى وجع القلب الحاد الذي اعتراني في البرهة الأولى، ويجب الاعتراف بأنه زال. لقد أعدت قراءة جملة من رسالة ألبيرتين. مهما أحببنا الكائنات، فإننا نستطيع أن نتحمل معاناة فقدانها - تقريباً - ولكنها تختلف عن المعاناة الأقل إنسانية، عن المعاناة التي هي معاناتنا (تلك المعاناة غير المتوقعة والغريبة التي تضاهي حادثاً يصيب الحيز الأخلاقي وسويداء القلب) والتي لا تنجم مباشرة عن الكائنات أنفسها وإنما عن الطريقة التي تعلمنا فيها أننا لن نرى هذه الكائنات بعد. أستطيع أن أفكر في ألبيرتين وأنا أبكي بهدوء وأتقبل غيابها وعدم رؤيتي إياها أمس وهذا المساء؛ ولكنني عندما قرأت «لا نكوص عن قراري هذا»، اختلف الأمر، فكنت كمن فقد دواء خطيراً وكان يستطيع ذلك أن يسبب لي أزمة قلبية قد تقضي عليّ. في الأشياء والحوادث ورسائل الهجران يوجد خطر خاص يضخم ويشوه الألم الذي قد تسببه الكائنات لنا. وبالرغم من كل شيء كنت واثقاً جداً بنجاح مهارة «سان لو»، فبدت لي عودة ألبيرتين في غاية اليقين بحيث إنني تساءلت إن كنت محقاً في تمني ذلك. ومع هذا فقد كنت مبتهجاً به. ولكن ولسوء حظي، أنا الذي اعتقدت أن قضية الأمن العام قد انتهت، جاءت «فرانسواز» وأخبرتني أن أحد المفتشين جاء ليستعلم إن كنت معتاداً على استقبال الفتيات الصغيرات في بيتي، وأن حارس منزلي الذي ظن أن السؤال يتعلق بألبيرتين أجابه نعم، فأصبح البيت منذئذ شبه مراقب. وصار يستحيل عليّ قطعاً أن آتي ببنت صغيرة تواسيني في أحزاني فأخجل أمامها من ظهور مفتش فتعتبرني عندئذ مجرماً. وفهمت أيضاً كم يعيش المرء من أجل أحلامه أكثر مما يظن، إذ بدا لي أن استحالة هدهدة بنت صغيرة ستقضي على كل قيمة في الحياة إلى الأبد؛ ولكنني أدركت أيضاً كم يطيب للناس أن يرفضوا الحظ السعيد فيعرضوا أنفسهم للموت، مع العلم أنهم يتصورون أن المصلحة

والخوف من الموت يسيّران العالم. فإذا ظننت أن بنتاً صغيرة مغمورة استطاعت، بوصول أحد رجال الشرطة، أن تكوّن فكرة مخجلة عني، لفضلت كثيراً أن أقتل نفسي. ولم توجد مقارنة ممكنة بين المعاناتين. والحال أن الناس في الحياة لا يظنون قط أن من يقدمون لهم الأموال ومن يهددونهم بالموت يستطيعون الحصول على خليلات أو رفيقات فقط يحظين باحترامهم، حتى وإن لم يحظوا هم بهذا الاحترام. ولكن بدا لي فجأة وبارتباك لم أفطن له (أجل لم أفكّر بأن ألبيرتين، عندما تصبح بالغة، تستطيع أن تساكنني لا بل تصبح خليلتي)، أن حرف القاصرات يمكن أن يطبق أيضاً على ألبيرتين. فأدركت عندئذ أن الحياة قد سُدّت في وجهي من جميع جهاتها. وعندما فكرت أنني لم أعش معها بعفة، وجدت في العقاب الذي نزل بي - لأنني هدهدت بنتاً صغيرة مغمورة - علاقةً تبرز دائماً في العقوبات البشرية وتجعل الحكم العادل والخطأ القضائي شبه غائبين، بل تقيم نوعاً من التساوق بين الفكرة الخاطئة التي يكوّنها القاضي حول فعل بريء وبين الأفعال الجانحة التي جهلها. ولكنني عندما فكرت في أن عودة ألبيرتين قد تجرّ عليّ تجريماً مخزياً يحط من قدري في عينيها، ويلحق ربما بها أذى لن تغفره لي، توقفت عن تمنياتي برجوعها، لأن الأمر أراعني. وفوراً قضيت على كل شيء، إذ عاودني الوجد واستحوذ عليّ. لقد فكرت برهة في إمكانية القول لها أن لا تراجع وفي أنني أستطيع العيش بدونها، ولكنني شعرت فجأة بأنني مستعد للتضحية بجميع الرحلات وجميع المسرات وجميع الأعمال، شرط أن تعود ألبيرتين.

آه كم تطور حبي لألبيرتين، التي ظننت أنني أستطيع استبصار قدرها كما استبصرتُ قَدَرَ «جيلبيرت»! لقد تطور عكس حبي لـ«جيليبرت» كما استحال عليَّ البقاء دون أن أراها. وفي كل فعل ونأمة غمرا في الماضي الجوَ السعيد الذي خلقه تواجد ألبيرتين، كان عليَّ كل مرة، وبتكاليف جديدة وبمعاناة هي هي، أن أعود لأتعلم هجرانها. ثم كانت المنافسة بين الأشكال الأخرى للحياة تقذف إلى الظل ذلك الألم الجديد؛ وخلال تلك

الأيام التي كانت أول أيام الربيع، وبانتظار أن يتمكن «سان لو» من رؤية السيدة «بونتان»، حدث أن تصورت مدينة البندقية وبعض الفاتنات المغمورات، فوفّر لي ذلك هنيهات من الهدوء الرغيد. وما إن أدركت ذلك حتى شعرت في داخلي بهلع رهيب. لقد كان الهدوء الذي استمزجتُه أول بروز لتلك القوة الكبيرة المتقطعة التي ستصارع في داخلي الألم والحب والتي ستنتصر في المحصلة. ما استمزجته وما ارتهص عندي، دام برهة فقط، ولكنه سيصبح فيما بعد حالة دائمة عندي وحياة سأكف فيها عن التألم بسبب ألبيرتين، وفيها سأكفّ عن حبها. فحبي الذي عرف مؤخراً العدو الوحيد الذي دحره، أي النسيان، بدأ يرتجف كأسد حبيس في قفص شاهد فجأة أصلة هائلة تهمّ بافتراسه.

كنت أفكر طيلة الوقت في ألبيرتين، ولم تكن «فرانسواز» تقول لي أثناء دخولها غرفتي سوى كلمتين وجيزتين: «لا توجد رسائل»، وذلك كي تختزل قلقي. ولكني من آن إلى آخر كنت أتمكّن، بإدخال هذا التيار الفكري أو ذلك إلى شجني، من تجديد وتنقية الجو الفاسد في قلبي، ولو قليلاً. ولكنني في المساء، إن تمكنتُ من النوم، كانت ذكرى ألبيرتين بمثابة دواء يضمن لي النوم، ولكن تأثيره عندما يزول كان يوقظني. كنت أفكر في ألبيرتين طيلة نومي. فكانت تغدق عليَّ نوماً يفقدني بالتالي حرية التفكير في شيء آخر، وهذا ما كان يحصل لي أثناء اليقظة. وكان النوم وذكراه الجوهرين المتداخلين اللذين نتاولهما معاً لننام. وفي المحصلة، عند استيقاظي كانت معاناتي تزداد كل يوم بدلاً من أن تتناقص؛ لا لأن النسيان لا يفعل فعله، ولكنه، في حالتي، كان يحبّذ أَمْثَلَة الصورة المأسوف عليها، وكان يحبذ بالتالي دمج معاناتي الأصلية بالآلام الأخرى المشابهة التي كانت تعززها. وكانت هذه الصورة محتملة. ولكنني إذا فكرت فجأة في غرفتها حيث بقي سريرها خالياً، وإذا فكرت في معزفها (البيانولا التي كانت تعزف عليها) وفي سيارتها، خارت قواي وأغمضت عيني وطأطأت رأسي وأسندته إلى كتفي اليسرى كأولئك الذين سينهارون.

وكانت أصوات الأبواب تؤلمني بالقدر نفسه، لأن ألبيرتين لم تكن هي التي تفتحها. وعندما أظن أن هناك برقية ربما أرسلها «سان لو»، لا أجرؤ على السؤال: «هل هناك برقية؟» وفي نهاية المطاف وصلت هذه البرقية، ولكنها جعلت كل شيء يتراجع، وتقول: «السيدات مسافرات لثلاثة أيام».

إذا أتيح لي أن أتحمل الأيام الأربعة بعد رحيلها، فلأنني كنت أقول لنفسي: «ليست إلا مسألة وقت، وقبل نهاية الأسبوع ستكون عندي». ولكن هذا السبب لم يمنع عن قلبي وجسمي أن أقوم بالفعل ذاته، فالعيش بدونها، والعودة إلى بيتي دون أن أجدها، والمرور أمام باب غرفتها (دون أن أجرؤ بعد على فتحه) مع علمي أنها ليست فيها، والنوم دون أن أقول لها مساء الخير، هذه هي أشياء كان على قلبي أن يمارس جميع أهوالها، كما لو كان عليّ ألا أرى ألبيرتين ثانية. والحال أن من أنجز ذلك أربع مرات كان بوسعه الآن أن يتابع. وعما قريب قد لا يحتاج إلى السبب الذي ساعدني هكذا على الاستمرار في الحياة - وهو عودة ألبيرتين القريبة - (فأقول عندئذ لنفسي «لن تعود أبداً»، وأحيا مع كل شيء كما فعلت خلال الأيام الأربعة)، وسأكون كجريح استردَّ عادة المشي وتمكّن من الاستغناء عن عكازيه. وفي المساء عندما أعود إلى منزلي سأجد على الأرجح الذكريات المتراصفة في سلسلة لا تنتهي، ذكريات جميع الأماسي التي كانت تنتظرني فيها ألبيرتين؛ فكانت تقطع عليّ أنفاسي وتخنقني بفراغ عزلتها. ولكنني كنت ألاقي أيضاً ذكرى الأمس، وقبل الأمس والليلتين السابقتين، أي ذكرى الليالي الأربع الماضية بعد رحيل ألبيرتين، والتي كنت فيها وحيداً دونها، ومع ذلك عشت؛ كانت ليالي أربعاً شكّلت شريطاً هزيلاً سيتضخم كلّما مرّت الأيام.

لن أذكر فحوى رسالة البوح التي استلمتها مؤخراً من بنت أخ السيدة «دو غيرمانت» التي كانت تُعتبر أجمل فتاة في باريس، ولن أذكر مسعى الدوق «دو غيرمانت» معي، إذ أتى من قِبَل والدي الفتاة الحريصين على سعادة ابنتهما والمقتنعين بعدم تكافؤ الطرفين في مثل هذه المصاهرة. إن

أحداثاً كهذه مؤلمة جداً لشخص عاشق، لأنها قد تؤثر في حب الذات. وقد يرغب المرء فيها وقد يكون خشناً في نقلها لامرأة لها فكرة سلبية وثابتة عنا إذا علمت أننا نستطيع أن نكون موضع اهتمام مختلف. ما كانت تكتبه لي ابنة أخ الدوق جعل أليبرتين تخرج عن طورها.

في يقظتي التي كنت فيها أستعيد مراحل حزني قبل أن أنام، شأني في ذلك شأن كتاب بقي مغلقاً للحظة ثم لم يعد يفارقني حتى المساء، لم تكن أفكاري تصيب إلا أليبرتين التي وصلتها بي جميع الأحاسيس، أأتت هذه الأفكار من الخارج أو من الداخل. وقرع الجرس: إنها رسالة منها أو ربما هي بلحمها ودمها. عندما كنت أشعر أنني بصحة جيدة، وأنني قليل الشقاء، كانت الغيرة تفارقني وكنت أنسى انتقاداتي لها، وكنت أتمنى أن أراها بسرعة وأقبّلها وأن أُمضي بحبورٍ كلَّ حياتي معها. أن أُرسل لها برقية أقول لها فيها: «تعالي بسرعة»، كان يبدو لي أمراً بسيطاً جداً، كما لو أن مزاجي الجديد قد تغير وليست استعداداتي فقط، ولكنّ الأشياء الخارجة عني جعلتها أسهل. لو اكفهرّ مزاجي لبُعثْ جميع سورات الغضب منها، ولما رغبت من بعد في تقبيلها، ولاستحال عليّ الإحساس بالسعادة بسببها، ولحاولت أن أسيء إليها وأمنعها من أن تكون للآخرين. ولكن نتيجة هذين المزاجين المتعارضين كانت متطابقة، أي أنه يجب أن تعود على جناح السرعة. ولكن مهما ولّدت عندي هذه العودة من فرح، كنت أحسّ أن الصعوبات نفسها سترجع بسرعة وأن البحث عن السعادة في إشباع الرغبة الأخلاقية كان عملية ساذجة السعي لبلوغ الأفق إذا مشى المرء أمامه. فكلما تقدمت الرغبة، نأى التملك الحقيقي. وهكذا إذا وجدت السعادة، أو على الأقل إذا غابت الآلام، عندئذ وجب أن نبحث لا عن تحقيق الرغبة، وإنما عن تقليصها التدريجي وعن انطفائها الكلي. نسعى لرؤية ما نحب، ويجب أن نسعى لعدم رؤيته، وفي النهاية وحده النسيان يؤدي إلى انطفاء الرغبة. وأتصور أنه إذا ما تفوّه كاتبٌ ما بحقائق من هذا القبيل، كان إهداء كتابه المتضمن هذه الحقائق لامرأة طاب له أن

يقترب منها فيقول لها: «إن هذا الكتاب هو كتابك». وهكذا، بقوله بعض الحقائق في كتابه، يكون قد كذب في الإهداء، لأنه لن يصرّ على أن يكون الكتاب لهذه المرأة إلا لأنها تشبه ذلك الحجر الذي نزل عليه منها والذي سيحبّه ما دام يحبّ المرأة. فالعلاقات بين أحدهم ونحن لا توجد إلا في ذهننا. وعندما تضعف الذاكرة فإنها تهمل هذه العلاقات، وبالرغم من توهمنا بأننا نريد أن نُخدَع، بسبب الحب أو الصداقة أو المسايرة أو الاحترام البشري أو الواجب، فإننا نخدع الآخرين ونخدع أنفسنا. الإنسان هو الكائن الذي لا يستطيع أن يخرج من إهابه، ولا يعرف الآخرين إلا انطلاقاً من ذاته، ويكذب عندما يقول عكس ذلك. وسينتابني الخوف، إن تمكن بعضهم أن يجتث مني تلك الحاجة إليها وذلك الحب الذي أكنّه لها، لأنني مدرك أنه نفيس لحياتي. عندما أتمكن من سماع أسماء المحطات التي يعبرها القطار المتوجه إلى «تورين»، ولكن دون أن يثير ذلك فيّ افتتاناً أو تألماً، سيبدو لي هذا الأمر كأنه انتقاص مني (ولأن ذلك في الأصل وببساطة أثبت أن ألبيرتين صارت شخصاً لا أكترث له). قلت لنفسي، عندما كانت تسألني دون انقطاع ماذا يمكنها أن تفعله، وتفكر فيه وتريده في كل لحظة، وإذا ما كانت تنوي العودة أو أنها ستعود، كان يطيب لي أن أُبقيَ مفتوحاً باب الاتصال هذا الذي مارسه الحب عليّ، وأن أشعر بحياة امرأة أخرى تغمر الخزّان الذي لم يشأ أن يصبح آسناً، وذلك عن طريق السدود المفتوحة.

وبعد أن طال صمت «سان لو»، راح قلق آخر - انتظار برقية أو مكالمة من «سان لو» - يخفي القلق الأول، وهو المرتبط بنتيجة المسعى: فهل ستعود ألبيرتين؟ وصار ترصد كل حركة في انتظار البرقية لا يطاق، بحيث بدا لي أنها وصلت (البرقية) - وهذا كان الشيء الوحيد الذي كنت أفكر فيه الآن - وأنها ستضع حداً لآلامي. ولكنني عندما استلمت برقية من «روبير» يقول لي فيها إنه رأى السيدة «بونتان» التي بالرغم من كل مشاغلها قد رأت ألبيرتين، وأنها أفسدت كل شيء، انفجر غضبي ويأسي،

لأنني أردت مسبقاً تجنب هذا كله. إن سفر «سان لو» الذي عرفت به ألبيرتين، كان يُظهرني وكأنني متشبّث بها، مما سيدفعها بالضرورة إلى التمنّع عن العودة، وكانت فظاعته مرتبطة بما بقي لدي من أنفة عرفها حبي مع «جولييت» وفقدها لاحقاً. لعنت «روبير»، ثم قلت لنفسي: إذا فشلت هذه المحاولة، فإنني سأتخذ (فتاة) أخرى. وبما أن الإنسان يستطيع أن يؤثر في العالم الخارجي، فكيف لا يستطيع - إن شغّل الحيلة والذكاء والمصلحة والعاطفة - أن يُلغي هذا الشيء الشنيع، ألا وهو غياب ألبيرتين؟ يظن المرء أنه يغيّر الأشياء حوله كيفما يطيب له، ويظن أنه لا يرى أي حل مناسب بمعزل عنه. وينسى ما يحدث في أغلب الأحيان، وهو مناسب أيضاً، أي أننا لا نستطيع أن نغيّر الأشياء حسب رغبتنا، ولكن رغبتنا هي التي تتغيّر شيئاً فشيئاً. فالوضع الذي نأمل في تغييره لأنه لا يطاق، يصبح محايداً بالنسبة لنا. لم نتمكن من تجاوز العقبة، كما كنا نبغي تماماً، ولكنّ الحياة قلبتها وتجاوزتها، وعندما نستشرف الماضي البعيد نكاد لا نراها، إذ أصبحت على جانب كبير من الضآلة.

سمعت من الطابق الذي فوقنا نغمات من أوبرا «مانون» تعزفها إحدى جاراتنا. فطبقتُ كلماتها التي كنت أحفظها على ألبيرتين وعليّ، فأُفعمتُ بشعور عميق جداً بحيث رحت أبكي. وكانت الكلمات تقول:

«واحسرتاه، الطائر الذي يهرب ممّا يظنّه الأسر
وغالباً في الليل
يعود من طيرانه المجنون ويصفقُ بجناحيه زجاج القفص».

أما كلمات موت «مانون» فتقول:

أجيبيني يا «مانون»، يا حشاشة قلبي،
فإنني لم أعرف طيبة قلبك إلا اليوم.

وبما أن «مانون» رجعت إلى «دي غريو» (Des Grieux)، بدا لي أنني العشق الوحيد في حياة ألبيرتين. واحسرتي، من المحتمل أنها لو سمعت في تلك اللحظة النغمات ذاتها، لما أحبتني أنا تحت اسم «دي غريو»،

ولو خطر ذلك ببالها فقط، لكانت ذكراي قد منعتها من الشعور بالحنان لدى سماعها هذه الموسيقى التي تندرج في اللون الذي تحبّه، مع أنها أفضل كتابةً وأكثر لطفاً.

في ما يخصّني، لم أجرؤ على الاستسلام للفكرة العذبة التي تقول إن ألبيرتين سمّتني «يا حشاشة قلبي» واعترفت بأنها اخطأت في ما «ظنته الأسر». أعلم أن المرء لا يستطيع أن يقرأ رواية دون أن يعطي البطلة سمات المحبوبة. ولكن مهما كانت نهاية الكتاب سعيدة، فإن حبّنا لم يتقدّم خطوة واحدة، وبعد أن طويناه فإن المحبوبة التي قابلناها وأتت إلينا أخيراً في الرواية، لا تمنحنا في الحياة مزيداً من الحب.

استشطتُ غضباً وأرسلت لـ«سان لو» برقية أقول له فيها أن يرجع إلى باريس على جناح السرعة، لأتفادى على الأقل ربط الإصرار المتفاقم بمسعى تمنيت أن يبقى سرياً. ولكنه قبل أن يعود، بناء على توجيهاتي، تلقيت من ألبيرتين هذه البرقية:

يا صديقي، إنك أرسلت صاحبك سان لو لبرى عمتي، وهذا تصرّف أحمق. يا صديقي العزيز، لو كنت بحاجة إليّ، فلماذا لا تكتب لي مباشرة؟ وسأكون سعيدة بأن أعود؛ لا تكرّر من بعد هذه التصرفات العبثية.

«سأكون سعيدة بأن أعود!» إذا قالت هذا، فإنه يعني أنها نادمة على مغادرتها وأنها لا تبحث إلا عن ذريعة للعودة. إذن ما عليّ إلا أن أفعل ما قالته فأكتب لها أنني بحاجة إليها فتعود. إذن سأراها من جديد، سأرى ألبيرتين التي رأيتُها في «بالبيك» (فمنذ رحيلها أصبحت في نظري تلك الألبيرتين ثانية؛ كالقوقعة التي فقدنا اهتمامنا بها لأنها موجودة دائماً على الصوان، ولكن عندما ننفصل عنها لأننا أهديناها أو أضعناها ثم نفكر فيها - لأننا كففنا عن صنعه - تذكرنا القوقعة بالجمال الحبوري لجبال البحر الزرقاء). وليست هي وحدها التي أصبحت حياة خيالية، حياة متحرّرة من جميع الصعوبات، فقلت لنفسي: «كم سنكون سعيدين!»؛ ولكن ما إن

تكوّن عندي يقين عودتها، حتى كان عليّ ألا أُظهر أنني أستعجل عودتها، بل بالعكس كان عليّ أن أزيل التأثير السيّئ لمسعى «سان لو» الذي أستطيع دائماً استنكاره بقولي إنه تصرّفَ وحده، لأنه كان دائماً من أنصار هذا الزواج.

بيد أنني قرأت رسالتها مرة ثانية، مع ذلك خاب أملي من النزر القليل الذي يُخص به شخص في رسالة. قد تعبّر الحروف المرسومة عن فكرنا، وهذا ما تعبّر عنه أيضاً ملامحنا؛ فنجد أنفسنا دائماً أمام فكرة من الأفكار. ولكن لا تتجلى لنا الفكرة عند الإنسان إلا بعد أن تنتشر على تويج الوجه المتهلل كزهر النيلوفر. فهذا يبدّل فيها أشياء وأشياء. وقد يكون ذلك أحد الأسباب في خيباتنا المستمرة كعاشقين، إذ نجعل التعرجات المستمرة موعدنا يقدم لنا شخصاً من لحم ودم ولا يستأثر إلا القليل من حُلمنا، وذلك بانتظار الكائن المثالي الذي نحبه. ثم إننا، عندما نطلب شيئاً من هذا الشخص، نتلقى منه رسالة لا تبرز منه إلا القليل القليل، كما هي الحال في الحروف المستعملة في الجبر والتي لا تحدّد إلا الأرقام الرياضية، وهي حروف لم تعد تستوعب سمات الفواكه أو الأزهار المنضدة. ومع ذلك فإن كلمات «الحب» و«المحبوب» ورسائله، هي ربما ترجمات للواقع نفسه (لا يقنعنا الانتقال من ترجمة إلى أخرى)، لأن الرسالة لا تبدو لنا غير مقنعة إلا عندما نقرأها، ولكننا نعاني الموت والشغف ما دامت هذه الرسالة لم تصل، إذ تكون كافية لتهدئة قلقنا أو لتملأ بإشاراتها الصغيرة السوداء رغبتنا التي تحسّ مع ذلك أنه لا يبقى إلا بديل عن الكلام أو الابتسامة أو القبلة، وليس هذه الأشياء بالذات.

فكتبتُ لألبيرتين:

يا صديقتي، كنت على وشك الكتابة لك، وأشكرك إن قلت لي إنك ستهرعين إليّ، إذا احتجتُ إليكِ. إنه لحسن من جانبك أن تدركي بشكلٍ رفيع التفاني الذي أكنه لصديق عزيز، وتقديري لك لا يمكن إلا أن يزداد. ولكن كلا، إنني لم أطلب منك ذلك، ولن أطلبه. أيتها الشابة

العديمة الإحساس إن التقاءنا ثانية، في المدى البعيد على الأقل، لن يكون صعباً عليك ربما. أما بالنسبة لي - وظننتني أحياناً قليل الاكتراث - فالأمر في غاية الصعوبة. لقد فصلتْ بيننا الحياة. لقد اتخذتِ قراراً أظنه في غاية الحكمة، لقد اتخذتِه في الوقت المناسب وكان استشعارك رائعاً لأنك غادرتِ قبل يوم من موافقة أمي على أن أطلب يدك. كنت أود أن أقول لك هذا عند استيقاظي وعندما استلمت رسالتها (ورسالتك في ذات الوقت). ربما خفت من تنكيدي عندما غادرت بتلك الطريقة. وربما ارتبطت حياتنا بالتعاسة، من يدري! لو وجب أن يحدث ما حدث، فمباركة أنت على حكمتك. وقد نكون قد أضعنا كل ثمرتها، لو التقينا ثانية. قد يكون ذلك بالنسبة لي تجربة. ولكن لا فضل كبيراً لي إن قاومتها. إنك تعرفينني كائناً لا يثبت على حال، وتعرفين كم أنسى بسرعة. وهكذا لست صالحاً للرثاء. لقد قلت لي مرات كثيرة إنني خصوصاً رجل عادات؛ والعادات التي بدأتُ آلفها بدونك لم تزل غير راسخة. في هذا الوقت بالطبع، إن العادات التي مارستها معك والتي جعلتها مغادرتك تضطرب ما زالت هي الأقوى. ولن يبقى هكذا لمدة طويلة. وحتى لهذا السبب فكرت في الاستفادة من هذه الأيام الأخيرة والقليلة اذ إن لقاءنا لن يكون في ناظري كاللقاء الذي يتم بعد خمسة عشر يوماً تقريباً، وربما قبل، وقد يكون إز... (اعذري صراحتي) إزعاجاً. وفكرت في الاستفادة من ذلك قبل النسيان الكامل كي أحل معك بعض المسائل المادية الصغيرة، وكان بوسعك، أيتها الصديقة الطيبة والفاتنة، أن تؤدي خدمة لذلك الذي ظنّ نفسه خلال خمس دقائق خطيبَكِ. وبما أنني لم أشك في موافقة أمي، وبما أنني من جهة ثانية كنت أرغب في أن يحصل كلانا على كامل تلك الحرية التي تفضلتِ وضحيتِ بسخاء قد يُقبل في حياة مشتركة دامت بضعة أسابيع، ولكنها ربما أصبحت مقيتة لك ولي الآن إن كان علينا عيشها معاً (إنني أشعر بشيء من المعاناة أثناء كتابتي لك، عندما أفكر بأن الأمر كاد يتحقق على

قيد شعرة، وكنت قد فكرت في تنظيم حياتنا بأكبر استقلالية ممكنة، وبداية كنت أريد أن تملكي هذا اليخت وتسافري فيه، وأن أنتظرك أنا - على آلامي المبرحة - في المرفأ. لقد كتبت إلى «إيلستير» أستشيره، بما أنكِ تحبين ذوقه.

وفي ما يخص البر، كنت أريد أن تملكي سيارة تكون لك، ولك وحدك، تخرجين فيها وتسافرين كما يطيب لك. لقد كان اليخت شبه جاهز واسمه «البجعة»، كما رغبت في التسمية أيام كنا في «بالبيك». ولدى تذكري أنك تفضّلين سيارات الرولز على كل السيارات الأخرى، طلبت لك واحدة منها. والآن، بما أننا لن نلتقي إلى الأبد، وبما أنني لا أمل لي في أن أجعلك تقبلين بالسفينة وبالسيارة اللتين أصبحتا غير نافعتين، فإنهما في ناظري لن يستخدما في شيء. وفكرت - بما أنني طلبتهما من وسيط أعطينه اسمك - أنك تستطيعين إلغاء الطلبية ربما وتجنبينني هذا اليخت وتلك السيارة، لأنهما غير مفيدين. ولكن لهذا ولأشياء اخرى كثيرة، يجب علينا التحدث. وأجد أنني ما دمت قادراً على حبك ثانية، وهذا لن يدوم طويلاً، فإنه من الجنون بمكان أن نرى بعضنا، من أجل سفينة شراعية وسيارة رولز رويس، وأن نراهن على سعادة حياتك، إذ تعتبرين أن هذه السعادة منوطة بالعيش بعيداً عني. لا، إنني أفضل أن أحتفظ بالرولز وحتى باليخت. وبما أنني لن أستخدمهما إذ سيبقى اليخت في المرفأ راسياً دون إبحار وستبقى السيارة في الاصطبل، وسأنقش عليهما (يا إلهي كم أخشى أن أضع اسماً غير دقيق فأرتكب زندقة قد تصدمك) أبياتاً من «مالارميه» كنت تحبينها. أتذكرين؟ إنها القصيدة التي مطلعها:

«إن البكر والحيوي والجميل اليوم».

واحسرتاه، لم يبق اليوم لا بكر ولا جميل. ولكن الذين مثلي يعلمون أنهم سيصنعون بسرعة «غداً» يُطاق، هم أشخاص لا يطاقون. أما الرولز فتستحق بالأحرى هذه الأبيات الأخرى من الشاعر نفسه،

وكنت تقولين إنك لم تستطيعي فهمها:

«عاصفة وياقوتة من الثقوب
قل إن كنتُ غير فرح
بان أرى في الفضاء الذي تخترقه تلك النار
فتلهب الممالك المشتتة
كما الموت يضرّج العجلة
المسائية الوحيدة لعرباتي».

«وداعاً إلى الأبد، يا صغيرتي ألبيرتين، وأشكرك مجدداً على الجولة الجميلة التي عملناها معاً عشية انفصالنا. إنني أحتفظ بذكرى لطيفة جداً».

«حاشية: لا أجيب على ما تقولينه حول الاقتراحات التي ادّعاها «سان لو» والتي عرضها على عمتك (ولا أظن إطلاقاً أنه في «تورين»). قصتنا كقصص شرلوك هولمز. يا للفكرة التي تكوّنينها عني!».

وكما قلت لألبيرتين سابقاً: «لا أحبك» كي تحبني، و«إنني أنسى عندما لا أرى الناس» كي تراني أكثر فأكثر و«قررت أن أهجرك» توقّياً لكل فكرة هجران، أما الآن فلأنني أريد بإصرار أن تعود خلال ثمانية أيام بعد أن قلت لها: «وداعاً إلى الأبد»؛ ولأنني كنت أريد أن أراها فقد قلت لها: «قد أجد خطراً في رؤيتك ثانية»؛ ولأن العيش بدونها بدا لي أشد من الموت فقد كتبت لها: **كان الحق معك، سنكون تعساء معاً**. للأسف فإنني عندما كتبت هذه الرسالة المصطنعة لأتظاهر بأنني لست متعلقاً بها (وهي عزة النفس الوحيدة التي بقيت من حبي السابق لجيلبيرت في حبي لألبيرتين) وليحلو لي أيضاً أن أقول بعض الأشياء التي من شأنها أن تؤثر فيّ أنا وليس فيها، كان يليق بي أولاً أن أتوقع إمكانية أن تحدث جواباً سلبياً، أي أنه يؤكد ما قلته، وسيكون على الأرجح كذا، لأن ألبيرتين لو كانت أقل ذكاء مما عليه - هذا ما قلته - لما شكّت لحظة واحدة في أن الأمر خطأ. ودون التوقف عند النوايا التي نوّهتُ بها في هذه الرسالة، فإن

مجرد كتابتها، حتى ولو لم يأت بعد مسعى «سان لو»، كان يكفي لأثبت لها أنني كنت أرغب في عودتها ولأنصحها بأن تدعني أبتلع الشص أكثر فأكثر. ثم بعد أن توقعت جواباً سلبياً ممكناً، كان يترتب عليّ دائماً أن أتوقع فجأة أن هذا الجواب سيعيد إليّ - في أقصى أقاصي حيويته - حبي لألبيرتين. وكان عليّ، قبل إرسال الرسالة، أن أتساءل، إن أجابت ألبيرتين باللهجة ذاتها وبأنها تأبى العودة، سأكون عندئذ سيد ألمي لكي أرغم نفسي على الصمت، وكان عليّ ألا أرسل لها برقية: عودي، وألا أبعث إليها أي وسيط آخر، وهو - بعد أن كتبت لها أننا لن نلتقي - إثبات واضح لها أنني لن أتمكن من الاستغناء عنها فيؤدي إلى أن ترفض بشكل أحدّ، ويؤدي - إن لم أعد أتحمل قلقي - إلى أن أذهب إليها (من يدري؟) وإلى رفضها استقبالي. قد يكون هذا، بعد ثلاثة أفعال خرقاء، الفعل الأسوأ، وبعده لن يبقى لي إلا أن أقتل نفسي أمام منزلها. ولكن الطريقة الكارثية التي يتكون بها العالم النفسي المرضي تقول إن الفعل الأخرق، أي الفعل الذي ينبغي تجنبه، هو ذلك الفعل المهدّئ، لأنه يفتح أمامنا آفاقاً جديدة من الأمل - إلى أن ندرك عاقبته - ويخلّصنا مؤقتاً من الألم المبرح الذي زرعه الرفض فينا. وهكذا عندما يستفحل الألم، نهرع إلى الفعل الأخرق، فنكتب ونطلب التماس أحدهم ونذهب لنرى ونثبت أننا لا نستطيع الاستغناء عن المحبوب.

بيد أنني لم أستبصر شيئاً من هذا كله. وبدت لي نتيجة هذه الرسالة أنها على العكس ستعيد ألبيرتين في أسرع وقت. وعندما فكرت في هذه النتيجة، استعذبت جداً أن أكتب الرسالة. ولكنني في آن لم أكف عن البكاء، وأنا أكتبها؛ أولاً، كما فعلت تقريباً يوم تظاهرت بالفراق الكاذب، لأن هذه الكلمات صورت لي الفكرة التي أعربت عنها مع أنها صبت إلى هدف مغاير (ولقد تفوهت بها كاذباً لئلا أعترف، لعزة نفسي، بأنني أحبها)، وحملت في طياتها أشجانها، ولأنني أيضاً كنت أشعر بأن هذه الفكرة تحمل شيئاً من الحقيقة.

وبدت لي عاقبة هذه الرسالة مؤكدة، فندمت على إرسالها. وعندما تصورت عودة ألبيرتين اليسيرة جداً، عاودتني فجأة وبقوة جميع الأسباب التي جعلت زواجنا مستكرهاً لي. فأملت أن تأبى العودة. وبينما كنت أحسب أن حريتي ومستقبل حياتي كله منوطان برفضها، وأنني جننت عندما كتبت لها، وأنه كان عليَّ أن أستعيد رسالتي التي مع الأسف أرسلت، إذ بفرانسواز تعيدها لي مع الجريدة التي حملتها لي. ذلك أنها لم تكن تعلم أية طوابع تضع عليها لإرسالها. ولكنني فوراً غيرت رأيي؛ كنت أتمنى ألا تعود ألبيرتين، بيد أنني كنت أريد أن تتخذ ألبيرتين هي نفسها هذا القرار كي تضع حداً لقلقي، وأردت إعادة الرسالة لفرانسواز. وفتحت الجريدة، فإذا بها تعلن موت الـ (la Berma) «لا بيرما». عندها تذكرت طريقتين مختلفتين استمعت فيهما إلى مسرحية (Phèdre) «فيدر»، والآن أراني أمام طريقة ثالثة إذ فكرت في مشهد البوح. وبدا لي أن ما تمتمت به مراراً وحدي وما استمعت إليه في المسرح، كان يعرب عن القوانين التي كان يترتب عليَّ اختبارها في حياتي. ففي داخل روحنا أشياء لا نعرف كم نحن متشبثون بها. وإذا كنا نعيش بدونها، فلأننا نرجئ يوماً بعد يوم، خوفاً من الإخفاق والألم، وخوفاً من استحواذها علينا. هذا ما حصل لي مع جيلبيرت، عندما تهيأ لي أنني تخليت عنها. وقبل أن نتخلى تماماً عن هذه الأشياء، وهو زمن يلي بكثير زمن التخلي عنها، مثلاً عندما تتزوج الفتاة، نفقد صوابنا ولا نعود نستطيع احتمال الحياة التي كانت تبدو لنا رقراقة في شجنها، وإذا امتلكنا شيئاً، ظننا أنه يربكنا فنتخلى عنه بطيب خاطر؛ وهذا ما حصل لي مع ألبيرتين. وعندما ينزع منها الكائن الذي لا نكترث له فيغادرنا، نفقد قدرتنا على الحياة. ألم تجمع حجة «فيدر» هاتين الحالتين؟ هيبوليت يهم بالمغادرة. إن فيدر التي حرصت حتئذ على أن تكرس نفسها لعداوته، بسبب هاجسها كما قالت (أو هكذا جعلها الشاعر تقول)، وبالأحرى لأنها لا ترى إلى أين ستصل ولأنها تشعر بأنها غير محبوبة، فيدر هذه فقدت صبرها فأتت وباحت له بحبها؛ وورد هذا في المشهد

الذي ردّدتُه كثيراً:

«يقال إن رحيلاً مفاجئاً يبعدك عنا».

قد يظن المرء أن هذا السبب لرحيل هيبوليت هو ثانوي، إذا ما قيس بسبب موت «تيزيه». وبعد بضعة أبيات، تظاهرت للحظة أن كلامها لم يفهم:

«هل فقدتُ كلَّ اهتمام بمجدي».

وقد يظن المرء أن ذلك عائد لرفض هيبوليت بوحها بحبه:

«أتنسين يا سيدتي أن تيزيه هو أبي وأنه زوجك؟»

ولكن ما كان عليه أن يستنكر هذا الاستنكار، إذ كان بوسع فيدر، أمام السعادة المحققة، أن تحس بالشعور نفسه وهو أنه قليل الشأن. ولكن ما إن رأت السعادة لم تتحقق، حتى ظن هيبوليت أنه أخطأ الفهم فاعتذر. وعلى غراري أنا الذي سلّم فرانسواز رسالتي للتو، فإنها تريد أن يأتي الرفض منه، وإنها تريد أن تدفع بحظها إلى آخر حد:

«أيها الضاري، لقد سمعتني أكثر مما يجب».

ولم يبلغ الأمر تلك القساوات التي رويت لي عن «سوان» تجاه «أوديت» ولا عني تجاه ألبيرتين، وهي قساوات تستبدل الحب السابق بحب جديد قائم على الرحمة والتحنان والحاجة إلى البوح، حب يلوّن الحب الأول، ونجدها في هذا المشهد:

«كنت تمقتني أكثر، ولم أحبك أقل

إن رزاياك كانت تضفي عليك سحراً جديداً».

والدليل على ذلك أن «**الاهتمام بمجده**» ليس الأمر الذي تشبثت به فيدر، فربما غفرت «لهيبوليت» وأهملت نصائح «اينون» (Oenone)، لو لم تعلم حينها أن «هيبوليت» يحب «آريسي» (Aricie). فكم تكون الغيرة - التي تضاهي في الحب فقدان السمعة - محسوسة أكثر من فقدان السمعة. وعندها تركت «اينون» (التي تمثل الجانب الأسوأ فيها) تمارس النميمة على «هيبوليت» دون «الاكتراث بالدفاع عنه» وأرسلت ذلك الذي رفضها

إلى قدر لا تواسيها إطلاقاً رزاياه، لأن موتها الطوعي أتى مباشرة بعد موت هيبوليت. وهكذا على الأقل فإن «راسين» قلّص جميع الهواجس الجانسينية - التي أضفاها على «فيدر»، كما يقول «بيرغوت» (Bergotte)، كي يخفف من إثمها، وعلى هذا النحو شاهدت ذلك المشهد، وهو كناية عن إرهاص لتلك الأحداث الشغفية في حياتي الخاصة. ولم تغير هذه الأفكار شيئاً من تصميمي، فأعدتُ الرسالة إلى «فرانسواز» كي تضعها أخيراً في البريد، وقمت بهذه المحاولة مع ألبيرتين ورأيت فيها عملاً ضرورياً منذ أن علمت أنها لم تتم. قد نخطئ إذا اعتقدنا أن إتمام واجبنا هو شيء بسيط، ذلك أننا ما إن نظن أنه يستطيع ألا يكونه، حتى نتعلق به ثانية، ولا نجد أنه لا يستحق متابعتنا إلا عندما نكون متأكدين من أننا لم نفقده. ومع ذلك فالحق معنا أيضاً. وإذا كان هذا الإتمام، وإذا كانت السعادة لا يظهران صغيرين إلا باليقين، فمع ذلك هما غير ثابتين، فلا يفرزان إلا الأتراح. وبقدر ما تكون هذه الأتراح قوية بقدر ما تتحقق الرغبة، وبقدر ما يستحيل تحملها بقدر ما تستمر السعادة بعض الوقت خلافاً لقانون الطبيعة وبقدر ما تكرسها العادة. وعلى نحو آخر أيضاً، كانت كلتا النزعتين - نزعة الإصرار على إرسال الرسالة، ونزعة الندم على ذلك لظني أنها أُرسلت - تنطويان على حقيقتهما. وفي ما يخص الأولى، غني عن القول أننا نهرول نحو سعادتنا - أو نحو تعاستنا - ونتمنى في الوقت نفسه أن نضع نصب أعيننا، بذلك العمل الجديد الذي راح يرسل عواقبه، انتظاراً لا يتركنا في اليأس المطلق، وبوجيز العبارة إننا نسعى بطرق أخرى غير الطرق التي نتصورها أقل قساوة بالضرورة، لتمرير الداء الذي نكابده. ولكن النزعة الثانية لا تقل أهمية عن الأولى، فلأنها ولدت من الإيمان بنجاح مسعانا، فإنها بكل بساطة البداية، والبداية المسبقة، لتلاشي الوهم الذي سنشعر به قريباً عندما تتحقق الرغبة، وإنها الندم على تثبيت هذا الشكل من السعادة لنا، على حساب الآخرين المستبعدين عنه.

أعدت الرسالة لـ«فرانسواز» وقلت لها أن تذهب بسرعة وتضعها في

البريد. وما إن راحت الرسالة حتى فكرت مجدداً بعودة ألبيرتين واعتبرتها عودة وشيكة زرعت في ذهني صوراً لطيفة حيّدت بلطافتها إلى حد ما المخاطر التي رأيتها لهذه العودة. وكانت نعومة وجودها قربي، وهي النعومة التي أفتقرها منذ مدة طويلة، تُثْملني.

ويمر الزمن، وشيئاً فشيئاً يصبح ما قلناه بشكل كاذب أمراً حقيقياً، وهذا ما جربته أكثر من اللزوم مع «جيلبيرت». فعدم الاكتراث الذي تصنعته عندما توقفت عن النحيب تحقق في نهاية الأمر. وكما قلت ل «جيلبيرت» في عبارة كاذبة أصبحت لاحقاً عبارة حقيقية، إن الحياة قد فصلت بيننا. تذكرت هذه العبارة وقلت لنفسي: «إذا تركت ألبيرتين لبضعة أشهر، فإن أكاذيبي ستصبح حقيقة». والآن بعد أن انقضت الفترة الأصعب، أليس من المتمنى أن تترك هذا الشهر يمضي؟ وإن عادت، فإنني سأتخلى عن الحياة الحقيقية التي لا يسعني الآن تذوقها، ولكنها قد توفر لي بعض اللطائف، بينما تتلاشى تدريجياً ذكرى ألبيرتين.

لم أقل إن النسيان لم يبدأ بالتأثير. ولكن من آثاره أنه جعل العديد من الصور المزعجة لألبيرتين، والساعات المملة التي كنت أقضيها معها، تغيب عن ذاكرتي؛ ومنها أيضاً أنها لم تعد كما كنت أتمنى عندما كانت عندي، وأنها أعطتني عنها صورة مقتضبة جملتها جميع تجاربي العشقية نحو نساء أخريات. وتحت هذا الشكل الخاص، جعلني النسيان أتوق إلى عودتها، مع أنه كان يعمل لتعويدي فراقها، وصار يُريني ألبيرتين أعذب وأجمل.

منذ أن غادرت ألبيرتين، عندما كان يبدو لي أن الآخرين لا يستطيعون أن يلاحظوا أنني بكيت، غالباً ما كنت أقرع الجرس لـ«فرانسواز» وأقول لها: «يجب أن تري ما إذا نسيت الآنسة ألبيرتين شيئاً. فكري في ترتيب غرفتها كي تكون جاهزة عندما تعود». أو أقول لها فقط: «فعلاً، في ذلك اليوم، قالت لي الآنسة ألبيرتين، قالت عشية مغادرتها..» وكنت أريد أن أخفف عند «فرانسواز» الغبطة المقيتة التي كانت تثيرها فيها مغادرة

ألبيرتين، وكنت ألمّح لها أن هذه المغادرة قصيرة؛ كذلك كنت أبغي أن أُظهِر لفرانسواز أنني لم أكن أخشى التكلم عن هذه المغادرة، وأنني أظهرها كأنها مقصودة - كما يفعل بعض الجنرالات الذين يسمون الانسحابات القسرية تراجعاً استراتيجياً مدرجاً في خطة معدّة سلفاً - أو كأنها تشكّل حدثاً كنت أخفي مؤقتاً معناه الحقيقي، ولو لم تكن إطلاقاً كنهاية لصداقتي مع ألبيرتين. ولأنني لهجت باسمها، فقد أردت أخيراً أن أدخل شيئاً منها إلى هذه الغرفة، كقليل من الهواء، لأن مغادرتها قد خلقت فراغاً فيها فلم أعد أقوى على التنفس. ثم يحاول المرء أن يقلل من حجوم ألمه فيدخله في اللغة المحلية فيوصي على طقم مثلاً ويعطي أوامر للعشاء.

عندما رتبت «فرانسواز» الفضولية غرفة ألبيرتين، فتحت درج طاولة صغيرة مصنوعة من خشب الورد كانت صديقتي تضع فيها أشياءها الحميمة التي تخلعها عنها قبل أن تنام، فقالت بدهشة: «يا سيدي لقد نسيت الآنسة ألبيرتين أن تأخذ خاتميها فبقيا في الدرج». وكردّة فعل أولى قلت: «يجب إعادتهما إليها». ولكن قَوْلي بدا كأن عودتها ليست مؤكدة. فأردفت بعد برهة صمت قائلاً: «ولكن لا تشغلي بالك، لأن غيابها لن يطول. أعطيني إياهما وسأرى»، فناولتني إياهما «فرانسواز» مع شيء من الاسترابة. لقد كانت تمقت ألبيرتين، وتصورت - كما كانت هي - أنني لا أؤتمن على رسالة كتبتها صديقتي دون أن أفتحها. فأخذت الخاتمين. وقالت لي «فرانسواز»: «فلينتبه سيدي لئلا يضيّعهما. فهما خاتمان على ما أرى جميلان. لا أعلم من الذي أعطاهما إياها أهو سيدي أم شخص آخر، ولكنني أعرف أنه غني وصاحب ذوق». فأجبت «فرانسواز»: «لست أنا، فالخاتمان لا يأتيان من الشخص نفسه، وعمتها هي التي أعطتها الخاتم الأول، والثاني اشترته هي بنفسها». فصرخت «فرانسواز»: «لا يأتيان من الشخص نفسه؟ تريد أن تمزح يا سيدي، فالخاتمان متشابهان، ما عدا قطع الياقوت الأحمر التي أضيفت إلى أحدهما، لقد نقشت على كليهما صورة

النسر نفسه، وحفرت عليهما في الداخل الحروف ذاتها...». لا أعلم ما إذا كانت «فرانسواز» قد شعرت بالألم الذي سببْته لي، ولكن ابتسامة بدأت ترتسم على شفتيها دون أن تفارقهما من بعد: «كيف؟ النسر نفسه؟ أنت مجنونة، على الخاتم الذي لا يحمل قطع الياقوت رأس رجل» - رأس رجل؟ أين يرى سيدي ذلك؟ بنظاراتي العادية وحدها رأيت فوراً أحد جناحي النسر. فليأخذ سيدي عدسته المكبّرة ليرى الجناح الآخر على الوجه الثاني وليرى الرأس والمنقار في وسطه، إننا نرى كل ريشة، ويا له من صنع جميل! لقد أنستني الحاجة القلقة إلى أن أعرف مدى كذب ألبيرتين عليّ، أنستني أنه كان عليّ أن أحافظ على كرامتي أمام فرانسواز وأن أضع حداً لتلك المتعة الخبيثة التي كانت بها تعذبني وتسيء بها على الأقل إلى صديقتي. كنت ألهث بينما ذهبت «فرانسواز» للبحث عن العدسة المكبرة، وطلبتُ منها أن تُريني النسر المنقوش على الخاتم المزود بالياقوت، فلم تجد صعوبة في أن تُريني الجناحين المرسومين بالطريقة نفسها على الخاتمين، وأن تُريني نتوءات كل ريشة وأن تدلني على الرأس. ولفتت انتباهي أيضاً إلى الكتابات المتشابهة التي أضيفت إليها كتابات أخرى على الخاتم المزود بالياقوت. وكان رمز ألبيرتين محفوراً في الطبقة الداخلية من الخاتمين. وقالت «فرانسواز»: «ولكن ما يدهشني هو أن السيد احتاج إلى كل هذا ليرى أن الخاتمين واحد. ودون رؤيتهما عن قرب، يشعر المرء بالتصنيع ذاته وبالطريقة نفسها في لف الذهب وبالشكل عينه. ويكفي أن أعاينهما، حتى أقسم أنهما يأتيان من الدكان ذاته. هذا معروف مثلما تعرف الطاهية الجيدة مطبخها». أجل، إلى جانب فضولها كخادمة اشتعل فيها الحقد واعتادت تسجيل التفاصيل بدقة مخيفة، انضاف إلى هذه الخبرة وغذاها ذلك الذوق - نعم ذلك الذوق - الذي كانت تبرزه في المطبخ وتؤججه - كما لاحظتُ ذلك في هندامها عندما ذهبت إلى «بالبيك» - أناقة امرأة كانت جميلة ونظرت إلى مجوهرات النساء الأخريات وإلى أدوات زينتهن. ربما ارتكبتُ خطأً في علب الأدوية، فبدل

أن آخذ بضعة أقراص من الفيرونال يوم شعرت بأنني شربت عدداً زائداً من فناجين الشاي، أخذت نفس عدد الأقراص ولكن من الكافيين مما جعل قلبي يخفق ببطء. لقد طلبت من «فرانسواز» أن تغادر الغرفة؛ وكان بودي أن أرى ألبيرتين حالاً. فإلى كذبها البشع وحسدها ممن تجهله، انضاف ألمها الذي كان يدفعها إلى تقديم الهدايا. صحيح أنني كنت أغدقها عليها، ولكن المرأة التي نصرف عليها لا تبدو لنا امرأة كذا حتى نتأكد من أن الآخرين يصرفون عليها. ولكن بما أنني لم أكف عن بذل نقود كثيرة عليها، فلقد أخذتها بالرغم من تلك الخساسة الأخلاقية؛ لقد أبقيت على هذه الخساسة فيها وربما حرضتها وخلقتها عندها. وبما أننا نتمتع بموهبة اختراع الحكايات كي ندغدغ ألمنا، وبما أنه يذهب بنا الأمر - عندما تفترسنا غائلة الجوع - إلى أن نتصور شخصاً مجهولاً يترك لنا ثروة تقدر بمئة مليون، كنت أتصور ألبيرتين بين ذراعيّ وتشرح لي باقتضاب أنها اشترت الخاتم الثاني بسبب تصنيعهما المتشابه، وأنها هي التي طلبت بأن ينقش الصائغ لها أول حرف من اسمها وكنيتها. ولكن هذا التفسير كان حتئذ هشاً، لأنها لم تكن بعد قد حظيت بالوقت الكافي لتغرس في ذهني جذورها الطيبة، ولم يكن ألمي يستطيع أن يهدأ بهذه السرعة. وفكرت في أولئك الرجال الذين يقولون للآخرين إن خليلاتهم لطيفات جداً، ولكنهم يعانون من عذابات مشابهة، وهكذا فإنهم يكذبون على الآخرين وعلى أنفسهم. إنهم لا يكذبون تماماً، فقد كانت لهم مع تلك النساء ساعات لطيفة فعلاً. ولكن ذلك اللطف الذي يبدينه لأصحابهن ويخولهن الافتخار، كل ذلك اللطف الذي يمارسنه مع عشاقهن على انفراد والذي يدفعهم إلى مباركتهن، يحمل ساعات مجهولة تألَم فيها العشيق وشكّ وقام بتحريات فاشلة كي يعرف الحقيقة. نعم لقد ارتبطت مثل هذه الآلام بلذة الحب وبالافتتان بحديث امرأة مهما كان تافهاً؛ ونعلم أنه تافه ولكننا نعطره برائحتها. لم أعد الآن أستطيع استنشاق عطر ألبيرتين عن طريق التذكر. كنت أحمل الخاتمين في يدي ذاهلاً، وكنت أنظر إلى ذلك النسر

العديم الرحمة الذي كان منقاره يعذب قلبي وكان جناحاه المكسوان بالريش الناتئ قد انتزعا الثقة التي كنت أكنها لصديقتي، وكانت براثنه التي أدمت عقلي فجعلته عاجزاً عن الإفلات لحظة واحدة من الأسئلة المتهافتة المتعلقة بذلك المجهول الذي كان النسر يرمز على الأرجح إلى اسمه، دون أن يتركني مع ذلك أقرأه، ذلك المجهول الذي أحبته على الأرجح والذي ربما رأته ثانية منذ مدة قصيرة، لأنني لاحظت الخاتم الثاني في ذلك اليوم السعيد والعائلي الذي قمنا فيه بنزهة إلى غابة بولونيا، ذلك الخاتم الذي بدا فيه النسر كأنه يغرز منقاره في حيز الياقوتة الحمراء الفاتحة بلون الدم.

إذا كنت، على كل حال، لا أكف عن التألم من مغادرة ألبيرتين، فهذا لا يعني أنني لم أكن أفكر إلا فيها. فمن جهة كان سحرها قد راح يغزو منذ مدة طويلة أشياء انتهى بها الأمر إلى الابتعاد قصياً عن ألبيرتين، ولكنها كانت مشحونة بالانفعال نفسه الذي كانت تثيره فيّ عندما يذكرني أحدهم بـ«أنكارفيل» (Incarville) وبعائلة الـ«فيردوران» (Verdurin) وبدور جديد ستلعبه «ليا» (Léa)، فكان هذا يثير فيّ عاصفة من الآلام. ومن جهة أخرى كان ما أسميته أنا التفكير في ألبيرتين، كان يعني التفكير في السبل التي ستعيدها والتي تدفعني إلى اللحاق بها أو إلى معرفة ما تفعله، وخلال ساعات طويلة من العذاب المبرح، لو استطاع أحدهم أن يرسم خطاً بيانياً يظهر فيه الصورة المصاحبة لألمي لرأى صورة «محطة أورسيه» (Orsay) وصورة الأوراق النقدية التي قدمت للسيدة «بونتان» وصورة «سان لو» المنحني فوق القمطر المائل في مركز البريد والبرق حيث كان يصوغ نص برقية لي، ولما رأى أية صورة لألبيرتين. أثناء حياتنا كلها، لمّا كانت أنانيتنا ترى دائماً أمامها الأهداف النفسية لهذه الأنا، دون أن تنظر قط إلى تلك الأنا ذاتها التي لم تكف عن تثمينها، كذلك كان أمر الرغبة التي تسير أفعالنا فتهبط نحوها دون العودة إلى الذات، إما لأن هذه الرغبة غير المفيدة تزج نفسها في معترك العمل وتحتقر المعرفة، وإما لأنها تبحث عن

مستقبل لتصحيح خيبات الحاضر، وإما لأن الكسل الذهني يدفع الفكر إلى الانزلاق نحو سفوح الخيال السهلة بدلاً من صعود سفوح الاستبطان الوعرة(*). والحقيقة أننا في تلك الساعات المأزومة التي نُراهنُ فيها على حياتنا، كلما توغل الإنسان المرتبط بها في كشف رحابة المكان الذي يشغله من أجلنا، وكلما ترك هذا الكائن شيئاً في العالم بدون أن يقلبه رأساً على عقب، كلما لاحظنا أن صورة هذا الإنسان تنحسر نسبياً بحيث تتلاشى عن أبصارنا. ونجد في جميع الأشياء أثراً على وجود هذا الكائن من خلال الانفعال الذي نشعر به؛ أما السبب - أي ذاتُ هذا الكائن - فلا نجده في أي مكان. وخلال تلك الأيام كنت عاجزاً جداً عن تصور

(*) كدت أشتري بثمن السيارات أجمل يخت في العالم. كان معروضاً للبيع ولكن بسعر غال جداً فلم يرغب فيه أي شار. لنفترض أننا - بعد شرائه - سنقوم برحلات تستغرق أربعة أشهر، فكيف نؤمن صيانته التي تكلف سنوياً مئتي ألف فرنك؟ كنا عندئذ سنعيش على مبلغ يتجاوز نصف مليون فرنك سنوياً. أأستطيع أن أصمد أكثر من سبع أو ثماني سنوات؟ ولكن هذا لا يهم، عندما لا يبقى لدي إلا خمسون ألف فرنك، عندئذ سأتركها لألبيرتين وأنتحر. هذا هو قراري لقد جعلتني أفكر بأناي. وبما أن هذه الأنا تعيش دائماً وهي تفكر بجملة من الأشياء وبما أنها ليست إلا فكرة هذه الأشياء، فإنها عندما تكتشف عن طريق الصدفة أنها بدل أن تنكب على هذه الأشياء تفكر فجأة في نفسها، لا تجد عندئذ إلا آلة فارغة أو أنها تجد شيئاً لا تعرفه، ولكي تضفي عليه شكلاً واقعياً نراها تضيف ذكرى صورة لمحتها في المرآة. إن هذه الابتسامة الغريبة المضحكة، وهذين الشاربين المتفاوتي الطول ستزول كلها من فوق سطح الأرض. عندما سأنتحر بعد خمس سنوات، سأكف عن التمكن من التفكير في جميع هذه الأشياء التي تراود بالي دون انقطاع، فأزول عن وجه الأرض ولن أعود إليها ثانية وسيتوقف تفكيري إلى الأبد. لقد تراءت لي أناي أكثر وضاعة عندما رأيتها شيئاً لم يعد موجوداً. كيف يصعب على المرء أن يضحي لتلك التي تصبو أفكاره نحوها دون انقطاع (لتلك التي يحبها)، وكيف يضحّي بذلك الكائن الآخر الذي لا يفكر فيه قط، أن يضحّي بذاته؟ تراءت لي فكرة موتي فريدة، شأنها شأن مفهوم أناي، ولم أجدها فكرة بغيضة. وفجأة وجدتها تعيسة لدرجة البشاعة؛ وعندما فكرت في أنني لن أتمكن من الحصول على نقود أكثر، وفي أن والديَّ ما زالا على قيد الحياة، فكرتُ فجأة في أمي. ولم أحتمل فكرة تألمها بعد موتي.

ألبيرتين بحيث إنني لم أستطع التصديق بأنني لا أحبها، فهي كأمي التي كانت، في فترات بأسها التي عجزتْ فيها عن تكوين صورة لجدتي (ما عدا مرة التقتْ بها صدفة في حلم شعرتْ بأهميته القصوى، فحاولتْ - في نومها - وبجميع القوى التي بقيت لها أن تطيل مدة الحلم) تستطيع اتهام نفسها - واتهمَتْها فعلاً - بأنها لم تأسف لموت أمها الذي كان يقتلها، بل أسفت لملامحها التي كانت تهرب من ذاكرتها.

لماذا ظننت أن ألبيرتين لا تحب النساء؟ لأنها قالت، وخاصة في الآونة الأخيرة، إنها لا تحبهن؛ ولكن ألا ترتبط حياتنا بأكذوبة دائمة؟ لم تقل لي قط: «لماذا لا أستطيع أن أخرج بحرية؟ ولماذا تسأل الآخرين عما أفعل؟» صحيح أنها كانت حياة فريدة جداً بحيث إنها لم تطلب مني إذا لم تفهم لماذا. وإزاء صمتي عن أسباب حجرها ألم يكن من المفهوم أن يتماشى من طرفها مع صمت دائم لا يتغير حول رغباتها المستمرة وذكرياتها التي لا تحصى وأهوائها وآمالها التي لا حصر لها؟ كان يبدو على «فرانسواز» أنها تعرف أنني أكذب عندما كنت ألمّح إلى عودة ألبيرتين الوشيكة. وكان اعتقادها مؤسساً على شيء أكثر من هذه الحقيقة التي توجه بالعادة خادمتنا، وهي أن الأسياد لا يحبون أن يتعرضوا للإهانة أمام مستخدميهم ولا يعلمونهم من الحقيقة إلا ما لا يبتعد كثيراً عن القصص المدائحية التي تهدف إلى تغذية الاحترام. ولكن اعتقاد «فرانسواز» هذه المرة كان يبدو مؤسَّساً على شيء آخر، كما لو أنّها أيقظت الحذر في ذهن ألبيرتين ورعته وأثار سخطها، أي أنها دفعت بها بحيث توقعت «فرانسواز» أن رحيل صديقتي لا مفر منه. وإذا صح ذلك، فإن روايتي حول مغادرة مؤقتة أعرفها وأقرها، لم تلقَ عند «فرانسواز» إلا عدم التصديق. ولكن الفكرة التي كونتها عن طبيعة ألبيرتين المغرضة، ومبالغتها - لحقدها - في تكسّب ألبيرتين مني، كانتا إلى حد ما تفشلان يقينها. وعندما كنت ألمّح إلى عودة ألبيرتين القريبة كشيء طبيعي جداً، كانت «فرانسواز» تتفرس فيّ (كما لو أن رئيس الخدم في فندق ما قرأ لها خبراً سياسياً غيّر فيه الكلمات

وترددت هي في تصديقه، كأن يقول إن الكنائس قد أغلقت وإن الكهنة سيُنْفَون، وكانت «فرانسواز» حتى من زاوية المطبخ، تنظر إلى الجريدة بغريزية ونهم)، كما لو أنها استطاعت أن ترى ما هو مكتوب فعلاً وتأكدت من أنني لا ألفّق.

ولكن عندما رأت أنني كتبت رسالة مطولة وأنني أبحث عن عنوان «مدام بونتان» الدقيق، انتاب «فرانسواز» ذعر من عودة ألبيرتين. وأضافت إلى هذا الذعر ذهولاً حقيقياً عندما سلّمتني رسالة عرفت خط ألبيرتين على مغلفها. وكانت تتساءل ما إذا كانت مغادرة ألبيرتين مجرد تمثيلية، وهو افتراض كان يؤسيها مرتين، مرة كمسؤولة نهائياً عن مستقبل حياة ألبيرتين في البيت، ومرة لشعورها بالمذلة من كوني سيد «فرانسواز» ومن خديعة ألبيرتين لها. وعلى الرغم من أنني كنت أتلهف لقراءة رسالة هذه الأخيرة، لم أستطع أن أمنع نفسي من النظر لحظة في عيني «فرانسواز» اللتين تبددت فيهما جميع الآمال، إذ استدلت من هذا النذير عودة ألبيرتين الوشيكة، شأنها في ذلك شأن هاو للرياضات الشتائية يستنتج بفرح أن موجات البرد قريبة، وذلك من رؤيته السنونو يهاجر. وأخيراً ذهبت «فرانسواز»، وعندما تأكدتُ من أنها أغلقت الباب وراءها، فتحتُ الرسالة دون إصدار ضجة كي لا يبدو عليّ القلق، وهذا فحواها:

«يا صديقي أشكرك على جميع الأخبار الطيبة التي تذكرها لي، إنني رهن إشارتك لإلغاء طلبية الرولس، إن اعتقدت أنني قادرة على فعل شيء، وأظنني قادرة. فما عليك إلا أن تذكر لي اسم وسيطك. أتترك هؤلاء الناس يكيدون، مع العلم أنهم لا يبحثون إلا عن شيء واحد، هو البيع؟ وماذا تفعل بالسيارة أنت الذي لا يخرج أبداً؟ إنني متأثرة لأن نزهتنا الأخيرة تركت فيك ذكرى جميلة. من جهتي يجب أن تصدق أنني لن أنسى تلك النزهة الثنائية الغسق (لأن الليل قد بدأ ولأننا سنترك بعضنا) وأنها لن تمحى من ذهني إلا مع الليل التام».

فأحسست أن هذه العبارة الأخيرة لم تكن سوى كلام بكلام وبأن

ألبيرتين لم تحتفظ حتى ساعة موتها بذكرى رقيقة جداً عن تلك النزهة التي لم تشعر فيها حقاً بأية متعة لأنها كانت متلهفة لهجري. ولكنني أعجبتُ أيضاً، كما سائقة الدراجة، بلاعبة الجولف القادمة من «بالبيك» والتي لم تقرأ شيئاً سوى مسرحية «أستير» قبل أن تعرفني ورأيتُ أنها موهوبة، وكم كنت مصيباً في أنها اكتسبت في بيتي صفات جديدة جعلت منها شخصاً مختلفاً وأكثر اكتمالاً(*). وهكذا قلت لها في «بالبيك» العبارة التالية: «أظن أن صداقتي ستكون نفيسة لك وأنني فعلاً الشخص الذي يستطيع أن يقدم لك ما ينقصك» - وكتبت على قفا إحدى الصور الضوئية: «مع اليقين بأن ذلك سيكون خارقاً» - هذه العبارة التي قلتها لها دون أن أؤمن بها لأجعلها تتوق إلى رؤيتي وتتجاوز الملل الذي قد يعتريها، وبدا أن هذه العبارة صحيحة هي أيضاً؛ وهذا في المحصلة يشبه ما فعلتُه عندما قلت لها إنني لا أريد أن أراها خوفاً من وقوعي في حبها. لقد تفوهتُ بهذا لأنني على العكس، كنت أعلم أن حبي يخمد بسبب المعاشرة المستمرة، وأن الفراق يؤججه؛ ولكن المعاشرة المستمرة خلقت حاجة إليها أقوى من حب الأيام الأولى في «بالبيك»، بحيث أثبتت هذه الجملة صحتها هي أيضاً.

ولكن رسالة ألبيرتين في المحصلة لم تقدم الأشياء قيد أنملة واحدة. إنها لم تتكلم إلا عن كتابة رسالة للوسيط. فوجب الخروج من هذا الموقف واستعجال الأمر، وخطرت على بالي الفكرة التالية. فوراً أرسلتُ رسالةً إلى «أندريه» أقول لها فيها إن ألبيرتين هي عند عمتها وإنني أشعر بوحدة قاتلة وإنني سأكون سعيداً جداً إذا أتت لتقيم عندي بضعة أيام وإنني لا أريد أن أخفي شيئاً فرجوتها أن تخبر ألبيرتين. وفي الوقت ذاته كتبت لألبيرتين كما لو أنني لم أستلم رسالتها:

(*) في عام (١٩٠٥) تم في صالون الكونتيس «دي غيرن» اداء قصائد مغناة ألفها ولحنها «رينالدوهان»، وهي مقتبسة من قصة «أستير» التوراتية ومن مسرحية «جان راسين» المعروفة. (المترجم).

«سامحيني يا صديقتي، لأنك تتفهمين الأمر جيداً، فإنني أمقت الكتمان لذا أردت أن تطلعي على الأمر منها ومني. بسبب إقامتك اللطيفة في بيتي، أخذت عادة سيئة وهي ألا أبقى وحدي. وبما أننا قررنا أنك لن تعودي، رأيت أن الشخص الذي سينوب عنك على أفضل وجه، لأنه سيغيرني إلى الحد الأدنى، وسيذكّر بك إلى الحد الأقصى، هو الآنسة أندريه؛ ولهذا السبب طلبت منها أن تأتي. ولكي لا يظهر تسرع في القرار، قلت لها إن الإقامة ستكون دائمة. ألا تظنين أنني على حق؟ تعرفين أن مجموعتكم الصغيرة من فتيات «بالبيك» كانت دائماً النواة الاجتماعية التي مارست عليَّ أكبر تأثير وسعدتُ بقبولي فيها. وبدون شك لا أزال أشعر بهذا الامتياز. وبما أن قدر طبعينا ونكد الحياة قد شاء ألا تستطيع ألبيرتين الصغيرة أن تصبح زوجتي، أظن أنني مع ذلك سأحصل على امرأة - هي أقل جمالاً منها، ولكن الانسجام الأكبر لطباعنا سيسمح لها ربما بأن تكون أكثر سعادة معي - في شخص أندريه».

ولكنني بعد أن أرسلت هذه الرسالة، ساورني الشك فجأة في أن ألبيرتين، عندما كتبت لي: «**سأكون سعيدة جداً بأن أعود إن كتبت لي ذلك مباشرة**»، لم تقل لي ذلك إلا لأنني لم أكتب لها مباشرة ولأنني، لو فعلت، لما عادت، رغم ذلك، وأنها ستكون مسرورة عندما تعرف أن أندريه عندي وأنها ستصبح زوجتي، بشرط أن تكون هي - أي ألبيرتين - حرة، لأنها تستطيع منذ ثمانية أيام أن تستسلم لرذائلها وتهدّم الاحتياطات الدائمة التي اتخذتُها في باريس منذ أكثر من ستة أشهر والتي أصبحت غير مفيدة، لأنها خلال هذه الأيام الثمانية قد فعلت دقيقة بعد دقيقة ما سبق لي أن منعتها عنه. كنت أقول إنها هناك تسرف على الأرجح في استخدام حريتها، وقد تكون هذه الفكرة محزنة لي، ولكنها بقيت فكرة عامة، دون أن تظهر لي شيئاً خاصاً، وإنها - بالعشيقات العديدات الممكنات اللواتي دفعتني إلى احتمالهن - دون أن أتوقف عند واحدة منهن، كان ذلك

يحرض ذهني إلى نوع من الحركة المستمرة التي لا تخلو من الألم، ولكنه ألم يطاق لأنه يفتقر إلى الصورة المادية. بيد أنها كفت عن ذلك وأصبحت مقيتة عندما وصل «سان لو».

ولكنه قبل أن يتلفظ بالكلمات التي قالها والتي جعلتني في منتهى التعاسة، يجب أن أذكر حادثة وقعت تواً قبل زيارته وجعلتني ذكراها أضطرب، مع أن «سان لو» - إن لم يخفف الانطباع المر الذي أثاره في حديثي معه - فعلى الأقل خفف الوقع العملي لهذا الحديث. وفحوى الحادثة كالتالي. لأنني كنت أتحرق لرؤية «سان لو»، عيل صبري وانتظرته أمام الدرج (وهذا أمر لم أكن أستطيع فعله، لو كانت أمي موجودة هنا، لأن أمقت شيء لديها في العالم هو «التكلم عبر النافذة»)، وسمعت عندئذ الكلمات التالية: «كيف، ألا يمكنك طرد شخص لا يعجبك؟ ليس الأمر صعباً، ما عليك مثلاً إلا أن تخفي الأشياء التي يجب أن يأتي بها. وعندما يناديه مستخدموه بسرعة، لا يجد شيئاً فيفقد صوابه. وتقول عنه عمتي غاضبة: «ولكن، ماذا يفعل؟» وعندما يصل متأخراً، سيغضب منه الجميع ولن يحصل على الشيء الضروري معه. وبعد أربع أو خمس مرات، تأكدْ أنه سيطرد، لا سيما إذا حرصتَ على أن تلوث خفيةً الثياب النظيفة التي سيأتي بها. وألف شيء مثلها». وبقيت واجماً من الذهول، لأن لسان «سان لو» هو الذي كان يتفوه بهذه الكلمات المكيافيلية والقاسية. ذلك أنني كنت أعتبره دائماً إنساناً شديد الطيبة، رحيماً جداً مع البؤساء، لدرجة أنه أثار الانطباع عندي بأنه يمثل دون جدية دور الشيطان؛ ولذا يستحيل أنه كان يتكلم بلسانه الخاص. وأجابه محاوره الذي لمحته عندئذ والذي كان من خدم وحشم الدوقة «دو غيرمانت» فأجابه «سان لو» بخبث: «ولماذا لا تفعل ذلك طالما أنك ستكون في وضع أحسن. وعلاوة عليه فإنك ستُسعد بخلق هذه المنغصات. تستطيع مثلاً أن تلقي بعض المحابر على نصه الموسيقي في وليمة سيقيمها؛ وفي النهاية يجب ألا تترك له دقيقة يرتاح فيها، بحيث يفضل في المحصلة أن ينصرف. أما أنا فسأساهم في إنجاح

المسألة، وسأقول لعمتي إنني معجب بالصبر الذي تبذله في خدمة رجل ثقيل الدم وعليل كهذا». فأظهرت له جسمي، فتوجه «سان لو» نحوي، ولكن ثقتي به قد تزعزعت، إذ سمعت أشياء مختلفة عما عهدت من قبل. وتساءلت: إذا كان يستطيع التصرف مع أحد المساكين بهذه الضراوة، فإنه قادر على تمثيل دور الخائن معي في المهمة التي أُرسِلَ فيها إلى السيدة «بونتان». وساهمت هذه الفكرة بخاصة في عدم اعتبار إخفاقه كدليل على أنني لا أستطيع النجاح، ما إن يتركني. ولكن بعد أن دنا مني، فكرت في «سان لو» القديم، وخاصة في الصديق الذي غادر السيدة «بونتان» لتوه. وقال لي أولاً: «تجد أنه كان ينبغي عليَّ أن أتلفن لك أكثر، ولكنهم كانوا يقولون دائماً إنك لست حراً». غير أن ألمي أصبح لا يطاق عندما قال لي: «سأبدأ بالبرقية الأخيرة التي تركتك عندها؛ فبعد أن دخلت صالة تشبه الهنغار، دخلت إلى البيت، وبعد أن قطعت أحد الأروقة أُدخلت إلى غرفة استقبال». وإزاء كلمات «هنغار» و«رواق» و«غرفة استقبال»، وقبل أن ينتهي من نطقها، وجف قلبي بسرعة تفوق التيار الكهربائي، لأن القوة التي تجوب الأرض بثانية واحدة ليست الكهرباء وإنما الألم. وكم كررت كلمات «هنغار» و«رواق» و«غرفة استقبال» بعد ذهاب «سان لو»، مجدداً الصدمة كما طاب لي. ففي الهنغار، يستطيع المرء أن يختبئ مع إحدى الصديقات. وفي غرفة الاستقبال هذه، من يعلم ما كانت تفعله ألبيرتين أثناء غياب عمتها. وماذا؟ تصورت إذن البيت الذي تسكنه ألبيرتين كبيت يستحيل أن يوجد في هنغار أو غرفة استقبال. كلا، إنني لم أتصوره قط، أو إنني تصورت مكاناً غامضاً. في المرة الأولى تألمت عندما تشخصن جغرافيا المكان الذي كانت فيه، لما علمت أنها في منطقة «التورين»، بدل أن تكون في مكانين أو ثلاثة أمكنة ممكنة. وكانت كلمات حارسة بنايتها قد طبعت في قلبي، كما على خريطة، المكان الذي يجب أخيراً أن أتألم له. ولكنني عندما تعودتُ تلك الفكرة القائلة بوجودها في أحد بيوت «التورين»، لم أشاهد البيت، ولم تخطر قط في خيالي تلك الفكرة الشنيعة

لغرفة استقبال وهنغار ورواق؛ وبدت لي الآن كلها فوق شبكية «سان لو» الذي كان قد شاهد تلك الغرف التي تخطر فيها الآن ألبيرتين وتمر وتعيش؛ إنها تلك الغرف بخاصة، وليست غرفاً ممكنة هدمت الواحدة منها الأخرى. ومع كلمات «هنغار» و«رواق» و«غرفة استقبال»، تجلّى لي جنوني لأنني تركت ألبيرتين مدة ثمانية أيام في ذلك المكان الملعون الذي تبلور لي وجوده للتو (ولم يكن مجرد احتمال). ويا حسرتي، عندما قال لي «سان لو» إنه في غرفة الاستقبال هذه سمع غناء ينطلق بصوت عال من الغرفة المجاورة وإن ألبيرتين كانت هي التي تغني، فهمت بقنوط أن ألبيرتين بعد أن تخلصت أخيراً مني، كانت سعيدة، لقد استعادت حريتها. أما أنا فكنت أفكر أنها ستعود لتاخذ مكان «أندريه» (Andrée) فتحول عندئذ ألمي إلى غضب من «سان لو».

- كل ما طلبت منك تحاشيَه هو ألا تعلم بأنك آت.

- أتظن الأمر سهلاً. لقد أكدوا لي أنها لم تكن هنا. أعرف تماماً أنك لست مسروراً مني، لقد شعرت بذلك في برقياتك. ولكنك لست عادلاً، لقد عملت ما استطعت.

عندما أطلق سراحها وغادرتْ القفص، بقيتُ في بيتي أياماً كاملة دون إدخالها إلى غرفتي، أرى أنها قد استعادت كل قيمتها، فعادت لتصبح الفتاة التي كان الجميع يلاحقونها والعصفور الرائع في الأيام الأولى.

- «أخيراً لنختصر. بالنسبة لمسألة المال، لا أعرف ماذا أقول لك، لقد تكلمت مع امرأة بدت لي في غاية الرقة بحيث خشيت أن أجرح مشاعرها. ولكنها لم تتعجب عندما تكلمتُ عن النقود. لا بل قالت لي لاحقاً إنها متأثرة لإحساسها بأننا في غاية التفاهم. ومع ذلك، فكل ما قالته لي فيما بعد كان رقيقاً جداً ورفيعاً جداً، بحيث بدا لي أنه يستحيل قولها ذلك من أجل المال الذي قدمتُه لها: «إننا في غاية التفاهم، وكنت في الواقع أتصرف كجاموس.

- ولكنها ربما لم تسمع، كان بوسعك أن تكرر قولك لها، لأن هذا بالتأكيد هو الذي كان يستطيع أن يُنجِح كلَّ شيء.

- ولكن كيف تقول إنها لم تسمع؟ قلت لها ذلك كما أكلمك الآن، وهي ليست صماء ولا مجنونة.

- ولم تعلق على ذلك إطلاقاً؟

- إطلاقاً.

- كان عليك أن تكرر قولك.

- كيف تريدني أن أكرر؟ ما إن دخلتُ ورأيت شكلها قلت لنفسي إنك أخطأت وإنك جررتني إلى غلطة هائلة، وكان من الصعب جداً أن أقدم لها هذا المال هكذا. ومع ذلك فعلته لأطيعك، وكلي اعتقاد أنها ستطردني شر طردة.

- ولكنها لم تفعل. إذن، إما أنها لم تسمع ووجبَ التكرار، أو أنك تستطيع الاستمرار في هذا المنحى..

- تقول «إنها لم تسمع» لأنك أنت هنا، ولكنني أكرر لك أنك لو سمعت حديثنا، لما شعرت بأية مشكلة، لقد قلت لها ذلك بفجاجة، ومن المستحيل أنها لم تسمع.

- ولكنها مقتنعة تمام الاقتناع بأنني أردت دائماً أن أتزوج بنت أخيها.

- كلا، إن أردت رأيي، أقول إنها لم تكن تظن أنك تنوي الزواج إطلاقاً وقالت لي إنك قلت أنت لبنت أخيها إنك تريد هجرها. ولا أعلم الآن إن كانت مقتنعة بأنك تريد الزواج».

كان ذلك يطمئنني قليلاً ويثبت لي أن إذلالي كان خفيفاً وأنه ما زال بوسعي أن أُحَبَّ وأن أكون أكثر حرية للإقدام على مبادرة حاسمة. ومع ذلك كان الألم يعصرني.

- «إنني منزعج لرؤيتي إياك غير راض.

- إنني أقدر لطفك وأشكرك عليه، ولكن يبدو لي أنه كان بوسعك. . .

- فعلت ما أستطيع. لا يقدر شخص آخر أن يفعل أكثر مما فعلت أو يضاهيه. جرب مع آخر.

- كلا، لو عرفت لما أرسلتك، ولكن مسعاك الفاشل يمنعني من الإقدام على مسعى آخر».

كنت ألومه على أنه حاول تأدية خدمة لي ولم ينجح. وأثناء انصراف «سان لو» التقى بفتيات يدخلن. غالباً ما افترضت أن ألبيرتين كانت تعرف فتيات في المنطقة، وكانت المرة الأولى التي شعرت فيها بالعذاب من جراء ذلك. وفعلاً يجب على المرء أن يؤمن بأن الطبيعة منحت ذهننا قوة ليفرز ترياقاً طبيعياً يقتل الافتراضات التي نعملها دون هوادة ودون خطر في آن؛ ولكن لا شيء كان يقيني من هؤلاء الفتيات اللواتي التقى بهن «سان لو». غير أن هذه التفاصيل عن ألبيرتين، ألم أبحث عنها لدى كل شخص؟ وللاطلاع عليها بالذات، ألست أنا الذي طلب من «سان لو» الذي استدعاه عقيده في الجيش، أن يأتي إليّ مهما كلف الأمر؟ أفلستُ أنا الذي تمناها، أو بالأحرى أليس ألمي الجائع والطامع في النمو والتغذي بها هو الذي فعل ذلك؟ أخيراً لقد روى لي «سان لو» أنه وقع على صدفة جميلة وهي أنه التقى قريباً من هنا - وهذا وجه وحيد للمعرفة ذكره بالماضي - بصديقة قديمة لـ«راشيل»، وهي ممثلة جميلة كانت تقضي عطلتها الصيفية في الجوار. ويكفي ذكر تلك الممثلة لأقول لنفسي: «ربما مع هذه»؛ وكان ذلك يكفي لأرى، بين ذراعي امرأة لا أعرفها، ألبيرتين تبتسم وتحمر من الفرح. وفي الحقيقة، لماذا لم يحدث ذلك؟ هل أنا امتنعت عن التفكير في النساء منذ أن عرفت ألبيرتين؟ في مساء ذلك اليوم الذي ذهبت فيه لأول مرة إلى «أميرة غيرمانت»، عندما عدتُ، ألم أفكر أقل بكثير في هذه الأخيرة وأهمل الفتاة التي كلمني عنها «سان لو» والتي كانت تتردد على بيوت الدعارة وأهمل أيضاً وصيفة السيدة «بوتبوس» (Mme Putbus)؟ ألم

أرجع إلى «باليك» بسبب هذه الأخيرة؟ ومؤخراً، رغبت في الذهاب إلى مدينة البندقية، فلماذا لم ترغب ألبيرتين في الذهاب إلى الـ«تورين»؟ في الواقع، الآن فقط أدرك ذلك؛ لو لم أتركها، لما ذهبتُ إلى البندقية. وحتى في أعماقي، عندما كنت أقول لنفسي: «سأهجرها قريباً»، كنت أعلم أنني لن أهجرها من بعد، وكنت أعلم أيضاً أنني لن أعود إلى العمل، ولن أحيا حياة صحية، أي كل ما كنت أعد به نفسي كل يوم لليوم التالي. رأيت فقط أنه من الأدهى - وهذا ما آمنت به - أن أتركها تعيش تحت تهديد الهجر المستمر. والأرجح أنني، بفضل مهارتي المقيتة، أقنعتها بذلك تماماً. على كل حال، لن يبقى الأمر كما هو الآن، فلا أستطيع أن أبقيها في «التورين» مع أولئك الفتيات ومع تلك الممثلة؛ ولم أكن أقوى على احتمال التفكير في هذه الحياة التي كانت تفلت مني. كنت أنتظر إجابتها على رسالتي: إن فَعَلَت الشر، للأسف، فيوم زائد أو يوم ناقص لا يؤثر إطلاقاً (قلت ذلك لنفسي، بعد أن فقدت عادة عد كل دقيقة من دقائقها، إذ تكفي واحدة حرة منها لإصابتي بالجنون، لأن غيرتي لم تعد تخضع لتقسيم الزمن نفسه). ولكن ما إن أستلمُ ردها، حتى أذهب لإحضارها إذا ما رجعت؛ سأنتزعها من صويحباتها طوعاً أو كراهية. أليس الأفضل أن أذهب إليها بنفسي، بعد أن اكتشفت الآن خبث «سان لو» الذي لم أشك فيه حتى الآن؟ من يعلم إن لم يكن قد حاك مؤامرة كبيرة ليفصلني عن ألبيرتين؟

هل السبب هو أنني تغيرتُ، هل هو لأنني لم أفكر إلا بأسباب طبيعية قادتني ذات يوم إلى هذا الوضع الاستثنائي، ولكنني سأكون كاذباً الآن لو كتبت لها، كما قلت لها ذلك في باريس، إذ تمنيت ألا يصيبها أي مكروه. آه! لو حدث مكروه، لكنت وجدت فوراً السعادة، ووجدت على الأقل الهدوء بعد زوال الألم، بدل أن تتسمم حياتي بهذه الغيرة المستدامة.

زوال الألم؟ هل أستطيع فعلاً أن أصدق ذلك، أن أصدق أن الموت لا يؤدي إلا إلى شطب ما هو موجود وترك الباقي على حاله، أي أنه يزيل

الألم من قلب الذي يَعتبر أن وجود الآخر ما هو إلا سببٌ للآلام، يزيل الألم ولا يدع في القلب شيئاً مكانه؟ زوال الألم! بعد أن تصفحت صفحة الأحداث المختلفة في الجرائد، ندمت على قلة شجاعتي من تحقيق الأمنية نفسها التي تمناها «سوان». لو وقعت ألبيرتين ضحية حادث ما، لوجدت ذريعة - إن بقيت على قيد الحياة - أن أهرع إليها، ولوجدت - إن ماتت - حرية الحياة، كما كان يقول «سوان». هل اعتقدت ذلك؟ إن هذ الرجل الرقيق الحاشية والذي كان يظن أنه يعرف نفسه، قد اعتقد ذلك. كم يجهل الإنسان ما في قلبه! وفيما بعد، لو بقي على قيد الحياة، لأخبرته أن أمنيته مجرمة وعبثية في آن، وأن موت التي كان يحبها لم ينقذه من شيء!

نسيت كل عزة نفس تجاه ألبيرتين، وأرسلت لها برقية قانطة طلبت منها فيها أن تعود مهما كانت الظروف، وقلت لها إنها ستفعل كل ما تريد، وإنني لن أطلب منها إلا أن أقبّلها ثلاث مرات في الأسبوع ولمدة دقيقة قبل ذهابها إلى النوم. وقد تقول: مرة واحدة فقط، إن قبلت بمرة.

لم تعد قط. فبعد ذهاب برقيتي تلقيت برقية من السيدة «بونتان». فالعالم لم يُخلق إطلاقاً لكل واحد منا، إذ تنضاف إليه خلال الحياة أشياء لم تخطر على بالنا. آه! إن السطرين الأولين من البرقية لم يزيلا ألمي: «**أيها الصديق المسكين، إن صغيرتنا ألبيرتين قد رحلت. سامحني على إعلامك بهذا الخبر الشنيع، أنت الذي أحببتها للغاية. أثناء تنزهها أسقطها حصانها على جذع شجرة. ولم تُفلح كل مساعينا لإعادة الروح إليها. ليتني متُّ عوضاً عنها!**» لا، ليس زوال الألم، بل ألم مجهول، ألم أن تعلم أنها لن تعود. ولكن ألم أقل لنفسي عدة مرات إنها قد لا تعود؟ لقد قلت ذلك فعلاً، ولكنني أدرك الآن أنني لم أصدّق قولي لحظة واحدة. وبما أنني كنت أحتاج إلى وجودها وقبلاتها لأتحمل الألم الذي سببته لي مظانّي، فقد اعتدت منذ «بالبيك» أن أكون دوماً معها. وحتى عندما كانت تخرج، وكنت أبقى وحيداً، كنت أقبّلها أيضاً. واستمر الأمر

كذا بعد أن ذهبت إلى «التورين». لقد كنت أحتاج إلى عودتها أكثر من حاجتي إلى وفائها. وحتى إذا استطاع عقلي دون عقاب أن يشك أحياناً في ذلك، لم يكفّ خيالي لحظة عن تصوره. وبطريقة غريزية لمست بيدي عنقي وشفتيّ، وتصورت قُبَلها عليها بعد رحيلها، تلك القبل التي لن تعود. وضعت يدي عليها، كما لامستني أمي بعد موت جدتي وقالت لي: «يا صغيري المسكين، جدتك التي كانت تحبك حباً جماً لن تقبّلك من بعد». وانتزعت من قلبي كل حياتي في المستقبل. حياتي في المستقبل؟ ألم أفكر أحياناً بأن أعيشها بدون ألبيرتين؟ كلا! منذ أمد طويل، وهبتها كل دقائق حياتي حتى مماتي؟(*) هذا بالتأكيد! إن هذا المستقبل اللاصق بها لم أعرف كيف أدركه، ولكنه بعد أن تلاشى الآن، شعرت بالمكان الذي كان يحتله في قلبي المجروح. وعندما دخلت «فرانسواز» إلى غرفتي، ولم تكن بعد تعلم شيئاً، صرختُ في وجهها بغضب: «ماذا تريدين؟» (هناك أحياناً كلمات تجعل الواقع يتغير في المكان المجاور لنا، فتُصِمّ آذاننا وتصيبنا بالدوار) «ليس عليك يا سيدي أن تغضب. بالعكس ستكون مسروراً جداً. هاتان هما رسالتان من الآنسة ألبيرتين».

وبعدها شعرت بأن لي عيني رجل فقد توازنه العقلي. فلم أكن سعيداً ولا غير مصدّق. كنت كرجل يرى المكان ذاته في غرفته تحتله كنبة ومغارة. لا شيء يبدو له أكثر واقعية، فيسقط أرضاً. لقد كُتبتْ رسالتا ألبيرتين قبيل نزهة الموت. تقول الرسالة الأولى:

«يا صديقي أشكرك على دليل ثقتك التي توليني إياها عندما تقول إنك تنوي استقدام أندريه (Andrée) إلى بيتك. إنني متأكدة أنها ستقبل بكل سرور وأظن أن ذلك سيُسعدها. ولأنها ذكية، فستعرف الاستفادة من رفقة رجل مثلك ومن التأثير الرائع الذي تعرف كيف تمارسه على الشخص. أظن أنها فكرة جيدة ستجلب الخير لها ولك. وإذا تعرضتَ

(*) آثر بروست أن يضع لهذه الجملة الإخبارية نقطة استفهام. (المترجم).

لأدنى صعوبة معها (وهذا لا أعتقد حدوثه)، تلفن لي، وأنا أتكفل بالتأثير فيها».

وكانت الرسالة الثانية مؤرخة بعد الأولى بيوم. في الواقع لقد كتبتهما في لحظات متقاربة، وربما معاً، وسبقت تاريخ الرسالة الأولى. وطيلة الوقت كنت أفكر في عبثية نواياها التي كانت ترغب في العودة إليّ، كما كنت أتصور رجلاً غير مغرض، رجلاً يفتقر إلى الخيال، كمفاوض في معاهدة سلام أو كتاجر يبحث في إحدى الصفقات، يستطيع أن يحكم أفضل مني. لم تكن الرسالة تحتوي إلا على هذه الكلمات:

«هل نأخر الوقت لأعود إليك؟ إذا لم تكتب بعد إلى أندريه أترضى باستعادتي؟ إنني رهن إشارتك، أرجوك ألا تتأخر في إعلامي، فكّر في أنني أنتظر جوابك بفارغ الصبر. وإذا كان الجواب بالعودة فإنني أستقلّ القطار فوراً. المخلصة لك من كل قلبي. أليبرتين».

لكي يستطيع موت ألبيرتين أن يزيل آلامي، وجب على الصدمة أن تقتلها ليس في «التورين» فقط، وإنما فيّ. فلم تكن قط أكثر حياة فيّ. لكي يدخل فينا كائن بشري معين يجب أن يأخذ شكلاً وأن يخضع لإطار الزمن. ولأنه لا يظهر لنا إلا خلال بعض الدقائق، فإنه لم يظهر لنا إلا ملمحاً وحيداً من ملامحه ولم يسرّب لنا إلا صورة وحيدة عنه. والضعف الكبير لهذا الكائن البشري هو أنه أصبح مجرد مجموعة من اللحظات؛ وفي ذلك تكمن قوته أيضاً. يُرتهَن بالذاكرة، وذاكرة اللحظة لا تعلم بكل ما حدث بعدها؛ فاللحظة التي سجلتْها ما زالت موجودة وحية، وما زالت تحمل في طيّاتها ذلك الكائن. ومن ثم فإن هذا التفتت لا يجعل الميتة تبعث من بين الأموات، لأنه يضاعف صورتها. وعندما توصلت إلى احتمال الحزن على رحيل هذه، قلت يجب أن أكرر مع أخرى، ومع مئة أخرى.

عندها تغيرتُ تغيراً كاملاً. وما جعلها عذبة عندما كنت وحدي، لم يكن بسبب ألبيرتين، وإنما موازاة لها، هو، عند تداعيات اللحظات المتطابقة، بسبب الانبعاث المستمر للحظات قديمة. وبفضل صوت المطر

تناءت إليّ رائحة زيزفون «كومبريه»، وبفضل تحرك الشمس على الشرفة ظهرت حمائم «الشانزليزيه»، وبفضل الأصوات الصماء في الصباح الدافئ بلغتني نضارة الكرز؛ ورغبت في «بريتانيا» أو في «البندقية» بفضل صوت الريح وعودة الفصح. وبدأ الصيف وصار النهار طويلاً والطقس حاراً. وكان زمن يخرج فيه الطلاب والمعلمون أثناء الضحى إلى الحدائق العامة ليحضّروا المسابقات الأخيرة تحت الأشجار، وكانوا يتلقون نقطة البرودة الوحيدة التي تتنزلها سماء أقل التهاباً من قيظ النهار، ولكن هذه السماء كانت على عمقها صافية. ومن غرفتي المظلمة، وبقدرة على الاستحضار تضاهي ما كانت عليه في الماضي، مع أنها لم تعطني من بعد إلا الألم، شعرتُ، مع وطأة الريح، أن الشمس الغاربة في الخارج كانت تشلح على شاقولية البيوت والكنائس طلاء وحشياً. وإذا «فرانسواز» خرّبت، أثناء عودتها ودون إرادتها، طيات الستائر الكبرى، كتمتُ صوتاً لتلك المزقة التي خلقها فيّ للتو ذلك الشعاع الشمسي القديم الذي أراني جمال الواجهة الجديدة لـ«بريكفيل لورغيوز» (Bricqueville L'Orgueilleuse)، عندما قالت لي ألبيرتين: «لقد رمموها». ودون أن أعلم كيف أعرب عن حسرتي لـ«فرانسواز»، قلت لها: «إنني عطشان». فخرجت ثم عادت، أما أنا فتحركت بعنف، تحت القصف المؤلم لواحدة من الذكريات اللامرئية الألف التي كانت تتفجر حولي في الظل في كل لحظة؛ ولاحظتُ أنها أتت بشيء من خمر التفاح (cidre) والكرز، وكان أحد غلمان المزرعة قد وضعهما في العربة في «بالبيك»، وهما نوعان كنت أستطيع سابقاً بفضلهما أن أتناول أفضل القرابين مع قوس قزح غرفِ الطعام المظلمة أثناء حر النهار. وللمرة الأولى فكرتُ في مزرعة «الإيكور» (Ecorres)، وقلت لنفسي: في بعض الأيام عندما كانت ألبيرتين تقول لي في «بالبيك» إنها مشغولة ومضطرة للخروج مع عمتها، ربما كانت مع إحدى صديقاتها في مزرعة من المزارع تعرف فيها أنني هنا بدون عاداتي، وبينما كنت بالصدفة أنتظر في شارع «ماري أنطوانيت» قيل لي: «لم نشاهدها اليوم»، وكانت

تستعمل مع صديقاتها نفسَ الكلمات التي استعملتْها معي عندما كنا نخرج معاً: «لن يخطر على باله أن يبحث عنا هنا وهكذا فلن يضايقنا». وقلت لـ«فرانسواز» أن تسدل الستائر كي لا أرى من بعد هذا الشعاع الشمسي. ولكنه بقي يتسرب بشكله الهدام إلى ذاكرتي كما من قبل. «إنها لا تعجبني، لقد رُمِّمتْ، ولكننا سنذهب غداً إلى «سان مارتان لوفيتو» (Saint-Martin le Vêtue)، وبعد غد إلى...». الغد وبعد الغد، كان هذا مستقبل حياة مشتركة يبدأ، ربما سيبقى إلى الأبد؛ وقفز قلبي نحوه، ولكن هذا المستقبل اندثر، لأن ألبيرتين ماتت.

سألت «فرانسواز» عن الساعة. الساعة السادسة. وأخيراً، ولله الحمد، سينحسر هذا الحر الثقيل الذي كنت أتبرم منه أمام ألبيرتين، وكنا نحب انحساره جداً. وقارب النهار على نهايته. ولكنني ماذا استفدت منه؟ لقد ارتفعت برودة المساء بعد مغيب الشمس؛ أذكر أنني، في نهاية طريق كنا نسلكه معاً للعودة، شاهدتُ، بعد آخر قرية، شيئاً يشبه محطة نائية لا نستطيع الوصول إليها في مساء ذلك اليوم الذي وصلنا فيه إلى «بالبيك»، وكنا دائماً معاً. معاً إذن، الآن يجب أن نتوقف تماماً أمام هذه الهاوية نفسها، فقد ماتت. ولم يعد يكفي أن أسدل الستائر، لقد حاولت إغلاق عيني، وأذني ذاكرتي، كي لا أرى ثانية هذا الشريط البرتقالي للغروب، وكي لا أسمع تلك العصافير اللامرئية التي تتصادى من شجرة إلى أخرى في كل ناحية من أنحائي التي كانت تقبّلها عندئذ بحنان شديد تلك التي أصبحت الآن ميتة. وحاولت تجنب تلك المشاعر التي تبعثها رطوبة الأوراق في المساء وصعود الطرق المحدبة ونزولها. ولكن تلك المشاعر قد استحوذت عليَّ وأبعدتني عن اللحظة الراهنة، كي تتوفر المسافة والحمية الضرورية لتضرباني من جديد. لن أدخل من بعد إلى غابة، ولن أتنزه من بعد بين أشجار. ولكن هل ستكون السهول الواسعة أقل ضراوة؟ لكي أذهب لآتي بألبيرتين، كم من مرة قطعت السهل الكبير لـ«كريكفيل» (Criqueville) واجتزته معها، وأحياناً في ساعات ضبابية كان فيها تدفق

الضباب يوهمنا بأننا محاطان ببحيرة شاسعة، وأحياناً في الأماسي الصافية التي كان فيها ضوء القمر، بتغييره مادة الأرض وبإظهارها على خطوتين من السماء - علماً بأنها أثناء النهار متباعدة الآفاق - يحبس الحقول والغابات بزرقة السماء التي أدمجها فيها، وذلك في عقيق مشجَّر لسماء واحدة!

لا بد أن تكون «فرانسواز» سعيدة لموت ألبيرتين، وللإنصاف فإنها لم تكن تخفي حزنها بشيء من المسايرة والتعاطف. ولكن أعراف ناموسها القديم وتراثها كفلاحة قروسطية تبكي كما في السير الشعبية، كانت أقدم من حقدها على ألبيرتين وحتى على «أولالي» (Eulalie). وذات يوم في الأصيل، بينما لم أستطع بالسرعة الكافية أن أخفي ألمي، رأت دموعي؛ وبغريزة الفلاحة الصغيرة السابقة وظفت هذا الألم، لأنها في الماضي كانت تقيد الحيوانات وتعذبها، وتشعر بالغبطة عندما كانت تخنق الدجاج وتشوي سرطان البحر حياً؛ وعندما كنت مريضاً كانت تراقب وجهي الكالح - كما كانت تراقب الجروح التي سببتها لإحدى البومات - ومن ثم كانت تعلن ذلك بنبرة جنائزية وترى فيه نذير شؤم. ولكن ما أَلِفَتْه من «كومبريه» لم يكن يسمح لها بأن تبكي أو أن تحزن بسهولة، وهما أمران كانت تراهما مشؤومين شؤم من ينزع ثيابه الداخلية أو من يأكل كرهاً. «آه يا سيدي، لا، لا تبك هكذا، فستضر صحتك!». وبرغبتها في إيقاف دموعي، كانت على جانب من القلق كما لو أن الدموع دم يتدفق. ولسوء الحظ أخذتُ موقفاً بارداً من العواطف التي أملتْ التعبير عنها، وقد تكون في المحصلة عواطف صادقة. وكانت تنظر إلى ألبيرتين كما إلى «أولالي»، والآن بعد أن صار يستحيل على صديقتي أن تستفيد مني، كفت «فرانسواز» عن كرهها. وأصرّت مع ذلك على مراقبة دموعي وعلى أنني لم أشأ إظهارها، أسوة فقط بمثال عائلتي المشؤوم. وقالت لي بنبرة أهدأ: «يا سيدي، يجب ألا تبكي»، وذلك لتظهر لي بالأحرى حصافتها وليس لتعبّر عن شغفها. وأضافت: «كان ذلك متوقعاً، لقد كانت المسكينة في منتهى

السعادة، ولكنها لم تعرف كيف تدرك سعادتها».

ما أبطأ موت النهار في هذه المساءات الصيفية المديدة! فطويلاً استمر طيف شاحب للبيت المقابل في تلوين السماء بلون أبيض ملحاح. وأخيراً خيّم الليل في البيت فتعثرت بقطع الأثاث الموجودة في غرفة الانتظار؛ أما في باب الدرج ووسط السواد الذي ظننته كاملاً كان القسم الزجاجي شفيفاً وأزرق بزرقة الزهور أو بزرقة جناح حشرة، أو بزرقة بدت لي جميلة لو لم أشعر بأنها الانعكاس الأخير والقاطع كالفولاذ فكانت الضربة القاصمة التي ما زالت تحمل إليّ النور بضراوتها التي لا تكلّ ولا تملّ.

بيد أن الظلمة الكاملة ما برحت أن سادت، ولكن كان يكفي عندئذ أن أرى نجمة قرب شجرة الفِناء حتى أتذكر نزهاتنا بالسيارة بعد العشاء في غابات «شانتيبي» (Chantepie) التي كان يرصّعها ضوء القمر. وحتى في الشوارع كان يحدث لي أن أنزوي على ظهر أحد المقاعد وأن أستجمع الصفاء الطبيعي لضوء من أضواء القمر وسط الأنوار الاصطناعية في باريس، فيدمج خيالي المدينة بالطبيعة ولو للحظة، وراح هذا الضوء - مع الصمت اللامتناهي للحقول المذكورة - يدفع الذكرى الأليمة للنزهات التي جُبْتُها في باريس مع ألبيرتين لتسيطر على المدينة. آه، متى ينتهي الليل؟ ولكنني كنت أرتجف من برودة الفجر لأنها بعثت لطافة ذلك الصيف بين «بالبيك» و«أنكارفيل» التي كان واحدنا يرافق الآخر مراراً عديدة ذهاباً وإياباً حتى تباشير الصباح. لم يعد لدي إلا أمل وحيد للمستقبل - أمل يمزّقني كالخوف - وهو أن أنسى ألبيرتين. كنت أعلم أنني سأنساها ذات يوم، فقد نسيت فعلاً كلاً من «جيلبيرت» و«مدام دو غيرمانت»، وكذلك نسيت جدتي. وفي النسيان الكامل يكمن العقاب الأكثر عدلاً وضراوة، إنه نسيان شبيه بنسيان المقابر وبه ننفصل عن أولئك الذين لم نعد نحبهم، ونرى أن هذا النسيان نفسه لا مناص منه إزاء الذين ما زلنا نحبّهم. والحق يقال، إنه حالة غير أليمة، حالة من اللامبالاة، وهذا ما نعلمه. ولأنني لم

أعد أقوى على التفكير في أية حالة أنا وإلى أية حالة سأصير، استذكرت بيأس كل تلك الغلالة من اللمسات والقبل والأوسان الحنونة التي ينبغي علي سَّريعاً التخلص منها إلى الأبد. إن زخم هذه الذكريات الرقيقة جداً، عندما جاء لينكسر على فكرة موتها كان يسحقني بتصادم آماده المتباينة بحيث لم أستطع البقاء جامداً؛ فقمت، وفجأة توقفت صريعاً؛ فهذا الضوء الصغير نفسه الذي كنت أراه عندما تركتُ ألبيرتين لتوي، وأنا ما زلت مشْرقاً وساخناً بفعل قبلاتها، أتى ليستل من فوق الستائر نصله المشؤوم الذي كان يطعنني ببياضه البارد الشرس الكثيف.

وعما قريب ستبدأ أصوات الشارع، فتتيح لي أن أقرأ بوتيرة وقعها الكيفية مدى الحرارة المتفاقمة من حيث تنطلق. ولكن في هذه الحرارة التي تشربت قبل ساعات برائحة الكرز، ما وجدته (كما في الدواء عندما نستبدل أحد مكوناته بمكون آخر، يكون ذلك كافياً لكي يتحول من دواء مثير وحافز للنشوة كما صُمِّم إلى دواء يسبب انهيار الأعصاب)، لم يعد الرغبةَ في النساء وإنما القلق بسبب رحيل ألبيرتين. وكانت ذكرى جميع شهواتي تعبّها وتعبّ الألم كما تعبّ ذكرى المتع. إن مدينة البندقية التي ظننت فيها أن وجودها سيكدّرني (لأنني لخجلي كنت أشعر بأن وجودها فيها كان ضرورياً لي)، من الأفضل الآن أن أذهب إليها، بعد أن رحلت ألبيرتين. لقد بدا لي أن ألبيرتين حاجز وضع بيني وبين الأشياء كلها، فقد كانت بالنسبة لي تحتويها جميعها وأنني أستطيع بها، كما بإناء، أن أمتلكها. والآن بعد أن تهدم هذا الإناء شعرت بأنني لم أعد أتجرأ على لمس هذه الأشياء ولم يعد شيء إلا وتنكبت له أسى، مفضلاً ألا أتذوقه. وهكذا لم يكن فراقها يفتح إطلاقاً أمامي مجالاً للمتع الممكنة التي ظننت أن وجودها قد استغلقها عليّ. قد يكون وجودها فعلاً قد حال دون سفري ودون التمتع بالحياة، فكان حاجزاً حجبَ باقي الحواجز التي ظهرت كما هي الآن بعد أن زال. وهكذا كنت في الماضي لا أعمل أكثر بعد زيارة لطيفة، إن بقيت وحدي. عندما يرينا المرض والمبارزة والحصان الجامح

الموت عن كثب، نكون قد تمتعنا غزيراً بالحياة وباللذة وبزيارة البلدان المجهولة التي سنحرم منها. وبعد أن يمر الخطر، ما نجده من جديد هو الحياة الكئيبة نفسها التي لم تعرف أياً من هذه الأشياء.

لا جرم أن هذه الليالي القصيرة لا تدوم طويلاً. فلا يعتم الشتاء أن يعود، لن أخشى عندئذ ذكرى النزهات معها حتى الفجر المبكر جداً. ولكن ألن يؤمّن لي الصقيعُ الأول، إذا بقيت حياً في جليده، نواةَ رغباتي الأولى عندما كنت أبحث في منتصف الليل عنها؟ في ذلك الوقت لم أكن أراها إلا نادراً؛ حتى في تباعد زياراتها. ألم يجلب لي هذا الصقيع سورات قلقي الأولى، عندما ولمرتين ظننت أنها لن تعود؟ ولكن حتى في تلك الفواصل القائمة آنذاك بين زياراتها، كانت تبزغ لي ألبيرتين فجأة، بعد أسابيع عديدة، من رحم حياة مجهولة لم أحاول تملكها، فتضمن هدوئي وتمنع غيرتي المتذبذبة دائماً من أن تتراكم في قلبي وتشتد. ومع أن هذه الفواصل كانت تهدئني آنذاك، إلا أنها أيضاً كانت مشوبة بالألم لما كانت تفعله وأجهله فتقطع حيادي، لا سيما الآن بعد زوال كل زيارة لها. وهكذا كانت مساءات كانون الثاني هذه عندما تأتي، على رقتها العظيمة، تنفخ فيّ الآن بهوائها البارد قلقاً لم أعرفه، وتعيد لي في تضاعيف صقيعها النواة الأولى لحبي الذي أصبح خبيثاً. وعندما فكرت في أنني سأشهد عودة ذلك الزمن البارد، منذ علاقتي بـ«جيلبيرت» وألعابي في «الشانزليزيه»، بدا لي ذلك دائماً في غاية الكآبة؛ وعندما فكرت في أن مساءات مشابهة كهذا المساء قد تعود، وهو مساء ثلجي انتظرت فيه ألبيرتين مدة طويلة معنوياً في ذلك الوقت - ما أخشاه من غيره، على حزني وعلى قلبي - هو عودة البرد القارس، وكنت أقول لنفسي إن أشق ما أقاسيه هو الشتاء ربما.

كانت ذكرى ألبيرتين مرتبطة بجميع الفصول، ولكي أتمكن من التخلص منها، وجب عليّ أن أنساها جميعها، عساني أعود فأعرفها، كأني عجوز أصيب بالفالج وبدأ يتعلم القراءة ثانية؛ كان ينبغي عليّ أن

أتجرد من الكون بأسره. وقلت لنفسي: إن موتي الحقيقي وحده قد يكون قادراً (وهذا مستحيل) أن يعزيني بموتها. لم أفكر في أن موت الذات ليس مستحيلاً أو خارقاً، لأننا يومياً نستهلك هذا الموت، دون أن ندري، ونستهلكه كرهاً إذا لزم الأمر. سأعاني من تكرار هذه النهارات جميعها التي لا تدخلها الطبيعة إلى فصل السنة فحسب، بل الظروف المصطنعة والنظام المألوف. عما قريب قد يحين تاريخ ذهابي إلى «بالبيك» فخلال الصيف الماضي، كان على حبي - الذي لم ينفصل وقتئذ عن الغيرة والذي لم يكن يقلق مما تفعله ألبيرتين طيلة نهارها - أن يتعرض لتطورات كثيرة، قبل أن يصبح ذلك الحب المختلف جداً الذي عرفته في الآونة الأخيرة؛ ففي تلك السنة الأخيرة التي بدأ فيها مصير ألبيرتين يتغير وانتهى، بدت لي مليئة ومختلفة وشاسعة كقرن من الزمن. ثم جاءت ذكرى أيام تلت، ولكن في سنوات سابقة، ذكرى أيام الأحد المكفهرة التي يخرج فيها الجميع أثناء الأصيل الفارغ ويدعوني فيه صوت الريح والمطر إلى البقاء في بيتي وإلى تقليد «الفلاسفة القابعين»؛ أتذكر بأي قلق لاحظت دنو الساعة التي أتت فيها ألبيرتين لتراني، مع أنني لم أكن أنتظر تلك الساعة، فداعبتني للمرة الأولى وتوقفتْ عن المداعبة عندما أتت «فرانسواز» حاملة الفانوس، في ذلك الوقت الذي مات مرتين، إذ كانت ألبيرتين تحنو عليّ، وإذ كان حناني لها يستطيع أن يتضمّن عن حق كثيراً من الأمل! وحتى في الفصول السنوية الأكثر تقدماً، كانت تلك المساءات المجيدة التي تفتح فيها المحلات والمدارس الداخلية كأنها كنائس يتخللها غبار مذهب، تكلل الشارع بأنصاف الآلهات اللواتي يتحادثن مع زميلاتهن ويخلقن لدينا حمى الولوج في عالمهن الأسطوري، لم تذكرني تلك المساءات إلا بحنان ألبيرتين الذي كان، لوجودها قربي، يمنعني من الاقتراب منهن.

وحتى عندما نتذكر الساعات الطبيعية تماماً، فإننا نضيف إليها بالضرورة المشهد الأخلاقي الذي يجعلها شيئاً فريداً. ولما سأسمع لاحقاً

بوق المعّاز، في أول نهار صحو بصوته الإيطالي نوعاً ما، سيخلط النهار نفسُه في ضوئه قلقاً مفاده أن ألبيرتين هي في «التروكاديرو»[*] وربما مع صديقتها «ليا» (Léa) والفتاتين؛ وتعقب ذلك رقة عائلية ومنزلية كرقة زوجة بدت لي عندئذ مربِكة وراحت «فرانسواز» لتعيدها إليّ. في تلك المكالمة الهاتفية نقلت لي «فرانسواز» احترام وطاعة ألبيرتين التي عادت معها، فظننت أن ذلك يرفع من شأني. ولكنني أخطأت. فإن أثملني الأمر، فلأنه أشعرني بأن التي كنت أحبها هي لي، وبأنها لا تحيا إلا لي ولو عن بعد، دون أن أحتاج للاهتمام بها، فأعتبر نفسي كأنني زوجها وسيدها، وأنها تعود بإشارة مني. وهكذا كانت هذه المكالمة الهاتفية نفحة من الرقة أتت من بعيد، من حي «التروكاديرو» الذي وفر لي منابع سعادة، إذ وجّه نحوي كائنات ملطّفة وعطوراً مهدِّئة، وأعاد لي حرية فكرية رائعة كنت أفتقر إليها - فاستسلمت لموسيقى فاغنر دون أي هم - وانتظرت وصول ألبيرتين المؤكد دون تحرق ونفاد صبر قد يجعلانني لا أدرك السعادة. أما سبب السعادة لعودتها وطاعتها لي وامتلاكها فلم يكن الغرور وإنما الحب. فسيان الآن أن تمثل لأوامري خمسون امرأة يعدن بإشارة مني لا من «التروكاديرو» بل من الهند. ولكنني في ذلك اليوم، بينما كنت وحدي في غرفتي أعزف الموسيقى، شعرت بألبيرتين تتقدم نحوي بخضوع، فتنفستُ رائحةً طيبتْ نفسي، كتلك الروائح المخلِّصة للجسد، انتشرت كغبار في أشعة الشمس. ثم بعد نصف ساعة وصلت ألبيرتين فتنزهنا معاً، وظننت أن هذا الوصول وتلك النزهة معها سيكونان بالتأكيد مملين لأنهما بسبب هذا اليقين بالذات - ومنذ أن اتصلت «فرانسواز» قائلة إنها أعادتها - أسبغا على الساعات التي تلت هدوءاً ذهبياً، وجعلا ذلك النهار شديد الاختلاف عن النهار الأول إذ انطوى على خلفية أخلاقية مختلفة، خلفية أخلاقية جعلت منه نهاراً فريداً انضاف إلى شتى النهارات التي عرفتُها حتى

(*) مكان معروف في باريس (م).

الآن ولم أتصورها قط. وهكذا لا نستطيع أن نتصور استراحة يوم صيفي إذا انعدمت مثل تلك الأيام في سلسلة الأيام التي عشناها؛ فكان نهاراً لا أستطيع القول قطعاً إنني أتذكره، لأن شيئاً من الألم انضاف الآن إلى هذا الهدوء، ولم أشعر به عندئذ. ولكنني فيما بعد، عندما اجتزت تدريجياً تلك الأوقات التي عشتها قبل أن أحب ألبيرتين، عندما استطاع قلبي الملتئم من جراحه أن ينفصل دون ألم عن ألبيرتين الميتة، وعندما تذكرت أخيراً ذلك اليوم الذي خرجتْ فيه ألبيرتين مع «فرانسواز» يتسوقان بدل أن يبقيا في «التروكاديرو»، تذكرتُ بغبطةٍ ذلك اليومَ المنتمي إلى فصل أخلاقي لم يسبق لي أن عرفته حتئذ؛ تذكرته أخيراً بدقة دون أن أضيف إليه أشجاناً، بل على العكس، تذكرته كما يتذكر المرء بعض الأيام الصيفية التي وجدها حارة عندما عاشها، ثم استخرج لاحقاً فقط عنوانها دون طليها بالذهب الثابت وبالزرقة التي لا تمحى.

وهكذا فإن هذه السنين القليلة لم تفرض فقط على ذكرى ألبيرتين الأليمة جداً الألوان المتتالية، والإجراءات المختلفة، ورماد فصولها وساعاتها، وأصائل شهر حزيران ذي المساءات الشتائية، وأضواء قمرية تلتمع على سطح البحر في الفجر عند العودة إلى البيت، وشيئاً من ثلج باريس ووصولاً إلى الأوراق الميتة في «سان كلو»، بل فرضت عليَّ أيضاً الصور الخاصة التي كوّنتُها لألبيرتين تباعاً، وشكل جسمها الذي كنت أتصوره في كل من هذه الأوقات، والتواتر الكبير نسبياً الذي معه كنت أراها خلال هذا الفصل فيبدو مشتتاً أو متكاثفاً، والهواجسَ التي تمكنتْ من خلقها لي بسبب الانتظار، والفتنة التي كانت تمارسها عليَّ أحياناً، والآمال المعقودة ثم الضائعة؛ كان كل هذا يعدّل من صورة حزني الاستعادي كما يعدّل الانطباعات الضوئية والعطرية التي ارتبطت به، ويكمّل كل السنين الشمسية التي عشتها والتي كانت - بربيعها وخريفها وشتائها - كئيبة جداً بسبب ذكراها التي لم تنقطع، وتضاعفها بشيء يشبه السنة العاطفية التي لا تتحدد فيها الساعات بناء على موقع الشمس وإنما

بانتظار موعد من المواعيد؛ وفيها كان طول النهار وتفاوت درجة الحرارة يحسبان بناء على انطلاق آمالي، وتقدم علاقتنا الحميمة والتحول التدريجي لوجهها، وتوتر وأسلوب الرسائل التي بعثتها لي أثناء غيابها، وهرعها لرؤيتي بعد العودة. وأخيراً، لو كانت تغيرات الفصول وتباينات الأيام تعيد لي ألبيرتين أخرى، لما حصل ذلك بذكر الأزمنة المشابهة. ولكنني أتذكر دائماً أنني قبل أن أحب، كانت كل امرأة تجعل مني رجلاً مختلفاً ذا رغبات أخرى لأنه كان ينظر إلى الأشياء بشكل مختلف، ولأنه لم يحلم قبل يوم بالعواصف والوهاد - إذا بعث النهار الربيعي الفاضح رائحة وردية لسياج نومه الموارب - فإنه استيقظ ليسافر إلى إيطاليا. وحتى في حبّي، ألم تخفف الحالة المتغيرة لجوّي المعنوي والضغط المعدّل لاعتقاداتي ذات يوم ألم تخفف من رؤية حبي الخاص؟ ألم توسعها في يوم آخر، يوم تجمّل حتى الابتسام، يوم متوتر حتى العاصفة؟ قيمة الإنسان في ما يملكه، ولا يملك الإنسان ما هو موجود فعلاً؛ وما أكثر ذكرياتنا وألوان مزاجنا وأفكارنا التي تذهب في أسفار بعيدة عنا، فتضيع عنا. ولا نعود نستطيع عندئذ أن نُدخلها في حسابنا داخل هذا المجموع المتمثل بكياننا. ولكن لها طرقاً سرية لتعود وتدخل فينا. فذات مساء، بعد أن نمت دون التحسر تقريباً على ألبيرتين - إذ لا يستطيع المرء التحسر إلا على ما يتذكره - وجدت عندما استيقظت حشداً من الذكريات تقاطعت فيّ وفي أصفى وعيي وميّزتها بدقة شديدة. عندئذ بكيت ما رأيته بصفاء، علماً بأن ما رأيته قبل يوم لم يكن إلا عدماً. إن اسم ألبيرتين وموتها قد تغيّر معناهما؛ وفجأة استعادت خياناتها أهميتَها.

كيف تراءت لي ميتة؟ لا تتوفر لي الآن، عندما أفكر فيها، إلا الصور ذاتها التي كنت أرى منها هذه الصورة أو تلك، لمّا كانت على قيد الحياة. وتناوباً رأيتها تنحني فوق دراجتها وتسرع، وكانت كما في أيام المطر تمرّ كالبرق على عجلتها الأسطورية، أو أراها في الأماسي - بعد أن حملنا الشامبانيا إلى غابات «شانتيبي» (Chantepie) تتكلم باستفزاز وهي تحمل

الأغراض وتشعر بذلك الحر الممتقع الذي كان يضرّج فقط وجنتيها، فلا أميزها تماماً في عتمة السيارة، فأقترب من ضوء القمر؛ والآن أحاول عبثاً أن أتذكر وأستعيد الرؤية في العتمة التي قد لا تنتهي. وهكذا ما وجب عليّ أن ألغيه في ذاتي، ليس ألبيرتين واحدة، وانما ألبيرتينات عديدة. واحدة منهن كانت مرتبطة ببرهة فأجد نفسي أمام تاريخها وكأنني أغيّر مكاني عندما كنت أعاود رؤية ألبيرتين. فليست أوقات الماضي هذه أوقاتاً لا تتحرك؛ ففي ذاكرتنا تحافظ على الحركة التي تشدها نحو المستقبل - المستقبل الذي أصبح هو نفسه ماضياً - فيجذبنا إليه. لم يحصل قط أن داعبت ألبيرتين المتدثرة بالمطاط أيام المطر، فأردت أن أطلب منها أن تخلع شكَّتها لأعرف معها حب المخيمات وصداقة السفر. ولكن لم يعد الأمر ممكناً لأنها ماتت. وخشية أن أفسدها، لم أحاول أيضاً قط أن أفهم كيف أنها في تلك المساءات التي بدت فيها وكأنها تقدم لي متعاً تثير فيّ الآن رغبات هائجة، ولولا ذلك لطلبت ربما هذه المتع من الآخرين. وقد لا أشعر بمثلها لدى الآخرين، لأنني لو جُبتُ العالم بأسره، لما توفر لي مثيلها لدى شخص آخر، ولكن ألبيرتين ماتت. ويبدو أنه كان عليّ أن أختار بين حدثين، وأقرر ما هو الصحيح بينهما، ذلك أن موت ألبيرتين - الذي وافاني من حقيقة لم أعرفها، وهي حياتها في «التورين» - كان يتناقض مع جميع الأفكار المتعلقة بها وبرغباتي وأنواع ندمي وتحناني وسخطي وغيرتي. إن مثل هذه الذكريات الغنية المقتبسة من سجل حياتها، وإن مثل هذه الوفرة في العواطف المرتبطة بحياتها، كانت وكأنها تجعل موتها أمراً لا يصدق. فذاكرتي التي أبقت عاطفتي تركت لمثل هذه الوفرة كل تنوعها. ولم يتعلق الأمر فقط بألبيرتين وحدها، التي شكلت سلسلة من اللحظات، بل تعلق بي أيضاً. لم يكن حبي لها بسيطاً، فإلى جانب الفضول الذي يريد معرفة المجهول انضافت رغبة حسيّة، وشعور بألم يكاد أن يكون عائلياً، إذ قام تارة على اللامبالاة وطوراً على غيرة هائجة. لم أكن رجلاً واحداً، بل كنت جيشاً من العناصر المتنوعة يقدم عرضه، وفيه

المتيّمون واللامبالون والغيورون - وهؤلاء لا يمارسون غيرتهم من المرأة نفسها. وقد نجم عن هذا شفائي الذي لا أتمناه. في وسط الجمهور، قد نستبدل العناصر ببعضها دون أن نحس، أو قد نلغي بعضها، بحيث يتحقق لنا في الأخير تغيير لا نستطيع إدراكه إذا كنا فرداً واحداً. لقد كان حبي المعقد وشخصي المعقد يفاقمان آلامي وينوّعانها. ومع ذلك قد يندرجان دائماً في مجموعتين تناولتا حياة حبي كلها لألبيرتين، وهما الثقة والارتياب الغيور.

إن صَعُبَ عليّ التفكير في أن ألبيرتين، الحية جداً فيّ (أنا الذي أحمل سرجَي الحاضر والماضي)، قد ماتت، فقد يتناقض هذا مع الارتياب بخطايا ألبيرتين التي فقدت اليوم ذلك الجسد الذي أمتعها، وتلك الروح التي كانت تشتهيها، فلم تعد قادرة ولا مسؤولة عنها؛ هذا ما أثار فيّ ألماً عميقاً كنت لأباركه لو تمكنت أن أرى فيه عربون الواقع الأخلاقي لدى شخص غير موجود مادياً، بدل أن أرى فيه انعكاساً - كُتب له أن يتلاشى - لانطباعات خلقتها عندي في الماضي. إن امرأة لم تعد تقوى على الشعور بالمتع مع الآخرين، من المفترض ألا تثير غيرتي، لو استطاع فقط حناني أن يتجلى. ولكن هذا كان مستحيلاً لأن هذه الغيرة لم تكن تستطيع بلوغ هدفها، وهو ألبيرتين، إلا عبر الذكريات التي كانت فيها حية، وبمجرد التفكير فيها، كنت أبعثها من بين الأموات، فلا تصبح خياناتها خيانات امرأة ميتة، إذ تصير اللحظة التي ارتكبتها فيها اللحظة الراهنة، ليس فقط لألبيرتين وانما لأنواتي التي تبزغ فجأة وتتأملها. وهكذا لم تستطع قط أية مفارقة زمنية أن تفصل بين الثنائي الذي لا ينفصم ويخلّف، بعد كل خبر مشين، غيوراً رثّاً وراهناً دائماً. وخلال الأشهر الأخيرة، سجنتها في بيتي. ولكنّ ألبيرتين في خيالي الآن هي حرّة؛ لقد أساءت استعمال هذه الحرية، فكانت تتعهّر مع هذه وتلك. وفي الماضي كنت أفكر دون انقطاع في المستقبل الغامض المنفتح أمامنا، وكنت أحاول أن أقرأ فيه. والآن ما أراه أمامي صنواً للمستقبل (وهو مستقبل مربك لأنه

غير أكيد ويصعب فك ألغازه، مستقبل غامض شديد الضراوة، إذ لم يتسنّ لي ولم أتصور أنني أفعل فيه، وإذ يجري طويلاً طول حياتي نفسها، دون أن تكون صديقتي هنا لتخفف من الآلام التي سببها لي)، لم يعد مستقبل ألبيرتين، بل ماضيها. مستقبلها؟ يا للمغالطة، لأن لا ماضي ولا مستقبل للغيرة وما تتصوره هو دائماً الحاضر.

إن تغيرات الجو تثير تغيرات أخرى داخل الإنسان وتوقظ أنوات منسية وتتعارض مع خمول العادة وتجدد قوى هذه الذكريات والآلام. وكم يذكرني هذا الجو الجديد بذلك الجو الذي ذهبت فيه ألبيرتين مثلاً تحت المطر المتوّعد في «بالبيك» لتقوم - والله أعلم - بنزهات طويلة تلبس فيها ثياباً لصيقة! لو عاشت إلى اليوم، فهل ستقوم في مثل هذا الجو برحلة مشابهة في «التورين»؟ بما أنها لا تستطيع ذلك من بعد، كان ينبغي عليّ ألا تؤلمني هذه الفكرة؛ ولكن، كما هي الحال بالنسبة للمبتورين، فإن أدنى تغيير في الجو كان يجدد آلامي في العضو المفقود.

عاودتني فجأة ذكرى لم أرها منذ أمد طويل، إذ بقيت مختفية في السائل اللامرئي المنتشر في ذاكرتي، وتبلورت. فمنذ سنوات بينما كنا نتكلم أنا وألبيرتين عن لباس حمّامها، احمرّ وجهها. في ذلك الوقت لم أكن أشعر بالغيرة عليها. ولكنني بعد ذلك أردت أن أسألها إن تذكرتْ ذلك الحديث وقالت لي لماذا احمرّ وجهها. لقد اضطرب بالي ولا سيما بعد أن قيل لي إن بنتين صديقتين لـ«ليا» كانتا تذهبان إلى ذلك المنتجع الاستجمامي التابع للفندق؛ ويُروى أنهما لم تكونا تذهبان إلى هناك للاستحمام. وخوفاً من إغضاب ألبيرتين، أو بانتظار مناسبة أفضل، أجّلت دائماً سؤالي لها، ثم غاب عن بالي. وفجأة، بعيد موت ألبيرتين، لمعت هذه الذكرى، مشوبة بالكدر والأبهة اللذين نجدهما معاً في الأحاجي التي بقيت دون حل بسبب موت صاحبها، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يميط اللثام عنها. ألا أستطيع على الأقل أن أحاول أن أعرف إن فعلت ألبيرتين الشر أو لم تفعل شيئاً أو أنه اشتبه بها فقط في قسم الحمامات ذلك؟ إذا

أرسلت شخصاً إلى «بالبيك»، سأتوصل ربما إلى شيء. ولو بقيت على قيد الحياة، لما تمكنت من معرفة أي شيء على الأرجح. ولكن الألسنة تنطلق بغرابة وتروي بسهولة ارتكاب خطيئة ما، عندما لم تعد تخشى حقد مرتكبتها. وبما أن تشكيل الخيال الذي بقي بدائياً وساذجاً (لأنه لم يجتز التحولات العديدة التي تعالج النماذج البدائية للاكتشافات البشرية التي يتعرف عليها المرء بالكاد، مثل البارومتر والكرة والهاتف، إلخ... في اكتمالاتها اللاحقة)، لا يتيح لنا أن نرى في آن إلا بعض الأشياء، صارت ذكرى منتجع الحمامات تحتل حقل رؤيتي الداخلية كله.

وأحياناً كنت أصطدم، في شوارع النوم المظلمة، بحلم من تلك الأحلام السيئة دون أن تكون خطيرة في المقام الأول. ذلك أن الحزن الذي تسببه لا يستمر إلا ساعة بعد الاستيقاظ، كأنها من الانزعاجات الناجمة عن طريقة اصطناعية في التنويم؛ وفي المقام الثاني، لا تصادفنا هذه الأحلام إلا نادراً، أي مرة كل سنتين أو ثلاث. وليس من الأكيد أننا نصادفها - أو نسقط عليها بالأحرى وهماً وتقطيعاً (لأن التثنية لا تعبّر تعبيراً كافياً).

ولأن الشكوك كانت تخامرني حول حياة وموت ألبيرتين، كان يتعين عليَّ منذ أمد طويل أن أقوم ببعض التحقيقات. ولكن التعب والجبن نفسيهما اللذين دفعاني إلى الخطوع لألبيرتين عندما كانت هنا، حالا دون إقدامي على أي شيء منذ أن غابت عن ناظري. ومع ذلك يبزغ بريق حيوي من الوهن الذي انتابني لسنوات خلت. فقررت الإقدام على هذا التحقيق الجزئي على الأقل.

يخال المرء أن لا شيء آخر حدث في حياة ألبيرتين. وتساءلت عمن يستطيع أن يبدأ بالتحقيق الميداني في «بالبيك» وبدا لي أن اختيار «إيميه» (Aimé) هو اختيار حسن؛ فعلاوة على أنه يعرف الأماكن على أفضل وجه، هو ينتمي إلى تلك الفئة من الناس الشعبيين الحريصين على مصالحهم والمخلصين لمخدوميهم واللامبالين بأي شكل من أشكال

الأخلاق (لأنهم في طاعتهم إرادتنا - إن أجزلنا لهم الدفع - يبدون غير قادرين على إفشاء الأسرار والتراخي وعدم النزاهة، كما يبدون أيضاً عديمي الذمة)، فنقول عنهم: «إنهم أناس طيبون»، ويمكن أن نثق بهم ثقة مطلقة. وعندما ذهب «إيميه»، فكرت في أن ما سيحاول الاطلاع عليه هناك أستطيع أن أسأل الآن ألبيرتين عنه. وما إن فكرت في السؤال الذي اخترته وأردت طرحه عليها - وكانت ألبيرتين إلى جانبي، ليس بفضل مجهود إحيائي وإنما بفضل لقاء تم صدفة، ويشبه الصور الضوئية التي التقطت بطريقة عفوية فتترك الإنسان أكثر حيوية - حتى تصورت حديثنا وشعرت باستحالة الأمر. وكنت قد بدأت أدرك، من زاويتي، أن ألبيرتين ماتت، وأن ألبيرتين التي كانت تلهمني بتلك العاطفة التي يكنها المرء للغائبات اللواتي لا تصحح رؤيتُهن الصورةَ المجمَّلة، وتلهمني أيضاً بأن حزني على ذلك الغياب هو حزن سرمدي؛ وبأن الفتاة المسكينة فقدت لذة الحياة إلى الأبد. وبنقلة مفاجئة عَبَرتُ فوراً من عذاب الغيرة إلى يأس الفراق.

ما كان يملأ قلبي الآن، بدل الاشتباهات الحاقدة، كان الذكرى الرقيقة لساعات الحنان الوائق التي أمضيتها مع الأخت التي غيّبني عنها فعلاً موت ألبيرتين، لأن حزني لم يرتبط بمكانة ألبيرتين عندي، بل بما كان قلبي - التائق للمشاركة في الصبوات العشقية العامة جداً - قد أقنعني تدريجياً بهذه المكانة؛ عندئذ أدركت أن هذه الحياة التي أسأمتني كثيراً (وهذا على الأقل ما كنت أظنه) كانت على العكس لذيذة؛ وفي اللحظات القصيرة التي قضيناها معاً للتكلم عن أشياء لا معنى لها، أشعر الآن بلذة انضافت واندمجت ولم أحسّ بها في الحقيقة، بل جعلتني أبحث بمثابرة عن تلك اللحظات، دون غيرها. فكانت الأحداث الصغيرة جداً التي تذكرتها، كتلك الحركة التي فعلتها قربي في السيارة أو جلوساً خلف الطاولة أمامي في غرفتها، تحرك في نفسي العذوبة والحزن الذي راح يسيطر عليّ.

لم تظهر لي تلك الغرفة التي كنا نتعشى فيها جميلة، أقول فقط إنها كانت لألبيرتين بحيث تكون صديقتي مسرورة للعيش فيها. أما الآن فقد كفت لامبالاة الستائر والمقاعد والكتب بالنسبة لي. فليس الفن وحده هو الذي يزرع السحر والسر في الأشياء الأكثر تفاهة، لأن قدرة وضعها في علاقة حميمة معنا منوط أيضاً بالألم. وفي ذلك الوقت بالذات، لم أعر أي اهتمام بذلك العشاء الذي عملناه معاً بعد العودة من الغابة، وقبل أن أذهب إلى عائلة الـ«فيردوران» (Verdurin) وإلى الجمال والعذوبة الصارمة، وأعود الآن من هذه الزيارة وعيناي تغرورقان بالدموع. إن انطباع الحب لا يتناسب مع الانطباعات الأخرى للحياة، ولكن إدراك ذلك لا يتم وسط تلك الانطباعات. فلا نستطيع من تحت، ووسط ضجة الشارع وضوضاء البيوت المتلاصقة أن نقدّر، في تأمل التوحد والمساء، علوَّ إحدى الكاتدرائيات الفريد والمتسامق والصافي؛ ذلك أن المرء عندما يبتعد، يستطيع ذلك، من سفوح الرابية المجاورة، ومن مسافة تختفي فيها المدينة أو أنها لم تعد تشكّل على مستوى الأرض إلا كومة غامضة من التراب. حاولت أن أقبّل صورة ألبيرتين عبر دموعي، مفكراً في جميع الأشياء الجدية والصادقة التي قالتها لي في ذلك المساء.

وذات صباح ظنننتي أرى الشكل المستطيل لإحدى الروابي وسط الضباب وأحس بحرارة فنجان الشوكولاتا، بينما كان قلبي ينقبض هائلاً لذكرى الأصيل الذي أتت فيه ألبيرتين لتراني وقبّلتها فيه للمرة الأولى، بعد أن سمعت هسهسة المدفأة المائية التي أشعلت للتو. ورميت بغضب دعوة قدمتها لي «فرانسواز» من «مدام فيردوران». فكم فرض الانطباع التالي الذي أحسست به عندما ذهبت للعشاء في «لا راسبيلير» (La Raspelière) للمرة الأولى، وهو أن الموت لا يضرب جميع البشر في العمر نفسه، وكم فرض الآن نفسه عليّ بقوة بعد أن ماتت ألبيرتين في عزّ شبابها، وبعد أن استمر «بريشو» (Brichot) يتعشى عند «مدام فيردوران» التي ما زالت

تستقبل أصدقاءها وتستقبلهم ربما لسنوات طويلة(*)! وما عتم اسم «بريشو» أن ذكرني بنهاية تلك الأمسية بعد أن أخذني بسيارته إلى بيتي فرأيت من تحت نورَ مصباح ألبيرتين. وسبق لي أن فكرت في الأمر مراراً، ولكنني لم أعالج هذه الذكرى من الزاوية نفسها. فإذا كانت ذكرياتنا تخصنا فعلاً، فإنها منوطة بتلك البيوت المتضمِّنة فتحات صغيرة خفية لا نعرفها في الغالب ويفتحها لنا أحد الجيران، فندخل إليها من جهة لم يسبق لنا أن دخلناها منها. عندما فكرت في الفراغ الذي قد أجده الآن لدى عودتي إلى البيت، إذ إنني لن أرى غرفة ألبيرتين من تحت والتي انطفأ نورها إلى الأبد، فهمت في ذلك المساء، بعد مغادرتي «بريشو»، كم ظهر لي مدى الملل والندم اللذين شعرت بهما، فلم يكن بوسعي الذهاب للتنزه ولمطارحة الحب في مكان آخر، وفهمت فداحة خطأي لأن الكنز الذي كان بريقه ينزل إليّ والذي ظننتني أملكه بالتأكيد أهملت أن أحسب قيمته إذ تهيأ لي أنه أدنى من المتع التي، على صغرها، كنت أسعى إلى تخيلها فأقدرها. وأدركت أن تلك الحياة التي عشتها في باريس في بيتي الذي كان بيتها، قد حققت فعلاً تلك الطمأنينة العميقة التي حلمت بها والتي ظننتها ممكنة في ذلك المساء الذي نمنا فيه تحت السقف نفسه في فندق «بالبيك» الكبير.

قبل تلك السهرة الأخيرة عند «الفيردوران» لم أجد عزاءً في نفسي للحديث الذي تجاذبتُ أطرافه مع ألبيرتين عند رجوعنا من الغابة، وهو حديث ربط ألبيرتين بحياة عقلي وجعلتنا في بعض أجزائه متماثلين. قد يكون ذكاؤها ولطفها معي - إن عدت إليهما بشيء من الحنان - أكبر من ذكاء ولطف أشخاص آخرين عرفتهم. ألم تقل لي «مدام دو كامبريمير»

(*) كانت هذه السيدة تستقبل في دارها أعيان ومثقفي وفناني البلاد، ومن بينهم السيد «بريشو» الذي كان مختصاً بالحضارتين الإغريقية والبيزنطية والذي التقى به مارسيل بروست مراراً (م).

(Mme de Cambremer) في «باليك»: «كيف تستطيع أن تقضي أيامك مع بنت عمك، بينما تستطيع أن تقضيها مع رجل عبقري هو «إيلستير» (Elstir)؟» كان ذكاء ألبيرتين يعجبني لأنها، بالتداعي، كانت توقظ فيّ نعومتها (فلا نتكلم عن الطعم اللذيذ لفاكهة من الفواكه إلا عندما تصبح في فمنا). وفعلاً، عندما أفكر في ذكاء ألبيرتين، تستطيل شفتاي بشكل غريزي وتذوقان ذكرى أفضّلها على الواقع وتكون خارجية وتتبلور في التفوق الموضوعي لشخص من الأشخاص. من المؤكد أنني عرفت أناساً يتمتعون بذكاء أكبر. ولكن لانهائية الحب وأنانيته تجعلان الأشخاص الذين نحبهم هم أولئك الذين لا نستطيع موضوعياً تحديد طبيعتهم الفكرية والأخلاقية، فنبحث عنهم دائماً رغم رغباتنا ومخاوفنا، ولا نفصلهم عنا، إذ يشكلون حيّزاً فسيحاً وغامضاً نجسّد فيه عواطفنا. لا نملك صورة واضحة عن جسدنا الذي يتدفق فيه كمّ كبير من الأتراح والأفراح؛ إنه كصورة شجرة أو بيت أو عابر سبيل. وقد يكمن خطأي في أنني لم أسع سعياً زائداً للتعرف على دخيلة ألبيرتين. أما في ما يتعلق بجمالها، فإنني لم أعتبر إلا المواقف المختلفة التي احتلت ذاكرتي مع مرّ السنين، ففوجئت عندما رأيت أن هذا الجمال قد تطور واغتنى عفوياً دون أن يكون نابعاً من اختلاف في المنظور. وكذلك كان ينبغي عليّ أن أفهم طبعها كما أفهم طباع الناس بعامة، وأن أفهم لماذا كانت تصر على إخفاء سرها عني؛ ولو حصل ذلك لكنت قد تجنّبت (وأنا بين هذا الإصرار الغريب وبين حدسي الثابت) ذلك الصراع الذي أدى إلى موت ألبيرتين. ولشفقتي الكبيرة عليها، خجلت من العيش بعدها. وبدا لي في الساعات التي لم أكن أتعذب فيها كثيراً أنني أستفيد من موتها، لأن للمرأة فائدة كبرى في حياتنا، إذا كانت عنصر أسى، بدل أن تكون عنصر سعادة؛ وما من امرأة يكون امتلاكها نفيساً مثل امتلاك الحقائق التي تكشفها لنا عندما تعذّبنا. في تلك الأوقات التي قاربتُ فيها موت جدتي بموت ألبيرتين، بدا لي أن حياتي ملطّخة بجريمتي قتل، ولن يغفرهما لي إلا جبن العالم وحده. كنت قد حلمت بأن أفهم

وبألا تنكرني، ظناً مني أن فهم الآخر وعدم إنكاره يوفران له السعادة الكبرى، مع العلم أن الكثيرين يستطيعون أن يفعلوا ذلك بشكل أفضل. يرغب الإنسان في أن يُفْهم لأنه يرغب في أن يُحَبّ، ويرغب في أن يُحَب لأنه يحِب. إن فهم الآخرين سواء وحبهم في غير محله. فبهجتي لأنني امتلكت شيئاً من ذكاء ألبيرتين ومن قلبها لا تنجم عن قيمتها الذاتية، بل تنجم عن أن ذلك الامتلاك كان درجة إضافية في امتلاك ألبيرتين الكامل، وهو امتلاك كنت أصبو إليه وأتخيله منذ أول يوم عرفتها فيه. عندما نتكلم عن «لطافة» امرأة، قد لا نفعل سوى أن نسقط خارجنا المتعةَ تلك التي نشعر بها عندما نراها، وفي ذلك نشبه الأولاد عندما يقولون: «يا سريري الصغير العزيز، يا مخدتي الصغيرة الغالية، يا زعروري الصغير العزيز». وهذا يفسر لنا، من جهة أخرى، أن الرجال لا يقولون قط عن امرأة لا تخدعهم: «إنها في غاية اللطف»، بل يقولونها كثيراً في امرأة خدعتهم.

كانت «مدام دو كامبريمير» تجد وبحق أن سحر «إليستير» الروحي أكبر. ولكننا لا نستطيع أن نعتبر بالطريقة نفسها سحر شخص، كجميع الآخرين، يعيش خارجاً عنا ونرسمه في أفق فكرنا، وسحر شخص آخر قد استقر في جسدنا نفسه - إثر خطأ في الموضعة العنيدة والناجمة عن بعض الحوادث - بحيث نتساءل بالتالي إذا كانت امرأة ذات يوم في طريق السكة الحديدية الساحلي تسبب لنا الآلام ذاتها التي يسببها لن طبيب جراح يبحث عن رصاصة في قلبنا. عندما نأكل هلالية نشعر بمتعة أكبر من جميع بلابل الشعير والأرانب الصغيرة والحجل الرومي التي قُدّمت للملك لويس الخامس عشر؛ وتستطيع قمة العشب الذي يرتعش أمام أعيننا على بعد بضعة سنتمترات منّا ونحن مستلقيان فوق الجبل، أن تخفي عنا رأس قمة شاهقة، حتى ولو كانت تبعد عدة فراسخ.

على كل حال لا يكمن خطؤنا في إطرائنا امرأة نحبها، على ذكائها ولطفها، مهما صغرا. نخطئ إذا بقينا لامبالين للطف وذكاء الآخرين. لا يعود الكذب إلى إثارة السخط، والطيبة إلى إثارة الامتنان فينا، إلا إذا أتتا

من امرأة نحبها؛ وللشهوة الجسدية قدرة رائعة لتثمين الذكاء ولوضع أسس راسخة للحياة الأخلاقية. لن أجد على الأرجح إطلاقاً هذا الشيء الإلهي، أي ذلك الشخص الذي أستطيع أن أحدثه عن كل شيء وأتمكن من أن أبوح بأسراري له. أبوح بأسراري؟ ولكن ألم يُظهر لي أشخاص آخرون ثقة تفوق ثقة ألبيرتين؟ ألم أسهب في الحديث مع الآخرين؟ إن الثقة والمناقشة هما من الترهات، ولا ضير إن شابهما النقصُ بعض الشيء، وإن ارتبطا فقط بالحب، الذي هو وحده إلهي. كنت أرى ألبيرتين تجلس خلف آلة البيانولا، وكانت وردية بشعر أسود؛ وكنت أشعر أنها كانت تحاول أن تفتتح شفتي بلسانها الأمومي الذي لا يستهلك، بلسانها المغذي والمقدَّس الذي بلظاه ونداه السرّيين كانت ألبيرتين تجعله ينزلق على بشرة عنقي وبطني فتأخذ تلك القبل السطحية التي يحرّضها جسدها من الداخل، كظاهر رداء تبرز بطانته، تأخذ حتى بملامساتها الخارجية تماماً شكل ولوج سري رقيق.

لا شيء يعيد لي جميع تلك الهنيهات، ولا أستطيع أن أقول إن كان ضياعها يشعرني باليأس. مهما يكن المرء يائساً فلا بد له أن يتعلق بهذه الحياة التي لن تكون من بعد إلا بائسة. لقد كنت يائساً في «بالبيك» عندما رأيت النور يشرق وفهمت أن ما من أحدٍ يستطيع أن يكون سعيداً من أجلي. ومنذئذ حافظت على أنانيتي، ولكن أناي التي أتشبث بها الآن، أناي التي سببت تلك التحفظات العنيفة التي حرّكت عندي غريزة البقاء، هذه الأنا انصرفت من الحياة. فعندما فكرت في قواي وقدرتي الحيوية وفي ما هو الأفضل لدي، فكرت في كنز امتلكته (وكنت الوحيد الذي امتلكته لأن الآخرين لم يستطيعوا أن يعرفوا تماماً العاطفة الكامنة فيّ والتي ألهمني إيّاها) ولا يستطيع أحد أن ينتزعه مني لأنني لم أعد أمتلكه. وأيم الحق أنني لم أمتلكه قط لأنني أردت أن أتصور نفسي أمتلكه. لم أتهوّر فقط عندما نظرت إلى ألبيرتين بشفتيّ وعندما غرستُ هذه الفكرة في قلبي، إذا نمّيتها في داخلي، بل تهوّرت أيضاً عندما مزجتُ الحب العائلي

بمتعة الحواس. وكنت أريد أيضاً أن أقنع نفسي بأن علاقاتنا كانت هي الحب، وبأننا كنا نمارس تلك العلاقات التي تدعى حباً، لأن ألبيرتين كانت تعطيني مطيعة القبلَ التي كنت أعطيها إياها. ولأنني تعوّدت تصديق ذلك، فإنني لم أضيّع امرأة أحببتها، وإنما امرأة أحبتني، لقد كانت أختي وولدي وعشيقتي الحنون. في المحصلة عرفت سعادة وتعاسة لم يعرفهما «سوان» فطيلة الوقت الذي أحبّ فيه «أوديت» وغار عليها، كان يراها بالكاد ولم يستطع إلا بصعوبة بالغة أن يذهب إلى بيتها، لأنها كانت تلغي موعدها معه في بعض الأيام وفي آخر لحظة. ثم صارت له وتزوجها وبقيت زوجته حتى موته. أما أنا فعلى العكس، صحيح أنني كنت أغار على ألبيرتين، ولكنني كنت أسعد من «سوان» لأنني امتلكتها في بيتي. لقد حققت في الواقع ما حلم به «سوان» كثيراً ولم يحققه مادياً إلا عندما صار الأمران عنده سيّان. وأخيراً لم أحافظ على ألبيرتين كما حافظ هو على «أوديت». فهذه هربت وماتت. لا شيء يتكرر بالضبط تماماً، وحتى الحيوات الأكثر تشابهاً لا تتكرر؛ إننا بفضل تقارب الطباع وتشابه الظروف نستطيع الاختيار عندما نقيم تناظراً بين هذه وتلك ولكنهما تبقيان متعارضتين في كثير من النقاط. ولم أتكلم حتى الآن عن التعارض الرئيسي بينهما وهو (الفن). لو خسرت حياتي لما خسرت شيئاً يذكر، ولما خسرت سوى شكل فارغ، سوى الإطار الفارغ للوحة فنية رائعة. لأنني لا أبالي بما يمكنني من الآن فصاعداً أن أضيفه إلى حياتي، ولأنني مع ذلك سعيد وفخور بما احتوت - حسب ظني - فإنني استندت إلى ذكرى تلك الساعات الرغيدة، فكان هذا الدعم المعنوي يعطيني هناء ما كان دنو الموت يقصمه.

عندما كنت أبحث عنها في «بالبيك» كانت تهرع لتراني، ولا تتأخر إلا لتسكب العطر على شعرها لتعجبني! إن صور «بالبيك» و«باريس» التي كنت أحب أن أراها من جديد كانت الصفحات الحديثة جداً في حياتها القصيرة والتي قلبت بسرعة. لم يكن كل هذا بالنسبة لي إلا ذكرى،

وبالنسبة لها كان فعلاً، وفعلاً متسارعاً نحو الموت العاجل، كما يحدث في المسرحيات التراجيدية. إن للكائنات تطوراً فينا وتطوراً آخر خارجاً عنا (وشعرت بذلك في تلك المساءات التي لاحظت فيها عند ألبيرتين ثراء في الخصال لا يرتبط بذاكرتي) وتترك ردود أفعال علينا وعليها. طاب لي عندما أردت التعرفَ على ألبيرتين ثم تملكّها كاملة ألا أرضخ إلا لضرورة جربتها وهي اختزال سر كل إنسان إلى عناصر تتشابه بسخافة مع عناصر ذاتنا، واختزالَ كل بلاد أظهرها لنا خيالنا مختلفة، وأن أقود كل مسرة من مسراتنا العميقة نحو دماره، ولكنني لم أستطع ذلك دون أن أؤثّر بدوري في حياة ألبيرتين. قد تكون ثروتي أو آفاق زواج محترم هي التي جذبتها، ولكن غيرتي جعلتها تتكبح؛ بيد أن طيبتها أو ذكاءها أو شعورها بالإثم أو أن مهارات التحايل عندها هي التي جعلتها تقبل ودفعتني إلى تنغيص هذا الأسر الذي اختلقته بنات أفكاري، على أنها تركت على حياة ألبيرتين صدمات من شأنها أن تثير مشاكل جديدة ترتد على نفسيتي وتزيدها ألماً، لأنها فرت من سجني وراحت وقتلت نفسها على حصان لولاي لما امتلكته، وتركتني حتى بعد موتها فريسة للظنون التي سيكون التحقق منها أكثر ضراوة من اكتشافها: ففي «بالبيك» تعرفت ألبيرتين على الآنسة «فانتوي»، ولأنها أيضاً رحلت دون أن تهدئ من روعي. إن هذه المرثية الطويلة للنفس التي تظن أنها تعيش منطوية على نفسها، ليست حواراً ذاتياً إلا في الظاهر، لأن أصداء الواقع تجعلها تنحرف؛ إن هذا النوع من الحياة يشبه تجربة نفسية ذاتية تتم عفوياً، ولكنها تؤمّن للرواية عن بعيد «حدثها» الواقعي جداً، وهي رواية تتكلم عن حياة أخرى تحوّل سيرَ المنحني وتغيّر اتجاه المحاولة النفسية. وكم تشابكت حلقات الأحداث بشدة، وكم تطور حبنا بسرعة بالرغم من بعض قصص «بلزاك» أو بعض معزوفات «شومان»، وكم كانت الخاتمة سريعة! في غضون السنة الأخيرة التي طالت عندي كقرن من الزمان – لأن ألبيرتين غيرت موقفها منذ كنا في «بالبيك» وحتى سفرها إلى باريس، ولأنها بمعزل عني وبدون أن أدري

قد تغيرت هي نفسها - وجب أن أضع كل تلك الحياة العاطفية الطيبة موضعها، مع أنها لم تدم طويلاً وظهرت لي مع ذلك رحبة وذات مدى ومستحيلة إلى الأبد ولكنها كانت بالنسبة لي حياة لا بد منها. لا بد منها، ربما لأنها كانت بذاتها ولأول وهلة شيئاً ضرورياً، ذلك أنني لو لم أقرأ كتاباً عن الآثار يتناول بالوصف كنيسة «باليك» لما تعرفتُ على ألبيرتين. لو لم يقل لي «سوان» إن هذه الكنيسة كانت فارسية إلى حدّ ما، ولو لم يوجه اهتمامي بالفن النورماندي البيزنطي، ولو لم تأتِ شركة فندقية لتبني لها في «بالبيك» هذه التي رغبت فيها منذ أمد طويل، لم أجد الكنيسة الفارسية التي حلمت بها، ولم أجد الضباب الذي لا ينقشع. إن قطار الساعة الواحدة وخمس وثلاثين نفسه لم يستجب لما كنت أتصوره. ولكن مقابل ما يدفعنا خيالنا إلى انتظاره، ومقابل العناء الكبير الذي نقاسيه عبثاً في محاولة البحث، تعطينا الحياة شيئاً لم يخطر على بالنا. من قال لي في «كومبريه»، عندما كنت أنتظر بحزن شديد تحية المساء من أمي، إن تلك الهواجس ستزول وستُبعَث من جديد ذاتَ يوم لأمي وإنما لفتاة لم تكن في البداية، على أفق البحر، إلا زهرة تشتهي عيناي كل يوم أن تنظر إليها، ولكنها زهرة عاقلة كنت أتمنى بطفولة أن أجد لي مكاناً رحباً في بالها، وكنت أتألم من أنها كانت تجهل أنني أعرف السيدة «دو فيلباريسيس»؟ نعم إن تحية المساء وقبلة تلك الغريبة التي بعد سنوات - إن حرمتني منها - جعلتني أتألم كما تألمت في طفولتي عندما لم تكن أمي تأتي لتراني. إن هذه الألبيرتين الضرورية جداً والتي هامت نفسي بحبها، لو لم يكلمني «سوان» عن «باليك» لما عرفتها قط. لو لم أعرفها لكانت حياتها ربما أطول، ولكانت حياتي بمعزل عن هذه الآلام المبرحة. وهكذا بدا لي أنني بعاطفتي الأنانية البحتة قد تركت ألبيرتين تموت، كما سبق لي أن قتلت جدتي. وحتى لاحقاً، وحتى بعد أن تعرفت عليها في «باليك»، كان يجدر بي ألا أحبها كما فعلت من ثم. فعندما تخليت عن «جيلبيرت» وعرفتُ أنني أستطيع ذات يوم أن أحبّ امرأة أخرى، تجرأتُ

بالكاد أن أشك (في الماضي على جميع الأحوال) في أنني قادر على حب امرأة غير «جيلبيرت». والحال أن الشك لم يخامرني، في ما يتعلق بألبيرتين، إذ تيقنّت أنني قادر على ألا تكون هي التي أحبّ، وإنما امرأة أخرى. كان يكفي لهذا، ألا تعتذر السيدة «دو ستيرماريا» عن ذلك العشاء الذي اتفقنا عليه في جزيرة الغابة(*). كان الوقت مناسباً عندئذٍ، وكان بوسع السيدة «دو ستيرماريا» أن تمارس تنشيط خيالنا الذي يجعلنا نستخلص الفرادة في المرأة فتبدو لنا عندئذ فريدة من نوعها ومقدَّرة علينا وضرورية. وعلى الأكثر، إذا نظرت إلى نفسي من الناحية الفيزيولوجية، لاستطعت القول إنني قادر على أن أكنّ مثل هذا الحب الحصري لامرأة أخرى، وليس لكل امرأة أخرى. ذلك أن ألبيرتين السمينة والسمراء لم تكن تشبه «جيلبيرت» السامقة والصهباء، ومع ذلك كان وضعهما الصحي هو نفسه، وكانت لكلتيهما خدود شهوانية ونظرات لا يستطيع المرء أن يفهم بسهولة معناها. كانتا من أولئك النساء اللواتي قد لا ينظر إليهن الرجال، أو اللواتي من جهتهن يجعلن الرجال يصابون بالجنون «دون أن أعنى بهن». أكاد أستطيع الظن أن الشخصية الشهوانية والعنيدة عند «جيلبيرت» هاجرت لتحل في جسد ألبيرتين المختلف عن جسدها بعض الشيء، ولكنه يماثله بعمق في أمور كثيرة (هذا ما أجده الآن بعد تفكيري لاحقاً). يصاب إنسان بالزكام بالطريقة نفسها دائماً، وكذلك يمرض، أي يحتاج في ذلك إلى مجموعة من الظروف؛ ومن الطبيعي، عندما يصبح عاشقاً، أن يميل إلى نوع معين من النساء، وهو نوع شائع جداً. إن نظرات ألبيرتين الأولى التي جعلتني أحلم، لم تكن لتختلف عن نظرات «جيلبيرت» الأولى. وأكاد أظن أن الشخصية الغامضة لـ«جيلبيرت» وشهوانيتها وطبيعتها العنيدة والمراوغة عادت لتُطغيني متجسدة هذه المرة في بدن ألبيرتين المختلفة والمماثلة في آن. بفضل حياة ألبيرتين المختلفة

(*) المقصود غابة بولونيا المعروفة في باريس. (المترجم).

تماماً والتي لم يتسلل إلى مجمل أفكارها حيث حافظ اهتمامها الأليم على تماسك مستمر، لم يتسلل أي صدع شرودي أو نسياني، ولم يكف جسدها الحي ذات يوم، كما جسد «جيلبيرت»، عن مفاتنه الأنثوية التي عرفت لاحقاً أنني حصلت عليها (دون أن تكون للآخرين). ولكنها ماتت. وقد أنساها. من يدري، ربما تعود نفس صفات الدم الغني والأحلام القلقة لتزرع الاضطراب فيّ! ولكنها ستتجسد هذه المرة في أي قدّ أنثوي؟ لا أستطيع التنبؤ بذلك. وبفضل «جيلبيرت» كان بوسعي أن أتصور ألبيرتين قليلاً وأن أحبها، وألا يسمح لي تذكر سوناتا «فانتوي» (Vinteuil)[*] بتخيل عزفها. وأكثر من ذلك، حتى عندما رأيت ألبيرتين في المرات الأولى، ظننت أنني سأحب نساء غيرها. وقد بدت لي، لو عرفتها قبل ذلك بسنة، باهتة بهوت سماء رمادية لم يبزغ عليها الفجر. فإن تغيرتُ تجاهها، فلأنها تغيرتْ هي أيضاً، ذلك أن الفتاة التي أتت إلى سريري يوم أرسلت رسالة إلى السيدة «دو ستيرماريا» لم تكن نفس الفتاة التي عرفتها في «بالبيك»، إما لمجرد تفجر يحدث للمرأة أثناء المراهقة، وإما نتيجة لظروف لم أستطع قط أن أعرفها. على كل حال، حتى ولو أن التي سأحبها ذات يوم يجب أن تشبهها نوعاً ما، أي إذا لم يكن اختياري لامرأة ما حراً بكاملة، فهذا يعني مع ذلك أنه عندما يتوجه بشكل ربما ضروري، فإنه ينطبق على أشياء تتجاوز حدود الفرد، ينطبق على نوع من النساء، وعندما ننزع كل حتمية على حبي لألبيرتين، فإن هذا يكفي رغبتي. إن المرأة التي نرى وجهها باستمرار أكثر من رؤيتنا النور نفسه، لأننا ونحن مغمضو العيون لا نكف للحظة عن الإشادة بعينيها الدعجاوين وأنفها الجميل ونجد جميع الوسائل لرؤيتها، هذه المرأة الفريدة، نعلم تمام العلم أننا عشقنا امرأة أخرى، لو أننا عشنا في مدينة أخرى غير المدينة التي التقينا بها فيها، ولو أننا تنزهنا في أحياء أخرى، ولو أننا

(*) إن سوناتا فانتوي هي من خيال بروست. (المترجم).

رددنا إلى صالون آخر. أنظن أنها فريدة؟ إنها لا تحصى ومع ذلك هي كثيفة ولا تتهدم في أعيننا التي نحبها، ولا نقوى على استبدالها بامرأة أخرى إلا بعد مدة طويلة. ذلك أن هذه المرأة قد حركت، بنداءات سحرية شتى، ألف عنصر عاطفي فينا كانت مفتتة وجمعتها هي ووحّدتها وأزالت الشوائب بينها، ونحن عندما نعطيها سماتهما نكون قد أعطينا المادة الجامدة للشخص المحبوب. وحتى إذا كنا لها واحداً من أصل ألف أو كنا ربما آخرهم، نرى أنها الوحيدة وأن حياتنا تصبو إليها؛ وهذا هو السبب. صحيح أنني حتى عندما شعرت بأن هذا الحب غير ضروري، لا لأنه كان من الممكن أن يتم مع السيدة «دو ستيرماريا»، بل بدون ذلك، إذ كنت أعرفه بذاته وأجده مفرط التشابه مع حب الآخرين وأشعر بأنه أرحب من ألبيرتين لأنه يدثّرها دون أن يعرفها كأنه مد بحري يحيط بصخرة هزيلة. ولكن القيود التي صنعتها بنفسي تدريجياً، لأنني كنت أعيش مع ألبيرتين، لم أعد أقوى على التملص منها؛ وعادة إشراك شخص ألبيرتين في الشعور الذي أثارته كان يدفعني إلى الظن أنه خاص بها، شأنه في ذلك شأن العادة التي تمنح تداعي الأفكار البسيط بين ظاهرتين - حسبما تدعي إحدى المدارس الفلسفية - فترفد قانون السببية بقوة وضرورة وهميتين. ظننت أن علاقاتي وثروتي ستحميني من التألم، وأنها قد تحميني بفعالية شديدة لأنني خمّنت أن هذا سيعفيني من الإحساس والحب والتخيل، فكنت أحمد بنت الريف الفقيرة التي يوفر لها غياب العلاقات - بما فيها التلغراف - أشهراً مديدة من الحلم الناجم عن أسى لا تستطيع اصطناعياً إرقاده. ولكن تبين لي الآن أنني رأيت - ومدام «غيرمانت» كانت راضية عن كل ما يستطيع أن يجعل المسافة بيني وبينها لامتناهية - هذه المسافة تزول فجأة من رأي وفكر من يعتقد أن الامتيازات الاجتماعية ليست سوى مادة جامدة يمكن تفعيلها؛ وعلى هذا النحو فإن علاقاتي وثروتي وسائر إمكانياتي المادية التي كانت مكانتي وحضارة عصري تجعلني أفيد منها قد أرجأت موعد الصراع العنيف مع

إرادة ألبيرتين المغايرة والحديدية التي لم يجد فيها أي ضغط، أسوة بهذه الحروب الحديثة التي لا تؤدي فيها تجهيزات المدفعية ومدى قذف الآلات الهائل إلا إلى تأخير انقضاض الرجل على الرجل والتي فيها ينتصر القلب الأقوى. صحيح أنني تبادلت مع «سان لو» بعض البرقيات والمكالمات الهاتفية، وصحيح أنني كنت على اتصال دائم مع مكتب «تور» (Tours)، ولكن انتظارها ذهب سدى، وكانت نتيجتها معدومة. هل بنات الريف اللواتي يفتقرن إلى الامتيازات الاجتماعية والعلاقات، أو هل البشر الذين سبقوا هذا التفنن في الحضارة يعانون أقل، لأن طلباتهم أقل ولأنهم يتحسرون أقل على ما اعتبروه دائماً مستحيلاً وبقي لديهم غير واقعي من جراء ذلك؟ يرغب الناس أكثر في الشخص الذي سيبذل نفسه، لأن الأمل يسبق الامتلاك ولأن التحسر يزيد الرغبة. إن رفض السيدة «دو ستيرماريا» المجيء للعشاء في جزيرة «غابة بولونيا» هو الذي حال دون حبي لها. وكان هذا يكفي أيضاً لتقريبها من قلبي، لو أنني فيما بعد رأيتها ثانية في الوقت المناسب. وما إن عرفت أنها لن تأتي حتى طرحت الفرضية الممكنة التالية (والتي تحققت): ربما كان أحدهم غيوراً عليها وحجبها عن الآخرين؛ أما أنا فلن أراها أبداً، لقد عانيت كثيراً ولدي استعداد لبذل كل شيء بشرط أن أراها، وهذا هو من الهواجس الكبرى التي عرفتها ولطّفها مجيء «سان لو». وفي سن معينة تصبح غرامياتنا وتصبح عشيقاتنا من بنات قلقنا؛ فماضينا بندوبه يحدد مستقبلنا. وبالنسبة لألبيرتين خصوصاً، لم يكن من الضروري أن أحبها هي بالذات، دون أشكال الحب المجاورة، وأن يندرج ذلك في تاريخ حبي لها، أي لها ولصديقاتها. ذلك أن هذا الحب لا يشبه حبي لـ«جيلبيرت»، ولكنه مؤلف من أجزاء حبي لفتيات عديدات. وكان ذلك ممكناً بسببها وبسبب التشابه بينها وبينهن، لذا فإنني أعجبت بصديقاتها. على أية حال كانت المراوحة بينهن ممكنة، خلال مدة طويلة، إذ كان اختياري ينتقل من هذه لتلك؛ وعندما خطر لي أنني أفضل هذه، كان يكفي أن تتركني تلك أنتظر فترفض

أن تراني كي تخلق عندي شيئاً من الحب. ومراراً حدث أن «أندريه» (Andrée) كانت تهم بالمجيء إلى «بالبيك»، ولكي لا أظهر تعلقي بها كتبت لها كاذباً: «يا ليتك أتيت منذ أيام! أما الآن فأحب أخرى ولكن لابأس، تستطيعين أن تمنحيني السلوى»، كتبت هذا قبيل زيارة «أندريه»؛ ذلك أن ألبيرتين كانت تفقدني الكلام وقلبي لم يعد يتوقف عن الخفقان، فظننت أنني لن أراها من بعد، وكانت هي التي أُحبُّها. وعندما كانت «أندريه» تأتي، كنت أقول لها حقاً (كما قلت لها في باريس عندما علمت أن ألبيرتين قد عرفت الآنسة «فانتوي») ما كانت تظنه قولاً متعمداً، دون صدق، وهو ما قد يقال في العبارات نفسها، لو كنت سعدت مع ألبيرتين قبل ذلك بيوم: «يا ليتك أتيت منذ أيام، أما الآن فأحب أخرى». وحتى في حالة «أندريه» هذه التي استبدلتها بألبيرتين عندما علمت أن هذه قد عرفت الآنسة «فانتوي»، كان الحب متبادلاً؛ وفي المحصلة لم يكن هناك إلا حب واحد في آن. وحصلت لي مثل هذه الحالات في السابق حيث تخاصمت نصف مخاصمة مع بنتين من البنات. فالتي كانت تقدم على الخطوة الأولى كانت تعيد لي هدوئي، أما تلك فسأحبها إن بقيت على خصومتها، وهذا لا يعني أنني لن أرتبط بالأولى ارتباطاً نهائياً، لأنها ستواسيني - ولو بدون نجاح - من قسوة الثانية، التي سأنساها إن لم تعد. وليقيني أن واحدة منهما على الأقل ستعود إليّ، حدث أن كلتيهما لم تعودا لفترة طويلة. وكان قلقي مزدوجاً، وهيأت نفسي للكف عن تلك التي قد تعود، ولكن الاثنتين قد عذبتاني وقتئذ. هذا نصيب مرتبط بالعمر، وقد يأتي مبكراً جداً، عندما يخف حبنا بسبب شخص أو بسبب إهمال ما، وتنتهي بنا الحال بالنسبة لهذا الشخص ألا نعلم عنه سوى شيء واحد - لأن صورته ادلهمّت، وروحه غابت، ولأن تفضيلك حديث العهد ولا تفسير له -: نحتاج كي نكف عن الألم إلى أن يدفعك هذا الشخص إلى القول: «أتستقبلني؟» إن هجران ألبيرتين لي، يوم قالت لي «فرانسواز»: «إن الآنسة ألبيرتين قد رحلت»، كان كمجاز مخفف

لهجرانات أخرى كثيرة. ففي الغالب، لكي نكتشف أننا عاشقون، وربما لكي نصبح عاشقين، يجب أن يقع يوم الهجران.

في هذه الحالات التي لا ينفع فيها الانتظار، تخلق كلمة من كلمات الرفض التي تثبت الاختيار - بعد أن يعصف الألم بالخيال فيهبّ إلى عمله - تخلق بسرعة مجنونة حباً كاد يبدأ وبقي دون صورة وأعد ليبقى جنينياً منذ أشهر؛ وأحياناً نجد الذكاء الذي لم يستطع أن يلحق بالقلب يتعجب ويصرخ: «ولكنك مجنون، في أية أفكار جديدة ممضة تعيش وتعاني؟ كل هذا لا يشكل الحياة الحقيقية». وإذا لم تحركنا الفتاة الخائنة فعلاً، يكفي لإفشال الحب أن توفر لنفسك تسليات جديدة تهدئ قلبك مادياً. على كل حال، إذا كانت هذه الحياة مع أليبرتين غير ضرورية، في جوهرها، فإنها أصبحت لازمة بالنسبة لي. لقد ارتجفتُ عندما أحببت «مدام دو غيرمانت»، لأنني قلت لنفسي إنها بوسائلها الكبرى في الإغواء، وليس فقط بجمالها ومكانتها وثروتها، قد تكون شديدة الحرية في مراودة عدد زائد من الرجال، وقد أكون قليل التأثير عليها. ولأن ألبيرتين فقيرة وغامضة، فقد ترغب في أن تتزوجني. ومع ذلك لم أستطع أن أمتلكها لوحدي. في الحقيقة، إن الظروف الاجتماعية وتوقعات التصرف الحكيم لا تجعلنا نؤثر في حياة شخص آخر.

لماذا لم تقل لي: «إنني أتذوق هذه الأشياء؟» لو أخبرتني بها لكنت رضخت ولسمحت لها بتحقيقها. ورد في إحدى الروايات التي قرأتها أن امرأة لم يستطع أي توبيخ قام به الرجل الذي كانت تحبه أن يدفعها إلى الكلام. عندما قرأتُ ذلك وجدت أن هذا الموقف عبثي؛ فقلت لنفسي، لو كنت مكانه لأجبرت المرأة على الكلام، ثم لتفاهمنا. لم كل هذه التعاسات غير المجدية؟ ولكنني أرى الآن أننا لسنا أحراراً أن نخلقها لأنفسنا، وأننا مهما عرفنا إرادتنا، فإن الأشخاص الآخرين لا يطيعونها.

ومع ذلك فقد عبّرنا عن هذه الحقائق الممضة والحتمية التي كانت تسيطر علينا والتي كنا عمياناً حيالها (كحقيقة مشاعرنا وحقيقة قدَرنا)،

عبّرنا عنها كثيراً، دون أن ندري وأن نريد، بكلمات فجة وعلى الأرجح كاذبة، ولكن الأحداث أعطتها فيما بعد قيمة نبوية. تذكرت كلمات تلفّظْنا بها دون أن نعرف المعنى الذي تتضمنه، وحتى الكلمات التي قلناها معتقدين أننا نمثل في مسرحية هزلية كان الخطل فيها زهيداً وقليل الأهمية ومحصوراً في كذبنا الرث؛ وقلناها مع ما تضمنته دون أن نشعر. كانت هناك أكاذيب وأخطاء خلف الواقع العميق الذي لم ندركه، وكانت هناك حقيقة وراء هذا الواقع، وهي حقيقة طباعنا، وكانت قوانينها الأصلية عصية على فهمنا وتقتضي حيزاً من الوقت كي تنكشف، وهي أيضاً حقيقة أقدارنا. ظننتني أكذب عندما قلت لها في «بالبيك»: «كلما أراك، كلما أحبك (ومع ذلك فإن تلك الحميمية المتجددة في كل لحظة هي التي - عبر غيرتي - جعلتني أتعلق بها)، أشعر بأنني قادر على أن أكون مفيداً لعقلك». أما في باريس فقلت لها: «حاولي أن تكوني حذرة. إذا وقع لك حادث، تأكدي أنني لن أجد العزاء» (وهي قالت: «ولكن قد يحدث لي حادث») وفي باريس قلت لها في مساء ذلك اليوم الذي تظاهرتُ فيه بهجرها: «دعيني أنظر إليك ملياً لأنني عما قريب لن أراك من بعد، وسيكون ذلك إلى الأبد»؛ وبعد أن طافت بنظرها حولها قالت في ذلك المساء نفسه: «لا أصدق أنني لن أرى من بعد هذه الغرفة وهذه الكتب وهذا البيانو الصغير وكل هذا البيت، ومع ذلك فهذا صحيح»؛ وفي رسائلها الأخيرة، عندما كتبت (وعلى الأرجح عندما قالت: «أقوم بعملية تصنع»): «**أترك لك أفضل ما في**» (أجل ألم تعهد ذكاءها وطيبتها وجمالها لوفاء ذاكرتي ولقواها الهشة، للأسف»؟ وأيضاً: «**إن هذه اللحظة الثنائية الغسق، لأن النهار كان ينحدر ولأننا كنا على وشك التهاجر، لن تزول من ذهني إلا عندما يجتاحه الليل الدامس**» (لقد كتبتْ هذه الجملة عشية ذلك اليوم الذي فيه اجتاح الليل الدامس ذهنها؛ وفي تلك الومضات الأخيرة الخاطفة التي يجزئها قلق اللحظة إلى ما لا نهاية، أبصرت جيداً نزهتنا الأخيرة ربما، وفي تلك اللحظة التي يفارقنا فيها كل شيء والتي

فيها يصنع المرء إيمانه، كما يصبح الملحدون مسيحيين في ساحات الحرب، ربما استنجدت بالصدق الذي لعنته كثيراً مع أنها كانت تحترمه جداً - لأن جميع الأديان متشابهة - وبقسوة شديدة تمنّت الحصول على الوقت الكافي لتتعرف على ذاتها، ولتكرس له آخر فكرة تراودها، ولتعترف أمامه أخيراً، ولتموت فيه).

ولكن ما الفائدة؟ انها حتى إذا حصلت على الوقت الكافي لتتعرف على ذاكرتها، لم يفهم كلانا أين تكمن سعادتنا، وما كان علينا أن نفعله، إلا عندما أدركنا أن هذه السعادة صارت مستحيلة وأننا لم نعد قادرين على صنعها، وذلك إما لأن الأشياء ممكنة فنؤجلها، وإما لأنها لا تستطيع أن تمارس قوة جاذبة ولا أن تصنع إنجازاً ميسّراً إلا عندما تفلت من الغرق الرازح والمشنّع للوسط الحيوي، بعد أن تكون قد انطلقت في الفراغ المثالي للخيال. إن الفكرة القائلة بأننا سنموت هي أعتى من الموت نفسه، ولكنها تبقى أدنى من الفكرة القائلة بأن شخصاً آخر قد مات؛ وعندما يخف وطؤها بعد أن يبتلع الموت شخصاً ما، ينتشر واقعٌ - دون أن يتحرك ساكنٌ في ذلك المكان - يجتث منه ذلك الشخص، فتزول كل إرادة وكل معرفة، ويصعب بعدها الرجوع إلى الفكرة القائلة بأن هذا الشخص قد عاش، كما يصعب - من التذكر الحديث جداً لحياته - الظن أننا نستطيع دمجه في الصور الواهية وفي الذكريات التي تركها شخوص رواية قرأناها.

إنني كنت سعيداً على الأقل بأنها كتبت لي هذه الرسالة قبل أن تموت، وبأنها أرسلت بخاصة البرقية الأخيرة التي أثبتت لي فيها أنها لو عاشت لعادت. إن الحدث ما كان ليكتمل بدون تلك البرقية وما كان ليرقى إلى صورة فنيّة وقدرية، وبدا لي ليس فقط أرق وإنما أيضاً أجمل. وفي الحقيقة، لو كان حدثاً آخر، لكأنه بنفس الدرجة، فكل حدث أشبهُ بقالب لشكل خاص، ومهما كان نوعه فإنه يفرض على سلسلة الأحداث، التي أتى ليقطعها ويكون خاتمة لها في نظره، مخططاً نظن أنه الوحيد الممكن، لأننا لا نعرف الحدث البديل.

لماذا لم تقل لي: «إنني أتذوق هذه الأشياء». فلو فعلتْ لرضختُ وسمحت لها بأن تحققها، ولقبّلتها أيضاً عندئذ. يا لحزني عندما أتذكر أنها كذبت عليّ عندما أقسمتْ لي، قبل أن تغادرني بثلاثة أيام، أنها لم تُقم تلك العلاقات مع صديقة مدام «فانتوي»، مع العلم أن احمرار وجه ألبيرتين كان يشي بذلك. يا للصغيرة المسكينة! لقد كانت نزيهة على الأقل عندما رفضت أن تقسم بأن سرورها برؤية الآنسة «فانتوي» وصديقاتها لا علاقة له بذهابها في ذلك اليوم إلى بيت الـ«فيردوران». لماذا لم تذهب في قَسَمها إلى النهاية. قد يكون الحق عليّ، إذا لم تشأ أن تقول لي (بالرغم من جميع توسلاتي التي تحطمت أمام إنكارها): «إنني أتذوق هذه الأشياء». كان الحق عليّ ربما في «بالبيك»، بعد أن زارتنا السيدة «دو كامبريمير» (de Cambremer)، إذ حصلت لي مع ألبيرتين المصارحة الأولى فاستبعدت التصديق أنها في جميع الحالات لم تقم إلا علاقة صداقة متيّمة مع «أندريه»، فعبرتُ لها بعنف شديد عن تقززي من هذه الأخلاق التي استنكرتها بشكل قاطع جداً. لا أستطيع التذكر إذا خجلتْ ألبيرتين عندما عبّرتُ لها بسذاجة عن هلعي من هذا؛ لا أستطيع تذكره، لأننا نريد بعد مدة طويلة أن نتذكر ما كان موقف ذلك الشخص عندما لم ننتبه للأمر، ولكننا لاحقاً عندما نعاود التفكير في حديثنا نجد أن الصعوبة الممضّة قد توضحت. ولكن هناك ثغرة في ذاكرتنا، ولا أثر لذلك الحدث. وفي كثير من الأحيان لم ننتبه كفايةً في حينه للأشياء التي قد تبدو لنا مهمّة، فلا نملك بالطبع جملة معينة ولا نذكر حركة معيّنة، أو إننا قد نسيناهما. وعندما لاحقاً نتشوق لاكتشاف حقيقة ما، نصعد من تصريح إلى تصريح، ونتصفح أوراق ذاكرتنا كما لو كانت سجل شهادات، وعندما نصل إلى تلك الجملة وإلى تلك الحركة يتعذر علينا تذكرهما، فنعيد الكرة عشرين مرة ولكن عبثاً، لأن الطريق لا تذهب أبعد من ذلك. هل احمرّ وجهها؟ لا أعرف إذا ما احمرّ، ولكن يستحيل ألا تكون قد سمعت، وفيما بعد أوقفها تذكّر كلماتها عندما أوشكت أن تعترف لي ربما. والآن

غابت عن كل مكان، ولو جبتُ الأرض من قطب إلى قطب لما التقيت بألبيرتين؛ فالحقيقة التي انغلقت عليها عادت كاملة ومحت كل أثر لذلك الإنسان الذي غاص في الأعماق. لم تعد إلا اسماً، شأنها شأن «مدام دو شارلوس» (Mme de Charlus) الذي قال عنها بلا مبالاة الذين عرفوها: «إنها كانت لذيذة». ولكنني لا أستطيع أن أتصور لحظة واحدة وجود هذه الحقيقة التي لم تعها ألبيرتين، لأن وجود صديقتي طافح فيّ، وفيّ ترتبط جميع المشاعر وجميع الأفكار بحياتها. ولو عرفت ذلك لربما تأثرت عندما ترى أن صديقها لم ينسها، والآن بعد أن انتهت حياتها، لكانت تأثرت بأشياء قد جعلتها في الماضي لامبالية. وبما أننا نريد تجنب الخيانات، مهما كانت سرية، لأن المرء يخشى أن المرأة التي يحبها لا تتجنبها، راعني أن أفكر في أن الموتى، إن عاشوا في مكان ما، فإن جدتي كانت تعرف جيداً أنني أنسى، مثلما كانت ألبيرتين تعرف مدى تذكري. وفي المحصلة، إذا تعلق الأمر بالميتة نفسها، هل نحن متأكدون من أن الفرح الذي سينتابنا عندما نعلم أنها كانت تعرف بعض الأشياء سيزيل هلعنا من الظن أنها تعرف كل هذه الأشياء؟ ومهما كانت التضحية دامية، أنتخلى أحياناً عن صداقتنا للذين أحببناهم، خوفاً من أن يصبحوا قضاة علينا؟

كانت أشكال فضوليتي الغيور مما استطاعت ألبيرتين أن تفعله لامتناهية. كم اشتريت نساء كثيرات لم يعلّمنني شيئاً. وإذا بقيت هذه الأشكال حية جداً، فمعنى ذلك أن الشخص لا يموت فوراً بالنسبة لنا، إذ يُترَك محاطاً بشيءٍ يشبه هالة حياتية لا علاقة لها البتة بالخلود الحقيقي، ولكنه يبقى يحتل أفكارنا بالطريقة نفسها التي كان يحيا فيها. إنه كأنه في سفر. إنه خلود وثني جداً. وعلى العكس، عندما يكف الإنسان عن الحب، فإن أشكال الفضول التي يثيرها الشخص الآخر تموت قبل أن يموت هو. وهكذا لم أخطُ خطوة واحدة لأعرف مع من كانت «جيلبيرت» تتنزه ذات مساء في «الشانزليزيه». أعرف جيداً أن أشكال الفضول تلك

كانت متطابقة تماماً، دون أن تحمل قيمة بحد ذاتها ودون إمكانية للاستدامة. ولكنني استمررت في تضحيتي بكل شيء للتمتع القاسي بأشكال الفضول العابرة، مع أنني عرفت مسبقاً أن انفصالي المكره عن ألبيرتين، بسبب موتها، سيقودني إلى اللّامبالاة نفسها التي عرفتها بعد انفصالي الإرادي عن «جيلبيرت». وهذا ما دفعني بخاصة إلى إرسال «إيميه» إلى «بالبيك»، لأنني شعرت بأنه سيعلم أشياء كثيرة هناك.

لو عرفتُ ما سيحدث لبقيتْ عندي. ولكنّ هذا يعني أنها كانت سترغب في البقاء على قيد الحياة قربي، بدل أن تقضي نحبها. ولكن مثل هذا الافتراض عبثي بسبب التناقض الذي يتضمنه. ولكنه افتراض لا يؤذي، لأنني بتصوري كم ستكون ألبيرتين سعيدة بالعودة إليّ - لو استطاعت أن تعلم ذلك أو أن تفهمه لاحقاً - لرأيتها عندي ولهممت بتقبيلها؛ ولكنّ ذلك مستحيل، لأنها لن تعود أبداً، فإنها قد ماتت.

كان خيالي يبحث عنها في السماء التي كنا ننظر إليها معاً في العشيات. وخلف ضوء القمر هذا الذي كانت تحبه، حاولت أن أرقى إليها بحناني كي يُسْليني عن الموت، وكان هذا الحب نحو شخص ناءٍ عبادة، فكانت أفكاري تصعد إليها كابتهالات. إن الرغبة قوية جداً، وتولد الإيمان؛ كنت أظن أن ألبيرتين لن تذهب لأنني كنت أرغب في ذلك؛ ولأنني كنت أرغب في ذلك ظننت أنها لم تمت؛ فرحت أقرأ كتباً حول الطاولات الدائرة(*)، وبدأت أومن أن خلود النفس ممكن. ولكن ذلك لم يكفني. كان يجب أن أجدها بجسدها بعد الموت، كما لو أن الخلود يشبه الحياة. ماذا قلت: «يشبه الحياة»؟، كنت أكثر تطلباً أيضاً. كان بودي ألا أفقد مرة واحدة بالموت متعاً ليس الموت وحده يحرمنا منها. فبدونه ينتهي بها الأمر إلى الاضمحلال؛ وقد بدأت فعلاً تضمحل بفعل العادة القديمة وأشكال الفضول الجديدة. ثم تغير شيئاً فشيئاً حتى جسدُها في الحياة،

(*) تحضير الأرواح (م).

ويوماً بعد يوم سأعتاد هذا التغيّر. ولأن ذكراي لم تورد عنها إلا بعض الأويقات، فإنها ودت - لو أنها عاشت - أن تراها لا كما كانت؛ ما كانت تبغيه هو معجزة تستجيب للحدود الطبيعية والاعتباطية للذاكرة التي لا تستطيع الخروج من الماضي. ومع ذلك كنت أتصور تلك المخلوقة الحية بسذاجة اللاهوتيين القدماء، فأمنح نفسي التفسيرات، لا تلك التي كانت تقدر أن تعطيني إياها، وإنما - وبتناقض أخير - تلك التفسيرات التي ضنّت بها دائماً عليّ أثناء حياتها. وبعد أن أصبح موتها نوعاً من الحلم، بدا لها حبي كسعادة غير مرجوّة. ومن الموت لم أحتفظ إلا بحسن الختام وتفاؤله، لأنه يبسّط كل شيء ويسوّيه.

وأحياناً كنت أتصور أن اجتماعنا ليس بعيداً ولن يتم في عالم آخر. وكما في الماضي، عندما لم أعرف «جولييت» إلا لألعب معها في «الشانزليزيه»، كنت أتصور أنني مساء وفي بيتي سأتلقى رسالة منها تبوح لي فيها عن حبها وأنها على وشك الدخول؛ وكانت الرغبة القوية نفسها - دون أن ارتبك من قوانين الطبيعة التي تتناقض معها - (وحول «جولييت» لم تخطئ الرغبة في المحصلة لأنها فرضت كلمتها الأخيرة) قد دفعتني الآن إلى الاعتقاد بأنني سأتلقى كلمة من ألبيرتين تُعلمني فيها أنها تعرضت فعلاً لحادث حصان، ولكن لأسباب روائية (هكذا كما حدث أحياناً لشخصيات ظنناهم مدة طويلة قد ماتوا) فإنها لم تشأ أن أعرف أنها شُفيت وأنها الآن بعد توبتها، تطلب العودة لتعيش معي مؤبداً. ولأنني أفهمت نفسي أشكال بعض حالات الجنون لدى الأفراد الذين يبدون عاقلين، شعرت في داخلي بتعايش اليقين من موتها والأمل الدائم برؤيتها تدخل إلى بيتي.

لم أكن بعد قد تلقيت أخباراً من «إيميه»، مع أنه بالتأكيد قد وصل إلى «بالبيك». لا شك أن التحقيق كان يدور حول نقطة ثانوية تم اختيارها عشوائياً. إذا كانت حياة ألبيرتين حياة آثمة حقاً، لوجب أن تتضمن أشياء متفاوتة الأهمية، لم تُتِح لي الصدفة أن أفكر فيها كما أتاحه لي الحديثُ

حول برنس الحمال واحمرار وجه ألبيرتين. وبالضبط فإن هذه الأشياء غابت عني لأني لم أرها. ولكن بالصدفة بيّتُ استخارة لذلك النهار، وخلال سنوات سعيت إلى تحقيقها. إذا كانت ألبيرتين قد أحبت النساء، فقد كانت هناك آلاف النهارات في حياتها لم أعرف كيف شغلتها ويهمني معرفتها أيضاً؛ كان بوسعي أن أرسل «إيميه» إلى أماكن كثيرة في «بالبيك» وإلى مدن عديدة غير «بالبيك». ولكن هذه النهارات بالضبط، وهي التي لم أعرف كيف شغلت، لم تمر فلم يكن لها فيها وجود. لم تكن الأشياء والكائنات البشرية تبدأ في الوجود إلا عندما تأخذ في مخيلتي وجوداً شخصياً. وإذا وجدت آلاف أخرى مماثلة، فإنها تصبح ذات معنى بالنسبة لي. في ما يتعلق بظنوني حول ألبيرتين، إذا كنت قد رغبت منذ أمد طويل في أن أعرف ما حدث في الحمّام، فبالطريقة نفسها وددت معرفة رغبات النساء (مع أنني علمت أن عدداً كبيراً من الفتيات والوصيفات تمكّنَ من إحلالها مكان الصدارة؛ وعن طريق الصدفة سمعت عنها)، وأردت أن أعرف - لأن سان قد كلمني عنهن، فصار وجودهن بالنسبة لي وجوداً شخصياً - الفتاة التي كانت تتردد على بيوت الدعارة، ووصيفة «مدام بوتبوس» (Mme Putbus). إن الصعوبات التي دفعت بصحتي وترددي و«إرجائيتي» (كما كان يقول سان لو) إلى إنجاز شيء ما، سرّبت لي مع الأيام والشهور والسنين بعض الظنون، وعلى سبيل المثال تحقيق بعض الرغبات. ولكنني كنت أحفظها في ذاكرتي واعداً نفسي بألا أنسى كنه حقيقتها، لأنها وحدها كانت تثير هوسي (ذلك أن الرغبات الأخرى لم يكن لها شكل في نظري، ولم تكن موجودة)، وأيضاً لأن الصدفة التي اختارتها من قلب الواقع كانت تضمن لي أنني سأتواصل فعلاً معها، إذ كان يكمن فيها شيء من الواقع والحياة الحقيقية والمنشودة. ثم ألا يكفي وجود حدث صغير تم اختياره جيداً لكي يقرر المجرب وجود قانون عام يكشف الحقيقة عن آلاف الأحداث المماثلة؟ لقد حاولت ألبيرتين جاهدة ألا تسكن ذاكرتي، كما تراءت لي مع تتالي الحياة، إلا كأشتات بسيطة من

الوقت؛ كان فكري يجمع بينها فجعل منها شخصاً، وعن هذا الشخص أردت أن أبدي رأياً عاماً، وأعرف إن كانت قد كذبت عليَّ وإن كانت تحب النساء وإن تركتني فلأنها كانت تريد التردد إليهن بحرية. ما قالته عاملة الحمام قد يقطع الشكوك نهائياً حول أخلاق ألبيرتين.

يا لشكوكي! يؤسفني أنني ظننت أنني سأكون لامبالياً، لا بل سأهنأ بألا أرى ألبيرتين من بعد، إلى أن كشف لي غيابها خطأي. وكذلك علّمني موتها كم أخطأت الظن وأتمنى أحياناً موتها وأجد فيه خلاصاً لي. وكان الأمر كذلك عندما تلقيت رسالة «إيميه»، ففهمت أنني إذا لم أكابد بإسراف شكوكي حول طهارة ألبيرتين، فلأن هذه الشكوك لم تكن شكوكاً بالفعل. متزوداً بهذا الإيمان المنقذ، استطعت دون خطر أن أترك العنان لفكري كي يلعب حزيناً بافتراضات أعطاها شكلاً دون أن تكون مقنعة. فقولي: «إنها تحب النساء»، كقول بعضهم: «أريد أن أموت هذا المساء» يقول المرء ذلك دون أن يصدقه ثم يقيم مشاريع لليوم التالي. وهذا يعني أنني، عندما اعتقدت خطأ - وهذا مؤكد - أن ألبيرتين تحب النساء أو لا تحبهن، وبالتالي فإن ذنباً ارتكبته ألبيرتين لا يقدم لي شيئاً جديداً لم أفكر فيه وشغلني، شعرت من خلال الصور، العديمة المعنى بالنسبة للآخرين، والتي أشارت إليها رسالة «إيميه»، بألم مفاجئ لم يسبق أن شعرت بقسوته من قبل وشكّل مع تلك الصور - صورة ألبيرتين بالذات، يا حسرتي - نوعاً من الرواسب، كما يقال في الكيمياء، التي لا ينفصل فيها راسب عن راسب، ولا تستطيع رسالة «إيميه» التي أفصّلها هنا بشكل مصطنع أن تعطي عنه أية فكرة، لأن كل كلمة من كلماتها تحوّلت فوراً وتلوّنت إلى الأبد بالألم الذي أثارته.

«سيدي، . . .

«فليسامحني سيدي لأنني لم أكتب إلى سيدي أبكر من ذلك. الشخص الذي كلفني سيدي برؤيته غاب لمدة يومين، ورغبة مني في الاستجابة للثقة التي خصّني بها سيدي، لم أشأ العودة فارغ اليدين.

وأخيراً تحدثت لتوي مع ذلك الشخص الذي يتذكر جيداً (الآنسة ألبـ. . .). إيميه، الذي كان مبتدئاً في الثقافة كان يريد أن يكتب «الآنسة البـ» بحرف مائل أو بين معترضتين، ولكنه كان يضع القوسين بدلاً من المعترضتين والعكس بالعكس. وعلى هذا النحو كانت «فرانسواز تقول: إن شخصاً قد بقي في شارعي» لتعبر عن إقامته فيه وإن المرء يستطيع الإقامة دقيقتين لتعني أنه «بقي دقيقتين». وغالباً ما تقوم أخطاء الناس الشعبيين على استبدال المفردات (وهذا ما فعلته اللغة الفرنسية) التي عبر القرون حلت محل غيرها من المفردات.

وحسب هذا الشخص، فإن الشيء الذي كان سيدي يفترضه هو شيء مؤكد قطعاً. ذلك أن هذا الشخص أولاً كان يهتم بألبيرتين عندما كانت تأتي إلى الحمام. وكانت الآنسة ألبـ. . . تأتي دائماً أحياناً كثيرة لتتحمم مع سيدة طويلة أكبر منها سناً وتلبس دائماً ثياباً رمادية، وكانت عاملة الحمام لا تعرف اسمها ولكنها تعرفها لأنها كانت تأتي كثيراً لتبحث عن فتيات. ولكنها لم تعد تهتم بالأخريات منذ أن عرفت (الآنسة ألبـ. . .) وكانت هي والآنسة البـ. . . تحبسان نفسيهما داخل المقصورة لمدة طويلة جداً. وكانت المرأة ذات الثياب الرمادية تعطي بخشيشاً للشخص الذي تكلمت معه بقيمة عشرة فرنكات على الأقل. وكما قال لي هذا الشخص، لو كانتا تتكلمان في التوافه لما أعطتاني بخشيشاً قيمته عشرة فرنكات. وكانت الآنسة ألبـ. . . تأتي أحياناً مع امرأة داكنة البشرة تحمل نظارة بمقبض ولكن (الآنسة ألبـ. . .) كانت في أغلب الأحيان تأتي مع فتيات أصغر سناً منها، وبخاصة مع فتاة صهباء جداً. وما عدا السيدة ذات الثياب الرمادية، لم تكن الفتيات اللواتي كانت الآنسة ألبـ. . . اعتادت اصطحابهن من «بالبيك»، وكن يأتين في أغلب الأحيان من مناطق نائية. لم يكنّ يدخلن معاً، ولكن الآنسة ألبـ. . .، حسب هذا الشخص، كانت تدخل وتترك باب المقصورة مفتوحاً، لأنها كانت تنتظر صديقة، وكان الشخص الذي تكلمت معه يعرف معنى هذه العبارة. ولم

يتمكن هذا الشخص من إعطائي أية تفاصيل أخرى لأنه لم يتذكر جيداً، «ومن السهل فهم ذلك، بعد أن انقضت مدة طويلة». يضاف إلى ذلك أن هذا الشخص لم يسع ليعرف أكثر لأنه كتوم ولأنه صاحب مصلحة ويكسب من الآنسة ألبـ... مالاً وفيراً. ولما علم بموتها تأثر بكل صدق. ولأنها ماتت في عز شبابها، فهذه مصيبة كبرى أصابتها وأصابت ذويها. إنني أنتظر أوامر سيدي لأعرف إن كان عليّ أن أغادر «بالبيك» لأنني لا أظن أنني سأتنسم مزيداً من الأخبار. وأشكر سيدي مرة أخرى على هذه الرحلة الصغيرة الرائعة التي أمّنها لي، لا سيما وأن الطقس كان ملائماً جداً فالموسم يبشّر هذه السنة بالخير. ونأمل أن يأتي سيدي هذا الصيف لنراه قليلاً.

لم يبق شيء يذكر يمكن قوله لسيدي،..» إلخ

لكي أفهم كم اخترقت هذه الكلمات مسامّي، يجب أن أتذكر أن الأسئلة التي طرحتها على نفسي حول ألبيرتين لم تكن أسئلة ثانوية ولامبالية ولا أسئلة نطرحها وحدها في الحقيقة حول جميع الأشخاص الذين ليسوا نحن، مما يسمح لنا التنقل بين الألم والكذب والرذيلة والموت، متسربلين فكرة كتيمة. لا، كان هذا بالنسبة لألبيرتين مسألة جوهرية: كيف هي في أعمق أعماقها؟ في ماذا فكرت؟ ماذا أحبت؟ هل كذبت عليّ؟ هل كانت حياتي معها برثاثة الحياة التي عاشها «سوان» مع «أوديت»؟ ما توصلتْ إليه إجابة «إيميه»، مع أنها لم تكن إجابة عامة بل خاصة - من جراء ذلك - كانت فعلاً الغوص في الأعماق، في أعماق ألبيرتين وفي أعماقي.

وأخيراً كنت أرى أمامي، من خلال دخول ألبيرتين إلى الحمام من الشارع الصغير وبصحبة السيدة ذات الثياب الداكنة، قطعة من هذا الماضي التي لم تبد لي أقل سرية وأقل إرهاباً مما كنت أخشاه عندما كنت أتخيله، في ألبيرتين، حبيس الذكرى. لا غرو أن شخصاً آخر غيري قد يجد أن هذه التفاصيل دون معنى، وهي تفاصيل مرتبطة بعجزي - بعد أن ماتت

ألبيرتين الآن - عن دحضها بواسطة ألبيرتين، وتبقى بمثابة احتمال. لا بل من المحتمل بالنسبة لألبيرتين، لو كانت هذه التفاصيل حقيقية وأقرت هي بأخطائها (لأن ضميرها وجد هذه الأخطاء بريئة أو تستحق اللوم، ولأن شهويتها وجدتها لذيذة أو تافهة)، فإنها تبقى غير مشوبة بانطباع لا يعبر عنه من الهلع ولا أفصلها. فأنا، بفضل حبي للنساء الذي يختلف عن حب ألبيرتين لهن، أستطيع أن أتخيل قليلاً ما كان يختلج فيها. أجل لقد بدأتُ أعاني لتصوري إياها تشتهي ما اشتهيت غالباً، وتكذب عليَّ كما كذبت عليها غالباً، وتهتم بهذه الفتاة أو تلك فتنفق عليها، كما أنفقت على الآنسة «دو ستيرماريا» وكثيرات غيرها، وعلى الفلاحات اللواتي كنت أصادفهن في الريف. نعم، إن جميع رغباتي تساعدني على فهم رغباتها إلى حد ما؛ لقد كانت معاناة كبيرة، إذ كلما كانت جميع الرغبات حية تحولت إلى مواجع فتاكة؛ كما لو أنها في عملية رياضية للعواطف تظهر بالمعامل الجبري نفسه، ولكن بإشارة ناقص بدلاً من إشارة زائد. ولكن أخطاء ألبيرتين، على قدر ما أستطيع أن أحكم أنا، ومهما شاءت إخفاءها عني - وهذا جعلني أفترض أنها كانت تشعر بالذنب أو أنها كانت تخاف من إثارة غمتي - لكن هذه الأخطاء، لأنها أعدتها على هواها في وضع التخيل الذي تعتمل فيه الرغبة، كانت تبدو لها أشياء من نفس شاكلة أشياء الحياة، ومتعاً لها لم تجرؤ على رفضها، وغموماً بالنسبة لي حاولت أن تجنبني إياها بإخفائها عني، ولكنها متع وغموم قد تندرج بين متع الحياة وغمومها. ولكنني من الخارج، ودون سابق إنذار ودون تمحيص للصور، تلقيت من رسالة «إيميه» صور ألبيرتين هذه وهي تصل إلى الحمام وتحضر البخشيش (*).

لأنني على الأرجح قرأت في وصول ألبيرتين الصامت والمصمم مع

(*) ومع ذلك ازداد حبي لها الآن؛ فهي بعيدة جداً؛ ذلك أن الحضور، بإقصائه عنا الواقع الوحيد الذي نفكر فيه، يلطف الآلام، بينما الغياب ينكؤها مع الحب.

المرأة ذات الثياب الداكنة، المواعيد التي أقامتها، فإن الاتفاق على المجيء لممارسة الحب في مقصورة من مقصورات الحمام والمتضمن تجربة عالية في التهتك وتنظيماً سرياً لحياة مزدوجة، يعود لتلك الصور التي حملت لي ذلك الخبر الرهيب عن ذنب ألبيرتين والتي سبّبت لي على الفور ألماً جسدياً وبقيت تلازمني دون انقطاع. ولكن ألمي رد فوراً عليها؛ ذلك أن الحدث الموضوعي والصورة يختلفان حسب الحالة الداخلية التي بها نعالجهما. والألم كالثَّمَل هو مخفف هائل للواقع. فعندما يتداخل الألم وهذه الصور، فإنه يجعل منها شيئاً مختلفاً جداً عما يمكن أن تكونه لأي شخص آخر سيدة ذات ثياب داكنة أو بخشيش أو حمام أو الشارع الذي تمر فيه ألبيرتين واثقة من نفسها وبصحبة تلك السيدة ذات الثياب الداكنة، أي أنها تهرب نحو حياة من الأكاذيب والأخطاء لم يسبق لي أن تصورتها. لقد حوّلَ ألمي تلك الصور فوراً إلى مادتها بالذات، فلم أنظر إليها عبر الضوء الذي ينير مشاهد الأرض، لأنها كانت قطعة تنتمي إلى عالم آخر وإلى كوكب مجهول وملعون، إنها كانت مشهداً من مشاهد الجحيم. إن الجحيم هي «بالبيك» برقّتها، هي كل المناطق المحاذية لها التي، حسبما قال «إيميه»، كانت تجلب منها في الغالب الفتيات الأصغر منها سناً وتقودهن إلى الحمام. إن هذا السر الذي كنت قد تخيلتُه في بلاد «بالبيك» والذي تبدد منها عندما عشت فيها، والذي أملت من ثم التقاطه ثانية عندما تعرفت على ألبيرتين لأنني، لما رأيتها تمر على الشاطئ، ولما ضرب الجنون برأسي فرغبت في ألا تكون شريفة، فكرت في أنها يجب أن تجسد هذا السر، كما أن كل ما يتعلق بـ«بالبيك» يتشربه بشناعة. وأصبحت أسماء هذه المحطات كـ«أبولونفيل» (Apollonville) إلخ. . .، مألوفة ومهدئة جداً، عندما كنت أسمعها في المساء أثناء عودتي من عند عائلة الـ«الفيردوران»، والآن عندما أفكر في أن ألبيرتين سكنت إحداها وتنزهت حتى المحطة الأخرى وذهبت على الدراجة مراراً إلى الثالثة، فإن هذه الأسماء تثير فيّ قلقاً أقسى من القلق الذي شعرت به في المرة

الأولى، إذ رأيتها بارتباك من سكة الحديد الصغيرة المحلية، وكنت مع جدتي، وقبل وصولي إلى «بالبيك» التي لم أكن بعد قد عرفتها.

من قدرات الغيرة أنها تجعلنا نكتشف كم واقع الأحداث الخارجية وأحاسيس النفس هي شيء مجهول يقبل ألف احتمال. نظن أننا نعرف الأشياء بدقة ونعرف ما يفكر فيه الناس، والسبب البسيط هو أننا لا نكترث لذلك. ولكن ما إن نرغب في المعرفة - كا يفعل الغيور - حتى نرى أمامنا صندوق دنيا يدور بسرعة جنونية تجعلنا لا نميز شيئاً. هل خدعتني ألبيرتين؟ ومع من؟ وفي أي بيت، وأي يوم؟ هل هو ذلك اليوم الذي قالت لي فيه كذا والذي تذكرت أنني قلت فيه كيت وكيت؟ لا أعلم شيئاً. ولم أكن أعرف أكثر عن مشاعرها نحوي، وإذا كانت نابعة من المصلحة أو من الحنان. وفجأة تذكرت ذلك الحادث التافه، فعلى سبيل المثال أرادت ألبيرتين أن تذهب إلى «سان مارتان لوفيتو» (Saint-Martin-le-Vêtu)، قائلة إنها تهتم بهذا الاسم، وربما لأنها وبكل بساطة تعرفت على فلاحة كانت موجودة هناك. ولكن «إيميه» أخبرني بهذا عن عاملة الحمّام، لأن ألبيرتين بقيت تجهل أنها أطلعتني على ذلك. وكانت عندي حاجة المعرفة حاجة تجاوزت، في حبي لألبيرتين، حاجة أن أظهر لها أنني أعلم؛ لأن ذلك كان يسقط بيننا الفصل الذي يفصل بين الأوهام المختلفة، دون أن يؤدي ذلك إلى زيادة حبي لها، بل على العكس. فمنذ أن ماتت، انصهرت الحاجة الثانية مع بقايا الحاجة الأولى: فتصورت الحديث الذي وددت إشراكها في ما اطلعت عليه، كما تصورت الحديث الذي طلبت منها فيه ما لم أعرفه، أي أن أراها قربي وأسمعها تجيبني بطيبة وأشاهد خديها يكتنزان وعينيها تفقدان خبثهما ويسودها الأسى، أي أنني شاهدتني ما زلت أحبها ونسيت غيرتي الساخطة في يأس عزلتي. إن السر الممض في عجزي عن إعلامها بما اطلعت عليه وعن وضع علاقاتنا على محك الحقيقة التي عرفتها فقط للتو (والتي لم أستطع ربما اكتشافها لأنها ماتت، أحل حزنها محل سر تصرفها الأكثر إيلاماً) ماذا..؟ كم تقتُ لكي تعرف

ألبيرتين أنني اطلعت على قصة مقصورة الحمام، ألبيرتين التي صارت جزءاً من العدم! كانت هنا أيضاً إحدى نتائج تلك الاستحالة التي نوجد فيها، عندما نضطر إلى التفكير في الموت وإلى تصورنا شيئاً آخر غير الحياة. صارت ألبيرتين جزءاً من العدم؛ ولكنها بالنسبة لي هي التي أخفت عليّ مواعيدها مع النساء في «بالبيك» وهي التي تصورت أنها نجحت في إخفاء ذلك عني. عندما نمعن النظر في ما سيحدث بعد موتنا، ألسنا نحن الذين لا نعيش إلا في الخطأ نقذف بأنفسنا حينئذ؟ أليس في المحصلة من المضحك بمكان أن نتأسف على امرأة صارت جزءاً من العدم، بعد اطلاعنا على ما فعلته منذ ست سنوات، فنرغب في أن يتكلم الجمهور عنا بعد موتنا بالحسنى بعد قرن من الزمن؟ إن كان هناك أساس فعلي للاحتمال الثاني أكثر ممّا هو عليه بالنسبة للأول، فإنّ منادم الغيرة الاسترجاعية تنجم عن الخطأ البصري نفسه كما تنشأ عند الناس الآخرين رغبة في المجد بعد موتهم. ومع ذلك، فإن ذلك الإحساس النهائي بالقطيعة النهائية والاحتفالية مع ألبيرتين، إذا حل في برهة ما محل التفكير في تلك الأخطاء، فإنه سرعان ما يفاقم هذه الأخطاء ويمسحها بطابع لا برء منه. فرأيت أنني هائم على نفسي في الحياة كما لو أنني وحدي على شاطئ لامحدود، فأين اتجهت فلن ألتقي بها.

ولحسن الحظ أجد من المناسب في ذاكرتي - وهي التي تحمل أشكالاً وألواناً من الأشياء التي بينها الخطيرة وبينها المنقذة والموجودة في تلك الفوضى حيث لا تلتمع الذكريات إلا واحدة بعد الأخرى - أن أعثر على قول لجدتي، كما يعثر العامل على شيء يستطيع أن يستخدمه في عمله. لقد روت لي قصة غريبة وهي أن عاملة الحمّام قد حدّثت السيدة «دي فيلباريسيس» فقالت: «إنها امرأة مصابة بمرض الكذب». وهبّت هذه الذكرى لنجدتي. ما مدى صحة ما قالته عاملة الحمّام لـ«إيميه»؟ لا سيما وأنها في المحصلة لم تشاهد شيئاً. تستطيع المرأة أن تأخذ حماماً مع صديقاتها دون أن يكون في ذلك أي شرّ. وربما أن عاملة الحمّام، كي

تزهو بنفسها، بالغت في قيمة البخشيش. ذات مرة سمعت «فرانسواز» تؤكد أن عمتي «ليوني» (Léonie) قالت إنها تخصص «مليون فرنك في الشهر للطعام»، وهذا ضرب من الجنون؛ وتؤكد أيضاً أنها رأت عمتي «ليوني» تعطي «أولالي» (Eulalie) أربع أوراق من فئة الألف فرنك، مع أن ورقة من فئة الخمسين فرنكاً مطوية أربع طيّات كانت تبدو لي هي الأصح. وهكذا بحثت، ونجحت شيئاً فشيئاً في التخلص من اليقين الممضّ الذي وصلت إليه بشق النفس، وكنت أراوح دائماً بين الرغبة في المعرفة والخوف من الألم. عندها استطاعت عاطفتي أن تولد من جديد، ولكن شاب هذه العاطفة فوراً حزن الانفصال عن ألبيرتين، وأثناءه كنت أكثر بؤساً مما كنته في الساعات الأخيرة حيث اختلجت فيّ الغيرة. ولكن هذه الغيرة عادت لتولد مجدداً عندما فكرت في «بالبيك»، بسبب الصورة التي رأيتها فجأة (والتي لم تكن حينئذ تؤلمني، لا بل كانت تبدو لي صورة طفيفة الأذى في ذاكرتي) والتي تظهر فيها غرفة الطعام في «بالبيك» أثناء المساء، ووراء الزجاج يظهر حشد كبير من البشر المزدحمين في الظلام كما لو كانوا أمام زجاج مُنار في حوض سمك، ونظرت إلى هذه الكائنات البشرية الغريبة تتحرك في النور؛ ولكن تلامست في تجمّعها (وهذا ما فاتني أن فكرتُ فيه) صائدات السمك وبنات البلد مع البورجوازيات الصغيرات اللواتي كن يشعرن بالحسد إزاء هذه الرفاهية الجديدة في «بالبيك»، هذه الرفاهية، إن لم نقل الثروة، التي كان البخل على الأقل أو التقليد يمنع ذويهن منها. وكانت ألبيرتين بالتأكيد تتواجد كل مساء تقريباً مع هؤلاء البورجوازيات الصغيرات؛ ولم أكن قد تعرفت عليها بعد على الأرجح كانت تختار إحدى الفتيات فتلحق بها بعد بضع دقائق في الليل إلى الرمل أو ترافقها إلى مقصورة مهجورة على سفح الجرف الصخري. ثم استفاق حزني عندما سمعت صوت المصعد لا يقف في طابقي بل يذهب إلى الأعلى، كان في ذلك حكماً عليّ بالنفي. بيد أن الشخص الوحيد الذي تمنيت زيارته لن يأتي إلى الأبد، لأنه مات. ومع ذلك عندما كان المصعد

يتوقف في طابقي كان قلبي يخفق فأقول لنفسي لحظة: «يا ليت كل هذا لم يكن إلا حلماً! ربما هي، وستقرع الجرس، إنها عادت؛ وتدخل فرانسواز لتقول لي بهلع تجاوز درجة الخوف، إذ كان وسواسها أكبر من حقدها، وكانت تخشى فتاتي حية أقل مما تظن أنها عادت ربما بعد الموت: «لن يصدق سيدي مطلقاً من هو هنا». فحاولت ألا أفكر في شيء وفي أن أتناول جريدة ولكن القراءة كانت بالنسبة لي لا تطاق، لأن هذه المقالات كتبها أناس لا يشعرون بألم حقيقي. لقد قال أحدهم عن أغنية تافهة: إنها تستحق البكاء، أما أنا فبودي أن أستمع إليها بكل حبور لو كانت ألبيرتين على قيد الحياة. وقال آخر، مع أنه كاتب كبير، بعد أن هتف له الناس عند نزوله من القطار، إنه تلقّى هنا شهادات «**لا تُنسى**»؛ أما أنا، فلو تلقيتُها الآن، لما فكرت فيها لحظة واحدة. وأكد ثالث أن الحياة الباريسية، بدون السياسة القميئة، تكون «لذيذة تماماً»، بينما أعرف أنا تمام المعرفة أن هذه الحياة، حتى بدون سياسة، لا تستطيع إلا أن تكون شنيعة في نظري؛ ولو أنني وجدت ألبيرتين، لبدت لذيذة، حتى مع السياسة. وقال أحد الأخباريين عن مهنة الصيد (وكنا في شهر أيار): «إن هذا الوقت لأليم فعلاً، او بالأحرى لنقل إنه كارثي بالنسبة للصياد لأن الطرائد معدومة تماماً»؛ وأردف أخباري «الصالون» قائلاً: «أمام هذه الطريقة في تنظيم معرض، يشعر المرء بأنه أصيب بإحباط كبير وبحزن لا حدود له». إذا كانت قوة إحساسي تظهر لي أن عبارات أولئك الذين لم يعرفوا السعادة والتعاسة الحقيقيتين كاذبة، بالمقابل تستطيع أتفه وأبعد الخطوط المتعلقة بمنطقة «النورماندي» أو «نيس» أو بمؤسسات المعالجة بالماء أو بـ«بيرما» (Berma) أو بأميرة «الغيرمانت» او بالحب أو بالغياب أو بالخيانة، أن تبرز فجأة أمامي، ودون أن أجد الوقت لأشيح نظري عن صورة ألبيرتين، فيعاودني البكاء. وبالعادة لم أتمكن حتى من قراءة تلك الجرائد، لأن مجرد فتح إحداها كان يذكرني بالحركات المشابهة التي كنت أقوم بها عندما كانت ألبيرتين على قيد الحياة؛ ولكنها غادرتها؛

فكنت أترك الجريدة تسقط دون المقدرة على طيها بالكامل. وكان كل انطباع يثير انطباعاً مماثلاً وإنما مجروحاً لأن وجود ألبيرتين فيه قد شطب، بحيث لم تتوفر لدي الشجاعة لأعيش حتى النهاية تلك الدقائق المقطعة الأوصال التي تختلج في قلبي. وعندما كان الانطباع يغيب تدريجياً عن ذهني وتخف وطأته على قلبي، كنت أعاني فجأة من وجوب الدخول إلى غرفتها، كما كنت أفعل عندما كانت هنا، والبحث عن الضوء والجلوس قرب البيانو الصغير. موزعةً بين آلهة صغار مألوفين، سكنت لمدة طويلة شعلة الشمعة وجرس الباب وظهر الكرسي ومجالات أخرى غير مادية، كليلة أرق وانفعال سببتها لي أول زيارة لامرأة أعجبتني. وبالرغم من ذلك، فإن الجمل القليلة التي كانت عيناي تقرآنها في النهار أو التي أتذكرني قرأتها، كانت تثير فيّ غيرة قاتلة. لذا لم تكن تلك الجمل تحتاج إلى تقديم برهان معقول يثبت لاأخلاقية النساء سوى أنها أعادت لي انطباعاً قديماً مرتبطاً بوجود ألبيرتين. ولأن أخطاءها انتقلت عندئذ إلى لحظة منسية لم تصب عادة عدم التفكير فيها قوتي بالخور - وكانت ألبيرتين ما زالت حية - فإنها اتخذت شكلاً أكثر تشابهاً وإقلاقاً وشناعة. فتساءلت وقتها مجدداً إن كانت إفشاءات عاملة الحمام خاطئة بالتأكيد. وللتوصل إلى معرفة الحقيقة كان لا بد من إرسال «إيميه» إلى «نيس» ليمضي بعض الوقت قرب فيلا «مدام بونتان». فإنْ كانت ألبيرتين تحب المتع التي تشعر بها المرأة تجاه النساء، وإن كانت قد تركتني كي لا تُحرَم منها طويلاً، ليتعيّنَ عليها بعد أن أصبحت حرة أن تحاول مباشرة أن تستسلم لها وتنجح فيها، وذلك في منطقة تعرفها وما اختارت الذهاب إليها لو لم تدرك أنها ستجد فيها تسهيلات أكثر مما في بيتي. قد يكون موت ألبيرتين من العادة بمكان بحيث إنه لم يغير اهتماماتي تغييراً يذكر. فعندما تكون خليلتنا حية يأتينا جزء كبير من الأفكار التي نطلقها على حبنا أثناء الساعات التي لا تكون فيها قربنا. وهكذا نعتاد أن يكون موضوع حلمنا شخصاً غائباً ونعتبره كذكرى، حتى عندما لا يغيب إلا بضع

ساعات. وكذلك لا يغير الموت شيئاً يذكر. عندما عاد «إيميه»، طلبت منه أن يذهب إلى «نيس»؛ وهكذا لا بأفكاري وأشجاني ولا بالانفعال الذي أثاره عندي اسم مرتبط بشخص ما، فحسب، وإنما بكافة أفعالي وبالتحقيقات التي أجريها وبطريقة إنفاقي أموالي التي أبذلها لأطّلع على تصرفات ألبيرتين، أستطيع القول إن كل حياتي تلك السنة كانت مليئة بحب وبعلاقة حقيقية. أما تلك التي خصَصْتها بذلك الحب فماتت. يقول الناس أحياناً إن شيئاً قد يبقى بعد موت الإنسان، إذا كان هذا فناناً ووضع شيئاً من روحه في عمله. وكذلك الأمر ربما لوريد ينزع من شخص ويزرع في قلب شخص آخر فتستمر حياة هذا الأخير بعد أن يكون الشخص الذي اجتث منه هذا الوريد قد قضى نحبه.

سكن «إيميه» بجانب فيلا السيدة «بونتان» وتعرّف على إحدى مدبرات المنزل، وعلى مؤجر سيارات كانت ألبيرتين تتردد عليه من أجل استئجار سيارة ليوم واحد، لم يلاحظ أولئك الأشخاص أي شيء. أخبرني «إيميه» في رسالة ثانية أنه علم من غسالة البلدة الصغيرة السن أن ألبيرتين كانت تشد على ذراعها بطريقة خاصة عندما كانت تعيد لها الغسيل. فقالت الغسالة: «**لكن هذه الآنسة لم تمارس معي أي فعل آخر**». أرسلت لـ«إيميه» المال من أجل مصاريف رحلته، ومن أجل الألم الذي سببتْه لي رسالتُه، ومع ذلك اجتهدت لأداوي ذلك الألم قائلاً لنفسي إنه نوع من الألفة التي لا تدلّ على أي رغبة ماجنة، حين استلمت من «

إيميه» برقية يقول فيها: «**لقد اطلعت على أشياء في غاية الأهمية. وعندي لك الكثير من الأخبار يا سيدي. سأتبع برقيتي برسالة**». وفي الغد وصلتني رسالة كان غلافها كافياً لجعلي أرتجف، عرفت أنها كانت من «إيميه»، لأن كل شخص وحتى أكثرهم تواضعاً، يسيطر على تلك الكائنات الصغيرة والأليفة التي هي حيّة ونائمة في ذات الوقت على الورق بنوع من الاسترخاء، إنها أحرف كتابته التي يمتلكها وحده.

«**في البداية لم ترغب الغسّالة في إعطائي أية معلومات، وأكدت لي**

أن ألبيرتين لم تفعل شيئاً سوى أنها قرصت ذراعها. ولكنني ولكي أحثها على الكلام دعوتها للعشاء وجعلتها تشرب. عندها روت لي أن الآنسة كانت تلتقيها غالباً على شاطئ البحر، عندما كانت تذهب للسباحة، اعتادت أن تلتقي بها على شاطئ البحر في مكان كثيف الأشجار بحيث لا يستطيع أي إنسان أن يرى أي شيء، على أية حال لم يكن باستطاعة أي شخص أن يراك في مثل تلك الساعة. ثم كانت الغسالة تأتي بصديقاتها وكن يسبحن وبعد ذلك، وبسبب ارتفاع درجة الحرارة هناك والتي تضرب بقسوة حتى تحت الأشجار، كن يبقين على العشب لكي ينشفن أجسامهن، ولكي يتلامسن ويتدغدغن ويتداعبن. لقد اعترفتْ لي الغسالة بأنها كانت تحب أن تتسلى كثيراً مع صديقاتها وأنها عندما ترى الآنسة ألبيرتين تحتك بها دائماً وهي مرتدية رداء الاستحمام، كانت تنزعه عنها وتداعب بلسانها عنقها وذراعيها، وحتى أخمص قدميها التي كانت ألبيرتين تمدهما إليها. وكانت الغسالة تتعرى أيضاً وكانت الفتيات يتسلين بالتدافع داخل الماء؛ في ذلك المساء لم تخبرني بأكثر من ذلك. ولكنني ولشدة انصياعي لأوامرك ورغبة مني بفعل أي شيء لإرضائك، اصطحبت الغسالة الصغيرة لتنام معي. فسألتني ما إذا كنت أرغب بأن تفعل لي ما كانت تفعله لألبيرتين حين كانت تنزع عنها ثوب الاستحمام. قالت لي: (لو أنك رأيت كيف كانت تلك الآنسة تختلج، وتقول لي: إنكِ تجعلينني أطير فرحاً. وكانت تهتاج لدرجة أنها لم تكن تستطيع منع نفسها عن عضي). ورأيت أيضاً أثر العضة على ذراع الغسالة. وأنا أتفهم رغبة الآنسة ألبيرتين لأن تلك الصغيرة ماهرة حقاً».

لقد تألمت في «بالبيك» عندما أخبرتني ألبيرتين بصداقتها للآنسة «فانتوي». ولكن ألبيرتين كانت هنا لمؤاساتي. بعد ذلك، وبسبب بحثي الدائم لمعرفة ما كانت تفعله ألبيرتين، تسببتُ بتركها لي، وعندما أعلمتني «فرانسواز» أنها لم تعد هنا وأني الآن وحيد، تألمت أكثر أيضاً. ولكن على الأقل، بقيت ألبيرتين التي أحببتها في قلبي. والآن - وعقاباً لي

لأنني تماديت بعيداً في فضولي، وخلافاً لما كنت أعتقده، لم يضع الموت حداً له - حلت عندي مكانها شابة مختلفة، تُكثر من الأكاذيب والحيل إذ كانت تطمئنني وتقسم لي أنها لم تعرف قط تلك المُتع، مع أنها راحت، في أوج حريتها المستعادة، تستمتع بها لدرجة الإغماء، ولدرجة تعضّ فيها تلك الغسّالة التي كانت تلتقيها في الفجر على ضفاف نهر الـ«لوار»، وتقول لها: «أنت تجعلينني أطير فرحاً». ألبيرتين مختلفة، وليس فقط بالمعنى الذي نعطيه لكلمة مختلف عندما يتعلق الأمر بالآخرين. عندما يكون الآخرون مختلفين عنّا، فإن هذا الاختلاف لا يمسّنا بشكل عميق، وكذلك فإن رقاص حدسنا لا يستطيع أن يقذف خارجه إلا تأرجحاً مساوياً لذلك الذي قام به في الاتجاه الداخلي، وهكذا فإننا لا نتبيّن هذه الاختلافات إلا في مواضع سطحية منها. فيما مضى عندما كنت أعلم أن امرأة تحب النساء، فإنها لم تكن تبدو لي امرأة أخرى ذات طبيعة خاصة. ولكن عندما يتعلق الأمر بالمرأة التي نحب، ولكي نتخلص من الألم الذي نشعر به من جرّاء فكرة أن الأمر ممكن، عندها لا نسعى فقط لمعرفة ما تفعله، بل لمعرفة ما تشعر به أيضاً أثناء ممارستها إياه وكيف تنظر إلى هذه الممارسة؛ وحين نهبط أكثر فأكثر إلى الأمام، ونتوغل في ألمنا، نصل إلى السر، وإلى الجوهر. كنت أتألم من أعماق أعماقي، ومن جسدي، ومن قلبي، أكثر بكثير مما يسببه لي خوفي من فقدان حياتي، كنت أتألم من هذا الفضول الذي ساهمتْ فيه كل قوى ذكائي ولاوعيي، وهكذا أنا أُسقِط الآن في أعماق ألبيرتين نفسها كل ما عرفته عنها. وهذا الألم الذي أولجَتْه عميقاً في صدري حقيقة هذه العلة عند ألبيرتين، قد أدى فيما بعد خدمة أخيرة لي. وكالألم الذي سببته لجدتي، كان الألم الذي سببتْه لي ألبيرتين، وهو آخر صلة بيني وبينها، قد تجاوز الذاكرة، لأنه مع بقاء الطاقة التي يمتلكها كل ما هو فيزيائي، فإن الألم لايحتاج إلى دروس من الذاكرة: وهكذا فإن الرجل الذي نسي الليالي المقمرة التي أمضاها في الغابة، لا يزال يتألم من الروماتيزم الذي أصابه من جراء ذلك.

هذه الميول التي كانت لديها والتي كانت تنكرها، هذه الميول التي لم تصلني عبر التفكير الهادئ، بل عبر الألم الكاوي الذي شعرت به عندما قرأت تلك الكلمات: «أنت تجعلينني أطير فرحاً»، هذا الألم الذي كان يعطيها خصوصية نوعية، وهذه الميول التي لم تكن تُضاف إلى صورة ألبيرتين كما تضاف إلى عسكري البحر (نوع من المحار ينزل في الأصداف الفارغة) الصدَفةُ الجديدة التي يجرّها وراءه بل كان كالملح عندما يلامس نوعاً آخر من الملح فيغيّر لونه، لا بل أكثر من ذلك، إذ تتغيّر طبيعته عن طريق الترسيب. عندما قالت الغسالة الشابة لصديقاتها: «تخيّلن، ما كنت لأصدق ذلك، ولكن الآنسة هي سحاقية أيضاً»، بالنسبة لي لم يكن ذلك مجرّد رذيلة لم يعرفن بوجودها ثم أضفنها إلى شخصية ألبيرتين، بل اكتشفن أنها كانت شخصاً آخر، مثلهنّ، تتكلم اللغة نفسها؛ وما جعلها قريبة من الآخرين، كان هو الدافع الذي جعلها غريبة بالنسبة إليّ أكثر فأكثر، وهذا يدل على أن ما أخذته منها، ولا أزال أحمله في قلبي، لم يكن إلا جزءاً صغيراً منها، وأن الباقي الذي تجاوز في اتساعه ذلك الشيء الهام، وتلك الرغبة الفردية، وأصبح شيئاً فشيئاً مشتركاً بينها وبين الأخريات، فقد أخفته عني دائماً، واستبعدتني منه، مثل امرأة أخفت جنسيتها المعادية لأنها جاسوسة، لا بل أكثر خيانة من الجاسوسة، لأن الجاسوسة لا تخدع إلا بإخفائها جنسيتها، أما ألبيرتين فقد أخفت ما يتعلق بإنسانيتها العميقة، وأنها لا تنتمي إلى باقي البشر، بل إلى عرق غريب يختلط بالبشر، ويختبئ بينهم، ولكنه لا ينصهر فيهم أبداً. لقد رأيت لوحتين لـ«إيلستير» تمثلان منظراً طبيعياً غنياً وفيه نساء عاريات. في إحدى اللوحتين، ترفع فتاة من المجموعة قدمها تماماً كما فعلت ألبيرتين لتعطي قدمها للغسالة. وبالقدم الأخرى تدفع إلى الماء فتاة أخرى تقاوم بمرح، ساقها مرفوعة وقدمها تكاد تلامس الماء الأزرق. أتذكر الآن بأن رفع الساق يشكل مع الركبة انحناء يشبه انحناء رقبة البجعة الذي كانت ترسمه نهاية ساق ألبيرتين عندما كانت مستلقية إلى جانبي في السرير، وأردت

مراراً أن أقول لها إنها تذكرني بتينك اللوحتين. لكنني لم أقل لها ذلك خشية أن أوقظ في داخلها صورة أجساد النساء العاريات. أما الآن فأتصورها بجوار الغسالة وصديقاتها، تعيد تشكيل المجموعة التي أحببتها كثيراً عندما كنتُ في «باليبك»، جالساً وسط صديقات ألبيرتين. ولو كنتُ من هواة الجمال وحده لاعترفت بأن ألبيرتين كانت تشكل تلك المجموعة بطريقة أجمل بألف مرة، الآن وقد تألفت عناصرها من تماثيل الآلهة العارية التي كان يوزعها النحاتون الكبار في أرجاء قصر «فرساي» تحت الأجمات أو يضعونها في البحيرات لكي تغسلها وتصقلها مداعبات الموج لها. أتصورها الآن شابة على شاطئ البحر إلى جانب الغسالة، لا بل أكثر شباباً مما كانت عليه معي في «باليبك»؛ ففي عريهنّ الأنثوي المضاعف، في وسط هذا الجو الحار وتلك النباتات، ينزلن إلى الماء كمنحوتات مائية مقعرة. عندما أتذكر كيف كانت في سريري، يخيّل لي أني أرى ساقها المنحنية، أراها فأرى عنق بجعة يبحث عن فم الشابة الأخرى. عندها لا أعود أرى الساق، بل عنق البجعة الجريء، كتلك التي تسعى مرتعشة إلى فم «ليدا» (Léda) والتي نراها في كل الاختلاجات الخاصة بالمتعة الأنثوية؛ ولأنه لا توجد بجعة واحدة، فهي تبدو وحيدة؛ وكذلك نخمن على الهاتف تموّجات صوت لا نميّزها لأنها غير مرتبطة بوجه من الوجوه، ولكننا عندما نربطها بوجه نعرفه، نستطيع عندئذ أن نسقط على الصوت نبرته. وبدل أن تتجه المتعة في هذا البحث نحو المرأة التي أثارتها، والتي هي الآن غائبة، أستعيض عنها بمتعة تتركز داخل تلك التي تشعر بها. في بعض اللحظات ينقطع الاتصال بين قلبي وذاكرتي. فما فعلته ألبيرتين مع الغسالة لم يعد يصلني إلا بواسطة اختصارات شبه جبرية لم تعد تعني أي شيء بالنسبة لي؛ ولكن التيار الذي انقطع يعود مئة مرة في الساعة ويشتعل قلبي بنار جهنم الجائرة، فأتصور ألبيرتين وقد أعادتها غيرتي إلى الحياة، أراها حيّة، ثم تتصلب فجأة تحت تأثير مداعبات الغسالة الشابة لها، فتقول لها: «أنت تجعلينني أطير فرحاً».

كم كانت حيّة وقت ارتكابها ذنبها، أي في اللحظة التي شعرتُ فيها أنه لا يكفيني أن أعرف هذا الذنب، بل أردتها أن تعرف أنني كنت أعلم به. وهكذا، إذ كنت في تلك اللحظات آسف لأنني فكّرت في أنني لن أراها مطلقاً، فإن هذا الأسف حمل علامات غيرتي، واختلف تمام الاختلاف عن ذلك الأسف المؤلم الذي أحسست به عندما كنت أحبّها، ولم يكن إلا أسفاً على عجزي عن قولي لها: «هل تعتقدين أني لا أعرف ما فعلتِهِ بعد أن تركتني، نعم إنني أعرف كل شيء، كنت تقولين للغسالة على ضفاف نهر «اللوار»: «أنت تجعلينني أطير فرحاً»، لقد رأيت آثار العضّة. لا شك أنني تساءلت: «لماذا أعذب نفسي؟ تلك التي شعرتْ باللذة مع الغسالة لم تعد موجودة، أي أنها ليست شخصاً تحتفظ أعماله بقيمتها. إنها لا تقول لنفسها أي شيء». لكن هذا التحليل كان يُقنعني أقل من تصوّر متعتها التي تعود بي إلى اللحظة التي فيها أحسّت بها. إن ما نشعر به موجود بالنسبة إلينا فقط ونسقطه في الماضي، وفي المستقبل، دون أن نلزم أنفسنا بالتوقف أمام حدود الموت الوهمية. إذا كان أسفي لموتها يعاني في هذه اللحظات من تأثير غيرتي ويتخذ شكلاً خاصاً، فإن هذا التأثير سيمتدّ بشكل طبيعي إلى أحلامي بالعلوم الخفية وبالخلود والتي لم تكن إلا محاولة لتحقيق ما كنت أصبو إليه. وفي تلك اللحظات أيضاً، لو استطعت أن أستحضر روحها وأنا أدير طاولة تحضير الأرواح، بحسب اعتقاد «بيرغوت»، أو أن ألتقي بها في العالم الآخر بحسب اعتقاد الأب س...، لما تمنيت ذلك إلا لأقول لها: «أنا أعرف بشأن الغسالة. كنت تقولين لها: «أنت تجعلينني أطير فرحاً»؛ لقد رأيت أثر العضة.

ما هبّ لنجدتي في مواجهة صورة الغسالة، - وطالت هذه الصورة بعض الشيء - هو تلك الصورة نفسها، لأننا لا نعرف حقاً إلا ما هو جديد، إلا الحدث الذي يُدخل في حساسيتنا تغييراً يصعقنا، هذا الذي تستطيع العادة لاحقاً أن تعوّض عنه بنسخة طبق الأصل باهتة. لكن تجزئة ألبيرتين إلى أجزاء عديدة، إلى ألبيرتينات عديدة، كانت هي الشكل الوحيد

لوجودها فيّ. واستعدت لحظات كانت فيها طيبة فحسب، أو ذكية، أو جديّة، أو حتى مُحبّة الرياضةَ أكثر من أي شيء آخر. ألم تكن هذه التجزئة هي ما جعلني أهدأ في بعض الأحيان؟ فحتى ولو لم تكن بحد ذاتها شيئاً حقيقياً، وحتى ولو ارتبطت بتعاقب الساعات كما تتراءى لي، وكما علق في ذاكرتي مثلما يتعلق انحناء عروض فانوسي السحري بانحناء العدسات الملونة، ألا يمثل على طريقته الخاصة حقيقة ما، حقيقة موضوعية تقول بأن كلاً منّا لا يشكل وحدة، بل يحتوي على عدة أشخاص لا يمتلكون نفس القيمة الأخلاقية، وبأنه إذا كانت ألبيرتين الفاجرة قد وُجدت فعلاً، فإن ذلك لا يمنع من وجود ألبيرتينات أخريات، كتلك التي كانت تحب أن تتحدث معي في غرفتها عن «سان سيمون»، وتلك التي قلت لها ذات مساء إنه علينا أن نفترق فقالت لي بحزن شديد: «تصور أني لن أرى مرة أخرى هذا البيانو الصغير وهذه الغرفة»، ثم حين رأت الانفعال الذي سبّبَتْه لي في النهاية كذبتي تلك، صرخت بشفقة حقيقية: «أوه لا، كل شيء إلا أن أسبب لك الألم، اتفقنا لن أسعى للقائك بعد الآن». عندها لم أعد وحيداً، شعرت بأن ذلك الحاجز الذي يفصل بيننا قد انهار. بعد أن عادت ألبيرتين الطيبة، استعدت الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أطلب منه ترياقاً للآلام التي كانت تسببها لي ألبيرتين. صحيح أنني كنت أرغب في التحدث معها عن قصة الغسالة، دون أن يتخذ حديثي شكل الانتصار القاسي أو لكي أخبرها بشكل خبيث أنني أعرف. كيف كنت سأتصرف لو بقيت ألبيرتين على قيد الحياة؟ أكنت سأسألها بحنان إذا صحّت قصة الغسالة؟ كانت ستقسم لي بالنفي، وأن «إيميه» لم يكن صادقاً جداً، وبأنه أبى - لكي يظهر بأنه استحق المال الذي دفعتُه له - أن يعود خالي الوفاض وقصّ على لسان الغسالة ما أراده هو. لا شك أن ألبيرتين لم تكف عن الكذب عليّ. ومع ذلك، ففي مدّ تناقضاتها وجزره لاحظت تطوراً كنت أنا السبب فيه. ألا تبوح لي في البداية ببعض الأسرار (ربما أحياناً بشكل لاإرادي، حين تفلت منها جملة ما)، هذا ما لا أستطيع أن أقسم أنه

حصل، فأنا لم أعد أتذكر أي شيء. ثم كانت لها طرق غريبة جداً في تسمية بعض الأشياء، سواء أكان ذلك يعبّر عن هذا الشيء أم لا. ولكن الشعور الذي تولد لديها بسبب غيرتي جعلها فيما بعد تنفي باستنكار أشياء كانت قد باحت لي بها مازحة. مع العلم أنها لم تكن بحاجة لأن تقول لي ذلك. لكي أتأكد من براءتها، كان يكفيني أن أقبّلها، وأستطيع ذلك الآن بعد أن سقط الحاجز الذي كان يفصل بيننا، هذا الحاجز المقاوم واللامحسوس الذي ينتصب بين المحبّين بعد الخصام والذي تتكسّر عليه القبل. لا، لم تكن تحتاج إلى قول أي شيء. حتى ولو فعلت تلك المسكينة الصغيرة ما أرادت أن تفعله، إذ ستبقى لنا مشاعر تربطنا على الرغم من كل خلافاتنا. لو كانت القصة صحيحة، ولو أن ألبيرتين قد أخفت عني ميولها تلك، فإنها قد فعلتْ ذلك لتجنّبني الحزن. استمتعتُ بسماعي تلك العبارة تقال لهذه الألبيرتين. ولكن هل عرفت على أية حال ألبيرتين أخرى؟ أكبر مسببين للخطأ مع شخص آخر هما: إما أن يكون قلبنا طيباً وإما أن نحب ذلك الشخص. إننا نعشق بسبب ابتسامة، بسبب نظرة، بسبب تربيتٍ على كتف. هذا يكفي، لذا فإننا في ساعات الأمل أو الحزن الطويلة، نخترع إنساناً ما، ونؤلف له طباعاً. وحينما نعاشر فيما بعد الشخص الذي نعشقه، لن يعود باستطاعتنا، حين نواجه بعض الحقائق القاسية، أن ننزع تلك الخصال الطيبة، وتلك الطبيعة الأنثوية عن المرأة التي تحبنا؛ كما أننا لن نستطيع أن ننزع أيضاً عن الكائن الذي يمتلك تلك النظرة، وتلك الكتف، عندما يتقدم به العمر بعد أن عرفناه منذ كان شاباً. كنت أشير إلى النظرة الجميلة والطيبة والرحيمة لألبيرتين تلك، بخدّيها الممتلئين وعنقها ذي الشامات الكبيرة. وكانت هذه صورة لامرأة ميتة، ولكن، بما أن هذه الميتة كانت تعيش، فقد سهُل عليّ القيام مباشرة بما كنت سأفعله بلا شك لو أنها كانت حيّة بالقرب مني (هذا ما سأفعله إذا ما وجبَ عليّ لقاؤها في حياة أخرى)، أي أنني سأسامحها.

لقد كانت اللحظات التي عشتها بجانب ألبيرتين تلك، ثمينة جداً

لدرجة أنني أردت ألا أفقد أية لحظة منها. لكننا أحياناً، وكما نلتقط بقايا ثروة مهدورة، نجد بعض اللحظات التي بدت وكأنها ضاعت: عندما عقدت منديلاً إلى الخلف بدلاً من أن أعقده من الأمام، تذكرتُ نزهة نسيتُها تماماً، ولكن لكي لا يصل الهواء البارد إلى حلقي، ربطت لي ألبيرتين منديلي بهذه الطريقة بعد أن قبّلتني. هذه النزهة البسيطة، التي عادت لذاكرتي بسبب حركة بسيطة جداً، أسعدتني كما تفرحنا تلك الأدوات الغالية جداً علينا. وهكذا فإن حزني قد اغتنى لاسيما وأنني لم أعد أتذكر مطلقاً ذاك الوشاح. كما هي حال المستقبل، فإننا لا نستمتع بالماضي دفعة واحدة، بل حبّة حبّة.

أجل، كان حزني يتخذ أشكالاً عديدة، حتى أنني لم أعد أعرفه في بعض الأحيان؛ كنت أتمنى الحصول على حب عارم، أردت أن أبحث عن الشخص الذي سيعيش بالقرب مني. وهذا بدا لي كمؤشر على أنني لم أعد أحب ألبيرتين إذ كان حزني هو الذي أحببته دائماً؛ ذلك أن الحاجة إلى الشعور بحب كبير لم تكن، كما هي حال رغبتي في تقبيل وجنتَي ألبيرتين الممتلئتين، إلا جزءاً من أسفي. وكنت في أعماقي سعيداً لأنني لم أعشق امرأة جديدة وانتبهتُ إلى أن هذا الحب الكبير والمستمر لألبيرتين كان بمثابة ظل للعواطف التي أحسست بها تجاهها، إذا أنتج الأجزاء المختلفة وخضع لنفس قوانين الحقيقة العاطفية التي يعكسها حتى بعد الموت. فشعرت جيداً أنني، إذا استطعت الكفّ عن التفكير في ألبيرتين لمدة من الوقت، وإذا أطلت تلك المدّة، لما تمكنت من أن أحبّها من بعد، ولكانت أصبحت بسبب هذا الانقطاع غريبة عني كما هي الآن حال جدّتي. لو مرّ وقت طويل دون أن أفكر فيها لانقطعت من ذكرياتي الاستمرارية التي هي مبدأ الحياة ذاته، والتي يمكن على الرغم من ذلك أن نستعيدها بعد مرور مدّة من الوقت. ألم تكن هذه هي حال حبّي لألبيرتين عندما كانت على قيد الحياة، هذا الحب الذي استطاع أن يعود بعد انقضاء مدة طويلة دون أن أفكر فيها؟ إلا أن ذكرياتي وجب عليها أن تخضع للقوانين نفسها، وألا

تتحمل انقطاعات أطول، لأنها لم تستطع، تماماً كفجر الصّبا، إلا أن تعكس، بعد موت ألبيرتين، المشاعرَ التي كنت أكنّها لها، فكانت بمثابة ظل لحبّي. بعد أن أنساها، يمكنني أن أجد أنه من الحكمة والسعادة أن أعيش بلا حبّ. وهكذا فإن أسفي على فقدان ألبيرتين، لأنه خلق في داخلي الحاجة إلى وجود أخت قد جعل من هذه الحاجة رغبة يستحيل إشباعها. وبقدر ما صارت حاجتي إلى أخت أقل إلحاحاً، إذ لم تكن سوى شكل لاواع لهذا الأسف. ومع ذلك فإن هذين الشيئين اللذين تبقيا من حبي، وبقدر ما كان يتضاءل أسفي على ألبيرتين، لم يتراجعا بشكل سريع. مرت ساعات كنت عازماً فيها على الزواج، وبقدر ما كانت الرغبة الأولى تنحسر بشدة، كانت الأخرى على العكس تحافظ على زخم كبير. وفي المقابل، بعد أن انطفأت ذكريات الغيرة لدي، كنت أشعر أحياناً بالحنان تجاه ألبيرتين يحرّك فجأة نياط قلبي؛ عندها حين فكرتُ في أن أحبّ نساء أخريات، قلت لنفسي، إنها لتفهم هذا الحب وتشاطرني إياه، وهكذا تغدو رذيلتها كسبب للحب. كانت غيرتي تتجدد أحياناً في اللحظات التي لم أكن أتذكر فيها ألبيرتين، مع أنني كنت أغار عليها. واعتقدت أنني أغار بسبب «أندريه» التي أخبروني مؤخراً عن إحدى مغامراتها. ولكن «أندريه» لم تكن بالنسبة لي إلا شخصاً مستعاراً، إلا همزة وصل، إلا مأخذاً للتيّار يصلني بشكل لامباشر بألبيرتين. وهكذا فإننا نعطي في الحلم وجهاً آخر واسماً آخر للشخص الذي لا يمكن مع ذلك أن نخطئ في هويته العميقة. وفي المحصلة، على الرغم من حركات المد والجزر التي كانت تخرق القانون العام في بعض الحالات الخاصة، فإن العواطف التي خلّفتها لي ألبيرتين، ماتت بصعوبة أكبر من ذكرى مسببها الأول. لا أتكلم عن العواطف فقط، وإنما عن الأحاسيس أيضاً. واختلفت في هذا عن «سوان»، الذي حين توقف عن حب «أوديت»، لم يعد باستطاعته أن يعيد في نفسه خلق الشعور بالحب، فشعرت بأنني لا أزال أعيش ماضياً لم يعد إلا قصة شخص آخر غيري؛ وكانت أناي نصف غائبة، وصار طرفها الأعلى قاسياً وبارداً، بينما

بقي يشتعل في قاعدته كلما أعادت لي شرارة الحب القديم، حتى ولو كان ذهني قد توقف منذ فترة عن تصور ألبيرتين. لم تكن أية صورة لألبيرتين ترافق الاختلاجات القاسية التي حلت في «باليبك»، على أشجار التفاح التي أزهرت، فتوصلت إلى أن أتساءل ما إذا كان تجدد ألمي ناتجاً عن سبب مرضي، وما إذا حسبته انتعاشاً لذكرى ومرحلة أخيرة لقصة حب، هو بداية مرض بالقلب.

إن لبعض الأمراض أعراضاً جانبية، وغالباً ما يخلط المريض بينها وبين المريض ذاته. وعندما نتوقف، يندهش عندما يرى نفسه أقرب إلى الشفاء مما كان يعتقد؛ هكذا كانت هي المعاناة التي سبّبتها التعقيدات الناجمة عن رسائل «إيميه» بخصوص إقامة الحمامات وبخصوص الغسالات. ولكن في الوقت نفسه، لو زارني طبيب روحاني لوجد أن حزني تحسن. بما أنني كنت إنساناً، بما أنني كنت أحد تلك المخلوقات المزدوجة الطبيعية التي تغوص في الماضي وفي الحقيقة الراهنة في آن واحد، فقد وُجد دائماً في داخلي، وبلا شك، هذا التناقض بين الذكرى الحية لألبيرتين ومعرفتي بأنها قد ماتت. ولكن هذا التناقض كان إلى حد ما، عكس التناقض الذي كان موجوداً في السابق. فالفكرة القائلة بموت ألبيرتين والتي في البداية كانت تحارب بعنف في داخلي الفكرة القائلة بأن ألبيرتين ما زالت حية، إن تلك الفكرة التي كنت أمامها مضطراً إلى الفرار كطفل يهرب من وصول الموجة إليه - وهي الفكرة التي لم تكف عن مطاردتي -، تمكنت أخيراً من اكتساح الحيز الذي شغلتْه مؤخراً في داخلي فكرة حياة ألبيرتين. ودون أن أنتبه لذلك، كانت فكرة موتها - وليست ذكراها الحاضرة في حياتي - هي التي تشغل إلى حد كبير أعماق أحلامي اللاواعية، لدرجة أنني إذا أوقفت تلك الأحلام فجأة لأفكر في نفسي، وهذا ما كان يدهشني، اختلف الأمر عما كان عليه في الأيام الأولى حين استطاعت ألبيرتين الحية التي كانت في داخلي لدرجة كبيرة ألا توجد على هذه الأرض، واستطاعت أن تموت؛ لكن ألبيرتين التي لم

تعد موجودة في هذه الدنيا والتي ماتت، بقيت حية جداً في داخلي. وبعد أن خضعت لتأثير الذكريات المتتالية والمتحاذية، انقطع فجأة النفق الأسود الذي طالما حلمتْ تحت وطأته أفكاري، بحيث تآلفتْ معه ولم تعد تشعر بوجوده، انقطع لظهور ومضة شمس، هدهدت في البعيد أفقاً باسماً أزرق كانت فيه ألبيرتين مجرد ذكرى لامبالية وساحرة. فتساءلت: هل هي الحقيقة، أم أن الكائن الموجود في الظلمة، التي أعيشها منذ زمن بعيد، هو على ما يبدو الحقيقة الوحيدة؟ إن الإنسان الذي كنته منذ فترة ليست بالبعيدة، والذي ما كان يعيش إلا لينتظر دائماً تلك اللحظة التي كانت ألبيرتين تأتي فيها لتقول له مساء الخير وتقبّله، ما هو إلا نوع من تعدد أناي الذي يجعلني أبدو كجزء ضعيف ومسلوب، وكوردة تتفتح، شعرت بنضارة تجديد البراعم التي تبعث الشباب والتجدد. في ما تبقى، دفعتني هذه الالتماعات القصيرة على ما يبدو لأعي بشكل أكبر حبي لألبيرتين، كما يحصل لجميع الأفكار الثابتة الموجودة باستمرار والتي تحتاج إلى نوع من المعارضة لكي ترسخ. إن الذين عاشوا حرب عام ١٨٧٠ مثلاً، قالوا إن فكرة الحرب بدت لهم طبيعية في النهاية، ليس لأنهم لم يفكروا كفاية في الحرب، بل على العكس لأنهم كانوا يفكرون فيها بشكل دائم. ولكي يفهموا إلى أية درجة كانت فكرة الحرب هذه غريبة ومهمة، احتاجوا إلى شيء ينتزعهم من هوسهم الدائم، وينسيهم لبرهة سيطرة الحرب، ويعيدهم إلى ما كانوا عليه أيام السلم، حتى ظهرت فجأة تلك اللحظة التي تجلت فيها بوضوح على هذا البياض المؤقت، تلك الحقيقة المرعبة: وهي أنهم قد توقفوا عن الرؤية وأنهم لم يعودوا يرون شيئاً آخر غير الحرب.

ولو أن انحسار الذكريات المختلفة لألبيرتين من داخلي قد حدث مرة واحدة وليس على دفعات، ولو أنه تم مباشرة على طول خط ذاكرتي، أي لو أن ذكريات خيانتها تناءت في آن مع ذكريات عذوبتها، لكان النسيان جلب إليّ الراحة. لكن الأمر لم يتم بتلك الطريقة. وكما يحدث الجزر على الشاطئ بشكل غير منتظم، كنت فريسة لبعض شكوكي، في حين

كانت صورة حضورها العذب قد ابتعدت جداً عني ولم يعد باستطاعتها منحي الدواء الشافي.

لقد تألمت من الخيانات، ومع أنها حدثت منذ سنين طويلة، إلا أنها لم تكن قديمة بالنسبة إليّ، لكنني سأتألم بشكل أقل عندما تصبح عتيقة، أي عندما يضعف تفكيري فيها، لأن بُعْد الشيء يتناسب مع القدرة البصرية للذاكرة التي تشاهِد، أكثر مما يتناسب مع المسافة الحقيقية للأيام التي انقضت، إنها كذكرى حلم شاهدناه الليلة الماضية وبدا لنا بسبب عدم وضوحه وبهوت صورته أكثر بعداً من حدث يعود إلى سنين خلت. ولكن على الرغم من أن فكرة موت ألبيرتين قد تطورت في داخلي، إلا أن انحسار الشعور بأنها حية، وإن لم يكن يوقف هذا التطور، كان يعارضه ويمنعه من الانتظام. وقد تنبهت الآن أنه خلال تلك الفترة (وعلى الأرجح بسبب نسياني تلك الساعات التي حَجَرْتُ فيها عليها، والتي لكثرة ما محت في داخلي من عذاب الأخطاء التي بدت لي غير مهمة لأنني كنت أعرف أنها لم ترتكبها، قد غدت كبراهين تثبت براءتها)، كنت أتعذب من التعايش المستمر مع فكرتين تقول إحداهما إن ألبيرتين قد ماتت (حتى هذه اللحظة كنت أنطلق من فكرة أنها حية)، وفكرة أخرى شعرت بأنني لا أستطيع تحمّلها، وبدأتْ دون أن أعي تشكل شيئاً فشيئاً أساس شعوري وتحل محل فكرة براءة ألبيرتين: ألا وهي فكرة إثمها. عندما ظننت أنني أشك فيها، آمنت بها على العكس من ذلك؛ وكذلك، كنقطة انطلاق لأفكاري الأخرى كونتُ قناعتي بأنها مذنبة - وغالباً ما كنت أكذّب هذه النقطة كما أكذّب أيضاً الفكرة المعاكسة لها - تم كل ذلك وأنا أتخيل أنني ما زلت أشك. لقد تألمت كثيراً في تلك المرحلة، لكني اقتنعت الآن، أن الأمر كان يجب أن يتم هكذا. لا يمكن أن نشفى من ألم ما لم نعشه بشكل كامل. لأنني حميت ألبيرتين من كل صلة، ولأنني صنعت وهماً يأخذ ببراءتها، تماماً كما فعلت لاحقاً عندما أرسيت تحليلاتي على الفكرة القائلة بأنها حية، فإنني لم أفعل شيئاً سوى تأجيل ساعة شفائي، فأرجأت

الآلام المحتومة لساعات طويلة. غير أن التفكير في أن ألبيرتين مذنبة، كان يتم بحكم العادة، ويتبع القوانين نفسها التي اختبرتها خلال حياتي. وكما أن اسم «غيرمانت» فقد معنى وسِحْرَ الطريق المحفوف بأزهار النيلوفر وبنجمية «جيلبير لوموفي» (Gilbert le Mauvais) الزجاجية، فإن حضور ألبيرتين طغى على تموجات البحر الزرقاء، وأسماء «سوان» وصبي المصعد، وأميرة «الغيرمانت» والكثير من الأشخاص بكل ما عنوه بالنسبة لي، فترك هذا السحر وتلك المعاني في نفسي كلمة صغيرة وجدوا أنها كبيرة كفاية لكي تعيش وحدها، كالشخص الذي يأتي ليشغل خادمه فيطلعه على مجريات الأمور وينسحب بعد عدة أسابيع، كذلك بدأت الفكرة المؤلمة القائلة بأن ألبيرتين مذنبة تتلاشى من داخلي بحكم العادة. وحتى ذلك الحين، وضمن تلك الحالة من الاعتياد، كان الحليفان يتبادلان العون، كما في هجوم يُشَنّ من اتجاهين دفعة واحدة. ولأن فكرة ذنب ألبيرتين غدت بالنسبة لي فكرة أكثر احتمالاً، وأكثر اعتياداً، فقد أصبحت أقل إيلاماً. ولكن، من ناحية أخرى، لأنها غدت أقل إيلاماً، فإن اعتراضاتي على يقين ذنبها - وهي اعتراضات ما راودت فكري إلا رغبة مني في ألا أتألم كثيراً - قد بدأت تنهار الواحدة تلو الأخرى؛ وبما أن كل فعل يسرّع الفعل الآخر، فقد انتقلت بسرعة كبيرة من قناعاتي ببراءة ألبيرتين إلى قناعاتي بذنبها. وتعيّن عليَّ العيش مع فكرة موت ألبيرتين، مع فكرة أخطائها، إلى أن أصبحت هذه الأفكار اعتيادية بالنسبة إليّ، فصرت قادراً على نسيانها وبالتالي على نسيان ألبيرتين نفسها.

لم أكن قد وصلت بعد إلى هذا الحد. وأحياناً كانت ذاكرتي التي غدت أكثر وضوحاً نتيجة استثارة ذهنية - عندما أقرأ مثلاً - هي التي تجدد حزني، وأحياناً أخرى كان حزني الذي اهتاج بسبب القلق الذي مبعثه الطقس العاصف، هو الذي يرفع إلى الأعلى ويقرب إلى النور بعضاً من ذكريات حبنا.

أجل، إن تجدد فترات حبي لألبيرتين الميتة كان يمكن أن يحدث بعد

فترة من اللامبالاة مملوءة بأمور غريبة أخرى، مثلاً، بعد انقضاء الفترة الطويلة التي بدأت بالقبلة المرفوضة في «بالبيك» والتي خلالها انشغلت أكثر بالسيدة «دو غيرمانت» وبـ«أندريه» وبالآنسة «دو ستيرماريا»؛ وتحرك حبي لألبيرتين عندما عدت لرؤيتها أكثر. والآن أرى أن بعض المشاغل المختلفة يمكن أن تُحْدِث انفصالاً - عن امرأة ميتة في حالتي هذه - وأصبحتُ لا أبالي بها. وكل ذلك لسبب واحد، ألا وهو أنها كانت حية بالنسبة لي. وحتى فيما بعد فتر حبي لها، بقي الأمر بالنسبة لي كأحد تلك الرغبات التي نسأم منها سريعاً، والتي تعود إذا ما تركناها ترتاح لبعض الوقت. كنت ألاحق امرأة حية، ثم أخرى، ثم أعود بعد ذلك إلى ميتتي. وغالباً ما كان الأمر يتم في الأجزاء الأشد عتمة في داخلي، عندما كنت أعجز عن تكوين أية فكرة واضحة عن ألبيرتين، فيأتي بالصدفة اسم يثير في نفسي ردود فعل مؤلمة لم أتصور أنها ما زالت ممكنة، كأولئك المحتضرين الذين توقَّفَ دماغُهم عن العمل والذين نتمكن من إحداث تشنج في أحد أعضائهم إذا ما أدخلنا فيه إبرة. وخلال فترات طويلة كانت هذه الاستثارات نادراً ما تصيبني، حتى أنني كنت أبحث بنفسي عن مناسبة للحزن، وعن أزمة غيرةٍ، محاولاً أن أربط نفسي بالماضي، وفي أحسن الأحوال، لكي أتذكرها بشكل أفضل. وبما أن أسفنا على امرأة ليس إلا حباً متجدد الحياة يبقى خاضعاً لنفس قوانين الحب، كذلك فإن قوة أسفي كانت تزداد لنفس الأسباب التي حرضت حبي لألبيرتين عندما كانت حية، وكانت الغيرة والألم يأتيان في مقدمة هذه الأسباب. ولكن تلك المناسبات كانت في أغلب الأحيان - إذ يستطيع المرض أو الحرب مثلاً أن يدوم أكثر بكثير من تقديرات الحكمة الحصيفة - تولد على الرغم مني وتسبب لي صدمات عنيفة بحيث تدفعني إلى التفكير في حماية نفسي من الألم أكثر من إبقائها كذكرى.

أجل، إن كلمة مثل كلمة «شومون» (Chaumont) ليست بحاجة لأن ترتبط بشك معيّن لكي توقظه، ولكي تكون كلمة السر، والسمسم السحري

الذي يشق باب ماض أهملناه لأننا سئمنا من رؤيته، ولأننا بصريح العبارة، لم نعد نمتلكه؛ لقد جردنا منه، واعتقدنا أن شخصيتنا بسبب ذلك الاستئصال قد تغيرت بحسب شكله، كالشكل الهندسي الذي حين يفقد زاوية من زواياه فإنه يفقد جانباً منه. إن بعض الجمل التي يرد فيها مثلاً اسم شراع أو طريق قد مرت فيه ألبيرتين، كانت تكفي لتجسيد غيرة افتراضية غير موجودة، بحثاً عن جسد، عن مسكن، عن ركيزة مادية، عن إنجاز خاص.

بكل بساطة ما كان يحصل أثناء نومي، بواسطة تلك «الاستعادات»، ومقدمات الحلم تلك (أو da capo {كما يقال في الإيطالية})، والتي تقلب دفعة واحدة عدة صفحات من الذاكرة، أن عدة ورقات من التقويم كانت تعيدني وترجعني لانطباع مؤلم وقديم، كان قد أفسح المجال منذ زمن بعيد لمشاعر أخرى وأراه الآن يطفو على السطح. كان يترافق عادة بإخراج رديء، ولكنه أخاذ، كان يوهمني، ويضع نصب عيني ويُسْمِعني ما حدث سابقاً في تلك الليلة. أجل، في قصص الحب وأشكال تصديها للنسيان، ألا يشغل الحلم مكاناً أوسع حتى من اليقظة، ذاك الحلم الذي يأخذ بالحسبان تقسيمات الوقت المتناهية في الصغر، ويلغي الفواصل، ويجعل التناقضات الكبرى تتعارض، ويهدم بلحظة واحدة عمليةَ التعزية التي نسجناها ببطء خلال النهار ويهيئ لنا في الليل لقاء مع تلك التي نسيناها في آخر المطاف، شرط ألا نعود فنلقاها من جديد؟ مهما قلنا، فإننا نستطيع أن نشعر في الحلم بأن ما يحصل هو حقيقي تماماً. وهذا لا يمكن أن يحدث إلا لأسباب مقتبسة من تجربتنا أثناء اليقظة، وهي تجربة تكون في تلك اللحظة خافية عنا. بحيث تصبح تلك الحياة المستحيلة، حياة تبدو لنا حقيقية. أحياناً، وبسبب خلل في الإنارة الداخلية، خلل يؤثر في المسرحية، كانت ذكرياتي التي أخرجتْ مسرحياً بشكل جيد، تخلق عندي وَهْم الحياة، فأصدق فعلاً أنني ضربت موعداً لألبيرتين، وأنني قابلتها؛ لكني شعرت عندئذ بأنني عاجز عن السير نحوها، عاجز عن نطق الكلمات

التي وددت أن أقولها لها، عاجز عن إشعال المصباح الذي انطفأ لكي أراها، وكانت هذه المستحيلات في حلمي كناية عن السكون والصمت وضراوة النائم، كما يحصل لنا أن نرى فجأة في المصباح السحري ظلاً كبيراً، كان يجب ألا يظهر، يمسح صورة انعكاس الشخصيات، ولكن هذا الظل ما هو إلا ظل الفانوس نفسه أو ظل الشخص الذي يشغّله. وأحياناً أخرى كانت تظهر ألبيرتين في حلمي، وكانت من جديد تريد هجري، ولكن دون أن يتمكن قرارها من التأثير فيَّ. والسبب هو أن ذاكرتي استطاعت أن ترسل في عتمة نومي شعاعاً منبّهاً، فكان الذي يسكن ألبيرتين ويفقد أفعالها المستقبلية ورحيلها المعلن كل أهمية، هو فكرة أنها ميتة. ولكن غالباً ما كانت ذكرى ألبيرتين الميتة تختلط، وبشكل أوضح، مع الإحساس بأنها حية دون أن تهدم ذلك الإحساس. كنت أتحدث إليها، وأثناء ذلك كانت جدتي تذهب وتجيء في الغرفة. وتفتت جزء من ذقنها ووقع كشجرة منخورة، ولكنني لم أجد في ذلك أية غرابة. كنت أقول لألبيرتين إنني أود أن أطرح عليها بعض الأسئلة المتعلقة بمنشأة حمّامات «باليك» وبإحدى غسّالات «تورين»، ولكنني كنت أرجئ ذلك إذ كان لدينا متسع من الوقت ولا شيء يقتضي العجلة. كانت تعدني بأنها لن ترتكب حماقة وأنها قبّلت فقط بالأمس الآنسة «فانتوي» على شفتيها. «كيف؟ أهي هنا؟ - أجل، وقد حان الوقت لكي أتركك لأنني يجب أن أراها بعد قليل». وبما أنني، منذ موت ألبيرتين، لم أعد أحبسها عندي كما في آخر أيام حياتها، فإن زيارتها للآنسة «فانتوي» كانت تقلقني. ولم أرد إظهار ذلك، لأن ألبيرتين قالت لي إنها قبّلتها فقط. ولكن يبدو أنها قد عادت للكذب كما في الماضي الذي كانت تنفي فيه كل شيء. بعد قليل لن تكتفي على الأرجح بتقبيل الآنسة «فانتوي». ولكن من وجهة نظر أخرى، أخطأتُ عندما أظهرتُ قلقي، لأن الموتى لا يستطيعون الشعور بأي شيء أو فعل أي شيء، هكذا يقال. ولكن ذلك لم يمنع جدتي المتوفاة منذ عدة سنوات أن تستمر في العيش، سنوات وسنوات، وأراها في هذه اللحظة تروح

وتجيء في الغرفة. بعد أن أستيقظ، لا شك أن فكرة الميّتة التي تستمر في الحياة تغدو مستحيلة الفهم عندي ومستحيلة التفسير أيضاً. ولكني كنت قد شكّلتها مرات عديدة، خلال مراحل الجنون العابرة التي هي أحلامنا، لدرجة أني تآلفت معها في آخر الأمر. إن ذاكرة الحلم قد تصبح دائمة، إذا ما تكررت الأحلام كثيراً. وأتصور الآن أن هذا الرجل، حتى ولو شفي اليوم وعاد إلى رشده، فإن عليه أن يفهم بشكل أفضل من الآخرين ما أراد أن يقول خلال فترة سابقة من حياته العقلية، فحاول أن يشرح لزواره في مشفى الأمراض العقلية، أنه ليس مختلاً، وذلك رغم ادعاءات الطبيب الذي يقارن بين سلامة عقله والتخيلات المجنونة لمرضاه، ويختم بقوله: «وهكذا فإن هذا الرجل الذي يبدو غير مختلف عن الآخرين بحيث لا تظنونه مجنوناً، وهو مجنون بالفعل! إنه يحسب نفسه يسوع المسيح وهذا غير ممكن، لأن يسوع المسيح هو أنا!» ولفترة طويلة بعد انتهاء حلمي كنت أبقى معذباً بسبب تلك القبلة التي أخبرتني ألبيرتين عنها بكلمات أعتقد أني ما زلت أسمعها. وفي الحقيقة أن هذه الكلمات قد مرّت بالقرب من أذنيّ بما أنني أنا الذي تلفّظت بها. وتحدثت طيلة النهار مع ألبيرتين، وسألتها وسامحتها وعوّضت عن نسياني أشياء عندما فكرتُ أن الشخص الذي استحضَرَتْه ذاكرتي، ووُجِّهتْ إليه كل هذه الكلمات لا وجود له البتة. وأن أجزاء وجهه المختلفة قد تهدّمت، وأن الاندفاع المستمر للرغبة في العيش، الرغبة التي اضمحلت الآن، هما وحدهما اللذان أعطيا هذا الشخص وحدته وتجانسه.

في السابق، وبدون أن أحلم، كنت أحس بمجرد استيقاظي أن الهواء قد تغيّر في داخلي، وراح يهبّ بارداً ومستمراً باتجاه آخر آت من أغوار الماضي، حاملاً لي ناقوس الساعات البعيدة، وصفارات الرحيل التي لم أكن أسمعها بالعادة، وعندها كنت أحاول أن آخذ كتاباً. وكنت أفتح رواية لـ«بيرغوت» أحبها بشكل خاص. كانت شخصياتها اللطيفة تعجبني جداً، وكان سحر الكتاب يأخذني بسرعة، ورحت أتمنى، وأرغب شخصياً، بأن

تعاقب المرأة الشريرة؛ وتبللت عيناي بالدموع عندما تحققت سعادة المحبّين. ولكنني صرخت يائساً: «من كل تلك الأهمية التي علقتها على ما فعلت ألبيرتين، لا أستطيع التأكد من أن شخصيتها هي شيء حقيقي لا يمكن إلغاؤه، ومن أنني سوف ألقاها يوماً ما وهي بالذات في السماء، إذا تمنيت كل هذه الأمنيات، وانتظرت بهذه اللهفة كلها، واستقبلت بكل تلك الدموع نجاح شخص لم يوجد إلا في مخيّلة «بيرغوت»، شخص لم أره أبداً، ولي الحرية في أن أتخيَّل وجهه بالشكل الذي أريد!». أجل، كانت في هذه الرواية فتيات مغريات، ورسائل غرامية، وممرات مقفرة يمكن اللقاء فيها، كل هذا يذكرني بأن المرء يستطيع أن يعشق سراً، فأيقظ هذا الأمر غيرتي، كما لو أن ألبيرتين لا تزال تستطيع التنزه في تلك الدروب المقفرة. ووردت أيضاً حكاية رجل التقى، بعد خمسين عاماً، بامرأة كان يحبها وهي صبية، فلم يتعرف عليها وضجر بالقرب منها. فذكّرني هذا بأن الحب لا يدوم، واضطربت كما لو كان قدري أن تهجرني ألبيرتين، وأن أعود فألتقيها بلا مبالاة في شيخوختي. وعندما كانت عيناي تقعان على خريطة لفرنسا، كنت أجتهد بألا أنظر إلى منطقة الـ«تورين» ولكي لا أشعر بالغيرة ولكي لا أغدو بائساً عندما يشار في منطقة «النورماندي» إلى «بالبيك» و«دونسيير»، التي حُدّدتْ بينهما كل الطرقات التي سلكناها معاً مرات ومرات. من بين كل الأسماء الأخرى للمدن والقرى في فرنسا، المرئية منها والمسموعة، فإن اسم «تور» (Tours) مثلاً بدا وكأنه تشكّلَ بطريقة أخرى، ليس من صور لا ماديّة، بل من مركّبات سامة تؤثر مباشرة في قلبي فتسرّع ضرباته وتجعلها مؤلمة. وإذا امتدت هذه القوة لتصل إلى بعض الأسماء فتجعلها شديدة الاختلاف عن الأسماء الأخرى، فكيف إذا ما بقيت أكثر قرباً من ذاتي، وإذا ما اكتفيت بألبيرتين وحدها، كيف يمكن بعدها أن أفاجأ بأن القوة التي لا يمكنني مقاومتها، والتي تستطيع أن تستخدمها كل امرأة، وهي التي تَنْتج عن تشابك واحتكاك الأحلام والرغبات والعادات والعواطف وتداخلها مع العذابات والرغبات

المتعاقبة؟ وهذا ما جعل موتها يستمر، لذلك فإن الذاكرة تكفي للحفاظ على الحياة الحقيقية، التي هي ذهنية. كنت أتذكر ألبيرتين وهي تنزل من مقصورة القطار، وأنا أقول لنفسي إنها تود الذهاب إلى «سان مارتان لو فيتو» (Saint-Martin le Vêtu) وأتخيلها أيضاً قبل ذلك بقميصها الرياضي الذي أسدلت سدارته على خديها، فاستعدتُ إمكانيات فن السعادة، وسعيت نحوها قائلاً لنفسي: «كان بإمكاننا الذهاب سوية حتى «كامبيرليه» (Quimperlé) وحتى «بون آفن» (Pont-Aven). لا توجد محطة بعد «بالبيك» إلا واستعرضتها، بحيث أعادت لي تلك الأرض، وكأنها بلد أسطوري يتمتع بالحماية الأثارية، أعادت لي الأساطير العتيقة حيّة وقاسية، تلك الأساطير الساحرة والمندثرة بسبب ما حدث لاحقاً لقصة حبي. كم سأتعذب إن نمت ثانية في سرير «بالبيك» الذي تنقلت حياتي حول إطاره النحاسي وتطورت، كأنها دارت حول محور ثابت، وحول قضيب جامد، وتضمنت تباعاً أحاديث ممتعةً مع جدتي، وإحساساً بهول موتها، كما تضمنت ملامساتي اللطيفة لألبيرتين، واكتشافي رذيلتها، وتنطوي الآن على حياة جديدة ألمح فيها المكتبات ذات الواجهات الزجاجية التي ينعكس عليها البحر والتي أعرف أن ألبيرتين لن تدخلها مطلقاً! ألم يكن فندق «بابليك» هذا، كالديكور الوحيد لتلك المسارح الموجودة في المحافظات حيث تمثَّل منذ سنوات شتى المسرحيات، فقد استخدم هذا الديكور في مسرحية كوميدية، ثم في تراجيديا أولى ثم ثانية، وفي مسرحية شعرية بحتة، هذا الفندق الذي يرتقي بعيداً في ذاكرتي وشهدتْ جدرانه دائماً على حقبات جديدة من حياتي؟ إن بقاء هذا الجزء على حاله، وبقاء الجدران والمكتبات والمرآة، كان يشعرني كل هذا بأني أنا الذي تغيّرتُ، وكان بالتالي يخلق عندي إحساساً لا يعرفه الأطفال في تفاؤلهم المتشائم ويقول إن أسرار الحياة والحب والموت هي وقفٌ على بعض الناس، ولكنهم لا يشاركون فيها، فنكتشف بكبرياء مؤلم أننا التحمنا خلال تلك السنوات الماضية مع حياتنا نفسها.

وحاولت أن آخذ الجرائد.

وكانت قراءة الجرائد شنيعة لي ومؤذية أيضاً. ففينا تكون كلُ فكرة كتقاطع طرق في إحدى الغابات، إذ تنطلق منها دروب شتى، ولكنني أجد نفسي أمام ذكرى جديدة في حينٍ لا أنتظرها فيه. فقادتني مقطوعة «السرّ»، للموسيقي «فوريه» (Fauré) إلى مقطوعة أخرى هي «**سر الملك**» للدوق «دو بروغلي»، وقادتني هذه الأخيرة إلى مقطوعة «شومون». وكذلك فإن كلمة «الجمعة العظيمة» جعلتني أفكر في «الجلجلة»، وهذه دفعتني إلى التفكير في تأثيل الكلمة التي على ما يبدو تعادل «Calvus mons» (جبل الصلب)، أو «شومون». وعبر أي طريق قادني إلى «شومون»، فإنني أصبت بصدمة قاسية عندما فكرت في أنه من الأفضل لي أن أتحصّن ضدّ الألم، بدلاً من البحث فيه عن ذكريات. وبعد الصدمة ببرهة، قدّم لي الذكاء الذي لا يسافر بعيداً كدوي الرعد، قدّم لي السبب. فدفعني «شومون» إلى التفكير بـ«بوت - شومون» (Buttes-Chaumont) حيث قالت لي مدام «بونتان» إن الفتاة «أندريه» كانت تذهب كثيراً مع ألبيرتين، مع العلم أن ألبيرتين كانت قد قالت لي إنها لم ترَ قط «بوت شومون». في سنّ من حياتنا، تتقاطع ذكرياتنا وتتداخل بحيث يصبح الكتاب الذي نقرأه أو الفكرة التي تعتمل فينا، غير مهم إلى حدّ ما. لقد بذلنا شيئاً منها في كل مكان، وصار كل شيء خصباً وخطيراً، وأصبح بإمكاننا أن نقوم باكتشافات نفيسة، كما فعل «باسكال» في «**خواطره**»، من خلال دعاية لنوع من الصابون.

قد تكون حادثة مثل حادثة الـ«بوت شومون»، التي وجدتها في الماضي تافهة، كانت بحد ذاتها، وهي ضد ألبيرتين، أقل خطورة وحسماً من قصة عاملة الحمّام أو الغسّالة. وترد أولاً على خاطرنا ذكرى وتأتينا فجأة، فتجد فينا قوة بكراً في التخيّل، وفي حالتنا قوة في التألم، فاستهلكناها جزئياً لأننا نحن الذين ركزنا فكرنا طوعاً لإعادة خلق ذكرى من الذكريات. وتكون هاتان (أي عاملة الحمام والغسّالة)، الحاضرتان

مع أنهما غامتا في ذاكرتي، كقطع الأثاث تلك التي وُضعت في عتمة إحدى صالات العرض والتي نخشى - دون أن نميّز بينها - أن نصدمها، ذلك أنني تعودتها. على العكس، منذ أمد طويل لم أفكر في «بوت - شومون»، كما لم أفكر مثلاً في معاينة ألبيرتين نفسها في مرآة كازينو «بالبيك»، وفي تأخر ألبيرتين غير المبرّر في المساء بعد أن انتظرتها أنا طويلاً عقب سهرة الـ«غيرمانت»؛ كان بودي أن أعرف جميع أجزاء حياتها التي بقيت خارج قلبي كي تندمج فيه وتنضم إليه وتلتحق بالذكريات الأرقّ التي تشكل ألبيرتين داخلية والممتلكة فعلاً. وعندما كنت أكشف جزءاً من غطاء العادة الثقيل (تلك العادة المخبِّلة التي طيلة حياتنا تحجب عنا العالم كله تقريباً، وفي عميق الليل كانت تستبدل أنقع السموم وأكثرها تخديراً في الحياة - دون تغيير مسمياتها - بشيء تافه لا يوفر اللذات)، كانت تعاودني كما في أول عهدها، وبالجدة الطازجة والنافذة لفصل بازغ من فصول السنة، ولتغيير في رتابة ساعاتنا؛ وفي مجال المتع كانت، إذا صعدنا عربة في أوائل أيام الربيع أو إذا خرجنا من بيتنا عند شروق الشمس، تظهر لنا أفعالنا التافهة بغبطة جلية تضع في مكان الصدارة تلك الدقيقة الكثيفة وتفضّلها على مجمل أيامنا السابقة. فتغطي الأيام القديمة تدريجياً الأيام التي سبقتها، وتندثر تحت الأيام التي تليها. ولكن يبقى متموضعاً فينا كل يوم قديم كمكتبة ضخمة تحوي بين أقدم كتبها نسخة لن يطلبها على الأرجح أحد إطلاقاً. ولكن ما إن يطفو هذا اليوم القديم، ويجتاز شفّاوية المراحل السابقة، وينتشر فينا ويغطينا على الكامل، حتى تستعيد الأسماء لبرهة معناها السابق، والكائنات وجهها الأول، ونستعيد نحن روحنا كما كانت، فنشعر، مع ألم غامض ولكنه محتمل دون استدامة، بالمشاكل التي أصبحت معضلات تقض مضاجعنا. إن أنانا مصنوعة من تراكم حالاتنا المتعاقبة. ولكنّ هذا التعاقب ليس ثابتاً كما في تناضد التضاريس الجبلية. فيبزغ دائماً ثوَران على سطح الطبقات القديمة. وهكذا وجدت نفسي بعد السهرة عند الأميرة «دو غيرمانت» منتظراً عودة

ألبيرتين. ماذا فعلت في تلك الليلة؟ هل خانتني؟ مع من؟ وحتى إذا قبلتُ بإفشاءات «إيميه»، فإنها لم تحدَّ إطلاقاً من الأهمية المقلقة والمؤسفة لتلك المسألة غير المتوقعة، كما لو أن ألبيرتين كانت مختلفة، وكما لو أن كل ذكرى جديدة، تطرح مشكلة غيرة خاصة لا يمكن أن تنطبق عليها حلول الآخرين.

ولكنني لم أحاول أن أعرف فقط مع أية امرأة قضت تلك الليلة، وإنما ما مثلته لها تلك المتعة الخاصة، وما كان يعتمل فيها أثناءها. وأحياناً كانت «فرانسواز» تبحث عنها في «بالبيك»، وكانت تقول لي إنها وجدتها تطل من نافذتها بقلق وتترصد كأنها تنتظر شخصاً ما. لنفترض أن البنت المنتظرة كانت «أندريه»، فبأي حالة نفسية كانت ألبيرتين تنتظرها؟ أبتلك الحالة التي تخفي النظرة القلقة والمتفحصة؟ ما كانت أهمية ذلك الطّعم بالنسبة لألبيرتين، وأي مكان كان يحتل من بين اهتماماتها؟ للأسف، عندما أتذكر اضطراباتي الخاصة كل مرة كنت ألاحظ فيها أن فتاة أعجبتني، وأحياناً بعد أن سمعت عنها فقط دون أن أراها، ما عليَّ إلا أن أتصور اهتمامي بأناقتي وبإبراز امتيازاتي وأتصور أنهار العرق البارد تتصبب مني، وما عليَّ لأتعذب إلا أن أتصور ذلك الانفعال الشبقي عند ألبيرتين. وكأني بذلك أشغل تلك الآلة التي تمنّت عمتي «ليوني»، بعد كل زيارة طبيب كان يبدي شكه في حقيقة مرضها، أن تُخْتَرَع لتُمكّنه من أن يشعر ويرى جميع الآلام التي تعاني منها مريضته. وكان هذا يكفي لإيلامي وليقول لي أيضاً إن مناقشات جادة دارت معي حول «ستاندال» و«فيكتور هوغو» لم تعرها اهتماماً يذكر، وشعرتُ أن قلبها قد مال نحو أشخاص آخرين وتخلى عني ليتجسد في مكان آخر. ولكن أهمية تلك الرغبة كانت عزيزة عليها، أما التحفظات التي كانت تتشكل حولها فلم تكشف لي النقاب كيفياً عن ماهيتها، زد على ذلك أنها كانت تصفها عند تحدثها عن تلك الرغبة مع نفسها. في الألم الجسدي على الأقل ليس لنا أن نختار بأنفسنا ألمنا. فالمرض هو الذي يحدده ويفرضه علينا. ولكن في الغيرة

يتعين علينا أن نجرب آلاماً من شتى الصنوف وشتى الحجوم قبل أن نتوقف عند الألم المناسب، في رأينا. يا للصعوبة الكبرى عندما نرى ألماً كهذا، ألماً نشعر فيه بأن الفتاة التي نحبها تحسّ بمتعة مع أشخاص آخرين غيرنا، وتمنحها أحاسيس لا نستطيع أن نؤمنها لها، لا بل إنها بتمثلها وبتصورها وبتشكلها تتخيل أشياء أخرى لا علاقة لها البتة بنا! آه لو أن ألبيرتين أحبت «سان لو» - كما يبدو لي - لتألمت أقل!

صحيح أننا نجهل الحساسية الخاصة بكل فرد، ولكننا بالعادة لا نعلم أننا نجهلها، لأن حساسية الآخرين لا تهمنا. وفي ما يتعلق بألبيرتين، ارتبطت سعادتي أو تعاستي بماهية هذه الحساسية؛ فقد كنت أعلم أنني أجهلها، ولكوني أجهلها فقد أثارت ذلك الألم في نفسي. إن الرغائب والمتع المجهولة التي شعرت بها ألبيرتين، توهمت ذات مرة أنني أراها، ومرة أخرى أنني أسمعها. أراها: عندما أتت «أندريه» إلى بيتي، بعد موت ألبيرتين بزمن، بدت لي للمرة الأولى جميلة، فقلت لنفسي إن هذا الشعر الأجعد تقريباً وهاتين العينين الداكنتين المحاطتين بالزرقة هي ما أحبته ألبيرتين وذابت به؛ ومَثُلَ لدي ما كانت تحمله في أحلامها العشقية، وما كانت تراه بناظريها المستبقين للشهوة، يوم أرادت فجأة العودة إلى «بالبيك». وكزهرة داكنة نقلها إليّ من خلف القبر أحدهم عن شخص لم أستطع أن أكتشفها له، بدا لي - كنبش ذخيرة مقدسة لا تقدر بثمن - أنني أشاهد أمامي الرغبة المتجسدة لألبيرتين، فصارت شهوتي لـ«أندريه» مثل شهوة «جوبيتر» لـ«فينوس». كانت «أندريه» تأسف لغياب ألبيرتين، ولكنني شعرت فوراً أنها لم تكن مشتاقة لصديقتها. فلأن الموت انتزع منها صديقتها عنوة، بدا بسهولة أنها أخذت موقفاً من فراقها النهائي لها، بحيث إنني لم أجرؤ أن أسألها متى كانت ألبيرتين حية، لأنني خشيت ألا أتمكن من الحصول على موافقتها. وبدا لي بالعكس أنها قبلت دون صعوبة بهذا التخلي، ولكن بالضبط عندما كف عن إفادتي. تخلت لي «أندريه» عن ألبيرتين، الميتة، والتي لم تَضِع حياتها بالنسبة لي فحسب،

بل إرجاعياً أضاعت شيئاً من ماهيتها، عندما لاحظتُ أن «أندريه» استغنت عنها واستطاعت أن تستبدلها بأخريات.

عندما كانت ألبيرتين على قيد الحياة، لم أجرؤ على الطلب من «أندريه» أن تكشف لي النقاب عن طبيعة الصداقة التي تربطها بصديقة الآنسة «فانتوي»، لأنني لم أكن واثقاً من أن «أندريه» ستكرر كل ما سأقوله لألبيرتين. أما الآن فإن مثل هذا الاستجواب، وحتى لو بقي دون نتيجة، فسيكون على الأقل دون خطر. فتكلمت مع «أندريه»، لا بلهجة المتسائل ولكن كما لو كنت أعلم ذلك منذ زمن بعيد، وربما على لسان ألبيرتين، عن ميل «أندريه» نفسها نحو النساء وعن علاقاتها الخاصة بالآنسة «فانتوي». فاعترفت بكل هذا دون صعوبة وبابتسامة. فاستطعت من هذا الاعتراف استخلاص بعض النتائج القاسية؛ وهي أولاً أن «أندريه» التي كانت شديدة العاطفة والأناقة وتخالط العديد من شبان «بالبيك»، لم يتصور أحد أن لها عادات لم تنكرها إطلاقاً، فعندما اكتشفت عن طريق القياس هذه الـ«أندريه» الجديدة، استطعت الاعتقاد أن ألبيرتين باحت بها بنفس السهولة لأي شخص آخر غيري لأنها رأت فيّ رجلاً غيوراً. ولكن بما أن «أندريه» كانت من جهة أخرى أفضل صديقة لألبيرتين، ولأن هذه الأخيرة عادت إلى «بالبيك» على الأرجح من أجلها، وبما أن «أندريه» باحت بهذه الميول، فإن الاستنتاج الذي يفرض نفسه على ذهني هو أن ألبيرتين و«أندريه» مارستا دائماً علاقات معاً. كما أننا أمام شخص غريب لا نجرؤ دائماً على الاطلاع على الحاضر الذي يعيده إليك والذي لن نفضّ المغلف إلا بعد أن ينصرف المعطى له، فطالما أن «أندريه» موجودة هنا لم أعد إلى نفسي لأفحص فيها مدى ألمي الذي سبّبَتْه لي، وسببتُه أنا لأعضاء جسدي، أي لأعصابي وقلبي من اضطرابات كبرى، والتي بسبب تربيتي الصالحة كنت أتظاهر بأنني لا أشعر بها، لا بل بالعكس كنت أتحدث بكل لباقة مع الفتاة التي استضفتها دون أن أولي اهتماماً بتلك الأحداث الداخلية. وحزَّ في قلبي بخاصة أن أسمع «أندريه» تقول عن

ألبيرتين: «نعم كانت تحب كثيراً أن نتنزه معاً في وادي «الشيفروز» (Chevreuse)؛ فبدا لي أن «أندريه» أضافت لتوها إلى خلق الله وادياً ملعوناً كانت تتم فيه نزهات ألبيرتين و«أندريه»، وابتكرت عالماً غامضاً وغير موجود اخترعته لاحقاً وبطريقة جهنمية. وشعرتُ بأن «أندريه» ستقول لي كل ما كانت تفعله مع ألبيرتين، فحاولت بأدب وحذق وعزة نفس وربما بامتنان أن أظهر أكثر بمظهر العطوف، في حين أن الحيز الذي تركته لبراءة ألبيرتين كان يزداد تقلصاً، بدا لي أنني رأيتني، بالرغم من جهودي، أحافظ على شكل جامد لحيوان محاصر في دائرة معينة فيحوم فوقه طائر ساحر لا ينقضّ عليه لأنه متأكد من أن الضحية لن تفلت منه وأنه سينال منها متى يشاء. فنظرت إليها، وبما يبقى من سحر وطبيعة وثقة لدى الأشخاص الذين يريدون التظاهر بعدم الخوف من تنويمهم مغناطسياً عن طريق الحملقة فيهم، قلت لـ«أندريه» هذه العبارة العابرة: «لم أحدّثكِ عن ذلك خشية إغضابك، ولكن الآن ونحن نتكلم برقّة عنها، أستطيع أن أصرح لك بأنني كنت أعلم منذ فترة طويلة بمثل هذه العلاقات التي كانت بينك وبين ألبيرتين؛ ستكونين مسرورة بأن ألبيرتين كانت تعبدك، وتعرفين ذلك». وقلت لـ«أندريه» إن فضولاً كبيراً يختلج فيّ، يا ليتها تقبل بأن تريني (ولو فقط بالمداعبات بشرط ألا تُحْرَجَ أمامي) كيف تفعل ذلك مع صديقات ألبيرتين من صاحبات تلك الميول، وأسميتُ «روزموند» و«بيرت» وجميع صديقات ألبيرتين، لآخذ فكرة.

- لا شيء في العالم يجعلني أعمل ما تقول أمامك، أجابتني أندريه، ولا أظن أن واحدة ممن ذكرت لها هذه الميول». فلمتُ نفسي على الرغم مني على الوحش الذي استجرني. فأجبت:

- «كيف! لن تجعليني أصدق أنك بين شِلّتكم كلها كنت تفعلين هذا مع ألبيرتين وحدها.

- ولكنني لم أفعل هذا قط مع ألبيرتين.

- لا يا عزيزتي الصغيرة أندريه، لماذا تنكرين أشياء أعلمها منذ ثلاث

سنين؟ لا أجد شراً في ذلك، على العكس. خذي مثلاً ذلك المساء الذي أرادت فيه أن تذهب معك في اليوم التالي إلى بيت السيدة فيردوران، ربما تتذكرين ذلك...».

وقبل أن أنهي جملتي، رأيت في عيني أندريه اللتين نتأتا كتلك الحجارة التي يصعب على الجوهريين التعامل معها، نظرة مرتبكة تمر، كأنها رؤوس بعض المسؤولين الذين يرفعون طرف الستارة قبل بداية المسرحية ويفرون فوراً كي لا يُروا. واختفت تلك النظرة القلقة، وعاد كل شيء إلى نصابه، ولكنني شعرت أن كل ما قد أراه الآن سيتم بافتعال من طرفي. ونظرت وقتئذ في المرآة فدهشت لوجود بعض الشبه بيني وبين أندريه. لو أنني منذ فترة طويلة لم أحلق شاربي ولو أن ظلي ما كان إلا واحداً، لكان هذا الشبه كاملاً تقريباً. ربما أن ألبيرتين في «بالبيك» عندما رأت شاربيّ يكبران قليلاً، نفد صبرها واغتاظت ورغبت في الذهاب إلى باريس. «ولكنني لا أستطيع مع ذلك أن أقول ما هو خطأ، لسبب بسيط وهو أنك لا تراه شراً. أقسم لك أنني لم أمارس قط هذا الشيء مع ألبيرتين وإنني مقتنعة أنها كانت تمقت هذه الأشياء. إن الناس الذين قالوا لك ذلك قد كذبوا عليك، وربما لهدف مغرض». هذا ما قالته لي بنبرة متسائلة وحذرة. فأجبتها: «وأخيراً فليكن، ما دمت لا تريدين أن تقوليه لي»، وفضلتُ التظاهر بأنني لا أريد تقديم برهان لم يتوفر عندي. ومع ذلك لفظت بشكل غائم اسم «بوت شومون» لا على التعيين. «تمكنت من الذهاب إلى بوت شومون مع ألبيرتين، ولكن هل هو مكان موبوء»؟. وطلبتُ منها أن تتكلم مع «جيزيل» التي في فترة ما عرفتْ ألبيرتين بخاصة. ولكن أندريه صرّحت لي أنها بعد عمل شائن عملتْه مع «جيزيل» مؤخراً، سيكون مصير خدمة أطلبها منها الرفض الدائم. وأضافت: «إذا رأيتَها، لا تقل لها ما قلته لك عنها، من غير المفيد أن تستعديني. إنها لا تعرف ماذا أظن حولها، ولكنني فضلت دائماً أن أتجنب معها المشادات العنيفة التي لا تؤدي إلا إلى تجاذبات. أضف إلى ذلك أنها خطيرة. إنك تدرك أن من

يقرأ رسالة استلمتُها منذ ثمانية أيام وأنه أثناء قراءتها يكذب عليك بكل خبث وبكل بساطة، لن تقوى أجمل الأشياء في العالم على نسيان ما فعلتُ». وفي المحصلة، إذا كانت هذه الميول موجودة عند أندريه ولم تخفِ ذلك إطلاقاً، وإذا كانت ألبيرتين تكنّ لها وداً كبيراً، مع أن أندريه لم تمارس أية علاقة جسدية مع ألبيرتين لا بل جهلت وجود مثل هذه الميول عند ألبيرتين، فذلك يعني أن ألبيرتين لم تعرف هذه الميول وأنها لم تمارس مثل تلك العلاقات مع أندريه ولا مع غيرها. وعندما ذهبت أندريه، لاحظت أن تأكيدها القاطع قد جلب إليها الطمأنينة. ولكن، قد يكون الواجب هو الذي أملاه عليها، وهو واجب اعتبرت أندريه نفسَها مجبرة عليه تجاه الميتة التي ما زالت لها ذكرى في قلبها: وهو عدم إفساح المجال للاعتقاد بما طلبت منها ألبيرتين نفيه، أثناء حياتها.

بعد أن حاولت مرات كثيرة أن أتخيل متع ألبيرتين هذه، تراءى لي مرة أخرى - وأنا أحملق في أندريه - أنني أفاجئ خلوتهما بشكل آخر غير العينين، فظننت أنني أسمعها. لقد استجلبتُ إلى أحد المواخير غاسلتين صغيرتين من الحي الذي كانت تتردد عليه ألبيرتين. وتحت مداعبات إحداهما، راحت الأخرى فجأة تُصدِر صوتاً لم أتبينه في البداية، لأن المرء لا يفهم تماماً معنى صوت فريد يعبر عن إحساس لم نشعر به. وإذا سمعنا هذا الصوت من إحدى الغرف المجاورة دون أن نرى شيئاً، نظن أنه قهقهة، وما هو إلا ألم ينتاب المريض الذي أجري له عمل جراحي ولكن دون تخدير. أما الصوت الذي تصدره أمّ علِمت تواً بموت ولدها، فقد يبدو لنا، إن لم نعرف السبب، عصياً على التفسير البشري، إذ يشبه صوتاً يصدره حيوان وقد يكون صوتاً ينبعث من آلة الهارب ويلزمنا بعض الوقت لنفهم أن هذين الصوتين يعبّران مجازاً عما شعرنا به نحن مع أنه مختلف، وندعوه ألماً؛ واحتجت أيضاً إلى بعض الوقت لأفهم أن هذا الصوت يعبر مجازاً عما شعرت به وكان شديد الاختلاف، وسميته متعة؛ وكان يتعين على هذا الأخير أن يكون قوياً جداً ليزعزع الشخص الذي يشعر به فيصدر

تلك اللغة المجهولة التي تدل وتفسر، على ما يبدو، جميع مراحل المأساة اللذيذة التي عاشتها تلك المرأة الصغيرة التي حجبها عن ناظري الستار المسدل إلى الأبد في وجه الآخرين، والذي يضفي ما يحدث لكل مخلوق في سره الحميم. ولم تستطع هاتان الصغيرتان أن تقولا لي شيئاً، ولم تكونا تعلمان من هي ألبيرتين.

غالباً ما يدّعي الروائيون في مقدمة رواياتهم، أنهم أثناء أسفارهم إلى أحد البلدان صادفوا شخصاً روى لهم حياة شخص ما. فيتركون عندئذ الكلام لهذا الصديق العابر، والقصة التي يرويها لهم تصبح بالضبط روايتهم. وهكذا رُويت حياة «فابريس ديل دونغو» (Fabrice del Dongo) للكاتب «ستاندال» على لسان أحد كبار الكهنة في مدينة بادوفا(*). وكم نود، عندما نعشق، أي عندما نرى أن حياة شخص آخر هي غامضة، أن نجد مثل هذا الراوي المطّلع. ولا بد أنه موجود. ألا نروي نحن في أغلب الأحيان، دون أي انفعال، حياة هذه المرأة أو تلك لصديق لنا أو لغريب لا يعرفان شيئاً عن مغامراتها العاطفية ونستمع إليها بفضول؟ الرجل الذي كنته عندما تكلمت مع «بلوك» عن الأميرة «دو غيرمانت» وعن «مدام سوان»، هو إنسان عاش وكان باستطاعته أن يكلمني عن ألبيرتين، إن هذا الإنسان موجود فعلاً... ولكننا لا نلتقي به قط. ويبدو لي أنني لو وجدت نساء عرفنها لأدركت كل ما جهلتُه. ومع ذلك يبدو للأغراب أنه ما من أحد غيري استطاع أن يعرف حياتها. ألم أتعرف على أندريه، وهي أفضل صديقة لديها؟ هكذا يظن الناس أن صديق الوزير يجب أن يعرف الحقيقة حول بعض الأمور أو أنه لا يمكن أن يتورط في دعوى قضائية. ومع الزمن، يعلم هذا الصديق وحده أنه كلما تكلم في السياسة مع الوزير، كان هذا الأخير يبقى في العموميات وكان لا يقول له أكثر مما قالته الصحف؛ وإذا حصل أن تعرض لبعض المتاعب، فإن التماساته العديدة لدى الوزير

(*) يشير بروست هنا إلى رواية «دير الشارتريين في مدينة بارما» (١٨٣٩). (المترجم).

تؤدي كل مرة إلى هذه العبارة: «هذا ليس من صلاحياتي» ولا بالطبع من صلاحيات الصديق. فقلت لنفسي: «لو أنني استطعت التعرف على بعض الشهود!»، ولو عرفتهم فعلاً، لما حصلت على شيء أكثر مما قالته لي أندريه التي تخفي سراً لا تريد البوح به. لقد كنت مختلفاً في هذا عن «سوان» الذي عندما كف عن الغيرة توقف فضوله عما كانت «أوديت» تفعله مع «فورشفيل» (Forcheville)؛ وحتى بعد أن تخليت عن غيرتي، ما كنت أعشقه هو التعرف على غسالة ألبيرتين وعلى سكان حيها، كي أستعيد مراحل حياتها ودسائسها. وبما أن الرغبة تنجم عادة عن جاذبية مسبقة، كما حصل لـ«جيلبيرت» وللدوقة «دو غيرمانت»، ففي تلك الحارات حيث كانت ألبيرتين تعيش سابقاً، بحثت عن نساء من وسطها وحرصت على وجودهن وحدهن. وحتى دون أن أتمكن من معرفة شيء، النساء الوحيدات اللواتي جذبنني كن هاتيك اللواتي عرفتهم ألبيرتين أو اللواتي كان الممكن أن تتعرف عليهن، أي نساء بيئتها أو البيئات التي ارتاحت لها، وبوجيز العبارة النساء اللواتي في نظري حظين بمشابهتها أو اللواتي أعجبت بهن. ومن بين هاتيك لا بد من ذكر بنات البلد، لأن حياتهن كانت متباينة عن الحياة التي عرفتُها والتي عشنَها. من الأرجح أن المرء لا يمتلك الأشياء إلا عن طريق الفكر وحده، فإنه لا يملك لوحة لأن اللوحة موجودة في غرفة السفرة إذا لم يعرف أن يفهمها، كما أنه لا يعرف بلاداً يقيم فيها دون أن يشاهدها. ولكن كنت أتوهم سابقاً بأنني أستعيد إدراك «بالبيك»، عندما كانت ألبيرتين تأتي إلى باريس لتراني فأضمها بين ذراعي؛ كذلك كنت أطّلع اطلاعاً كثيفاً وخاطفاً على حياة ألبيرتين، وعلى جو المشاغل، وعلى أحاديث طاولات المقاهي، وعلى روح الأكواخ، عندما كنت أقبّل إحدى العاملات. إن «أندريه» وهاتيك النساء الأخريات، - وأريد أن أصل منهن إلى ألبيرتين لأنها بقيت دون أن تتغير في «بالبيك» كنّ رديفات في الملذات كل واحدة مكان الأخرى تقهقر قتالٍ، فيسمحن لنا أن نستغني عما لم نعد نستطيع الوصول إليه، كالسفر إلى «بالبيك» أو

عشق ألبيرتين أو عشق تلك المتع (كمتعة الذهاب إلى متحف اللوفر لمشاهدة لوحة لـ«تيسيان» الفنان الذي سلا نفسه عن استحالة ذهابه إلى مدينة البندقية) التي، بسبب التفاصيل الدقيقة التي تفصل بينها، تجعل من حياتنا تتمة لمناطق متراكزة ومتلاصقة ومنسجمة ومتقهقرة، وتدور حول متعة أصلية، وتستبعد كل ما لا ينصهر فيها، وتنشر طابعها المشيد (كما حدث لي مثلاً مع دوقة «الغيرمانت» ومع «جيلبيرت».

كانت «أندريه» وهاتيك النساء بما يثرن من رغبة في أن تكون ألبيرتين بجانبي، وهي رغبة كنت أعلم أنها لم تتحقق عندي، أسوة بعنقود العنب الطازج الذي لوحت الشمس تعاريجه، وذلك قبل أن أتعرف على ألبيرتين معرفة تتعدى النظر، إذ كنت أعتقد أنني لن أستطيع أبداً تحقيق رغبة إيجادها بجواري. وهكذا عندما تذكرت إما ألبيرتين نفسها وإما النوع الذي كانت تفضله، أثارت في هاتيك النسوة إحساساً جائراً بالغيرة أو بالندم، تحول إلى فضول لا يخلو من الافتتان، بعد أن سكن حزني.

إن السمات الجسدية والاجتماعية لألبيرتين، مع أنني أحببتها على الرغم من ذلك، وهي السمات التي ترتبط الآن بذكرى حبي، كانت توجه صبابتي نحو سمراوات البورجوازية الصغرى، مع أنني في الماضي لم أكن أستهويهن. أجل، إن ما راح ينشأ فيّ جزئياً هو تلك الغربة الجائرة التي لم يستطع حبي لألبيرتين أن يُرويها، تلك الرغبة الهائلة في معرفة الحياة التي عشتها سابقاً على دروب «بالبيك» وفي شوارع باريس، تلك الرغبة التي آلمتني إيلاماً شديداً، عندما ظننت أنها تعتمل في قلب ألبيرتين، فأردت أن أحرمها من وسائل ممارستها مع أناس آخرين غيري. والآن بعد أن تمكنت من احتمال فكرة رغبتها، لأن هذه الفكرة استيقظت مع رغبتي، وتطابقت هاتان الشهوتان، تمنيت أن نستسلم كلانا لها، فقلت لنفسي: «هذه الفتاة أعجبتْها ربما». وبهذه المواربة المفاجئة، بعد أن فكرت فيها وفي موتها، أحسست بحزن هائل صدّني عن الاستمرار في صبابتي أبعد من ذلك. وكما أن جانب «ميزيغليز» (Méséglise) و«غيرمانت» قد أرسيا أسس

تذوقي للريف وحالا دون أن أجد سحراً عميقاً في بلدة لا توجد فيها كنيسة قديمة ونباتات الترنجان والحوذان الحريفي، كذلك فإنني ربطتهما في داخلي بماض عابق بالسحر ودفعني حبي لألبيرتين إلى البحث حصراً عن نوع معين من النساء؛ فبدأتُ، قبل أن أحب، أبحث عن بديلات يشبهنها ويتناغمن مع الذكرى التي تناقصت حصريتها. لا أستطيع الآن أن أرتاح لدى دوقة شقراء ومزهوة بنفسها، لأنها لن تثير فيّ أي انفعال ينطلق من ألبيرتين ومن صبابتي لها ومن الغيرة التي خلفتُها في أشكال عشقها، ومن آلامي لموتها، لأن أحاسيسنا كي تكون قوية تحتاج إلى أن تحرك فينا شيئاً مختلفاً عن هذه الأحاسيس، تحرك عاطفة لا تستطيع أن تتحقق في المتعة، ولكنها تنضاف إلى الرغبة وتضخمها وتجعلها ترتبط ارتباطاً يائساً بالمتعة. إن شعور ألبيرتين بالحب نحو بعض النساء لم يعد يؤلمني، وراح يربط هؤلاء النساء بماضيّ ويعطيهن قواماً أكثر واقعية، كما كان يعطي الحوذان الحريفي والزعرور ذكرى «كومبريه» واقعيةً أكبر مما يعطيها للأزهار الجديدة. وحتى عن «أندريه» لم أعد أقول بحنق: «إن ألبيرتين كانت تحبها» بل بالعكس، وذلك لأشرح صبابتي لنفسي، صرت أقول بنبرة حنان: «إن ألبيرتين كانت تعشقها». أتفهمُ الآن الرجال الثُكلان الذين نظنهم حصلوا على العزاء، ويثبتون على العكس أنهم لا يتعزون، لأنهم يتزوجون من أخوات زوجاتهم.

وهكذا بدأ حبي الآفل يسوّغ لي مغامرات عشقية جديدة، وأسوة بالنساء اللواتي عُشِقن لذاتهن واللواتي لاحقاً شعرن بأن حرارة الحبيب بدأت تفتر صرن، بعد المحافظة على سلطتهن لديه، يكتفين بدور القوّادات، بدت لي ألبيرتين، كما «لا بومبادور» (La Pompadour) مع لويس الخامس عشر(*)، عبر فتيات صغيرات جديدات. في الماضي كنت

(*) المركيزة دي بومبادور (١٧٢١-١٧٦٤): أصبحت خليلة الملك لويس الخامس عشر عام ١٧٤٥، وتعرضت لدسائس البلاط ومكائده. ولكن حظوتها لدى الملك

أجزئ الفترات التي أشتهي فيها هذه المرأة أو تلك. فعندما كانت اللذات العنيفة التي تؤمنها إحداهن تهدأ، كنت أتمنى تلك التي تغدق عليَّ حناناً شبه خالص، إلى أن تعيدني حاجة الملامسات الجادة إلى شهوتي الأولى. أما الآن فقد انتهت هذه التبديلات، أو أن فترة من هذه الفترات ستستمر إلى الأبد. ما كنت أريده هو أن تعيش القادمة الجديدة في بيتي وأن تعطيني قبلة عائلية كأخت، قبل انصرافها في المساء. وهكذا قد يتهيأ لي - إن لم أجرب حضور إحداهن الذي لا يطاق - أنني كنت أفتقر لقبلة أكثر من افتقاري لشفاء، لمتعة وليس لحب، لعادة وليس لشخص. وكنت أتمنى أيضاً أن تعزف لي القادمة الجديدة لحناً من ألحان «فانتوي» كما فعلت ألبيرتين، وتكلمني عن «إيلستير» مثلها. وكان كل هذا مستحيلاً، لأن حبهن لا يتساوى مع حبها، هكذا فكرت؛ فإما أن يكون هناك حب تجتمع فيه أحداث جمة، كزيارة المتاحف والأمسيات الموسيقية والحياة المعقدة التي تتيح التراسل والتخاطب والغزل التمهيدي وصولاً إلى العلاقات بحد ذاتها والصداقة المتينة لاحقاً، وينطوي هذا الحب على ثروات تفوق ذاك الحب لامرأة لا تعرف إلا أن تهب نفسها، كما في أوركسترا لا آلة موسيقية فيها إلا البيانو؛ وإما أنني أحتاج إلى حنان أعمق من ذلك الحنان الذي كانت تمنحني إياه ألبيرتين، أحتاج إلى حنان فتاة مثقفة جداً تكون لي بمثابة أخت في آن - وهذا يختلف عن حاجتي إلى نساء من بيئة ألبيرتين نفسها - فتحيي ذكرى ألبيرتين وذكرى حبي لها. وشعرت مرة أخرى أن الذكرى أولاً ليست خلاقة، وأنها تعجز عن الرغبة في شيء آخر، بل عن لا شيء أفضل مما امتلكنا؛ وثانياً الذكرى هي شيء روحي بحيث إن الواقع لا يستطيع أن يقدم لها الحالة المنشودة؛

لم تفتر، بالرغم من فتور عشقه لها. فصارت تساعده وتشرف على مغامراته العاطفية. إلى جانب ذلك كانت تحسن للأدباء والفنانين، وشجعت ديدرو على إكمال موسوعته. (المترجم).

وأخيراً عندما تنبع الذكرى من شخص ميت، فإن الإحياء الذي تجسده هو دون إحياء الحاجة إلى الحب، كما يبدو لنا، بل هو إحياء لحاجة الشخص الفقيد. وهكذا أيضاً فإن تشابه المرأة التي اخترتها مع ألبيرتين، أي تشابهها مع ألبيرتين في الحنان الذي، إن حصلت عليه، أشعرني أكثر بفقدان ما نلته وما بحثت عنه دون أن أدري وما كان ضرورياً لتخلق سعادتي من جديد، أي أنني بحثت عن ألبيرتين نفسها وعن الزمن الذي عشناه معاً وعن الماضي الذي سعيت إليه دون أن أدري.

نعم في أيام الصحو كانت باريس تظهر لي مزهرة كثيراً بجميع فتياتها، وهذا لا يعني أنني اشتهيتهن كلهن، وإنما كن يضربن بجذورهن في ظلمة الشهوة والأماسي المجهولة لألبيرتين. وقالت لي عن إحداهن في البداية، قبل أن تتوجّس مني: «إنها رائعة هذه الصغيرة، ما أجمل شعرها!» إن جميع أشكال الفضول التي انتابتني سابقاً حول حياتها قبل أن أعرفها إلا بالنظر، ذابت في ذلك الفضول الوحيد الذي ضم جميع رغائب الحياة، أي كيف كانت ألبيرتين تشعر باللذة عندما سأراها مع نساء أخريات، وإذا تم ذلك وذهبن سأبقى وحدي معها، وسأكون الأخير والسيد. وإذ رأيت ترددها حول فائدة قضاء السهرة مع هذه أو تلك، وإذ لاحظت إرهاقها وربما خيبتها بعد مغادرة تلك الفتاة، توضحت لي الغيرة التي بعثتها ألبيرتين فيّ وأرجعتها إلى حدودها الصحيحة، ولدى اكتشافي لهذه المشاعر عنها فإنني قدّرت حدود متعها واكتشفتها.

فقلت لنفسي: آه كم هي الملذات التي حرمَتْنا منها، ويا للحياة الرغيدة التي افتقدنا، بسبب هذا التعنت الضاري لاستنكار ذائقتها! وتذكرت فجأة عبارة قلتها لها في «بالبيك» يوم أعطتني قلماً. ولأني لمتها على أنها لم تتركني أقبّلها، قلت لها إنني أجد ذلك طبيعياً وأجد أيضاً أن علاقات المرأة بالمرأة هو أمر شنيع. واحسرتاه، ربما ألبيرتين تذكرت ذلك.

فأعدت البنات اللواتي أعجبنني أقل من غيرهن، وكنت أمسد ضفائر

هذه العذراء وأعجَب بهذا الأنف الصغير البديع أو بشحوبة هذا الوجه الإسباني. صحيح أنني في الماضي، وإزاء امرأة لمحتها فقط على طريق «بالبيك» أو في شارع من شوارع باريس، شعرت بما في رغبتي من طابع شخصي، وشعرت بأنني أزيف هذا الطابع إن أسعى إلى إشباعه بهدف آخر. ولكن الحياة، التي كشفت لي تدريجياً استدامة حاجاتنا، علّمتني أنني عندما أفتقر إلى شخص، يتعين عليّ أن أرضى بشخص آخر وشعرت أن ما طلبتُه من ألبيرتين كانت امرأة أخرى، أي أن الآنسة «دو ستيرماريا» تستطيع أن توفره لي. ولكن كان الأمر مع ألبيرتين؛ وبين إشباع حاجاتي إلى الحنان وبين خصائص جسدها، قامت سلسلة مترابطة من الذكريات وكانت على درجة متينة من الحنان بحيث تعذَّر عليَّ أن أنتزع من رغبة الحنان هذه جميع هذه التطريزات في ذكريات جسم ألبيرتين. وحدها كانت قادرة على منحي هذه السعادة. إن مفهوم الفرادة لم يعد مفهوماً قَبْلياً ماورائياً مستقى مما كان متفرداً عند ألبيرتين، كما كان في الماضي لعابرات السبيل، ولكنه مفهوم بَعْديّ مؤلف من تداخل الذكريات العارض الذي لا تنفصم عراه. لم أعد أقوى على الرغبة في حنان دون أن أحتاج إليها ودون أن أعاني من غيابها. لا بل لم يعد التشابه بين المرأة المختارة والحنان المنشود من جهة وبين السعادة التي عرفتُها، يُشعرني بشكل أفضل كل ما أفتقر إليه ويستطيع أن يولد من جديد. وكنت أجد ذلك الفراغ نفسه الذي شعرت به في غرفتي منذ أن غادرت ألبيرتين والذي ظننتني أسدّه بمعانقة بعض النساء، كنت أجده فيهن. فهنّ لم يكلمنني قط عن موسيقى «فانتوي» ولا عن «مذكرات» سان سيمون(*)، ولم يتضمَّخن بعطر نفاذ عند مجيئهن

(*) الدوق دو سان سيمون (١٦٧٥-١٧٥٥): عسكري ورجل سياسة راهن على نجاح الدوق دو بورغوني ليخلف لويس الرابع عشر، ولكنه توفي قبله. فاعتزل سان سيمون وكتب مذكراته التي تعطي عدداً من الأحداث الممتدة من عام (١٦٩١) إلى (١٧٢٣) في فرنسا. وتعتبر مذكراته عملاً أدبياً متميزاً في النثر الفرنسي. (المترجم).

ليرينني، ولم يلعبن بتلامس أهدابهن بأهدابي، وكلها أشياء مهمة لأنها تخولنا، كما بدا لي، أن نحلم بأشياء تجانب الفعل الجنسي نفسه وتوهمنا بالحب، ولأنها في الحقيقة تشكل جزءاً من ذكرى ألبيرتين، ولأنني كنت أبحث عنها بالذات. ما كان لهؤلاء النساء من ألبيرتين جعلني أشعر شعوراً قوياً بما افتقرن إليه منها، وكان كلاً متجانساً ولن يتكرر، لأن ألبيرتين قد ماتت. وهكذا ما كان حبي لألبيرتين الذي جذبني نحو أولئك النسوة، يدفعني إلى اللامبالاة بهنّ، وما كان تحسري على ألبيرتين واستمرار غيرتي - وقد تجاوزت مدتهما أكثر توقعاتي تشاؤماً - يغيّر شيئاً كثيراً، لو أن حياتهن التي لم تتوثق مع باقي حياتي قد خضعت فقط للعبة ذكرياتي، وللأفعال وردود الأفعال العائدة لنفسية يمكن تطبيقها على حالات جامدة، ولو لم تنجذب نحو نظام أرحب تتحرك فيه النفوس زمنياً وتتحرك فيه الأجساد مكانياً.

كما أن ثمة هندسة فضائية، هناك نفسية مرتبطة بالزمن، إذ لا تكون الحسابات المتعلقة بنفسية مسطحة صحيحة من بعد لأننا لم نأخذ بالاعتبار لا وجود الزمن ولا شكلاً من أشكاله وهو النسيان. وبدأت أشعر بقوة النسيان الذي هو وسيلة هائلة للتكيّف مع الواقع لأنه يدمّر فينا تدريجياً الماضي الذي لم يندثر والذي يتناقض معه باستمرار. وفي الحقيقة كان بودي أن أخمن قبل الأوان أنني سأكف عن حب ألبيرتين. فمن خلال الفرق الموجود بين أهمية شخصيتها وبين أعمالها، في نظري وفي نظر الآخرين، عندما أدركت أن حبي لها أقل من حبي لذاتي، كان بوسعي أن أدمّر شتى النتائج لهذه السمة الذاتية لحبّي، ولأنني حالة ذهنية، كان هذا الحب يستطيع بخاصة أن يستمر مدة طويلة ويبقى بعد الشخص المحبوب؛ ولأنني أيضاً لم أُقِم مع هذا الشخص أية علاقة حقيقية، ولأنني لم أحظَ بأي دعم من خارج ذاتي، وجب عليّ، كحالة ذهنية أو كحالات أكثر استمراراً، أن أجد نفسي معطلاً ذات يوم وينبغي «استبدالي»، وفي هذا اليوم بالذات سيتلاشى في نظري كل ما ظننته يربطني ربطاً لطيفاً ووثيقاً

بذكرى ألبيرتين. من سوء طالع الأشخاص أنهم لا يمثلون لنا إلا لوحات من مجموعات يستهلكها ذهننا. وبسبب ذلك بالضبط نؤسس عليها عدداً من المشاريع يتحمس لها ذهننا، ولكن الفكر يتعب والذكرى تتقوّض: سيأتي يوم أعطي فيه عن طيب خاطر غرفة ألبيرتين لأول قادمة، كما سبق لي أن أعطيت ألبيرتين كرة من العقيق وهدايا أخرى كانت لـ«جيلبيرت».

الفصل الثاني

هذا لا يعني أنني كففت عن حب أليبرتين، ولكنني لم أعد أحبها بالطريقة التي أحببتها فيها في الآونة الأخيرة؛ لا، بل بطريقة الأيام الغابرة التي كان فيها كل ما يرتبط بها من أماكن وبشر يجعلني أشعر بفضول تجاوز السحرُ فيه الألم. وأحسست الآن فعلاً أنني قبل أن أنساها تماماً - كمسافر يعود من نفس الطريق الذي انطلق منه - يتعين عليَّ، قبل الوصول إلى اللامبالاة الأولى، أن أجتاز بالاتجاه المعاكس جميع المشاعر التي مررت فيها قبل أن أصل إلى حبي الكبير. ولكن تلك المراحل وتلك الفترات الماضية ليست جامدة، إذ حافظت على القوة الهائلة وعلى الجهل السعيد للأمل الذي كان ينطلق نحو زمن أصبح الآن جزءاً من الماضي، ولكنّ الهلوسة تجعلنا للحظة ما نظنه بشكل استعادي جزءاً من المستقبل. قرأت رسالة لها تقول لي فيها إنها ستزورني هذا المساء، وللحظة سررت بانتظاري إياها. عندما نعود من بلد لن نرجع إليه وعلى خط القطار نفسه، نتذكر اسم وشكل جميع المحطات التي مررنا فيها أثناء الذهاب، ويحدث أننا خلال توقفنا في إحدى المحطات نتوهم أن القطار ينطلق ويتوجه نحو المكان الذي أتينا منه كما في المرة الأولى. وينتهي الوهم فوراً، ولكننا للحظة نشعر بأننا منجرفون نحوه، وهذه هي وحشية الذكرى.

ومع ذلك فإننا قبل العودة إلى اللامبالاة التي انطلقنا منها، إذا لم نستطع الاستغناء عن تغطية المسافات التي قطعناها بالاتجاه المعاكس

لنصل إلى الحب، فإن طول الرحلة والخط الذي نتبعه ليسا هما نفسيهما بالضرورة. فيشتركان في أنهما ليسا مباشرين، لأن النسيان والحب لا يتقدمان بانتظام. ولكنهما لا يسلكان السبل نفسها بالضرورة. وفي طريق العودة الذي سلكتُه عرفتُ بعد الوصول بكثير أربع مراحل لا أتذكرها بشكل خاص، لأنني لاحظت فيها أشياء لا علاقة لها بحبي ألبيرتين، أو أنها على الأقل لا تمت لها بصلة لأن ما كان في النفس قبل الحب الكبير يرتبط به، إما لأنه يغذيه وإما لأنه يقاتله وإما لأنه، من أجل عقلنا المحلِّل، يشكّل معه تعارضاً وصورة.

وبدأت المرحلة الأولى في أوائل فصل من فصول الشتاء، وفي يوم أحد جميل كان الناس يحتفلون فيه بعيد جميع القدّيسين، وخرجت فيه من بيتي. وعندما اقتربت من «غابة بولونيا» تذكرتُ بأسى عودة ألبيرتين التي أتت لتأخذني معها من الـ«تروكاديرو»؛ أما الآن فأجد نفسي في اليوم نفسه، ولكن دون ألبيرتين. وبأسى ولكن بشيء من المتعة أيضاً، لأن الاستئناف الرثائي المصغر، لذلك الشكل نفسه الذي ملأ نهاري سابقاً، ولأن مكالمات «فرانسواز» الهاتفية عن عدم وصول ألبيرتين، الذي لم يكن شيئاً سلبياً وإنما كان في الواقع إلغاء لما تذكرتُه، وسمت ذلك النهار بمسحة من الألم وجعلت منه يوماً أجمل من أي يوم موحَّد وبسيط، إذ إن ما غاب فيه وما استؤصل منه بقي مطبوعاً فيه بحرف مقعّر. ودندنت بعض الجمل من سوناتا «فانتوي». لم أعد أتألم كثيراً عندما أفكر في أن ألبيرتين عزفته لي مراراً، لأن جميع ذكرياتي عنها تقريباً دخلت في تلك الحالة الكيميائية الثانية وصارت لا تثير انقباضاً مقلقاً في القلب بل تثير شيئاً من العذوبة. وأحياناً في المقاطع التي كانت تعزفها كثيراً، اعتادت أن تدلي برأي كنت أجده لطيفاً أو أن تقترح فكرة تذكرتها، فكنت أقول لنفسي: «يا للصغيرة المسكينة!»، ولكن دون أسى، فأضيف فقط إلى المقطع الموسيقي قيمة ثانية، قيمة تاريخية وطريفة إلى حدّ ما، تشبه تلك القيمة التي انضافت إلى لوحة «شارل الأول» التي رسمها الفنان «فان ديك» (Van Dyck) -

وهي لوحة جميلة جداً بحد ذاتها - لأنها دخلت في المجموعات الوطنية بإرادة من «مدام دو باري» (Mme du Barry) لإدهاش الملك. وعندما تبددت الجملة الصغيرة قبل تلاشيها الكامل من كل عناصرها وطفت لحظةً بأجزائها، لم تكن بالنسبة لي - كما في السابق لـ«سوان» -رسولة لألبيرتين المتشظية. ولم تُثِر هذه الجملة الصغيرة تداعيات الأفكار نفسها عندي كما عند «سوان». كنت بخاصة حساساً لصياغة ومحاولة وتكرار و«مستقبل» جملة تتكون أثناء عزف السوناتا كما لو كانت حباً نشأ أثناء حياتي. والآن، بعد أن عرفت كم من عنصر يتبدد يومياً من عناصر حبي، كان جانب الغيرة أو جانب آخر يعود تدريجياً في ذكرى ضبابية إلى انطلاقة البدايات الضعيفة، وبدا لي أن حبي يتلاشى أمامي، عبر تلك الجملة الصغيرة المفتتة.

وتحت إحدى الغابات، عندم كنت أسير على الدروب المتباعدة المتسربلة بثوب يقصر كل يوم، وعندما كنت أشعر بذكرى نزهة قمت بها وألبيرتين قربي في السيارة وعدنا منها معاً فأحسست أنها سربلت حياتي، وراحت هذه الذكرى تحوّم حولي عبر الضباب المحيط بالأغصان المعتمة التي كانت الشمس الغاربة تتخللها فتضيء الأفق المتناثر بأوراق ذهبية وكنت أرتجف أحياناً، شأني شأن الناس الذين عندهم فكرة ثابتة، فيرون في كل درب تقف فيه أية امرأة تشابهاً وتماهياً مع المرأة التي يفكرون فيها. فيقولون: «ربما هي». يعذب الإنسان نفسه، وتتابع السيارة تقدمها، ولا تعود إلى الوراء. لم أكن أكتفي برؤيتها بعيون الذاكرة، لقد كانت تهمني وتؤثر فيّ، مثل تلك الصفحات الوصفية التي يُدخل فيها الفنان قصة خيالية أو رواية كي يجعلها تكتمل. وكانت تلك الطبيعة تأخذ هكذا سحر الأسى الذي يستطيع الوصول إلى قلبي. وبدا لي أن سبب هذا السحر هو حبي لألبيرتين الذي ما زال على حاله، أما السبب الحقيقي فيختلف لأن النسيان كان يغزوني ولأن ذكرى ألبيرتين لم تعد قاسية لديّ، أي أنها تغيّرت. مهما حاولنا التمحيص في معناها الأبعد، شأننا في ذلك شأن

الطبيب الذي يصغي إلى العلل التي يرويها له مريضه، ويعود انطلاقاً منها إلى سبب أعمق يجهله المريض؛ كذلك الحال بالنسبة لانطباعاتنا وأفكارنا، لأن قيمتها تكمن في أعراضها المرضية. لشعوري بالسحر وبالشجن اللطيف وضعت غيرتي جانباً، واستيقظتْ حواسي فيّ. ومرة أخرى، كما حصل لي عندما توقفتُ عن رؤية «جيلبيرت»، سما عندي حب المرأة، وتخلص من كل تداع يربطه حصراً بامرأة سبق لي أن أحببتها، وراح يطفو مثل تلك الكائنات التي حررتْها التهديماتُ السابقة فتهيم تائهة في الهواء الربيعي، ولم يعد يبحث إلا عن مخلوقة جديدة يتّحد بها. لا تنمو في أي مكان زهرة تسمى «لاتنساني»، إلا في المقابر. ونظرت إلى الفتيات اللواتي أزهرن بكثرة في ذلك اليوم الجميل، كما نظرت سابقاً إلى عربة «مدام دو فيلباريسيس» أو إلى السيارة التي كنت أستقلها مع ألبيرتين في يوم ذلك الأحد نفسه. وما إن حط نظري على هذه أو تلك منهنّ حتى التحم فوراً مع النظرة الغريبة والهاربة والمغازلة التي تعكس أفكاراً عصية على الفهم والتي انقضّت عليها خاطفة من عينيّ ألبيرتين ثم التقت بعينيّ كأنها جناح لغزي سريع ولازوردي فبعثت في تلك الدروب التي كانت طبيعية حينئذ رعشة مجهولة لم تكفِ رغبتي الشخصية لتجديدها، لو بقيت وحدها، لأن هذا المجهول، في نظري، لم يكن فيه أي شيء غريب.

أحياناً كانت قراءة إحدى الروايات الحزينة تعيدني فجأة إلى الوراء، لأن بعض الروايات هي أشبه بمآتم كبرى مؤقتة تخرجنا عن المعتاد وتعيد صلتنا بواقع الحياة، ولكن لبضع ساعات فقط، كأننا في كابوس، ذلك أن قوى العادة والنسيان الذي تحدثه والحبور الذي تعيده، بسبب عجز الدماغ عن مقاومتها وإعادة خلق الحقيقة، تدحر الاقتراح التنويمي الذي، إلى حدّ ما، يصدر عن كتاب جميل والذي - ككل الاقتراحات - له تأثير قصير جداً.

في «بالبيك» عندما أردت أن أتعرف على ألبيرتين للمرة الأولى، ألم

يحدث ذلك لأنها بدت وكأنها تمثل تلك الفتيات اللواتي أوقفتني نظراتهن مراراً في الشارع وفي الدروب، ورأيت أن ألبيرتين تستطيع أن تختزل حياتهن؟ أليس من الطبيعي، ونجم حبّي يأفل الآن بعد أن تكثّف فيه، أن يختفي هذا النجم ثانية في غبار السديم المتناثر؟ كلهن ظهرن لي أتراباً لألبيرتين، لأن الصورة التي كنت أحملها في داخلي جعلتني أجدها في كل مكان، وحتى أن إحداهن التي صعدت إحدى السيارات في منعطف درب ذكّرتني كثيراً بها، بحيث تساءلت لحظة أنها هي التي رأيتها لتوي، وأنهم ربما خدعوني عندما رووا لي خبر موتها. رأيتها هكذا في زاوية أحد الدروب، ربما في «بالبيك»، رأيتها تصعد إلى السيارة بالطريقة نفسها، هي التي كانت تثق بالحياة ثقة كبيرة. ولم أنظر إلى ركوب تلك الفتاة السيارة بعيني وبنظرة عابرة، كما يحدث الأمر كثيراً أثناء النزهات، إذ أصبحت نظرة مستدامة كأنها تمتد أيضاً إلى الماضي، من هذه الزاوية التي أضيفت إليها والتي تستند بشبق وبحزن إلى قلبي.

ولكن الفتاة اختفت. ورأيت في البعيد مجموعة من ثلاث فتيات أكبر سناً، وربما كنّ نساء شابات، يخطرن بأناقة وحيوية اللواتي فتنّني يوم لمحت ألبيرتين وصديقاتها، فاقتفيت أثر الفتيات الثلاث ولكنني لما ركبن إحدى السيارات بحثت يائساً عن فتاة أخرى في شتى الاتجاهات فوجدتها، وإنما متأخراً جداً. لا لم أجدها. إلا أنني بعد ذلك بأيام، وفي طريق العودة لمحت الفتيات الثلاث اللواتي تتبعتهن في «غابة بولونيا» يخرجن من تحت قنطرة بيتنا. وكانت السمراوان خاصة والأكبر سناً بين هؤلاء الفتيات المخمليات اللواتي كنت أراهن عبر نافذتي أو أصادفهن في الشارع، هما اللتان جعلتاني أفكر بألف مشروع وأحب الحياة، مع أنني لم أحظَ بمعرفتهن. وكانت الشقراء ذات قوام ناحل ومتألم تقريباً، فأعجبتني أقل. بيد أنها هي التي كانت السبب في أنني لم أكف عن النظر إليهن لحظة واحدة، فبتلك التطلعات الثابتة العصية على التحول وبحملقتها كأنها منكبة على مشكلة من المشاكل، أدركت أنه يترتب عليّ أن أذهب أبعد مما

أرى . أثناء مرورهن أمامي، لو لم ترمني الشقراء بنظرة أولى عابرة - ألأنني كنت أتفرس فيهن؟ - ثم بعدما اجتزنني، التفتتْ وألحقتْها بنظرة ثانية أنهت تأجيجي، لتركتهن على الأرجح يمررن مرور الكرام مثل أخريات كثيرات. ولكن لأنها كفت عن الاهتمام بي وعادت تتكلم مع صديقتيها، فإن حميتي زالت، لو لم يضاعفها مئة مرة الحدث التالي. سألت البواب عنهن، فقال: «لقد سألن عن السيدة الدوقة. أظن أن واحدة منهن فقط تعرف الدوقة وأن الفتاتين الأخريين رافقتاها حتى الباب. هذا هو اسمها. لا أعرف إن كتبته بشكل واضح». فقرأت اسم الآنسة «ديبورشفيل» (d'Eporcheville)، وأمعنت النظر فيه، «ديبورشفيل»، أي حسبما أتذكر اسم الفتاة ذات العائلة العريقة التي تقرب إلى حدّ ما عائلة الـ«غيرمانت» والتي كلمني عنها «روبير» (Robert) قائلاً إنه التقاها في بيت من بيوت الدعارة وإنه أقام علاقة معها، ففهمت عندئذ معنى نظرتها، ولماذا التفتت واختفت عن رفيقتيها. كم مرة فكرت فيها وتخيلتها حسب التسمية التي ذكرها «روبير». وها أنا أراها الآن غير مختلفة عن زميلتيها، ما عدا تلك النظرة المتسترة التي تهيّئ بيني وبينها دخولاً سرياً إلى أجزاء حياتها التي تجهلها زميلتاها بالطبع والتي تجعلها تظهر سهلة المنال أكثر منهن (كأنني تملكتها نصف تملّك) وأكثر رقة من الفتيات الأرستقراطيات بالعادة. ففي ذهنها، صارت مسبقاً بيني وبينها ساعات مشتركة قد نمضيها معاً، لو كانت لها حرية أن تعطيني موعداً. أليس هذا ما عبّرتْ عنها نظرتها بفصاحة بيّنة بالنسبة لي؟ خفق قلبي بجميع نياطه، لا أستطيع أن أقول بدقة كيف هو قوام الآنسة «ديبورشفيل» (d'Eporcheville)، رأيت بغموض وجهاً أشقر لمحته لمحة جانبية، ولكنني تُيمتُ بها. وفجأة أدركت أنني أفكر في من، بين الفتيات الثلاث، كانت الآنسة «ديبورشفيل»، أهي الشقراء التي التفتت ونظرت إليّ مرتين؟ والحال أن البواب لم يقل ذلك. فعدت إلى مقصورته وسألته مرة ثانية، فأجابني أنه لا يستطيع أن يفيدني في هذه النقطة، لأنهن أتين اليوم للمرة الأولى ولم يكن هو موجوداً أثناء

ذلك. ولكنه سيسأل زوجته التي رأتهن مرة واحدة. وكانت تنظف درج الخدم. من منا أثناء حياته لم يمرّ بمثل هذه الترددات اللذيذة؟ أحد الأصدقاء العطوفين الذي وصفنا له شكل فتاة رآها في حفلة موسيقية شعبية، أمعن النظر ووجد أنها يجب أن تكون إحدى صديقاته، فدعاك معها. ولكن ألا يمكن أن يقع خطأ، بعد أن تكون قد قدّمت عنها وصفاً شفوياً بسيطاً؟ أليست الفتاة التي ستراها بعد قليل فتاة أخرى غير التي ترغب فيها؟ أو على العكس ستصافح بابتسامة تلك التي تمنيت أن تكون هي؟ إن هذه الإمكانية الأخيرة كثيرة الحدوث، دون أن يبررها دائماً تفكير مقنع يتعلق بالآنسة «ديبورشفيل»، إذ تنجم عن نوع من الحدس وأيضاً عن ضربة حظ تعمل أحياناً لمصلحتنا. وعندما نراها نقول لأنفسنا: «إنها هي فعلاً. وتذكرت أنني، من بين مجموعة الفتيات اللواتي كنّ يتنزهن على شاطئ البحر، خمّنت تماماً تلك التي كانت تدعى «ألبيرتين سيمونيه». وأثارت فيّ هذه الذكرى ألماً حاداً ولكن مقتضباً؛ وبينما كان البواب يبحث عن زوجته ظننت بخاصة أنه سيخبرني أن الآنسة «ديبورشفيل» هي إحدى السمراوين - فكرت في هذه الآنسة، وكما يحصل في دقائق الانتظار التي نطابق فيها بين اسم أو معلومة وصلتنا عن طريق الصدفة وبين وجه من الوجوه تحرر للحظة وطفا إلى السطح بين وجوه عديدة، وصار جاهزاً، إذا انضم إلى وجه جديد، أن يجعل الوجه الأول الذي استدللت عليه وجهاً غير معروف وبريئاً وزئبقياً - وإذا صح الأمر، تلاشى الشخص الذي آمنت بوجوده وبدأت أحبه ولم أفكر إلا في تملكه؛ وسيفصل الجواب الوبيل تلك الآنسة الشقراء والخفية (الآنسة «ديبورشفيل») عن الآنستين الأخريين ويميزها عنهما، علماً بأنني جمعت تعسفيا بينهن، على طريقة الروائي الذي يصهر عناصر مختلفة مأخوذة من الواقع ليخلق شخصية خيالية، وعندما يؤخذ كل عنصر على حدة - ولا يؤكد الاسم ما يقصده النظر - يفقد كل معناه. وفي هذه الحالة تنهار حججي، ولكنها كم تعززت عندما عاد البواب ليقول لي إن الآنسة «ديبورشفيل» هي فعلاً الآنسة الشقراء!

عندئذ لم أعد أستطيع الاعتقاد بوجود تطابق اسميّ. وكانت المصادفة كبيرة جداً بحيث تُسمَّى إحدى الفتيات الثلاث الآنسة «ديبورشفيل»، أي تلك التي (وكان هذا أول تحقق منهجي لافتراضي) نظرتْ إليّ بتلك الطريقة، فابتسمت لي تقريباً ولم تكن هي التي كانت تتردد إلى بيوت الدعارة.

وبدأ عندئذ نهار من الاضطراب المجنون. وقبل أن أذهب لشراء ما رأيته خاصاً بزينتي لأُحدثَ أجمل الانطباعات في اليوم التالي عندما سأزور «مدام دو غيرمانت» التي سأجد عندها فتاة سهلة أتواعد معها (إذ سأجد طريقة للتحدث معها ولو للحظة في زاوية من زوايا الصالون)، ولزيادة في التأكد سأذهب لأرسل برقية لـ«روبير» لأسأله عن الاسم الدقيق للفتاة وعن وصفها، آملاً أن يجيبني بين اليوم والغد، لأن الفتاة، كما قال لي البواب، ستذهب لزيارة «مدام دو غيرمانت»؛ وسأذهب (دون أن أفكر لحظة بشيء آخر، ولا حتى بألبيرتين)، مهما حصل لي حتى ذلك الوقت، لزيارة الدوقة في نفس الساعة، حتى إذا مرضتُ وحُملتُ إليها على محمل. إذا أرسل برقية إلى «سان لو» - فلا لأنني أشك حول هوية هذا الشخص - مع أن الفتاة التي رأيتها وتلك التي كلمني عنها مختلفان في نظري وتيقنتُ من أنهما نفس الفتاة. ولأنني لم أطق الانتظار إلى ما بعد الغد، طاب لي أن تصلني برقية حولها، فتكون لي عليها دالة سرية، برقية مليئة بالتفاصيل. وفي مكتب البرقيات، كتبت نصاً بحمية رجل يؤججه الأمل، وشعرت بأنني الآن أصبحت أكثر جرأة مما في طفولتي، وذلك إزاء الآنسة «ديبورشفيل» وإزاء «جيلبيرت». ومنذ أن قمتُ بكتابة البرقية، ولم يبق على الموظف إلا أن يأخذها، وعلى أسرع شبكات الاتصال الكهربائي إيصالها، صار امتداد فرنسا والبحر الأبيض المتوسط، وصار كل ماضي «روبير» الماجن ينكبّ على معرفة الشخص الذي التقيته لتوي، وتحت تصرف الرواية التي بدأت ترسيمتها والتي لم أعد بحاجة إلى التفكير فيها، لأن كل هذه العناصر ستتولى إنهاءها في

هذا الاتجاه أو ذاك قبل انصرام الساعات الأربع والعشرين. في الماضي عندما كانت «فرانسواز» تعيدني من الشانزليزيه، وكنت أكبت عندي في البيت رغباتي العاجزة، دون التمكن من اللجوء إلى الوسائل العملية للحضارة، كنت أحب كإنسان همجي، أو كنت أحب كزهرة، لأنني كنت أفتقر إلى حرية الحركة. ومنذ تلك اللحظة، صار زمني محموماً؛ لقد طلب مني والدي أن أغيب عن باريس لمدة ثمان وأربعين ساعة لأقضيها معه، ولكنها كانت ستعطل زيارتي للدوقة، فاستشطت غضباً وانتابني اليأس لدرجة أن والدتي تدخلت وتوصلت مع أبي أن يبقيني في باريس. ولكن غضبي لم يهدأ إلا بعد ساعات طويلة؛ أما الآن فإن رغبتي في الآنسة «ديبورشفيل» قد تضاعفت مئة مرة بسبب الحاجز الذي وُضع بيننا، وبسبب الخوف الذي انتابني للحظة من أن تلك الساعات التي كنت أبتسم لها مسبقاً ودون توقف ومن أن زيارتي لمدام «دو غيرمانت» لن تتحقق بقبول بعض الفلاسفة إن العالم الخارجي غير موجود وإننا نطور حياتنا في داخلنا. ومهما يكن من أمر، فإن الحب، حتى في أذل بداياته، هو مثال حي على الواقع المجزوء بالنسبة لنا. هل يتعين عليَّ أن أرسم عن ظهر القلب لوحة للآنسة «ديبورشفيل»، وأحدد وضعها وعلاماتها الفارقة؟ يستحيل هذا عليَّ، لا بل يستحيل أن أتعرف عليها في الشارع. لقد لمحتها مواربة وهي تتحرك، فبدت لي جميلة وبسيطة وطويلة وشقراء، لا أستطيع أن أقول عنها أكثر من ذلك. ولكنّ جميع ارتكاسات الرغبة والقلق وضربة الخوف القاتلة من ألا أراها لو أن أبي اصطحبني - بالإضافة إلى صورة تقول إنني لا أعرفها ويكفي أن أعلم بأنها لطيفة المعشر - كل ذلك صار يشكل الحب. وأخيراً في صباح اليوم التالي، بعد ليلة من السهاد السعيد، استلمت برقية «سان لو»: «**اسمها: دي لورجيفيل (de L'Orgeville) (de) حرف جر، (orge) من الحبوب كالشعير، (ville) كالمدينة، إنها صغيرة وسمراء وممتلئة، وهي الآن في سويسرا**». لم تكن هي إذن.

وبعد بضعة أيام، دخلت أمي إلى غرفتي حاملة بريدي الذي وضعته على السرير بإهمال، متظاهرة بالتفكير في شيء آخر وانسحبت للتو لتتركني وحدي وابتسمت أثناء خروجها. وأنا الذي كنت أعرف حيل أمي العزيزة وكيفية قراءة وجهها دون الخوف أبداً من الوقوع في الخطأ، إذا أخذت الرغبة في إسعاد الآخرين كمفتاح، فابتسمت وفكرت: «هل أتاني بالبريد شيء مهم؟ فتصنعت أمي اللامبالاة واللاانتباه كي تبقي على مفاجأتي كاملة وكي لا تفعل مثل الناس الذين يحرمونك نصف سعادتك عندما يبشرونك بشيء. ولم تبق في الغرفة لأنها خشيت، لأنانيتي، من إخفاء فرحتي، فأشعر عندئذ بها منقوصة». ولكنها عندما توجهت نحو الباب للخروج صادفت «فرانسواز» وهي تدخل إلى الغرفة. فأجبرت أمي «فرانسواز» على التراجع وقادتها إلى الخارج وهي مجفلة ومتفاجئة، لأنها اعتبرت أن مهمتها تمنحها الحق بالدخول إلى غرفتي في كل ساعة وبالبقاء فيها إن طاب لها. ولكن الذهول والغضب اللذين ظهرا على وجهها زالا، وحلت محلهما ابتسامة سوداء لزجة تعبّر عن شفقة متعالية وتهكم فلسفي، وهما أكسير دبق كانت تفرزه أنانيتها المثلومة للشفاء من جرحها. ولكي لا تشعر بأنها ممقوتة، كانت تمقتنا وكانت تعلم أننا أسياد ولنا نزواتنا وأننا لا نتألق بذكائنا وأننا نجد متعة في فرض الخوف على الأشخاص اللطفاء وعلى الخدم ليُظهروا أنهم أسياد فيعطون أوامر غريبة كغلي الماء أثناء الأوبئة ومسح الغرفة بخرقة مبلولة والخروج منها عندما يهم صاحبها بالدخول إليها. ولتسرّعِ أمي أخذت معها الشمعة. ولاحظتُ أنها وضعت البريد قربي كي لا يهرب مني. ورأيت أن البريد لم يكن يحتوي على جرائد. فعلى الأرجح هناك مقالة لكاتب مُقِل أحبه ستكون مفاجأة لي. فتوجهت نحو النافذة وفتحت الستائر. وفوق النهار الشاحب والضبابي، كانت هناك سماء وردية يشبه لونها لون أفران المطابخ التي تشعل الآن، فملأتني أملاً ورغبة في قضاء ليلتي ثم استيقاظي في تلك المحطة الجبلية الصغيرة التي رأيت فيها بائعة الحليب ذات الخدين الورديين.

وفتحت جريدة **الفيغارو**. ما أسأمها! بالضبط كانت المقالة الأولى تحمل عنوان المقالة نفسها التي أرسلتها ودون أن تُنشر. ولم يكن نفس العنوان فقط، بل كان هناك تطابق في عدد من الكلمات؛ مما زاد على الحد. سأرسل احتجاجاً. وسمعت فرانسواز التي غضبت لطردها من غرفتي لأنها كانت تدخلها بحرية، سمعتها تدمدم: «يا للبؤس، لقد رأيت هذا الولد عندما ولد. صحيح أنني لم أره عندما صنعته أمه، هذا أكيد. ولكنني عندما عرفته، والحق يقال، لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره». . ولكن لا ينطوي الأمر على بعض الكلمات، كانت المقالة كلها، وبتوقيعي. كانت مقالتي التي نشرت أخيراً. ولكن عقلي الذي بدأ يشيخ ويتعب قليلاً في تلك الفترة بقي يفكر لحظة كما لو أنه لم يفهم أن المقالة مقالتي، شأني شأن الشيوخ الذين يضطرون أن ينهوا على الكامل حركة بدأوها، حتى ولو أصبحت غير مفيدة، حتى ولو اعترضها عائق مفاجئ يُلزمهم بالتراجع عنها فوراً ويجعلها خطيرة. ثم نظرت إلى الخبز الروحي الذي هو بالجريدة، التي ما زالت ساخنة ورطبة لأنها طبعت للتو ولأن ضباب الصباح أثر عليها. وتوزع في الفجر على الخادمات كي يحملنها إلى أسيادهن مع القهوة بالحليب والخبز العجائبي الكثير الطيات الذي هو واحد وعشرة آلاف في آن ويبقى هو هو لكل الناس ويدخل بكثرة جميع البيوت.

ما كان بين يديّ ليس نسخة معينة من الجريدة، وإنما نسخة عادية من بين العشرة آلاف نسخة؛ وليس فقط ما كتبته أنا، لأن ما كتبته سيقرأه الجميع. ولكي أقوّم بدقة الظاهرة التي تحدث الآن في البيوت الأخرى، يجب أن أقرأ هذه المقالة لا كمؤلف وإنما كقارئ من قرّاء الجريدة؛ فلم تكن مقالتي هي ما كتبته، بل كانت رمزاً لتجسدها في أذهان كثيرة. ثم يتعين عليّ، كي أقرأها، أن أكف لحظة عن البقاء كمؤلف، وأن أكون قارئاً عادياً من قراء الجريدة. ولكن خامرني في البداية قلق أول. هل القارئ غير الفطن سيرى هذه المقالة؟ وبشرود فتحت الجريدة كما يفعل

هذا القارئ غير الفطن، وتظاهرت بأنني أجهل ما كتب هذا الصباح في جريدتي وأسرعت في النظر إلى أخبار المجتمع والسياسة. ولكن مقالتي كانت على جانب من الطول بحيث إن من يريد تحاشيها (ولأبقى في الحقيقة وكي لا أرجح الكفة إلى جانبي، كنت كشخص ينتظر ويعدّ أرقاماً عن قصد وببطء شديد)، يقع على جزء منها أثناء تصفح الجريدة. ولكن كثيرين ممن رأوا المقالة الأولى، وحتى الذين يقرأونها، فإنهم لا ينظرون إلى التوقيع. وأنا بنفسي عاجز عن القول من كتب المقالة الأولى في عدد الأمس. فوعدت نفسي أنني من الآن فصاعداً سأقرأ اسم كاتبها؛ بيد أنني كنت كذلك العاشق الغيور الذي لا يخدع عشيقته ليصدّق أنها مخلصة له، ففكرت بأسى أن اهتمامي العتيد لن يرغم بالمقابل اهتمامي بالآخرين ولم يرغمهم. ومنهم من ذهبوا إلى الصيد أو من خرجوا باكراً من بيوتهم. وعلى كل حال سيقرأه بعضهم. وفعلت مثل هؤلاء وبدأت. إنني أعلم تمام العلم أن كثيراً من الناس الذين سيقرأون هذه المقالة سيجدونها قميئة، وأثناء قراءات ما رأيته في كل كلمة بدا لي أنه على الورق فحسب، لا أستطيع التصديق أن كل شخص عندما يفتح عينيه لن يرى مباشرة تلك الصور التي أراها، ظناً مني أن فكرة المؤلف قد أدركها القارئ مباشرة، بينما تعتمل في ذهنه فكرة أخرى، فتكون سذاجته كسذاجة أولئك الذين يظنون أن الكلام الذي تلفظنا به هو الذي ينتقل كما هو عبر خطوط الهاتف؛ فحين أريد أن أكون قارئاً عادياً، يعيد ذهني كمؤلف عملَ أولئك الذين سيقرأون مقالتي. إذا لم يفهم السيد «دو غيرمانت» هذه الجملة أو تلك التي أحبها «بلوك» فإنه بالمقابل يستطيع أن يتسلّى بتلك الخاطرة التي قد يحتقرها «بلوك». وهكذا فإن كل جزء قد يهمله القارئ السابق، يدركه الهاوي الجديد، فيرفع الجمهور المقالة بمجملها إلى السحب فتفرض نفسها على ارتيابي بنفسي التي لم تعد بحاجة إلى دعمها. في الواقع تكمن قيمة المقالة، مهما كانت لامعة، في أنها تشبه ملخصات الجلسات البرلمانية؛ فليست كلمتا «سنرى لاحقاً» التي تَلَفَّظ بهما أحد الوزراء إلا

جزءاً، وربما الجزء الأدنى أهمية، من الجملة التي يجب أن تقرأ كالتالي: **رئيس المجلس، وزير الداخلية والأديان: «سنرى لاحقاً»** (فتنطلق الاحتجاجات الصارخة من أقصى اليسار). **جيد جداً. جيد جداً! وعلى بعض المقاعد في اليسار والوسط،** (والنهاية هي أجمل من وسطها وتليق بالبداية): ويكمن قسم من جمالها - وهذه هي آفة هذا النوع من الأدب الذي لا يستثنى منه كتاب «**أحاديث أيام الاثنين**» المشهور(*) - في الانطباع الذي يحدثه لدى القارئ. إنها فينوس جماعية، لا يملك فكر القارئ إلا عضواً مجتثاً منها، ولا تتحقق بكاملها وتمامها إلا في أذهان قرائها. ففيهم تكتمل. وكما أن الجمهور، وإن كان نخبوياً، ليس فناناً، فإن الصفة الأخيرة التي يعطيها إياها تحافظ دائماً على شيء عادي. وهكذا يستطيع «سان بوف» يوم الاثنين أن يتصور «مدام دو بواني» (Mme de Boigne) في سريرها العالي الأعمدة وهي تقرأ مقالته المشهورة في جريدة «**الكونستيتوسيونل**» (*Constitutionnel*)، فتحجب بتلك الجملة الجميلة التي نالت حظوة كبيرة في عينيه والتي ربما لم يكتبها لو لم يجدها مناسبة ليحشو بها ديباجته، كي تصيب الضربة هدفها الأبعد. وعلى الأرجح، عندما يقرأ المستشار هذه الجملة بدوره سيتحدث عنها مع صديقته العجوز أثناء الزيارة التي سيقوم بها لها لاحقاً. وعندما سيصحبها «دوق نواي» (le duc de Noailles) بسيارته هذا المساء، وهو يرتدي سروالاً رمادياً، سيطلعها على رأي المجتمع في هذه الكلمات، إلا إذا كانت «مدام داربوفيل» (Mme d'Arbouville) قد أعلمتها بها. عندما أدعم ارتيابي بنفسي حول هذه التأييدات العشرة آلاف التي ساندتني، فإنني أستقي من

(*) كتب سانت بوف (١٨٠٤-١٨٦٩) هذا الكتاب الضخم (١٥ جزءاً - ألحقها بتتمة مؤلفة من ١٣ جزءاً بعنوان «أيام الاثنين الجديدة») ودرس فيه عدداً كبيراً من الأدباء من العصر اللاتيني (عصر أغسطس) حتى القرن التاسع عشر. وركز فيه على نشأة الكتّاب وتربيتهم ظناً منه أنهما العنصر الحاسم في فهم الأدب. وكتب بروست كتاباً ينتقد فيه هذه النظرية وعنوانه: «تصدياً لسانت بوف». (المترجم).

القراءات في تلك الفترة فأجد فيها شعوراً بقوتي وأملاً في الموهبة، كما استقيت منها الارتياب سابقاً، لمّا كنت أكتب لذاتي فقط. ورأيت في هذه الساعة بالذات فكرتي تلتمع لدى أناس كثيرين - وفي حال لم يستطع بعضهم أن يفهم فكرتي، فإنهم سيرددون اسمي ويذكرون شخصي ويزيّنونه - وتلون أفكارهم بذلك الشفق الذي يملأني بمزيد من القوة والفرح المنتصر، أكثر من ذلك الشفق المتعدد الذي كان يظهر وردياً على جميع النوافذ في الآن نفسه. ورأيت «بلوك» و«الغيرمانت» و«الوغراندن» (Legrandin) و«أندريه» و«السيد X» يستخلصون من كل جملة الصور التي تضمنتها في حين أنني أحاول أن أكون قارئاً عادياً، وأقرأ كمؤلف. ولكن لكي يجمع الشخص المستحيل، الذي أسعى لأكونه، كلَّ المتعارضات التي تستطيع أن تفيدني، فإنني إن قرأت ككاتب أحاكم نفسي كقارئ، دون أية مقتضيات للنص يقارن فيها المثال الأعلى الذي أراد الكاتب أن يعبّر عنه. عندما كتبت هذه الصفحات وجدتها شاحبة أمام فكرتي، ومعقدة وكتيمة أمام رؤياي المتسقة والشفافة، ومليئة بالثغرات التي لم أتمكن من ردمها، فكانت قراءتها مؤلمة لي، وزادت عندي الشعور بالعجز وبنقص مزمن في الموهبة. ولكنني الآن، بسعيي أن أكون قارئاً، فإنني ألقي على الآخرين واجب محاكمتي الأليم، فأنجح على الأقل في العودة إلى الصفر في ما قصدت قوله، فرُحتُ أقرأ ما كتبت. قرأت المقالة ساعياً لإقناع نفسي بأنها لكاتب آخر. فكانت جميع صوري وأفكاري وصفاتي التي أخذت بحد ذاتها وبمعزل عن تذكر الإخفاق الذي تمثله أمام مقاصدي، تسحرني ببهائها وعفويتها وعمقها. وعندما كنت أشعر بشطط كبير، كنت ألجأ إلى روح القارئ العادي المنذهل، فأقول لنفسي: «كيف يستطيع القارئ أن يلاحظ هذا؟ من الممكن أن يكون هنا شيء ناقص. ولكن لا يهم إن لم يعجبهم. في النص كثير من الأشياء الجميلة، أكثر مما لديهم بالعادة».

وأيضاً، ما إن أنهيت هذه القراءة المنشطة، حتى تمنيت أن أعيدها

فوراً، مع العلم أنني كنت أفتقر إلى الشجاعة لأعيد قراءة مخطوطي، فهو خاوٍ ولا علاقة له بمقالة قديمة كتبتها وقال القراء عنها: «عندما قرأناها كان باستطاعتنا أن نعيد قراءتها». ووعدت نفسي بشراء نسخ أخرى عن طريق «فرانسواز»، لكي أوزعها على الأصدقاء، هكذا سأقول لها، وفي الحقيقة لألمس بأصابعي معجزة تكاثر فكرتي، ولأقرأ - كما لو كنت سيداً آخر راح يقرأ في «**الفيغارو**» نفس الجمل، ولكن في نسخة أخرى. منذ زمن طويل لم أر «الغيرمانت»، سأذهب لزيارتهم لأتبين منهم رأي الناس في مقالتي.

فكرت في تلك القارئة التي كنت أحب كثيراً الدخول إلى غرفتها والتي ستنقل الجريدة إليها فكرتي، دون أن تتمكن من فهمها، أو على الأقل تحمل إليها اسمي، فتكون لي بمثابة مديح، ولكن المدائح التي تقال في شيء لا نحبه لا تقيّد القلب أكثر من الأفكار التي لا تستهوي العقل والصادرة عن ذهن لا نستطيع اختراقه. ولكن بالنسبة لأصدقاء آخرين، كنت أقول لنفسي: «إذا استمرت صحتي في التدهور واستحالت عليَّ رؤيتهم، سيكون من المستحسن أن أستمر في الكتابة، لكي أتمكن من التواصل معهم وأكلمهم عبر السطور وأجعلهم يفكرون فيّ فأعجبهم ويقبلونني في قلوبهم. قلت لنفسي هذا، لأن العلاقات الاجتماعية المخملية شغلت حينئذ مكاناً في حياتي اليومية وصار يخيفني المستقبل إن افتقر إليها، وعزّيت نفسي بأن تلك الوسيلة التي ستخولني جذب انتباه أصدقائي نحوي وإثارة إعجابهم ربما، حتى يجيء ذلك اليوم الذي ستتحسن فيه صحتي فأعود لرؤيتهم. قلت لنفسي ذلك ولكنني شعرت بأن الأمر غير صحيح، وبأنني إذا استطبت تصور اهتمامهم كموضوع لمتعتي (وكانت هذه المتعة متعة داخلية وروحية وإرادية)، فلا يستطيعون هم توفيرها لي ولا أستطيع أنا أن أجد هذه المتعة في التحدث معهم بل بالكتابة بعيداً عنهم. وقلت لنفسي إنني إن باشرت الكتابة بهدف رؤيتهم بشكل غير مباشر كي يأخذوا فكرة أفضل عني، وكي أُعد لنفسي مكانة

مرموقة في العالم، فقد تنزع مني الكتابة ربما الرغبة في رؤيتهم، كما تفقدني الرغبة في التمتع بالمكانة التي سيخصني بها الأدب، لأن رغبتي لن تنصب على العالم وإنما على الأدب.

وبعد الغداء، عندما ذهبت إلى بيت «دو غيرمانت»، لأرى دون حماس الآنسة «ديبورشفيل» التي فقدت أفضل صفة في شخصيتها بسبب برقية «سان لو» ولأرى الدوقة نفسها بصفتها قارئة من قارئات مقالتي، مما سيتيح لي الفرصة لأستكشف رأي الجمهور من المشتركين في جريدة «**الفيغارو**» ومشتريها. وفي المحصلة كنت أذهب بسرور إلى بيت «مدام دي غيرمانت». وقلت في نفسي إن ما يميز هذا الصالون عن الصالونات الأخرى هو برأيي الدربة الطويلة التي خلقها في خيالي، وبعد أن تبينت أسباب هذا الفرق لم ألغه من ذهني الذي كان يخصّ الـ«غيرمانت» بمجموعة من الأسماء. وإذا كان الاسم الذي علق بذاكرتي كما في دفتر للعناوين لا يرتبط بأي بُعد شعري، فإن بعض الأسماء القديمة التي كانت تعود إلى فترة لم أكن فيها بعد قد تعرفت على «مدام دو غيرمانت» كانت قابلة للتشكّل فيّ، وبخاصة عندما لا أرى أصحابها مدة طويلة وعندما لا يطفئ الوضوح الساطع لشخصية الوجه البشري الأشعة الخفيّة للاسم. ومن جديد رحت أفكر في منزل «مدام دو غيرمانت» كما لو كان منزلاً تجاوز الواقع، وكذلك رحت افكر في تلك الـ«باليبك» الضبابية التي نشأت فيها أحلامي الأولى كما لو أنني بعدئذ لم أقم بتلك الرحلة في قطار الساعة الواحدة وخمسين دقيقة وكما لو أنني لم أستقل هذا القطار. فنسيت للحظة علمي بأن هذا غير موجود، كما يفكر المرء أحياناً بشخص حبيب وينسى أنه مات. ثم عادت فكرة الواقع عندما دخلت إلى غرفة انتظار الدوقة. وعزيت نفسي قائلاً إنها في نظري، بالرغم من كل شيء، نقطة التقاطع الحقيقية بين الواقع والحلم.

وعندما دخلت إلى الصالون رأيتُ الفتاة الشقراء التي ظننتها خلال أربع وعشرين ساعة الفتاة نفسها التي كلمني عنها «سان لو» وهي نفسها

التي طلبت من الدوقة أن «تقدمني مرة ثانية» إليها. أجل، ما إن دخلت، حتى تهيأ لي أنني أعرفها جيداً، ولكن الدوقة أزالت هذا الانطباع فقالت لي: «آه! هل سبق لك أن التقيت بالآنسة «دو فورشفيل»؟ على العكس، كنت متأكداً أن أحداً لم يقدمني قط لآنسة تحمل هذا الاسم؛ ولو حدث ذلك للفت الاسم انتباهي بالتأكيد، لا سيما وأنه كان مألوفاً في ذاكرتي منذ أن رُوِيتْ لي لاحقاً قصة مغامرات «أوديت» العاطفية وغيرة «سوان». فبحد ذاته ذكرني الخطأ المزدوج في الاسم بـ«دو لورجيفيل» (de l'Orgeville) على أنه «فورشفيل» (Forcheville)، ولم تكن في ذلك أية غرابة. خطأنا هو أننا نقدم الأشياء كما هي، والأسماء كما تكتب، والناس كما يعطي التصوير وعلم النفس عنهم فكرة ثابتة. ولكننا في الواقع لا ندرك ذلك البتة؛ لأننا ننظر ونسمع العالم بشكل مقلوب تماماً. ونكرر اسماً كما سمعناه، إلى أن تصحّح لنا التجربة خطأنا، وهذا لا يحدث دائماً. جميع الناس في «كومبريه» تكلموا مع «فرانسواز» خلال خمس وعشرين سنة عن «مدام سازيرا» (Mme Sazerat)، وبقيت فرانسواز تقول «مدام سازيران» (Mme Sazerin)، ليس بسبب إصرارها المستميت والمتغطرس على أخطائها - وكان هذا الإصرار معتاداً عندها ويتعزز مع مناقضتنا ويشكّل كل ما أضافته في بلدتها إلى فرنسا «سانت أندريه دي شان» من مبادئ ١٧٨٩ حول المساواة - (ولم تناد إلا بحق واحد للمواطن، وهو عدم اللفظ على طريقتنا والإصرار على أن كلمات «فندق» و«صيف» و«هواء» المؤنثة بالفرنسية هي كلمات مذكرة)، وإنما لأنها في الواقع بقيت تسمع دائماً «سازيران». إن هذا الخطأ المستمر، الذي يشكّل «الحياة» فعلاً، لا يعطي العالم المرئي والمسموع أشكاله الألف فقط، بل يعطيها أيضاً للعالم الاجتماعي والعاطفي والتاريخي، إلخ.. إن أميرة لوكسمبورغ كانت في نظر زوجة الرئيس الأول امرأة قوّادة، ولم تكن لذلك نتائج تذكر؛ ولكنّ النتيجة المهمة هي أن «أوديت» كانت امرأة صعبة بالنسبة لـ«سوان»، ولذا فإنه بنى رواية كاملة أصبحت

أكثر إيلاماً عندما اكتشف خطأه. أما النتائج الكبرى فهي أن الفرنسيين لا يحلمون، في نظر الألمان، إلا بالثأر. ليس العالم بالنسبة لنا إلا رؤى فقدت شكلها، رؤى مفتتنة نكملها بتداعيات أفكار تعسفيّة تخلق إيحاءات خطيرة. لم أتعجب إذن من سماعي اسم «فورشفيل» (وتساءلت إن كانت قريبة من أقارب عائلة الـ«فورشفيل» التي سمعت عنها الكثير)، لو لم تبادرني الفتاة، وقصدها تحذيري بلباقة من طرح أسئلة محرجة، بقولها: «ألا تتذكر أنك عرفتَني كثيراً في الماضي، لقد كنتَ تأتي إلى البيت مع صديقتك «جيلبيرت». لاحظت أنك لم تعرفني. أما أنا فعرفتك فوراً». (قالت ذلك كما لو أنها عرفتني فوراً في الصالون، والحقيقة أنها عرفتني في الشارع وقالت لي صباح الخير، وفيما بعد قالت لي «مدام دو غيرمانت» إنها روت لها حادثة مضحكة وغريبة، وهي أنني لاحقتها في الشارع ولامستها معتبراً إياها عاهرة). وما عرفتُ، إلا بعد أن ذهبت، لماذا تسمّى بالآنسة «دو فورشفيل». بعد موت «سوان»، تعجب جميع الناس للحزن البالغ والمستديم والصادق الذي ألمّ بـ«أوديت»، فوجدتْ نفسها أرملة غنية جداً. فتزوجها «فورشفيل»، بعد أن قام بجولة طويلة بين القصور ليتأكد من أن عائلته ستقبل بزوجته. (نعم، لقد أبدت العائلة بعض الصعوبات، ولكنها رضخت لأنها لم تعد مضطرة إلى دفع التكاليف لقريب محتاج سينتقل من الفقر المدقع بصورة ما إلى اليسر والثراء). وفيما بعد توفي أحد أعمام «سوان»، وكان، بعد موت أقارب عديدين له، قد نزل عليه إرث هائل، فآلت كل هذه الثروة إلى جيلبيرت، التي أصبحت من جراء ذلك إحدى الثريات الكبيرات في فرنسا عن طريق الإرث. وكان ذلك بعد عقابيل قضية «دريفوس» (Dreyfus)(*)، إذ نشأت حركة لاساميّة

(*) ألفريد دريفوس (١٨٥٩-١٩٣٥): ضابط فرنسي يهودي كان يعمل في الاستخبارات العسكرية، فاتهم خطأ بتسليمه عدداً من الوثائق للعدو الألماني؛ فحوكم عام ١٨٩٤ محاكمة متسرعة ونُفي إلى جزيرة الشيطان في مستعمرة غويانا الفرنسية. وعام ١٨٩٩ أعيد النظر في المحاكمة؛ ولم تتم إعادة الاعتبار لدريفوس

موازية لحركة أخرى وهي حركة اختراق اليهود الكبرى للطبقة الفرنسية العليا. ولم يخطئ السياسيون عندما اعتقدوا أن اكتشاف الخطأ القضائي سيُلحق الضرر بمعاداة الساميّة. ولكنّ معاداة السامية في المجتمع الراقي ازدادت، مؤقتاً على الأقل، وثارت حفيظتها. لقد تيقّن «فورشفيل»، بصفته صغيراً من صغار النبلاء، من بعض الأحاديث العائلية، أن اسمه أقدم من اسم «لا روشفوكو» (La Rochefoucauld) واعتبر أنه بزواجه من أرملة رجل يهودي سيحقق عملاً خيرياً يشبه صنيع رجل مليونير يلتقط عاهرة من الشارع ويخلصها من البؤس والحمأة. وكان مستعداً لبسط طيبته على شخص «جيليبرت» التي قد تعينها الملايين العديدة، ولكن اسم «سوان» العبثي الذي تحمله سيعيق الزواج. وصرّح أنه سيتبناها. ونعرف أن «مدام دو غيرمانت» التي كانت تعشق الاستفزاز ومعتادة عليه، رفضت، بعد زواج «سوان»، أن تستقبل ابنته وزوجته، مما أثار دهشة مجتمعها. ويبدو أن هذا الرفض كان على درجة من القساوة تمثلت لدى «سوان» في إمكانية زواجه من «أوديت»، وتمثلت بخاصة في تقديم ابنة «مدام دو غيرمانت» لأمها. ولا بد أنه عرف، وهو شخص خبِرَ الحياة، أن هذه اللوحات التي يتصورّها الإنسان لا تتحقق قط لأسباب مختلفة، وبينها سبب جعله لا يفكر كثيراً في الندم على هذا التصوّر. والسبب هو التالي: مهما كانت الصورة، من سمكة التروتة التي نأكلها في غروب الشمس الذي يدفع رجلاً مقيماً إلى أن يستقل القطار، إلى الرغبة في التمكن ذات مساء من إبهار موظفة صندوق متعجرفة بالوقوف أمامها بموكب جليل، فإنها هي التي تدفع رجلاً بدون ذمّة إلى ارتكاب جريمة قتل أو إلى تمني موت الأقارب كي يرثهم - فإما أن يكون رجلاً شجاعاً أو خاملاً، وإما أنه يذهب بعيداً في متابعة

إلى عام ١٩٠٦. فأعيد إلى صفوف الجيش واسترجع أوسمته. وسببت قضية دريفوس أزمة كبرى في حياة الجمهورية الثالثة في فرنسا، وقسمت المجتمع الفرنسي إلى مؤيدين ومعارضين. (المترجم).

أفكاره أو أنه يبقى يدغدغ بداياتها -؛ ذلك أن الفعل الذي يخوّلنا بلوغ الصورة (أكان هذا الفعل سفراً أو زواجاً أو جريمة، إلخ.)، فإنه يغيّرنا تغييراً عميقاً كي لا نعلّق من بعيد أهمية، أو كي لا تخطر ببالنا مرة واحدة، على الصورة التي كوّنها من لم يصبح بعد مسافراً أو زوجاً أو مجرماً أو مستوحداً (انكبّ على العمل في سبيل المجد، وتخلّى بالتالي عن الرغبة في ذلك المجد)، الخ. وإذا تعنّتنا في عدم الرغبة في العمل عبثاً، يرجّح أن تأثير الشمس لن يظهر؛ فإذا كنا نشعر وقتها بالبرد، ورغبنا في حساء قرب النار وليس في تورتة تؤكل في الهواء الطلق، فإن موكبنا قد يترك موظفة الصندوق لامبالية لأنها، ولأسباب نجهلها، ربما كانت تقدّرنا تقديراً كبيراً، بينما قد تدفع هذه الثروة المفاجئة إلى أخذ الحذر. وبوجيز العبارة، رأينا «سوان» المتزوج يقيم بخاصة وزناً لعلاقات زوجته وابنته بـ«مدام بونتان»، إلخ.

إلى هذه الأسباب جميعها، وهي الأسباب المستخلصة من طريقة عائلة «الغيرمانت» في فهم الحياة الاجتماعية المخملية، والتي دفعت الدوقة إلى عدم التعرف على السيدة والآنسة «سوان»، نضيف أن الناس الذين لا يحبون يبتعدون بسهولة سعيدة عما يلومونه عند العشاق، وأن تصرّف العشاق يشرح موقفهم. «آه، إنني لا أتدخل في كل هذا؛ إذا طاب للسيد سوان أن يرتكب حماقات ويدمّر حياته، فهذا شأنه، ولكنهم لن يخدعوني بهذه الأشياء، قد ينتهي كل ذلك نهاية سيئة، أتركهم يتدبرون أمرهم». كُن «كاليمّ الكبير الهانئ» (Suave mari magno)، بهذه العبارة اللاتينية نصحني «سوان» كيف أتصرف مع عائلة الـ«فيردوران»، عندما كف منذ أمد طويل عن عشق «أوديت» ولم يعد يركّز على القبيلة الصغيرة. وهذا هو الذي يجعل آراء الآخرين حول أشكال العشق التي لم يعرفوها وحول التصرفات المعقدة التي تؤدي إليها، آراء حكيمة جداً.

وأصرت «مدام دو غيرمانت» إصراراً متعنتاً على استبعاد السيدة والآنسة «سوان»، مما أثار الدهشة. وعندما بدأت السيدتان «موليه» و«دو

مارسانت» بالارتباط بالسيدة «سوان» وبجذب عدد كبير من نساء المجتمع الراقي إلى بيتها، لم يفتر تعنتها فحسب، بل تدبرت أمرها وقطعت جميع الجسور، وحذت الأميرة «دو غيرمانت» حذوها. وفي غمرة الأزمة التي حصلت أثناء حكومة «روفييه» (Rouvier)، ظن الناس أن الحرب وشيكة بين فرنسا وألمانيا؛ وبينما كنت في أخطر يوم من أيام تلك الأزمة أتعشى وحدي مع «مدام دو غيرمانت» مع السيد «دو بريوتيه» (de Bréauté) وجدت الدوقة مهمومة. وبما أنها كانت تهتم كثيراً بالسياسة، ظننت أنها مهمومة بسبب خشيتها من الحرب. وذات يوم، بينما كانت متوجهة إلى غرفة الطعام والهموم ظاهرة على وجهها، وبالكاد كانت تجيب بكلمة قصيرة على الأسئلة، سألها أحدهم بخجل عن سبب هذه الهموم فأجابته بنبرة رزينة: «إن الصين تقلقني». ولكن «مدام دو غيرمانت» فسَّرت سبب همومها الذي عزوته أنا إلى خشيتها من الحرب، فقالت للسيد «دو بريوتيه»: «يقال إن ماري أينار (Marie-Aynard) تفكر في رفع شأن سوان وعائلته. ينبغي عليّ بأي شكل أن أذهب في صباح الغد لأرى ماري جيلبير (Marie-Gilbert) لتساعدني على منع ذلك. وبدون هذه الخطوة، سينتهي المجتمع. إن قضية دريفوس أمر جميل. ولكن ما ينقصنا هو أن بَقّالة الحارة تدّعي أنها وطنية وتريد مقابل ذلك أن تدعى إلى بيتنا». ودهشتُ من هذا الكلام الطائش الموجّه لشخص كنت أنتظره، دهشة القارئ الذي يبحث في جريدة «الفيغارو» عن الزاوية المعتادة لنشر آخر الأخبار المتعلقة بالحرب الروسية اليابانية، فيجد مكانها لائحة بالأشخاص الذين قدموا الهدايا بمناسبة عرس الآنسة «دو مورتيمار» (de Mortemart) فيعجبون من أهمية الزواج الأرستقراطي الذي دفع بأخبار المعارك الأرضية والبحرية إلى آخر الجريدة. وانتهى الأمر بالدوقة إلى شعورها بالكبرياء من جراء هذه المثابرة المستميتة، ولم تترك أية مناسبة للتعبير عنه. فقالت: «يدّعي بابال (Babal) أننا الشخصان الأكثر أناقة في باريس، لأننا الشخصان الوحيدان اللذان لا يتركان الآنسة والسيدة سوان تسلّمان علينا. ويؤكد بابال أن

الأناقة منوطة بعدم التعرف على السيدة سوان». وضحكت الدوقة من كل قلبها.

ومع ذلك، عندما توفي «سوان» حصل أن قرار «مدام دو غيرمانت» بألا تستقبل ابنته قد آل إلى إعطائها جميع أشكال الرضا بالكبرياء والاستقلال والحكم الذاتي والاضطهاد التي كان يتوقع منها استخلاصها والتي انتهت بموت الشخص الذي كان يُشعرها بمقاومتها المستلذّة له والذي لم يكن قادراً على إرجاء قراراتها. فانتقلت الدوقة عندئذ إلى إصدار قرارات أخرى تستطيع، إن طُبّقت على الأحياء، أن تُشعرها بأنها سيدة قراراتها وبأنها تفعل ما يطيب لها. لم تكن تفكر بابنة «سوان» الصغيرة، ولكن عندما كانوا يكلّمونها عنها، كانت الدوقة تشعر بفضول، كأنها تريد التعرف على مكان جديد، فضول لم تعد تخفيه عنها رغبتُها في مقاومة «سوان» المدعي. أجل هناك مشاعر مختلفة وعديدة تستطيع المساهمة في تشكيل شعور وحيد، وهو أن المرء لا يستطيع أن يبتّ في وجود عاطفة تكنّها لـ«سوان». ففي جميع طبقات المجتمع تشل الحياة المخملية والطائشة المشاعرِ وتزيل الإحساس بإحياء الموتى؛ لقد كانت الدوقة تحتاج إلى حضور الشخص أمامها كي تحبه فعلاً، كما كان الحضور - وهذا شيء نادر - يشعرها أيضاً بمقته على نحو ما، وكانت كسليلة من عائلة الـ«غيرمانت» تتقن إطالة هذا الحضور. وغالباً ما كانت مشاعرها تجاه الناس، والتي علقتها عنهم أثناء حياتهم بسبب غضبها من تصرفاتهم معها، تعود وتظهر بعد مماتهم. فتكاد تنتابها رغبة في التعويض، لأنها لم تعد تتصورهم - وبغموض - إلا بصفاتهم الحقيقية وبمعزل عن شهواتهم وادعاءاتهم التي كانت تزعجها أثناء حياتهم. هذا كان يعطي «مدام دو غيرمانت» بعض النبل في تصرفها المشوب بكثير من الدناءة، وذلك رغم طيشها. فبينما نجد أن ثلاثة أرباع البشر يتملقون الأحياء ولا يعيرون أي اهتمام بالأموات، فإنها كانت بعد مماتهم تعاملهم بالحسنى التي تمنوها أثناء حياتهم.

أما «جيلبيرت»، فجميع الأشخاص الذين أحبوها وشعروا بعزة نفسها فلم ينشرح صدرهم لتغيّر مشاعر الدوقة تجاهها وظنوا أنها بالإشاحة الاحتقارية عن هذه التمهيدات التي ظهرت بعد خمسة وعشرين عاماً من الإهانة، فإنها تنتقم لهم. ولسوء الحظ لا تكون الارتكاسات الأخلاقية مطابقة دائماً لما يتخيله الحس السليم. فمن ظنّ بسبب شتيمة ناقصة أنه فقد إلى الأبد كل الآمال التي كان يعقدها على شخص يُصرّ على المحافظة عليه، فإنه يحفظها هكذا. إن «جيلبيرت» التي كانت لا تبالي كثيراً بالأشخاص اللطفاء، لم تكفّ عن التفكير بإعجابها بصفاقة «السيدة دو غيرمانت» وبالتساؤل عن أسباب تلك الصفاقة، لا بل إنها ذات مرة - وهذا ما جعل الناس الذين كانوا يكنون لها بعض الصداقة يموتون من الخجل عليها - أرادت أن تكتب للدوقة كي تسألها عن أسباب غضبها من فتاة لم تفعل لها شيئاً. وفي نظرها أخذت عائلة «الغيرمانت» أبعاداً لا تستطيع نبالتهم أن تمنحها إياها؛ إذ إنها ما كانت تضعها فوق كل النبلاء فحسب، بل فوق جميع العائلات الملكية.

واهتمت كثيراً بـ«جيلبيرت» مجموعةٌ من الصديقات السابقات لـ«سوان». وعندما علمت الأرستقراطية بآخر تركة قدّمتها، راحت تلاحظ كم أنها امرأة مهذبة وكم ستكون فاتنة. وقيل إن الأميرة «دو نييفر» (de Nièvre)، وهي ابنة عم «مدام دو غيرمانت»، كانت تفكر فيها لابنها. أما «مدام دو غيرمانت» فكانت تمقت «مدام دو نييفر». ولهلع هذه الأخيرة، فإنها أكدت أنها لم تفكر قط بهذا الزواج. وذات يوم صحا طقسه، وبعد الغداء، أرادت «مدام دو غيرمانت» أن تتنزه مع صديقتها، فأصلحت قبعتها أمام المرآة وأمعنت النظر في عينيها الزرقاوين وفي شعرها الذي ما زال أشقر، وكانت خادمتها تحمل في يديها عدة مطريات لتختار معلمتها واحدة منها. وكانت أشعة الشمس تتدفق من النافذة، فقررت العائلة الاستفادة من ذلك النهار الجميل لتزور منطقة «سان كلو» (Saint-Cloud). وكان السيد «دو غيرمانت» جاهزاً تماماً ويضع قفازين

رماديين فاتحين وقبعة على رأسه، ويقول لنفسه: «إن أوريان Oriane مدهشة فعلاً. وأجدها عذبة». ولما وجد أن طوية زوجته حسنة قال: «بالمناسبة. عندي رسالة يجب أن أبلغك إياها من قبل «مدام دو فيريليف» (Mme de Virelef) إنها تدعوك يوم الاثنين إلى الأوبرا. وبما أن بنت سوان عندها، فقد طلبت مني أن أجس النبض. إنني لا أبدي أي رأي، أنقل الرسالة فقط. والله يبدو لي أننا نستطيع...»، هذا ما أضافه بشرود، لأن مشاعرها نحو شخص ما كانت مشاعر جماعية وتنشأ متطابقة لديهما، وأدرك وحده أن عداوة زوجته للآنسة «سوان» قد تناقصت وأنها كانت على جانب من الفضول للتعرف عليها. وأنهت «مدام دو غيرمانت» تركيز منديلها واختيار مطريتها وقالت:

- « ولكن كما تريد، لا أعير الأمر اهتماماً. لا أجد أي مانع لنتعرف على هذه الصغيرة. أنت تعرف تماماً أنني لا أكن لها أي كره. فقط لم أرد أن يبدو علينا وكأننا نستقبل عائلات أصدقائنا المزيفة. هذا كل شيء.

- كان معك حق، وتمام الحق، أجابها الدوق. أنت الحكمة بالذات، يا مدام، وأيضاً إنك رائعة بهذه القبعة.

- ما ألطفك من رجل! قالت «دو غيرمانت» وهي تبتسم لزوجها وتتجه نحو الباب. ولكنها قبل أن تدخل إلى السيارة أصرت على إضافة بعض الشروح: «الآن كثير من الناس يرون الأم، على كل حال معها كل الحق بأن تمرض ثلاثة أرباع السنة. يبدو أن الصغيرة لطيفة جداً. الجميع يعلمون أننا كنا نحب سوان كثيراً، وسيجدون ذلك طبيعياً جداً». وانطلقا معاً نحو «سان كلو».

وبعد شهر كانت ابنة «سوان»، ولم تكن تسمى بعد «فورشفيل» تتغدّى عند الـ«غيرمانت». فتكلموا عن ألف شيء وشيء. وبعد الغداء قالت «جيلبيرت» بخجل: «أظنّ أنكِ عرفت أبي معرفة ممتازةً - أظنّ ذلك فعلاً»، هذا ما قالته «مدام دو غيرمانت» بنبرة حزينة تثبت أنها كانت تفهم أسى الفتاة، وقالت ذلك بحميّة زائدة مقصودة تنمّ عن إخفائها عدم تأكدها

من تذكر الأب تذكراً جيداً. «لقد عرفناه تمام المعرفة، وأتذكر ذلك بشكل جيد جداً». (أجل كان بوسعها أن تتذكر ذلك، كان يأتي ليراها كل يوم تقريباً، وخلال خمس وعشرين سنة). وأضافت كما لو أنها أرادت أن تشرح لابنته أي أب كان لها، وأن تعطي تلك الفتاة معلومات عنه: «أعرف تماماً من هو، وسأقول لكِ إنه كان صديقاً كبيراً لحماتي وكان أيضاً على صلة وثيقة بصهري بالاميد (Palamède)».

- «كان يأتي إلى هنا، لا بل كان يتغدّى هنا»، هذا ما أضافه «السيد دو غيرمانت»، بتفاخر وتواضع ودقة متناهية. «تذكرين ذلك يا أوريان. كان أبوك رجلاً طيباً. كم كان المرء يشعر بأنه ينحدر من عائلة شرفاء. يضاف إلى ذلك أنني لمحت في الماضي أباه وأمه. أجل إنهما وإنه من الناس الطيبين!»

ويشعر من ذلك أن الأبوين والابن، لو بقيا على قيد الحياة، لما تردد الدوق «دو غيرمانت» في النصح بتشغيلهما كبستانيين. وهكذا كان حي الـ«فوبور دو سان جيرمان» يتكلم مع كل بورجوازي عن باقي البورجوازيين، إما ليمدحه لأنه استثناء، وذلك في معرض الحديث لصالح المخاطب أو المخاطبة، وإما بالأحرى لإذلاله في الوقت نفسه. وعلى هذا النحو قال أحد المعادين للساميّة لأحد اليهود، بعد أن غمره بالترحاب، أشياء سيئة عن اليهود تتيح له الفرصة بعامة أن يكون جارحاً دون أن يقع في الابتذال.

ولكن «مدام دو غيرمانت»، بصفتها ملكة اللحظة، لأنها كانت تتقن فن الإشادة بك بحيث لا تستطيع أن تتركك تذهب، كانت أيضاً عبدة اللحظة. في غمرة الحديث، استطاع «سوان» أحياناً أن يخلق لدى الدوقة وهم صداقتها له، ولكنه لم يعد يستطيع ذلك. «كان رائعاً» قالت الدوقة ذلك بابتسامة حزينة بعد أن ألقت على «جيلبيرت» نظرة رقيقة جداً تظهر للفتاة - إن كانت حساسة - أن كلامها قد فُهِم وأن «مدام دو غيرمانت» - لو وجدت وحدها معها ولو سمحت الظروف - لأحبت أن تكشف لها

عمقَ أحاسيسها الكامل. ولكن السيد «دو غيرمانت»، إما أنه ظن أن الظروف غير مناسبة للبوح بهذه العواطف الجياشة، وإما أنه اعتبر أن المبالغة في العواطف من شأن النساء وأن الرجال يهتمون بأشياء أخرى، ما عدا اختصاصهم بالمطبخ والخمور، فوجد أنه من المستحسن عدم الخوض في الموضوع كي لا يطول الحديث الذي استمع إليه بتبرّم ملحوظ. وبعد أن عبّر عن ذلك الفيض العاطفي، أضافت «مدام دو غيرمانت» بطيش المجتمع الراقي موجهة الحديث لـ«جيلبيرت»: «أريد أن أقول لك إنه كان صديقاً كبيراً لصهري «شارلوس» (Charlus) وصديقاً عزيزاً لـ«فوازينون» (Voisenon) (وهو قصر أمير الغيرمانت)، ليس لأن التعرف على السيد «دو شارلوس» والأمير كان صدفة لـ«سوان» في ظرف من الظروف، علماً بأنه كان مرتبطاً بجميع الناس في ذات المجتمع، وإنما أرادت «مدام دو غيرمانت» أن تُفهِم «جيلبيرت» من هو نوعاً ما أبوها وأن «تحدده» لها عن طريق بعض الإشارات التي لا تخفى عمّن يريد أن يشرح علاقاته به، أو أنها - كي تشخص قصتها - ذكرت الرعاية الخاصة لشخص معين. أما «جيلبيرت» فقد كانت أشد سعادة عندما لاحظت أن الحديث الذي كانت تريده أن يتغيّر قد تداعى، فقد ورثت من «سوان» ذلك الإحساس اللطيف المصحوب بالذكاء الساحر، وهما خصلتان اعترف بهما الدوق والدوقة واستساغاهما فطلبا من «جيلبيرت» أن تعود عما قريب. وبدقة الناس الذين يُمضون حياتهم دون هدف، لاحظا وجود صفات بسيطة جداً عند الناس الذين ارتبطا بهم، فانذهلوا بها انذهالاً ساذجاً كما ينذهل ابن المدينة عندما يكتشف بقعة من العشب، أو أنهم يضخّمون الأمور ويمررونها بمكروسكوب ويعلّقون دون نهاية ويفضحون أصغر العيوب، وفي أغلب الأحيان ينالون من الشخص نفسه، كلّ بدوره. ولاحظت «جيلبيرت» أن النباهة الخاملة للسيد «غيرمانت» وزوجته تناولت في البداية إيجابياتها فقالت الدوقة لزوجها بعد مغادرتها: «هل لاحظتِ الطريقة التي تلفظ بها بعض الكلمات، إنها تلفظ فعلاً مثل سوان، ظننتني أسمعه.

- يا أوريان، كنت أشير إلى نفس الملاحظة التي أبديتها.
- إنها ظريفة بظرافة أبيها تماماً.
- أرى أنها تتفوق عليه كثيراً. أتذكرين كيف روت قصة الاستحمام في البحر، عندها براعة لم تتوفر لسوان.
- ولكنه هو أيضاً كان من الظرفاء
- لم أقل إنه لم يكن ظريفاً، قلت إنه كان يفتقر إلى البراعة»، هذا ما قاله السيد «دو غيرمانت» بلهجة المشتكي، لأن مرض النقرس جعله عصبياً، وعندما لم يكن يجد شخصاً يُشهده انزعاجَه، كان يظهره للدوقة. ولعجزه عن فهم الأسباب، فقد كان يفضّل أن يتخذ شكل الإنسان الذي لا يفهمه الآخرون.

ودفعت هذه الاستعدادات كلاً من الدوق والدوقة إلى أن يتلفظا أحياناً بعبارة «أبوك المسكين» التي لم يستخدماها من قبل؛ ذلك أن «فورشفيل» كان قد تبنّى الفتاة في الفترة نفسها. وكانت تقول لـ«فورشفيل»: «يا أبي»، فتسحر النساء المسنات بسياستها وتميّزها، واعترف الناس بأن «فورشفيل» إذا تصرف بروعة معها، فلأن الصغيرة كانت ذا قلب وتعرف كيف تكافئه. ولأنها كانت أحياناً قادرة وراغبة في إظهار كثير من اليسر، فإنها كشفت لي شخصيتها وكلمتني عن أبيها الحقيقي. ولكن ذلك كان استثناء، ولم يعد الناس يجرؤون أن يلفظوا اسم «سوان» أمامها.

ولدى دخولي إلى الصالون، لاحظت لتوي وجود رسمين لـ«إيلستير» كانا قد أودعا في غرفة من الغرف العليا، لم أرهما إلا عن طريق الصدفة. ولم تكن «مدام دو غيرمانت» تجد لنفسها العزاء بعد أن أعطت بنت عمها عدداً كبيراً من لوحاته، لا لأنها كانت جزءاً من موضة العصر، بل لأنها هي أصبحت تتذوقها الآن. وفعلاً تُصنَع الموضة من شغف مجموعة من البشر تُمَثّل بعائلة الغيرمانت. ولكنها لم تستطع التفكير بشراء لوحات أخرى له؛ لأن أسعارها ارتفعت بشكل جنوني منذ فترة. وكانت تريد على

الأقل أن تعلق في صالونها بعض أعمال «إيلستير» فأمرت بتنزيل هذين الرسمين وصرّحت بأنها تفضلهما على لوحاته الزيتية. وتعرفتْ «جيلبيرت» على طريقة الرسم هذه، فقالت: «كأنها من لوحات إيلستير». فأجابتها الدوقة دون انتباه: «إنهما منكم (ولم تلفظ الكلمة بكاملها).، إنهما من أصدقاء لنا اشتروها خصيصاً لنا. إنهما رائعان. وبرأيي إنهما يفوقان لوحاته الزيتية». وأنا الذي لم أسمع هذا الحوار، اقتربت لأشاهد اللوحتين. فقلت: «آه، إنهما من إيلستير الذي...» ورأيت الإيماءات اليائسة تصدر عن مدام دو غيرمانت. «آه، نعم، إنه رسم لإيلستير الذي أعجبت به وهو فوق، ومكانه فوق أفضل من مكانه في هذا الممر. في ما يخص إيلستير، أمس ذكرته في مقالة نشرتها **الفيغارو**. هل قرأتموها؟» فصرخ السيد «دو غيرمانت» بنفس العنف كما لو أنه هتف: «كتبت مقالة في **الفيغارو**. ولكنها بنت عمي» قائلاً: «لقد كتبت مقالة في **الفيغارو**؟ - نعم، أمس. - في **الفيغارو**، هل أنت متأكد؟ هذا يدهشني كثيراً. فكلانا عنده نسخة من **الفيغارو**، فإن فاتت أحدنا المقالة لرآها الآخر. أليس هذا صحيحاً، يا أوريان، لم نرَ شيئاً». فأتى بجريدة «**الفيغارو**» للدوق ولم يتبين له الأمر إلا عندما اتضح، كما لو أنني أخطأت في اسم الجريدة التي أكتب فيها. وقالت لي الدوقة وهي تبذل جهدا لتتكلم عن شيء لا يهمها: «ماذا؟ إنني لا أفهم، لقد عملتَ مقالة في **الفيغارو**؟» وقالت: «ولكنك يا عزيزتي بازين (Basin) ستقرأ ذلك فيما بعد. فقالت «جيلبيرت»: كلا، الدوق ممتاز هكذا، إنه الآن يغرس لحيته الطويلة في الجريدة. سأقرأ فوراً كل هذا عندما أعود. نعم، إنه يربي لحيته الآن بينما يحلقها جميع الرجال، هذا ما قالته الدوقة، إنه لا يعمل قط شيئاً مثل الآخرين. عندما تزوجنا كان لا يحلق ذقنه فقط بل شاربيه. وكان الفلاحون الذين لا يعرفونه لا يصدقون أنه فرنسي. وكان يُدْعي آنئذ بأمير لوم (Laumes). فسألت «جيلبيرت» التي كانت تهتم بكل ما يتعلق بالناس الذين رفضوا ولمدة طويلة أن يقولوا لها صباح الخير: هل أمير «لوم» موجود حتى

الآن؟ فأجابت الدوقة بنظرة أسى وقالت: «كلا». فقالت «جيلبيرت»: «إنه لقب جميل جداً! إنه من أجمل الألقاب الفرنسية!»، وأزفت الساعة ليلتفظ بعض الأشخاص الأذكياء بعدد من التفاهات المتوقعة. «نعم إنني آسفة أيضاً. بازين (Basin) كان يريد من حفيده أن يصلح الأمر، ولكن المسألة ليست نفس الشيء؛ في الحقيقة قد يكون الوضع هكذا لأنه لا يتعلق وجوباً بالابن البكر، فقد ينتقل ذلك من البكر إلى الابن الذي يليه. قلت لكم إن بازين كان حليقاً تماماً؛ وذات يوم عندما حجّ إلى باري لي مونيال (Paray-le-Monial)، أتذكر ذلك يا صغيري (هذا ما قالته لزوجها)، فإن صهري «شارلوس» الذي كان يحب التحدث مع الفلاحين كان يقول لهذا أو ذاك منهم: «من أين أنت؟ وبما أنه كان كريماً فقد كان يعطيهم شيئاً ثم يدعوهم ليشربوا كأساً. لا أحد أرقى وأبسط من ميمي (Mémé). تراه يرفض إلقاء السلام على دوقة من الدوقات لأنه لا يعتبرها دوقة كما يجب، ويغدق العطاء لخادم حقير. عندها قلت: يا «بازين» قل لهم شيئاً. أما زوجي الذي لا يتمتع بروح ابتكارية متطورة... - شكراً يا أوريان، قال الدوق دون أن يكفّ عن قراءة مقالتي التي غاص فيها - فقد استدعى أحد الفلاحين وطرح عليه نفس السؤال الذي طرحه على أخيه: «وأنت من أين؟ - إنني من لوم (Laumes). أنت من لوم، إذن أنا أميرك». عندها نظر الفلاح إلى وجه «بازين» الأمرد وأجابه: «ليس هذا صحيحاً. إنك إنكليزي». وهكذا كانت تستشف من أقاصيص الدوق الألقاب الطنانة، ومن بينها لقب «دوق لوم» التي كانت تبرز في مكانها الحقيقي وفي حالتها القديمة ولونها المحلي، كما كان الناس يلاحظون وفي بعض كتب الساعات [الرهبانية]، في خضمّ الجمهور آنذاك، سهمَ كاتدرائية «بورج» (Bourges)(*).

(*) تعتبر كاتدرائية سانت اتيين في مدينة بورج الفرنسية من أهم الصروح الغوطية وبنيت ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، ومن روائع الكاتدرائية سهمها الرئيسي الشاهق. (المترجم).

وأتى أحد الخدم بمجموعة من الأوراق. «لا أعرف ماذا دهاها، لا أعرفها، أدين لك بذلك، يا بازين. ومع ذلك فإن هذا النوع من العلاقات لم يناسبك، يا صديقي المسكين». ثم التفتُّ إلى جيلبيرت وأردفتُ: «لا أستطيع أن أشرح لك من هي، إنك لا تعرفينها بالتأكيد، اسمها الليدي روفوس إسرائيل (Rufus Israël)». فتضرجت وجنتا جيلبيرت وقالت: «إنني لا أعرفها (والأنكى من ذلك أن الليدي «إسرائيل» كانت، قبل موت «سوان» بسنتين، قد تصالحت معه وكانت تنادي «جيلبيرت» باسمها الأول)، ولكنني أعلم تماماً، عن طريق الآخرين أنها الشخص الذي تعنينه».

علمتُ أن فتاة سألت، إما عن خبث وإما عن غباء، عن اسم أبيها، لا بالتبني وإنما الاسم الحقيقي، وبسبب اضطرابها ولتحريف ما كان عليها أن تقول، فقد لفظت اسم «زفان» (Svann) بدلاً من سوان (Souann)، ولاحظتُ لاحقاً أن هذا التبديل في الأحرف انتقاصي، إذ صار الاسم ذو الأصل الإنكليزي اسماً ألمانياً. لا بل أضافت بصورة سلبية كي تصلح الأمور: «تقال حول ولادتي أشياء متباينة جداً، ويتعيّن عليّ أن أنساها كلها». إذا خجلت «جيلبيرت» جداً في بعض الأوقات، وعند تفكيرها في أهلها (وحتى مدام سوان كانت بمثابة أم صالحة وكانتها فعلاً)، فمن هذه الطريقة في النظر إلى الحياة؛ يجب أن يفكر المرء ولسوء الحظ أن عناصر تفكيره مقتبسة من أهله، لأن الإنسان لا يصنع نفسه من العدم. وانضافت إلى مجمل الأنانية الموجودة عند الأم أنانية مختلفة تعود إلى عائلة الأب، وهذا لا يعني دائماً أن الأنانيتين قد جُمعتا حسابياً أو أنهما استُخدمتا فقط بصيغة الجمع، ولكنهما خلقتا أنانية جديدة أقوى إلى ما لا نهاية ومخيفة. ومنذ أن أنشئ العالم، ومنذ أن وجدت عائلات شابها نفس العيب وإنما بتسمية أخرى (وهذا يخلق لدى الطفل تنويعاً كبيراً ومقيتاً)، قد تكتسب الأنانيات المتراكمة (إن اقتصرنا هنا على الأنانية فحسب) قد تكتسب قوة هائلة تستطيع أن تدمّر العالم بأسره، إن لم يُلجَم الشرّ بقيود طبيعية قادرة

على تحجيمه، وهي قيود تشبه تلك التي تحول دون التكاثر اللامحدود للنقاعيّات كي لا تدمر كوكبنا، والتي تمنع إخصاب النباتات الوحيدة الشق من تقويض مملكة النبات، الخ. ومن حين إلى آخر نرى فضيلة من الفضائل تأتي لتؤلف مع هذه الأنانية قوة جديدة وغير مغرضة. إن المُرَكَّبات التي تثبت بها الكيمياء الأخلاقية العناصرَ المخيفة وتجعلها غير ضارة هي كثيرة، ومن شأنها أن تمنح تاريخ العائلات تنويعاً مذهلاً. وتتعايش مع هذه الأنانيات المتراكمة هذه الفضيلة الجميلة أو تلك عند الوالدين، وهذا ما حصل لـ«جيلبيرت»؛ لقد أتت في لحظة ما لتكون بمثابة فاصل مسرحي ولتمثل دورها المؤثر بصراحة تامة. ولم تتجاوز «جيلبيرت» التلميح بأنها قد تكون البنت الطبيعية لأحد الكبار، ولكنها بعامة كانت تخفي أصولها. وربما كان الإفصاح عن ذلك يزعجها، فكانت تفضل أن يأتي الاطلاع على ذلك من الآخرين. وربما كانت تظن أنها تخفيها فعلاً (مع العلم أن هذا الظن غير اليقيني ليس الشك، لأنه لا يترك مجالاً لما يتمناه الإنسان)، ويعطي الكاتب «موسيه» (Musset) مثالاً على ذلك عندما تكلم عن الأمل بالله(*).

وأردفت «جيلبيرت»: «إنني لا أعرفها شخصياً». عندما سمّت نفسها الآنسة «دو فورشفيل»، هل كانت تأمل منا أن ننسى أنها ابنة «سوان»؟ واحتراماً لبعض الأشخاص ربما، فإنها كانت تأمل أن تصبح مع الزمن الناس كلهم تقريباً. ولم يكن عندها أوهام كثيرة حول عددهم الحالي، وكانت تعرف على الأرجح أن كثيراً من الناس يهمسون: «إنها ابنة سوان». ولم تكن تعلم ذلك إلا بذلك العلم نفسه الذي يكلمنا عن أشخاص يقتلون أنفسهم من البؤس بينما نحن نذهب إلى الحفلات

(*) لقد كتب «ألفريد دو موسيه» (١٨١٠-١٨٥٧) كتاباً عنوانه: «**الأمل بالله**» (١٨٣٨) عبّر عن قلقه وأمله بوجود الله. ولا يُذكر هذا الكتاب كثيراً في أعماله، لأنه يتعارض نوعاً ما مع خط «موسيه» العام. (المترجم).

الراقصة، أي بذلك العلم البعيد والغامض الذي لا نصرّ على استبداله بمعرفة أدق ناجمة عن انطباع مباشر. وبما أن البعد يجعل لنا الأشياء أكبر حجماً وأكثر اشتباهاً وأقل خطراً، فإن «جيلبيرت» كانت تفضل الابتعاد عن أولئك الأشخاص الذين قد يكتشفون أنها ولدت في عائلة «سوان». في غضون تلك السنوات كانت «جيلبيرت» تنتمي، وما زالت، إلى معشر الناس الأكثر انتشاراً، أي ذاك الذي يخفي رأسه كالنعام على أمل، ألا يراها الآخرون - مع أنها تعلم بأن ذلك قليل الاحتمال - وهذا شيء عظيم لهم ويخولهم فرصة تسليم أمورهم للحظ، في نهاية المطاف. وبما أنها كانت تداني الأشخاص الذين يقرأون جرائدهم، كانت تفضل أن تسميها الجرائدُ الآنسةَ «دو فورشفيل». صحيح أنها في الكتابات التي هي مسؤولة عنها، أي رسائلها، حضّرت خلال فترة معينة لتلك النقلة فكانت توقع ج.س. فورشفيل (G.S. Forcheville). وكان النفاق الحقيقي في هذا التوقيع يتجلى في إلغاء باقي الحروف في اسمي «سوان» و«جيلبيرت». فبتقليص الآنسة «دو فورشفيل» اسمها الأول البريء، واختزاله بحرف G، فإنها نوّهت لدى أصدقائها بأن نفس البتر الذي طُبّق على اسم «سوان»، لم يكن إلا من باب الاختصار. لا بل كانت تعطي أهمية خاصة لحرف الـ S بتطويل ذنبها بحيث تشطب حرف الـ G، ولكن المرء كان يشعر بأن ذلك الذنب مؤقت وآيل للزوال، شأنه شأن الذنب الطويل لدى القرد والذي زال عند الإنسان.

ومع هذا، فقد كان في حذلقتها شيء ذكي من فضول «سوان». أتذكّر أنها في عصر ذلك اليوم سألت «مدام دو غيرمانت » إذا ما عرفت السيد «دي لو» (du Lau)، فقالت لها الدوقة إنه مريض ولا يخرج من بيته، فأضافت «جيلبيرت»التي احمر وجهها قليلاً أنها سمعت الناس يتكلمون كثيراً عنه. (أجل، لقد كان المركيز «دي لو» أحد الأصدقاء الحميمين لـ«سوان» قبل زواج هذا الأخير، وربما لمحته «جيلبيرت» في فترة لم تكن تهتمّ فيها بهذا المجتمع). فسألت: «هل يستطيع السيد دو

بريوتيه (de Bréauté) أو الأمير «داغريجانت» (d'Agrigente) أن يزودني بمعلومات أكثر؟»، فصاحت «مدام دو غيرمانت» «كلا، قطعاً»، وكانت شديدة الحساسية لتلك الفروق الريفية فتعطي صوراً مقتضبة عنها تلوّنها بصوتها الذهبي الأجش وتذبّل عينيها البنفسجيتين. «كلا، قطعاً. لقد كان دي لو من أشراف بيريغور Périgord، ورجلاً لطيفاً يمارس جميع الطرق الجميلة ويرفع الكلفة بسرعة على طريقة أهل الريف. في «غيرمانت» عندما كان يأتي ملك إنكلترا الذي ارتبط بصداقة متينة مع «دي لو» ليصطاد كانت تقام له عصرونية بعد الصيد، واعتاد «دي لو» في تلك الساعة أن يخلع نعليه ويلبس جوارب سميكة من الصوف. نعم لم يكن وجود الملك إدوار وجميع الأرشيدوقات يزعجه إطلاقاً، فكان ينزل إلى صالون غيرمانت الفسيح بجواربه الصوفية. ذلك أنه كان يعتبر نفسه المركيز «دي لو دالمان» (d'Allemans) ولا يتحرّج بشيء بسبب ملك إنكلترا. هو وصنوه «دو بريتوي» (de Breteuil) كانا الشخصين الذين كنت أحبهما أكثر. وكانا صديقين كبيرين لـ. . . (وكادت تقول: لأبيك، ولكنها قطمت الكلمة). كلا، هذا لا علاقة له بـ. . .«غري. . . غري» ولا بـ«بريوتيه».لقد كان السيد الأكبر الحقيقي «للبيريغور». وأيضاً نجد أن ميمي (Mémé) يستشهد بصفحة كتبها «سان سيمون» عن أحد مركيزات «دالمان». هذا هو بالذات. وقال في الكلمات الأولى التي وصفه فيها: «كان السيد دالمان رجلاً قوياً فريداً وسط طبقة من النبلاء في البيريغور ووسط عائلته، وبمكانته استحق أن يكون حكماً عاماً يلجأ إليه الجميع بسبب نزاهته واقتداره، ودماثته، ولكونه ديكاً من ديوك الريف. .» فقالت «مدام دو غيرمانت»: في هذا بعض الحقيقة، لا سيما وأن دي لو كان وجهه دائماً أحمر كالديك». فقالت جيلبيرت: نعم، أتذكر أنني سمعت بهذا الوصف»، ولم تضف أنها سمعت ذلك من أبيها الذي كان من المعجبين الكبار بـ«سان سيمون».

وكانت تحب أيضاً أن تتكلم عن أمير «أغريجانت» وعن السيد «دو

بريوتيه»، ولكن لسبب آخر، فقد ورث أمير «أغريجانت» هذا اللقب عن آل «أراغون» (Aragon)، ولكن إقطاعيتهم كانت في منطقة الـ«بواتو» (Poitou). أما قصره، وعلى الأقل القصر الذي يقيم فيه، فلم يكن قصر عائلته بل قصراً للزوج الأول لأمه وكان يتوسط المسافة بين «مارتانفيل» (Martinville) و«الغيرمانت». وكانت «جيلبيرت» تتكلم عنه وعن السيد «دو بريوتيه» كجارين ريفيين يذكرانها بريفها سابقاً. مادياً كان في كلامها شيء من الكذب لأنها فقط في باريس، وعن طريق الكونتيسة «موليه» (Molé)، قد عرفت السيد «دو بريوتيه» الذي كان صديقاً قديماً لأبيها. أما حبها التكلم عن ضواحي «تانسونفيل» (Tansonville) فقد يكون صادقاً. في نظر بعض الناس، يتطابق التحذلق مع تلك المشروبات اللذيذة التي يمزجون فيها مواد نافعة. كانت «جيلبيرت» تهتم بهذه المرأة الأنيقة أو تلك لأنها تملك كتباً عملاقة أو لوحات رسمها «ناتييه» (Nattiers)(*)، ولم تذهب صديقتي القديمة بدون شك إلى المكتبة الوطنية وإلى متحف اللوفر لمشاهدتها، وأتصور - رغم القرب الكبير - أن التأثير الجاذب لـ«تانسونفيل» لم تنجح «جيلبيرت» في ممارسته كفاية على السيدة «سازيرا» (Sazerat) أو على السيدة «غوبيل» (Goupil)، وإنما بخاصة على السيد «داغريجانت». وقالت «مدام دو غيرمانت»: «آه، ياباپال ويا غري غري يا لكما من مسكينين! فهما أكثر مرضاً من دي لو، أخشى أن يموت كلاهما قريباً».

عندما انتهى السيد «دو غيرمانت» من قرءاة مقالتي، وجّه لي تهانئ ملتبسة. فقد أسف للشكل المصطنع لهذا الأسلوب الذي نجد فيه «التفخيم والاستعارات التي تعتور نثر شاتوبريان الذي أكل الدهر عليه وشرب»؛ ولكنه هنأني دون تحفظ لأنني «أشغل نفسي بشيء» فقال: «أحب الإنسان

(*) جان مارك ناتييه (١٦٨٥-١٧٦٦) رسام فرنسي اختص في رسم اللوحات الأسطورية، وأصبح رساماً للملكة ولبناتها. (المترجم).

الذي يعمل شيئاً بأصابعه العشرة؛ لا أحب الناس غير المفيدين، الذين هم دائماً إما من المهمين وإما من المهتاجين. يا للفصيلة الغبية!».

وصرّحت «جيلبيرت» التي صارت تقلّد تصرفات المجتمع الراقي بسرعة قصوى، كم أنها ستكون فخورة عندما تقول إنها صديقة لأحد الأدباء. «برأيك ما هو الأفضل أن أقول: لقد سررت بمعرفتك، أو تشرفت بمعرفتك؟». «ألا تريد أن تأتي معنا غداً إلى مسرح الأوبرا كوميك؟» قالت لي الدوقة، وفكرتُ أننا على الأرجح سنكون في نفس المغطس الذي رأيتها فيه للمرة الأولى وبدت لي وقتها عصيّة المنال كمملكة النيريبيدات(*) القابعات في قاع البحر. فأجبت بصوت حزين: «كلا، لا أذهب إلى المسرح، لقد فقدتُ صديقة كنت أحبها كثيراً». وكدت أبكي وأنا أقول ذلك، مع أنني سررت لأول مرة أتحدث فيها عن الموضوع. ومنذئذ بدأت أكتب للجميع عن حزني العميق، وكففت عن الشعور به.

عندما انصرفت «جيلبيرت» قالت لي «مدام دو غيرمانت»: «أرى أنك لم تفهم إشاراتي، كنت أريد ألا تتكلم عن سوان». فاعتذرت، فقالت: «أفهمك تماماً؛ كدت أسميه أنا، استدركت نفسي في آخر لحظة، هذا مريع، لحسن الحظ أنني توقفتُ في الوقت المناسب. تَعْلم يا بازان أن هذا مربك جداً». وتوجهت إلى زوجها لتخفف قليلاً من خطأي وتظاهرتْ بالاعتقاد أنني رضختُ لمنحى عام يتبعه الجميع ومن الصعب مقاومته. فأجاب الدوق: «ماذا أستطيع أن أفعل. ما عليكِ إلا أن تأمري بإعادة اللوحتين إلى الطابق العلوي، لأنهما يذكرانك بسوان. إذا لم تفكري بسوان، فلن تتكلمي عنه».

(*) في الأساطير اليونانية كانت النيريدات - وعددهن خمسون - من إلاهات اليمّ. ويعبّر اسم كل واحدة منهن عن صفة من صفات البحر. وتصوّرهن اليونانيون كالحوريات الجميلات والمرحات. (المترجم).

وفي اليوم التالي استلمتُ رسالتَي تهنئة أدهشتاني كثيراً، الأولى من السيدة «غوبيل» (Goupil)، وهي سيدة من «كومبريه» لم أرها منذ سنوات عديدة، وحتى في «كومبريه» لم أتكلم معها أكثر من ثلاث مرات. وسلمها أحدُ مكاتب القراءة جريدةَ **الفيغارو**. وهكذا عندما يحدث لك شيء مُدَوّ في الحياة، تأتينا الأخبار من أشخاص بعيدين جداً عن دائرة علاقاتنا وذكراهم قديمة جداً لأنهم يبدون على مسافة بعيدة، لا سيما في مجال العمق. وهناك صداقة مدرسية منسيّة تستذكرونها في عشرين مناسبة، فتكون مؤشراً للحياة لا يخلو من السلوى. فـ«بلوك Bloch» مثلاً الذي تقتُ كثيراً إلى سماع رأيه حول مقالتي، لم يكتب لي. صحيح أنه قرأ هذه المقالة واعترف لي بذلك فيما بعد، ولكن بوقع عكسي. أجل إنه كتب بعد بضع سنوات مقالة في **الفيغارو** وأراد فوراً أن يُعْلمني بها. ولأنه ظن أنه حظي بامتياز، فإن غيرته قد دفعته إلى تجاهل مقالتي السابقة، وككبّاس ارتفع بعد أن ضُغِطَ كلمني عن مقالتي وكان مشتاقاً أن يسمع رأيي في مقالته فقال: «عرفت أنك أنت أيضاً كتبت مقالة. ولكنني لم أر مناسباً أن أكلمك عنها خشية أن أزعجك، إذ ينبغي على المرء ألا يكلم أصدقاءه عن أشياء مهينة تحدث لهم. وبالطبع من المشين أن يكتب المرء في جريدة من الجرائد عن السيف ومرشة الماء المقدس، وعن شاي الساعة الخامسة، دون أن ينسى جرن الماء المقدس». كان طبعه قد بقي على حاله، ولكن أسلوبه قد أصبح أقل تحذلقاً؛ ويحدث هذا لبعض الكتّاب الذين يهملون تصنّعهم وينقطعون عن كتابة القصائد الرمزية وينتقلون إلى كتابة الروايات المسلسلة.

ولكي أعزّي نفسي عن صمته، قرأت مرة ثانية رسالة السيدة «غوبيل»؛ ولكنها كانت رسالة دون حرارة، لأن الأرستقراطية إذا استعملت بعض العبارات البديهية، فبين كلمة «سيدي» في البداية و«العواطف الصادقة» في النهاية، قد تبزغ صرخات فرح وإعجاب كما تبزغ الأزهار والحشائش فيفوح أريجها فوق تلك البديهيات. ولكن التصنّع البورجوازي يشد داخلَ

الحروف إلى شبكة من العبارات مثل «نجاحكم المستحق جداً» أو كحد أعظم «نجاحكم الجميل». فتظن بنات الحمى المخلصات للتربية التي تلقينها والمتحفظات في هندامهن أنهن يفضن بالبؤس أو بالحماس إذا كتبن «أفكر فيكم». أما عبارة «أمي تنضم إليّ» (Mère se joint à moi) فهي الحد الأقصى الذي نادراً ما نتمتع به. وتلقيت رسالة أخرى غير رسالة السيدة «غوبيل»، ولكن اسم «سانيلون» (Sanilon) كان مجهولاً لدي. وكان خط الرسالة شعبياً ولغتها لطيفة. فانزعجت لعدم تمكني من اكتشاف مرسلها إليّ.

وبعد يومين سررت في الصباح لإعجاب «بيرغوت» (Bergotte) الشديد بمقالتي التي لم يقرأها من دون حسد. ولكن فرحي بعد برهة تلاشى؛ ذلك أن «بيرغوت» لم يكتب كلمة واحدة. فتساءلت فقط إن كان قد أحب هذه المقالة، وخشيت أن يكون الجواب بالنفي. وعندما طرحت على نفسي هذا السؤال، أجابتني الآنسة «دو فورشفيل» أنه أعجب بها غاية العجب، ووجد أنها كتبت بقلم كاتب كبير. ولكنها قالت لي ذلك بينما كنت نائماً: إنه حلم. جميع الناس تقريباً يجيبون عن الأسئلة التي نطرحها بتأكيدات معقّدة وتنطبق على شخصيات كثيرة، ولكن دون أن يكون لها مستقبل.

في ما يتعلق بالآنسة «دو فورشفيل»، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير فيها بشيء من الأسى. ماذا؟ هي ابنة «سوان» التي أحبَّ أن يراها تتردد على عائلة الـ«غيرمانت»، ولكن هذه العائلة رفضت أن تستقبل ابنة صديقها الكبير، ثمّ بحثت فجأة عنها، ومر الزمن الذي يجدد ويعطي شخصية أخرى، كما يقال عنها، لأولئك الأشخاص الذين لم نرهم منذ أمد طويل، منذ أن جدّدنا نحن إهابنا واتخذنا عادات أخرى. وكان «سوان» يقول لهذه البنت أحياناً، وهو يضمّها إلى صدره ويقبّلها: «جميل يا عزيزتي أن تكون لي بنت مثلك؛ عندما أموت، إذا تكلّموا أيضاً عن أبيك المسكين بعد موته، فقد فعلوا ذلك معك فقط وبسببك»؛ ولأن

«سوان» كان يأمل بخوف وقلق أن يبقى على قيد الحياة بعد أن يموت، فقد كان مخطئاً، كما يخطئ المصرفي العجوز الذي يقول لنفسه، بعد أن كتب وصية لراقصة صغيرة كان يعيلها وذات سلوك حسن، إنه لم يكن لها إلا صديقاً كبيراً، ولكنها ستبقى وفيّة لذكراه. كان سلوكها محتشماً مع أنها من تحت مائدة الطعام كانت تمرّر رجلها على أجسام أصدقاء المصرفي العجوز الذين يعجبونها وتفعل ذلك بمنتهى السرية وبمظاهر خارجية ممتازة. ستلبس ثياب الحداد على الرجل الرائع، وبعد إحساسها بأن الجو خلا لها راحت تستفيد لا من السيولة المالية فحسب بل من أراضيه وأملاكه والسيارات التي تركها، وألغت في كل مكان اسم المالك القديم الذي كان يخجلها بعض الخجل، ولم تربط التمتع بالعطاء بأي ندم على الواهب. ليس أوهام الحب الأبوي أقل من أوهام المحبوب؛ فكثير من الفتيات لا يعتبرن آباءهن إلا كمسنّين تركوا لهن ثرواتهم. فعوض أن يكون وجود «جيلبيرت» في الصالون مناسبة للتكلم أحياناً عن أبيها، كان عائقاً لفهم أولئك الفتيات النادرات جداً اللواتي قد يفعلن ذلك. أما حول الكلمات التي تفوّه بها هذا الأب والأشياء التي وهبها، فإنهن اعتدن عدم ذكر اسمه؛ والبنت التي كانت تود تجديد ذكراه وتخليدها، هرعت للاستفادة مما فعله الموت والنسيان.

ولم تمارس «جيلبيرت» عملية النسيان إزاء «سوان» فقط، بل عجّلت عندي عملية نسيان ألبيرتين. وبفعل الرغبة، ومن ثمّ بفعل الرغبة في السعادة التي أثارتها «جيلبيرت» عندي خلال بضع ساعات ظننتها فيها شخصاً آخر، صدرت عني بعض الآلام والمشاغل الحزينة التي كانت قبل ذلك بقليل تهجس في بالي، وجذبت معها كتلة من الذكريات الهشة التي تفتتت منذ أمد طويل ربما والتي تتعلق بألبيرتين. فإذا أسهمت الذكريات العديدة المرتبطة بها في حافظتي على التأسف لموتها، بالمقابل فإن التأسف نفسه كان قد ثبّت الذكريات. وهكذا فإن التشتّت المستمر في النسيان الذي تكوّن يوماً بعد يوم بشكل خفي هو الذي غيّر حالتي النفسية

فجأة، وخلق لدي انطباعاً أحسست به للمرة الأولى في ذلك اليوم، انطباعاً بالفراغ وزوال جزء عظيم من تداعيات الأفكار عندي. وقد ينتاب هذا الانطباع رجلاً انفجر أحد شرايينه الدماغية التالفة منذ أمد فزال وانشلّ قسم كبير من ذاكرته. لم أعد أحب ألبيرتين. إن بعض الأيام بخاصة، عندما يغيّر الطقس عاطفتنا ويوقفها، نعيد صلتنا بالواقع، فشعرت بحزن شديد عندما فكرتُ فيها. لقد عانيتُ من حب لم يعد له وجود. وهكذا فإن مبتوري الأعضاء في بعض تغيّرات الطقس يحسّون بألم في الساق التي فقدوها.

إن زوال ألمي وكل ما جلبه لي هذا الألم، تركني منقوصاً، كالشفاء من مرض كان يمثل مكاناً أساسياً في حياتنا. وقد يكون السبب في ذلك أن الذكريات لا تبقى دائماً حقيقية لأن الحب ليس خالداً، ولأن الحياة مصنوعة من تجدد الخلايا المستمر. ولكن هذا التجدد في الذكريات يتعرّض مع ذلك للتأخير بسبب الانتباه الذي يوقف ويثبت لبرهةٍ ما يجب أن يتغير. وبما أن الحزن يشبه الرغبة في النساء، وأن المرء يكبر وهو يفكر فيهما، فإن الانهماك فيهما يجعل المرء أكثر سهولة، شأنه في ذلك شأن العفّة والنسيان.

وكردّة فعل أخرى (لا سيّما وأن الترفيه - أو الرغبة في الآنسة «دو بورشفيل» - هو الذي جعل النسيان فجأة يصبح واقعاً ملموساً)، يبقى أن الزمن هو الذي يقود تدريجياً إلى النسيان، ذلك أن النسيان يغيّر مقولة الزمن تغييراً عميقاً. فهناك أخطاء بصرية في الزمان كما في المكان. أن تبقى فيّ هشاشة العمل القديمة، وأن أعوّض الزمن الضائع، وأن أغيّر نمط الحياة، أو بالأحرى أن أبدأ في العيش، خلق لديّ وهماً: وهو أنني ما زلت شاباً. بيد أن ذكرى جميع الأحداث التي تتالت في حياتي - وتلك التي تتالت في قلبي، لأن الإنسان عندما يتغيّر يميل إلى الاعتقاد بأنه عاش حياة أطول -، وخلال الأشهر الأخيرة من حياة ألبيرتين، جعلتني أراها أطول من سنة بكاملها. والآن فإن هذا النسيان الذي طوى أشياء كثيرة،

هذا النسيان الذي فصلني بمجموعة من الفراغات عن أحداث وقعت مؤخراً وتراءت لي قديمة، لأنني حصلت على الوقت الكافي لنسيانها، هذا النسيان بتحريفه وتفتيته وعدم انتظامه في ذاكرتي - كأنه ضباب كثيف فوق الأوقيانوس، يلغي النقاط العلّامة للأشياء - هو الذي كان يخرّب ويقطع إحساسي بالمسافات الزمنية المقلّصة تارة والممطوطة طوراً، وهو الذي كان يُشعرني أحياناً بأنني نأيت وأحياناً أخرى بأنني اقتربت من الأشياء أكثر مما أنا في الواقع. في الفضاءات الجديدة الممتدة أمامي والتي لم أقطعها، بما أن آثار حبي لألبيرتين زالت واندثرت في الأوقات الضائعة التي اجتزتها مؤخراً، كما زالت آثار حبي لجدتي - لأنها تمّت في فترات متعاقبة أدى الفاصل الزمني بينها إلى خلخلتها وتباعدها - فبدت لي حياتي مفتقرة إلى دعم أناي الخاص المتماثل والمستمر، كما بدت لي عديمة الفائدة الآن وفي المستقبل، وبدا لي الموت كانه وضع لها حداً هنا أو هناك، دون أن يقضي عليها نهائياً. وكانت تشبه تلك الدروس التي تعطى عن تاريخ فرنسا والذي يتفنن الأساتذة ببراعتهم وتسهم البرامج ببلاغتها في إنهاء فتراتها، فيقولون تارة إنها ثورة ١٨٣٠ وطوراً ثورة ١٨٤٨ وتارة أخرى خاتمة الإمبراطورية الثانية.

قد يكون التعب والحزن اللذان شعرت بهما ناجمين قليلاً عن أنني أحببت سدى ما نسيته الآن، وناجمين بخاصة عن أنني بدأت أستعذب نفسي مع أحياء جدد، وبشر من المجتمع الراقي، وأصدقاء لعائلة الـ«غيرمانت» فقط، وهم قليلو الأهمية بحد ذاتهم. وربما واسيت نفسي فلاحظت بيسر أن التي أحببتها لم تكن بعد مدة إلا ذكرى شاحبة وأنني وجدت في دخيلتي ذلك النشاط الباطل الذي يدفعنا إلى زركشة حياتنا بناميّات بشرية نشيطة ولكنها طفيلية فتصبح العدمَ عندما تموت هذه الناميات، كما تصبح غريبة عن كل ما عرفناه، ولكن شيخوختنا الثرثارة والكئيبة والمغندرة تتوق إليها. وظهر فيّ الإنسان الجديد الذي يطيق بيسر أن يعيش بدون ألبيرتين، لأنني استطعت أن أتحدث عنها في بيت مدام «دو

غيرمانت» بكلمات متأسية ودون ألم عميق. وقد أرعبتني دائماً تلك الأنوات الجديدة عندما ظهرت، الأنوات التي يتعين عليها أن تتخذ اسماً غير الاسم الأول، لأنها لم تبالِ بما أحببت. وحول «جيلبيرت» كان أبوها يقول لي: إن سافرتُ لأعيش في أوقيانيا فلن أعود؛ ومؤخراً قرأت في مذكرات أحد الكتّاب التافهين أنه انفصل شاباً عن زوجته التي كان يعبدها، وروى أنه عندما شاخ كان يراها دون متعة ودون الرغبة في رؤيتها ثانية. على العكس فإن هذه الحالة قد جلبت لي، إلى جانب النسيان إلغاء شبه كامل للألم، وقدّمت لي إمكانية عيش رغيد لذلك الشخص المرهوب الجانب والمحسن والذي لم يكن سوى تلك الأنوات البديلة التي يحافظ القدر لنا عليها ويبدّلها لنا عنوة فيتدخل بحق في الأنا الكليمة، كما يفعل الطبيب النبيه والسلطوي الذي لا يصغي لتوسلاتنا. وينجز القدر هذا التبديل من وقت لآخر، كما يحدث للنسج الجسمية التالفة التي تتجدد؛ ولكننا لا ننتبه لتبدلها إلا إذا آلمتنا النسج القديمة، وإذا شعرنا أن جسمنا صار غريباً وجريحاً واندهشنا من أنه أصبح جسماً آخر لم يعد ألم الجسم الأول إلا ألم جسم آخر نتكلم عنه بإشفاق لأننا لا نشعر به. وسيّان بالنسبة لنا أن نكون قد عرفنا مثل تلك الآلام، لأننا لا نتذكر إلا بغموض أننا قاسيناها. وكذلك من الممكن أن تكون كوابيسنا في الليل مرعبة. ولكننا بعد الاستيقاظ نكون شخصاً آخر لا يبالي بذاك الذي كان في نومه يجري أمام القتلة.

لا شك أن هذه الأنا حافظت على بعض الصلة بالأنا القديمة؛ إنها كصديق لا يبالي بمأتم، ومع ذلك يتكلم مع الحاضرين بنبرة الحزن المناسبة ويعود من وقت لآخر ليرى الأرمل الذي كلّفه بتقبل التعازي عنه والذي ما زال نشيجه مسموعاً. وكنت أنشج عندما عدت لأصبح ولو للحظة صديق ألبيرتين القديم. ولكنني كنت أتوق لأصير بكاملي شخصاً جديداً. لا لأن الآخرين قد ماتوا، يضعف حبنا لهم، بل لأننا نموت نحن أيضاً. لم تلم ألبيرتين صديقها على شيء. والتي اغتصبت هذه الصفة لم

تكن إلا وارثتها. لا يستطيع الإنسان أن يكون مخلصاً إلا لما يتذكره، ولا يتذكر إلا ما يعرفه. أثناء نمو أناي الجديدة في ظل الأنا القديمة، لاحظتها تتحدث غالباً عن ألبيرتين؛ وعبر هذه الأنا، ومن خلال القصص التي جَمَعَتها عنها، كانت تظن أنها تعرفها؛ وكانت تستلطفها وتحبها؛ ولكن تلك العاطفة لم تكن سوى عاطفة ثانوية.

ثمة شخص آخر نسي بالأحرى ألبيرتين بسرعة في تلك الفترة، وساعدني بالتالي على عملية النسيان هذه (وشكلت ذكرى المرحلة الثانية قبل النسيان النهائي)، وهي «أندريه». لا أستطيع فعلاً أن أنسى السبب الوحيد لنسياني ألبيرتين، لا بل السبب الرئيسي، أو على الأقل السبب الملزم والضروري، وهو حديث لـ«أندريه» معي جرى ستة أشهر تقريباً بعد الحديث الذي أوردته واختلف جداً عما قالته لي في المرة الأولى. أتذكّر أن الحديث جرى في غرفتي، لأنني في ذلك الوقت كنت أحظى بنصف علاقة جنسية معها، بسبب النزعة الجماعية التي عرفها حبي واستأنفها الآن مع فتيات المجموعة الصغيرة التي لم تنفرط حبات مسبحتها لمدة طويلة؛ وحصل ذلك في لحظة ارتبطتْ بشخص ألبيرتين، وتم في الأشهر الأخيرة التي سبقت وأعقبت موتها.

كنا في غرفتي لسبب آخر يخولني أن أحدد تماماً حيثيات ذلك الحديث. فقد طُردتُ من باقي الشقة، لأن ذلك اليوم كان مخصصاً لأمي التي ترددت في الذهاب إلى بيت السيدة «سازيرا». وبما أن السيدة «سازيرا» في «كومبريه» كانت بارعة في دعوة أناس مملين، قررت أمي، التي كانت متأكدة من أنها لن تتسلى، أن تعود مبكرة لأنها لن تخسر أية متعة. فعادت إلى البيت في الوقت المناسب ودون ندم؛ ذلك أن السيدة «سازيرا» لم تدعُ إلا أشخاصاً ثقيلي الدم تجمِّد الدمَ في عروقهم نبرةُ صوتها التي كانت تستعملها عندما تستقبل، وهذا ما كانت أمي تطلق عليه «صوتها يوم الأربعاء». وبمعزل عن ذلك، كانت أمي تودها، وترثي لحالها بسبب قلة حظها - وهو ما نجم عن طيب أبيها مع الدوقة دي فلان

- وهو حظ عاثر كان يلزمها لأن تمضي السنة بكاملها تقريباً في «كومبريه»، ما عدا بضعة أسابيع تقضيها عند ابنة عمها في باريس وفي «رحلة استجمام» تقوم بها كل عشرة أعوام.

أتذكر أن أمي في عشية ذلك اليوم، وبإلحاح مني استمر أشهراً بحالها، ولأن أميرة «بارم» (Parme) كانت تطالب دائماً بذلك - هي التي لم تكن تقوم بزيارات واعتاد الناس أن يسجلوا أسماءهم لزيارتها - أصرت على أن تأتي أمي لرؤيتها، نظراً لأن المراسم كانت تحول دون مجيئها إلى بيتنا. وعادت أمي منزعجة جداً وقالت لي: «لقد خدعتني دون أن تدري، بالكاد قالت لي أميرة «بارم» صباح الخير، لقد اهتمت بالسيدات اللواتي كانت تتحدث معهن دون أن تهتم بي، ولأنها لم تكلمني غادرت بعد عشر دقائق ودون أن تصافحني كنت منزعجة للغاية، وأثناء انصرافي التقيت أمام الباب دوقة «الغيرمانت» التي كلمتني كثيراً عنك. يا للفكرة الغريبة التي خطرتْ على بالكَ عندما كلّمتَها عن ألبيرتين! لقد أخبرتني أنك قلت لها إن موتها سبَّب لك حزناً هائلاً. (صحيح أنني قلت ذلك للدوقة ولكنني لم أتذكره ولم أؤكد عليه، ولكن الأشخاص الطائشين جداً ينتبهون في الغالب لكلمات تطلق على عواهنها، ونظنها طبيعية جداً، وتثير فضولهم بعمق). ولكنني لن أعود قط إلى بيت أميرة بارم. لقد دَفَعَتْني إلى ارتكاب حماقة».

وفي اليوم التالي، وهو يوم أمي، أتت «أندريه» لتراني. وكانت مستعجلة لأنها ستذهب للعشاء مع «جيزيل» التي كانت متعلقة بها. فقالت لي: «إنني أعرف عيوبها، ولكنها مع ذلك أفضل صديقة لدي وهي الشخص الذي أوده للغاية». لا بل ارتعبتْ من أن أطلب منها أن أتعشى معهما. لقد كانت مغرمة بالناس، وإذا منعها شخص مثلي يعرفها جيداً من الاستسلام، فإنه يمنعها من التمتع بشكل كامل.

صحيح أنني لم أكن موجوداً عندما أتت. وكانت تنتظرني، وعندما لمحتُها مررت في الصالون لأذهب وأراها ولكنني سمعت صوتاً ينبئ بزيارة

أخرى لي. فهرعت للقاء «أندريه» التي كانت في غرفتي، دون أن أعلم من هو الشخص الآخر، إذ أُدخِلَ إلى غرفة أخرى؛ فأرخيت أذني للحظة أمام باب الصالون، لأن الزائر لم يكن وحده إذ كان يتكلم مع امرأة فدمدم قائلاً: «آه يا عزيزتي، إنه في قلبي!» مستشهداً بأبيات لـ أرمان سيلفستر (Armand Silvesre). «نعم ستبقين دائماً عزيزة عليَّ بالرغم من كل ما فعلتِهِ بي»:

«يرقد الموتى بسلام في باطن الأرض.
وهكذا ينبغي أن ترقد عواطفنا المطفأة.
لذخائر القلب هذه غبارها؛
علينا ألا نمس بأيدينا رفاتهم المقدسة»

هذا شيء أكل الدهر عليه وشرب، ولكنه جميل! هذا هو أيضاً ما كنت أود أن أقوله لك منذ اليوم الأول:

«أيضاً ستُبكينهن، أيتها الطفلة الجميلة المحبوبة..»

كيف، ألا تعرفين ذلك؟

«... جميع هؤلاء الأطفال، رجال المستقبل،
الذين يعلّقون أحلامَهم الشابة
بأهداب عينيك الصافيتين المغناجين»

آه! كنت أظن أنني أستطيع أن أخاطب نفسي لحظةً:

«في المساء الأول الذي أتى فيه إلى هنا
لم أعد أعبأ بالأَنَفة
أيضاً قلت له: ستحبني
أطول ما استطعت
لم أكن أنام قرير العين إلا بين ذراعيه».

ولفضولي، كان عليَّ أن أؤخر للحظة زيارة «أندريه» السريعة، وأردت أن أعرف على أي نوع من النساء كان ينصبّ هذا السيل من الأبيات، ففتحت الباب. كان يلقيها السيد «دو شارلوس» على جندي عرفته بسرعة

وهو «موريل» (Morel) الذي سيذهب للخدمة. لم يكن من ثم على وفاق مع السيد «دو شارلوس»، ولكنه كان يراه أحياناً ليطلب منه خدمة. وكانت للسيد «دو شارلوس» الذي يعطي الحب بالعادة شكلاً أكثر ذكورة، صبواتُه. في طفولتي، كي أتمكن من فهم قصائد الشعراء وتذوقها، اضطررت لاعتبارها موجهة لا لغادة خائنة وإنما لأحد الفِتيان. فتركتهما على جناح السرعة، مع أنني شعرت بأن زياراتي بصحبة «موريل» كان يرتاح لها السيد «دو شارلوس» ارتياحاً كبيراً، إذ كان للحظة يتوهم أنه يتزوج مرة ثانية. وكان يجمع في شخصه تحذلقَ الملكات وتحذلقَ الخدم.

صارت ذكرى ألبيرتين عندي مبعثرة بحيث إنها كفّت عن إثارة حزني، فلم تعد سوى انتقال إلى رغبات جديدة، كأنها توافقُ آلاتٍ موسيقية يهدف إلى تغييرات في النغم. لا بل إنني، بعد أن استبعدت كل تفكير في نزوة شهوية عابرة لأنني ما زلت مخلصاً لذكرى ألبيرتين، كنت أكثر سعادة لقربي من «أندريه» مما مع ألبيرتين لو عثرتُ عليها بمعجزة. ذلك أن «أندريه» كانت تستطيع أن تقول لي أشياء جمّة عن ألبيرتين عجزت هذه عن قولها. ما زالت المشاكل المتعلقة بألبيرتين راسخة في ذهني، في حين أن عاطفتي نحوها، الحسية والمعنوية على السواء، قد تلاشت. وصارت رغبتي في التعرّف على حياتها، رغبتي التي لم تفتر، أكبر من حاجتي إلى تواجدها. إلى ذلك، أصبحت إمكانية وجود علاقات إحدى النساء بألبيرتين تدفعني إلى الرغبة في إقامة علاقة مع هذه المرأة. هذا ما قلته لـ«أندريه» وأنا أداعبها. ودون أن تحاول التوفيق بين ما قالته الآن وما تفوهت به منذ بضعة أشهر، قالت لي «أندريه» وهي تبتسم بتحفظ: «نعم، ولكنك أنت رجل. ولا نستطيع أيضاً أن نمارس معاً وتماماً الأشياء نفسها التي كنت أمارسها مع ألبيرتين». فإما أنها ظنت أن هذا يضاعف رغبتي (وعلى أمل أن تبوح قلت لها في الماضي إنني أحب أن تكون لي علاقات مع امرأة أقامت علاقة مع ألبيرتين)، أو أنه يضاعف حزني أو قد يهدم عندي شعوراً بالتفوق فتظن أنني الوحيد الذي أقام علاقات مع ألبيرتين.

«نعم لقد أمضينا معاً ساعات جميلة، لقد كانت تحب المداعبة كثيراً وكانت متيّمة. ولم تكن تتمتع معي وحدي. فقد التقت في بيت مدام «فيردوران» بشاب وسيم اسمه «موريل»، فتفاهما فوراً -واستأذنها بأن يستمتع هو أيضاً، إذ كان يحب الفتيات الغريرات، وما إن كان يضعهن على طريق السوء حتى يتركهن - وكان يعشق أن تعجب به صيّادات يصطدن في شاطئ بعيد، كما كان يهتم بالغسّالات الصغيرات اللواتي كن يتعلقن بالشبان دون الفتيات. وما إن كان يسيطر على الفتاة الصغيرة، حتى يأتي بها إلى مكان آمن جداً حيث يسلمها لألبيرتين. ولئلا تخسر الفتاة الصغيرة «موريل» الذي كان يهتم بالباقي، كانت تذعن دائماً؛ ومع ذلك فإنها كانت تخسره؛ ولخوفه من النتائج، ولاكتفائه بالممارسة مرة أو مرتين، كان يختفي بعد تركه عنواناً خاطئاً. ولقد تجرأ ذات مرة هو وألبيرتين إلى أخذ إحداهن إلى بيت للنساء في «كوليفيل» (Couliville) فمارس معها أربعة أو خمسة أشخاص معاً أو بالتالي. وكان هو وألبيرتين مولعين بذلك. بيد أن ألبيرتين شعرت بعدئذ بتأنيب الضمير الممضّ. وأظن أنها عندك قد لَجَمتْ هواها وأرجأت الاستسلام له يوماً بعد يوم. ثم إن صداقتها لك كانت على درجة من الكبر بحيث صارت فريسة للوساوس. ولكنها بكل تأكيد إن تركتك ستعود إلى سابق عهدها. وأظن أنها إن استسلمت لهذه الرغبة الجائرة ستصاب بتأنيب أكبر للضمير. لقد كانت تأمل منك أن تنقذها وتتزوجها. وفي الواقع كانت تشعر بأن ذلك شكل من أشكال الجنون الإجرامي، وتساءلت كثيراً إن كان هذا الأمر يؤدي إلى انتحار ما في العائلة وإن كانت هي قد قتلت نفسها. ويجب أن أعترف أنها في بداية إقامتها لم تتخلَّ تماماً عن عبثها معي. ويبدو أنها في بعض الأيام كانت تحتاج إلى ذلك، ولو مرة واحدة، مع العلم أن ذلك أسهل لها في الخارج، ولم تتردد في توديعي بعد أن أجلستني قربها في بيتك. ولكن لم يحالفنا الحظ، وكاد أمرنا ينكشف. لقد استفادت من ذهاب «فرانسواز» لشراء إحدى الحاجات، ومن غيابك. فأطفأت الأنوار

كلها بحيث تضيّع أنت قليلاً من الوقت أثناء فتحك الباب بمفتاحك وأثناء بحثك عن زر الكهرباء، وأغلقت باب غرفتها. وسمعناك تصعد، فلم يسعني إلا أن أرتب هندامي وأنزل. ولكن تسرعي كان دون طائل، لأنك، وعلى سبيل الصدفة العجيبة، نسيتَ مفتاحك واضطررتَ أن تقرع الجرس. ومع ذلك طار صوابنا، ولإخفاء حرجنا خطرت على بالنا الفكرة ذاتها، دون سابق اتفاق، وهي التظاهر بالخوف من رائحة شجيرة الليلك التي كنا مغرمتين بها، عكس ما تظاهرنا به. لقد كنت تحمل أنت غصناً طويلاً من هذه الشجيرة، مما أتاح لي الفرصة كي أشيح ناظري وأخفي حرجي. ولم يمنعني ذلك من أن أقول لك برعونة صارخة إن «فرانسواز» قد صعدت ربما وتستطيع أن تفتح لك، وقبل ذلك بثوان كذبت عليك قائلة إننا عدنا لتونا بعد النزهة وإن «فرانسواز» لم تنزل بعد وصولنا (هذا صحيح). ولكن إطفاء الضوء كان مصيبة - ظناً منا أن مفتاحك معك - لأننا خشينا أنك أثناء صعودك ستراه يُشعَل من جديد، ولأننا على الأقل ترددنا كثيراً. وبقيت ألبيرتين ثلاث ليال دون أن يغمض لها جفن لأنها خافت طويلاً من أن تخامركَ الظنون ومن أن تسأل «فرانسواز» لماذا لم تشعل الضوء قبل أن تذهب. ذلك أن ألبيرتين كانت تخشاك كثيراً، وكانت تؤكد أحياناً أنك مخادع وخبيث وأنك تمقتها في داخلك. وبعد ثلاثة أيام فهمت من هدوئك أنك لم تفكر في الاستفهام لدى «فرانسواز» عن أي شيء، فعاد إليها النوم. ولكنها كفّت عن ممارساتها معي، إما خوفاً أو تأنيباً، إذ كانت تدعي أنها تحبك كثيراً، أو تحب شخصاً آخر. وعلى كل حال لم نعد نتكلم عن الليلك أمامها دون أن يتضرج خداها ودون أن تمرر يدها نحو وجهها ظناً منها إخفاء خجلها».

كما أن هناك بعض الأفراح، هناك أيضاً بعض الأتراح، ولكنها لا تؤثر الآن فينا كما في الماضي. ومن هذه الأتراح التي نزلت عليّ إفشاء «أندريه» الرهيب. وحتى عندما يتعين على الأخبار السيئة أن تحزننا، يحدث في عبثنا وفي تجاذبنا أطراف الحديث، إنها تمرّ أمامنا دون أن

نتوقف، وأننا منشغلون بالإجابة عليها بألف طريقة وطريقة، وأننا تحولنا إلى أشخاص آخرين رغبة منا في إثارة الإعجاب لدى باقي الناس، ولأننا نحميها ولو لهنيهة من غائلة العواطف، فإن الآلام التي فارقناها لنعود إليها ولنجدها أمامنا عندما يتلاشى سحرها القصير العمر فلا نجد الوقت لاستقبالها. ومع ذلك فإن هذه العواطف وهذه الآلام مسرفة في الهيمنة، فلا نَدْخل إلا شاردي اللب إلى منطقة العالم الجديد والمؤقت حيث لا نستطيع أن نغير إهابنا، لأننا حريصون جداً على التألم. عندئذ تتواصل الكلمات فوراً مع قلبنا الذي لم يبق خارج اللعبة. ولكنّ الكلمات المتعلقة بألبيرتين فقدت منذ زمن قدرتها الضارة كالسم عندما يتبخر. وصارت المسافة متباعدة؛ وكمتجول يرى في فترة ما بعد الظهر هلالاً ضبابياً في السماء فيقول لنفسه ما هذا إلا البدر التمام، قلت لنفسي: «كيف! هذه الحقيقة التي بحثت عنها كثيراً وخشيتها كثيراً هي هذه الكلمات القليلة التي وردت في حديث ما، والتي لا نستطيع حتى التفكير فيها تماماً لأننا لسنا وحدنا! ثم إن «أندريه» أخذتني فعلاً على حين غرة، فتعبت معها كثيراً. وفعلاً تمنيت أن أكون أكثر قوة لأكرسها لحقيقة كهذه؛ فقد بقيت خارجية عليّ، ذلك أني لم أجد لها مكاناً بعدُ في قلبي. يشاء الناس أن تنكشف لنا الحقيقة عبر إشارات جديدة، وليس عبر جملة، كتلك الجمل التي طالما ردّدناها على أنفسنا. إن عادة التفكير تحول أحياناً دون الإحساس بالواقع وتحصّننا منه وتُظهره جزءاً منه أيضاً.

لا توجد فكرة إلا وتحمل في ثناياها دحضاً ممكنا لها، كما لا توجد كلمة إلا وفيها الكلمة المضادة. على كل حال، إذا صح ذلك الآن، فإن هذه الحقيقة العديمة الجدوى والمتعلقة بحياة عشيقة رحلت، هذه الحقيقة التي تنطلق من الأعماق، تَظهر في وقت لم نعد نستطيع فيه أن نفعل شيئاً. عندئذ (نفكر ربما في شخص آخر نحبه الآن وقد يحدث له شيء مشابه، إذ إننا لم نعد نعبأ بتلك التي نسيناها) نتأسف ونقول: «لو أن التي تحيا تفهم كل هذا، لأدركتْ أنها عندما تموت سأطلع على كل ما أخفته عني!»

ولكن الحلقة حلقة مفرغة. فلو تمكنتُ من أن أجعل ألبيرتين تعيش، لما كشفت لي «أندريه» شيئاً مما كشفته. وهذا هو حال العبارة الخالدة التي تقول «سترى عندما أكف عن حبك»، وهي عبارة في غاية الصحة والعبث، لأن المرء سيحصل على الكثير إن لم يعد يحب، ولكنه لن يهتم ربما بالحصول عليه. فكلا الأمرين سيّان. لأن المرأة التي نراها ثانية بعد أن زال حبّنا لها فإن قالت لك كل شيء، فهذا يعني أنها ليست هي هي وأنك لست أنت أنت، ذلك أن الشخص العاشق قد انتهى. وهنا أيضاً نرى أن الموت قد مرّ وجعل كل شيء يسيراً ودون جدوى. كانت هذه الأفكار تدور في بالي، مفترضاً أن «أندريه» صادقة - وهذا ممكن - وأنها تصدقني القول لأنها تقيم الآن علاقة معي، وعلى طريق «سانت أندريه دي شان» (Saint-André-des-Champs) الذي سلكته معي ألبيرتين في البداية. وساعدها على ذلك هنا أنها لم تعد تخشى ألبيرتين، لأن واقع الناس لا يبقى عندنا إلا فترة قصيرة بعد موتهم؛ وبعد سنوات قليلة يصبحون كآلهة الأديان المندثرة الذين نهينهم دون خوف لأننا لم نعد نؤمن بوجودهم. ولكن عدم إيمان «أندريه» بحقيقة ألبيرتين قد ساهم في أنها لم تعد تهاب اختراع أكذوبة تشي فيها لاحقاً مَن تدّعي أنها تواطأت معها (فخانت حقيقة كانت قد وعدت بعدم كشفها). وغياب التهيّب هذا هل أتاح لها أن تكشف الحقيقة أخيراً، فقالت لي ما قالت، أو أنها دبّجت أكذوبة، ظناً منها - ولسبب من الأسباب - أنني سأكون في منتهى السعادة والكبرياء، أو ربما لأنها كانت تريد تكديري؟ وقد تكون حانقة مني (وأخفت هذا الحنق عندما رأتني تعيساً لا أعرف العزاء) لأنني كنت على علاقة مع ألبيرتين، وربما أنها كانت تحسدني على امتياز لم تحصل عليه ولم تتمنَّه، ظناً منها أنني كنت أرى نفسي أحسن حالاً منها. وهكذا فإنني غالباً ما سمعتها تقول لأشخاص يتمتعون بصحة جيدة إنهم مرضى جداً، وكانت تغتاظ بخاصة من وعيهم صِحتهم الجديدة فتقول - آملة إغضابهم - إن صحتها بألف خير، وكانت لا تكف عن التصريح بذلك عندما اشتدّ عليها المرض، ولما

دنا أجلها لم تعد تبالي بأن يكون السعداء بخير وبأن يعرفوا أنها مشرفة على الموت. ربما اغتاظت مني لسبب لا أعرفه، كما فعلتْ عندما صبّت جام غضبها على شاب خبير في قضايا الرياضة، وجاهل في ما سواها، التقيناه في «بالبيك» وراح منذئذ يعيش مع «راشيل»، فراحت «أندريه» تتناوله بافتراءاتها، متمنية أن تُرفَع عليها دعوى القذف، كي تتمكن من اتهام أبيها بارتكاب أفعال معيبة لن يتمكن من إثبات خطأها. والحال أن هذا الحنق مني كان يعاودها، ولكنها كانت تكف عنه عندما تراني حزيناً جداً. صحيح أن عينيها كانتا تقدحان شرراً على هؤلاء الذين تمنّت إذلالهم وقتلهم ومحاكمتهم ولو بشهادة زور، ولكنها عندما كانت تراهم حزانى ومهانين، تكف عندئذ عن تمنّي الشر لهم وتصير مستعدة لإغداق عطاياها عليهم. فلم تكن في دخيلتها شريرة، وإذا لم تكن طبيعتها الخفية والعميقة إلى حدّ ما قائمة على اللطف الذي يظنه الناس أولاً بسبب لفتاتها الرقيقة، وإنما قائمة بالأحرى على الحسد والعجرفة، فإن طبيعتها الثالثة الحقيقية والأكثر عمقاً والتي لم تتبلور تماماً كانت تنحو إلى الطيبة وحب القريب. وككل الأشخاص الذين في وضع معين يرغبون في الشفاء ولكن دون أن يُحرموا من لوثاتهم أو من مورفينهم، وكذلك حال قلوب الرهبان أو أفكار الفنانين المتعلقة بهذا العالم والتي ترغب في العزلة ولكنها تتصورّها مع ذلك دون أي تخلٍ مطلق عن حياتهم السابقة - كانت أندريه مستعدة لأن تحبّ جميع المخلوقات، ولكن بشرط أن تنجح أولاً في ألا تتصورها منتصرة، ولهذا فإنها كانت تبدأ بإذلالها. ولم تكن تفهم أنه ينبغي أن نحب حتى المستكبرين ونقهر استكبارهم بالمحبة وليس باستكبار أعتى. ولكنها كانت كالمرضى الذين يريدون الشفاء بالطرق التي تطور المرض، فيحبّون ويكفّون فوراً عن المحبة إن تخلوا عن هذه الطرق. ومع أن المرء يريد تعلم السباحة، فإنه يترك رِجْلاً على اليابسة.

وفي ما يتعلق بالشاب الرياضي، وهو حفيد من عائلة الـ«فيردوران»، الذي التقيتُه أثناء إقامتَيّ الاثنتين في «بالبيك»، يجب القول في هذه

المناسبة، وبشيء من الاستباق، إنه وقعت، بعيد زيارة «أندريه» (وهي زيارة سأعود إليها بعد لحظات)، أحداث تركت أبلغ الأثر. أولاً، إن هذا الشاب (لتذكرْ ألبيرتين التي أحبَّها دون أن أعلم) خطب أندريه وتزوجها، ضارباً عرض الحائط يأس «راشيل» التي لم يكترث لها إطلاقاً. وكفت «أندريه» عن اعتباره شاباً بائساً (أي بعد أشهر من الزيارة التي تكلمت عنها)، ولاحظت فيما بعد أنها قالت إنه لم يكن كذا لأنها كانت متيّمة به، في حين أنها كانت تظن أنه لا يريدها. ولكن وقع حدثٌ آخر لافت. فقد مثّل هذا الشاب بعض الاسكتشات، بديكورات وأزياء خاصة به أدت في الفن المعاصر إلى ثورة تضاهي على الأقل الثورة التي أحدثتها الباليه الروسية. وبوجيز العبارة، اعتبر أساطين الحكام أعماله رئيسية، تكاد تكون أعمالاً عبقرية، وأعتقد شخصياً أن هذا الأمر صحيح وأؤيد في ذلك رأي «راشيل» السابق. وكان الناس الذين عرفوه في «بالبيك» يرون أنه يهتم فقط بطريقة تفصيل الثياب التي يلبسها الأشخاص الذين عرفهم إن كانت أنيقة أم لا، وأنه كان يُمضي كل وقته في ألعاب القمار وسباق الخيل وفي لعبتي الغولف والبولو، ويعرفون أنه كان في المدرسة تلميذاً كسولاً وأنه طرد منها (ولإزعاج أهله، فقد أمضى شهرين في ماخور كان السيد «دو شارلوس» يظن أنه سيفاجئ فيه «موريل»)، ربما ان إحدى مآثره تأتي من «أندريه» التي كانت تؤثر مجده على مجدها لحبّها له، والتي على الأرجح كان يدفع لها بعض المبالغ من ثروته الشخصية التي عانت من جنونه، ويظنون أن أحد المحترفين العبقريين والمحتاجين هو الذي ساعده على النجاح (ويظن هذا المجتمع الغني - الذي لم تصقله علاقاته بالأرستقراطية، والذي يجهل تماماً ما هو الفنان، إذ لا يرى فيه إلا ممثلاً يأتون به ليُلقي بعض المونولوغات بمناسبة خطبة ابنتهم ويعطونه صورتها سراً في أحد الصالونات المجاورة، لأن أحد الفنانين قد رسمها بعد الزواج وقبل مجيء الأولاد، ويتركون له أملاً فيها - أن أشخاص المجتمع الراقي الذي يكتبون ويؤلفون ويرسمون يكلفون غيرهم لإنجاز هذه الأعمال

ويدفعون لهم أجورهم كي يتمتعوا هم بصيت الكتّاب، أسوة بما يفعله بعض النواب للحصول على مقاعدهم). ولكن كل هذا كان خاطئاً، لأن ذلك الشاب كان المؤلف الحقيقي لأعماله الرائعة. وعندما عرفتُ ذلك، تنازعتني فرضيات شتى. فإما أنه خلال سنوات عديدة ظهر وكأنه «الغبي البليد» ولكنه تعرّض لتحولات نفسية عميقة حرّكت فيه العبقرية الغافية كما حصل لعروس الغابة، وإما لأنه في تلك الفترة من بلاغته العاصفة ومن رسوبه المتكرر في الشهادة الثانوية ومن خساراته الكبيرة في القمار عندما كان في «بالبيك» ومن خشيته ركوب الترام مع أنصار عمته «فيردوران» بسبب ثيابهم الرثة، كان عبقرياً، وربما غافلاً عن عبقريته، معرضاً عنها لطفرة أهوائه الشابة، وإما أيضاً لأنه كان إنساناً عبقرياً واعياً عبقريته، وأنه وإن كان الأخير في صفه فإنما لأنه كان يقرأ «رامبو» أو «غوته» بينما الأستاذ يقرأ بعض الترهات عن «شيشرون». صحيح أن لا شيء كان ينمّ عن هذا الاحتمال عندما التقيته في «بالبيك» حيث تمثلت لي اهتماماته مرتبطة فقط بترتيب أمور العربات وبتحضير الكوكتيلات. ولكن الاعتراض لم يكن اعتراضاً لا يُدحض. فبوسعه أن يكون مفرطاً في الادعاء، وهذا أمر لا يتنافى مع العبقرية، وأن يتألق بالطريقة المناسبة لإبهار المجتمع الراقي الذي كان يعيش فيه والذي لم يعجز عن إثبات معرفته العميقة بكتاب «**التجانسات الاصطفائية**» بل على التفاخر والتباهي. ولست متأكداً أنه عندما أصبح صاحب هذه الأعمال الرائعة والفريدة أنه أحب أن يقول، خارج المسرح، «صباح الخير» لشخص لا يرتدي السموكنغ كما يفعل المبتدئون في المهنة - مما يدل عنده على الغرور وليس على الحماقة، ومما يدل بشكل عملي على مواءمة غروره مع عقلية الحمقى الذين كان يميل لهم إذ كانوا يرون أن السموكنغ يلمع ربما أكثر من لمعان المفكرين. فمن يعرف أن رجلاً موهوباً كهذا وأن رجلاً دون موهبة ويحب الأمور الفكرية، إن نُظر إليه من الخارج، مثلي أنا، لم يترك لدى مَن صادفه في «ريفيبيل» (Rivebelle)، وفي فندق «بالبيك»، وفي سد «بالبيك»، أثراً

يقول إنه المعتوه الأكثر اكتمالاً وادعاء؟ ويرى «أوكتاف»(*) أن الأعمال الفنية يجب أن تكون حميمية وحية تتخلل تضاعيف الذات، فلم يستطع أن يتكلم عنها مثل ما فعل «سان لو» مثلاً الذي كان يعتبر أن الفنون تؤثر مثلما تؤثر العربات، ثم إنه كان مغرماً بالقمار، ويقال إنه حافظ على هذا الولع. ومع ذلك، إذا كانت التقوى التي أحيت عمل «فانتوي» قد خرجت من الوسط المعكّر لـ«مونجوفان» (Montjouvain)، فإنني لم أستنكر التفكير في أن الروائع المذهلة في عصرنا قد خرجت من المسابقات العامة ومن الثقافة الأكاديمية المثالية، كما حصل للأخوين «بروغلي» (Broglie)(**)، وإنما خرجت من وزن فرسان سباقات الخيل، كما خرجت من البارات الكبرى. على كل حال كانت الأسباب التي دفعتني في «بالبيك» إلى تعريفه على ألبيرتين وصديقاتها غريبة أيضاً على قيمته وتستطيع فقط أن تسلط الضوء على الالتباس القديم المتعلق بـ«المثقف» (المتمثل نوعياً فيّ) وبأشخاص المجتمع الراقي (المتمثلين بالشلة الصغيرة) حول شخص من هذا المجتمع الراقي (وهو لاعب الغولف الشاب). لم أكن أحس إطلاقاً بموهبته وكان تأثيره في نظري يتمثل، بالرغم من ادعائهن، في أنه صديق صديقاتي وأنه صار ينتمي إلى شلّتهن أكثر مني، شأنه في ذلك شأن مدام «بلاتان» (Blatin). من جهة أخرى كانت ألبيرتين وأندريه ترمزان في هذا إلى عجز المجتمع الراقي عن التفكير السليم في الأشياء الفكرية لنزوعهما إلى انتحال الأعذار الكاذبة، لذا فإنهما لم تبتعدا عن حيّز الحماقة لأنني تقتُ للتعرف على معتوه كهذا، ودُهشتا بخاصة لأنني، كلاعب غولف مثله، اخترت الرجل الأكثر تفاهة. أما الشاب الذي أردت الارتباط به فهو

(*) لقد نسي بروست أن يحدد من هو «أوكتاف» هذا. وعلى الأرجح هو العم أوكتاف، أحد الفنانين الذين كان يلتقي بهم بروست. (المترجم)

(**) الأخوان موريس (١٨٧٥-١٩٦٠) ولويس (١٨٩٢-١٩٨٧) دو بروغلي هما عالما فيزياء مشهوران اهتما بدراسة الطيف وأشعة أكس والميكانيك التموجي، وأسسا للفيزياء الكوانتية. نال لويس جائزة نوبل عام ١٩٢٩. (المترجم).

«جيلبير دو بيلوفر» (Gilbert de Belloeuvre)، الذي عدا الغولف كان متحدثاً وحصل على درجة عالية في المسابقة العامة وكان يقرض الشعر بتلذذ (ولكنه كان في الواقع أغبى رجل في العالم). ولو كان هدفي «كتابة بحث» أو «كتاب»، لقلت إن «غي سوموا» (Guy Saumoy) - الذي كان في غاية الجنون واختطف بنتين من المجموعة - هو على الأقل رجل طريف «قد يعجبني». لقد كان هذان معقولين، إن صح القول، أما الآخر فأية خصلة يمكن أن أجدها فيه؟ كان من النوع «الفظ الكبير»، «الفظ الغليظ».

للعودة إلى «أندريه»، بعد أن باحت لي لتوّها عن علاقتها بألبيرتين، فإنها أضافت أن السبب الرئيسي الذي دفع ألبيرتين إلى هجري هو ما قد تفكر فيه صديقاتها في الشلة الصغيرة أو النساء الأخريات وهو الإقامة في بيت شاب دون أن تكون قد تزوجته إذ قالت: «أعرف أنك تسكن عند أمك. ولكن هذا نفس الشيء. إنك لا تعرف عالم هؤلاء الفتيات وما يضمرن لبعضهن. رأيت بينهن فتيات يمارسن صرامة هائلة على الشبّان فقط لأنهم يعرفون صديقاتهن ويخشين كلام الناس؛ وحتى هؤلاء فقد شاءت الصدفة أن أراهن على حقيقتهن، دون أن يعلمن». وقبل ذلك بأشهر، بدت لي المعلومات التي تعرفها «أندريه» عن الدوافع التي كانت فتيات الشلة الصغيرات يُذعنّ لها نفيسة للغاية. ربما ما قالته كان كافياً ليشرح لي أن ألبيرتين التي استسلمت لي في باريس تمنعت عليّ في «بالبيك» لأنني كنت أرى صديقاتها باستمرار، وكنت أظن عبثاً أن ذلك كان أفضل لأكون معها على أحسن حال. وبعد أن حلت بيني وبين أندريه بعض الثقة، تهوّرتُ وقلت لها إن ألبيرتين تريد أن تنام في «الفندق الكبير»، علماً بأنها قبل ساعة كانت مستعدة لمنحي بكل بساطة بعض المتع، ولكنها غيّرت رأيها وهدّدت بقرع الجرس. بيد أنها كانت سهلة مع أناس كثيرين. وأيقظت هذه الفكرة غيرتي وقلت لأندريه إنني أريد أن أسألها شيئاً:

- «هل كنتِ تفعلين هذا في شقة جدتك التي لم تكن مسكونة؟
- لا، أبداً، لأننا ستتعرض للإزعاجات.
- كنت أظن، وكان يبدو لي أن...
- كانت ألبيرتين تحب أن تمارس هذا في الريف.
- أين؟
- في الماضي، عندما كانت تفتقر إلى الوقت للذهاب بعيداً، كنا نذهب إلى «بوت - شومون» حيث كانت تعرف بيتاً هناك، أو كنا نفعل ذلك تحت الأشجار بدون أن يرانا أحد، أو في مغارة «تريانون الصغير» أيضاً.
- كيف أستطيع أن أصدقك؟ لقد أقسمتِ لي منذ سنة أنكِ لم تفعلي شيئاً في «بوت - شومون».
- «خشيت أن أكدرك». وكما قلت، ظننت، لاحقاً جداً فقط، أن «أندريه» في يوم البوح هذا وللمرة الثانية سعت إلى تكديري. وأثناء حديثها، خطرت على بالي فوراً فكرة شعرت بالحاجة إليها، لو أنني أحببت ألبيرتين حباً جماً. ولكن حديث «أندريه» لم يكدرني إذ كان عليّ أن أعتبره حديثاً كاذباً على الفور. وعليه، إذا صحّ ما قالته «أندريه»، ولم أشك في ذلك بداية، فإن الألبيرتين الحقيقية التي كنت أكتشفها، بعد تعرفي على مظاهر مختلفة عن ألبيرتين، اختلفت قليلاً عن الفتاة الفاحشة التي بزغت أمامي في اليوم الأول فوق سدّ «بالبيك»، والتي ظهرت أمامي بأشكال متعددة، شأنها شأن تلك الصروح القائمة والمتغيرة التي تسحق وتحجب العميرة الأساسية التي كنا نشاهدها وحدها في الأفق البعيد. لقد كانت كمدينة ندنو منها، وإذا عرفناها معرفة صحيحة وقدّرناها تمام التقدير، للاحظنا أن أبعادها الحقيقية هي تلك التي حددها المنظور لأول وهلة؛ أما الباقي الذي مررنا به فليس سوى سلسلة متتالية من الخطوط الدفاعية التي يقيمها جميع الناس أمام ناظرنا، ويتعيّن علينا أن نجتازها خطاً بعد خط، ونعاني من ذلك كثيراً قبل الوصول إلى مركزها. فإن لم أحتج إلى التصديق

المطلق أن ألبيرتين بريئة، لأن ألمي قد تناقص، لاستطعت القول تناوباً إنني، إن لم أتألم كثيراً لهذا البوح، فلأنني رحت منذ مدة أؤمن بأن البراءة المختلفة لألبيرتين قد انقلبت دون أن أدري إلى إيماني بأنها مذنبة. وإن كففت عن الإيمان ببراءتها فلأنني لم أعد أحتاج وأتوق إلى تصديق ذلك. إن الرغبة هي التي تولّد التصديق؛ وإذا لم ندرك ذلك بالعادة، فلأن معظم رغباتنا الخلاقة لشتى أنواع التصديق لا تنتهي - خلافاً للرغبة التي أقنعتني أن ألبيرتين بريئة - إلا بانتهائنا نحن. إلى جانب الإثباتات التي تؤيد رأيي الأول، آثرت ببلاهة تصريحات ألبيرتين فقط. لماذا صدقتُها؟ إن الكذب عنصر رئيسي لدى البشر. فقد يلعب لديهم دوراً كبيراً يضاهي البحث عن المتعة، ويتحكم بها فعلاً هذا البحث. إن الناس يكذبون كي يحموا متعهم ومباهجهم، إذا تعارض البوح بالمتعة مع الشرف. إننا نكذب طيلة حياتنا ونكذب بخاصة، وفقط ربما، على من يحبوننا. ذلك أن هؤلاء وحدهم هم الذين يجعلوننا نخاف على متعتنا فنرغب في ودهم. ظننت أولاً أن ألبيرتين مذنبة، ولكن رغبتي وحدها التي حركت قوى ذكائي نحو الشك هي التي جعلتني أضل الطريق. قد نعيش محاطين بإشارات كهربائية وزلزالية، يترتب علينا أن نفسرها بنية حسنة كي نتعرف عليّ حقيقة الطباع. ومع أن أقوال «أندريه» أحزنتني كثيراً، إن وجب علي التصريح بذلك، إلا أنني وجدت أن ما هو أجمل من الحقيقة هو ما شعرت به في غريزتي، فتجاوز التفاؤلَ البائس الذي استسلمت له لاحقاً وبكل جبن. كنت أود أن تتماشى الحياة مع حدوسي. ولقد عرفت تلك الحدوس في أول يوم وُجدتُ فيه على الشاطئ، إذ ظننت أن هؤلاء الفتيات يجسدن جنون اللذة والرذيلة، ورأيت في مساء ذلك اليوم معلمة ألبيرتين تدخل فتاتها المغرمة إلى دارتها الصغيرة، وكانت تدفع بها كما يُدفع الحيوان المتوحش إلى قفصه دون أن نتمكن من ترويضه، بالرغم من جميع المظاهر. ألم تكن هذه الأقوال لا تتوافق مع ما قاله لي «بلوك» عندما أراني أن الأرض رائعة وأظهر لي في كل لقاء من لقاءاتنا أن الرغبة تشمل جميع البشر، فجعلني أرتجف في

نزهاتي كافة؟ ومع كل شيء ربما، كان يجدر بي ألا ألقى مرة ثانية هذه الحدوس الأولى إلا محققة كما هي الآن. وبينما كان حبي لألبيرتين لا يزال مستمراً، عذبتني هذه الحدوس وأنهكتني ففضلت ألا يبقى منها إلا أثر بسيط يتمثل في شكي المستمر في الأشياء التي لا أراها والتي مع ذلك تجاورني باستمرار، ويتمثل ربما في أثر آخر أسبق وأكبر، أي حبي نفسه. وبالرغم من إنكارات عقلي كلها، ألم يكن اختياري وحبي لها تعرفاً على ألبيرتين بكل ما يمثل هذا التعرف من بشاعة؟ وحتى في تلك اللحظات التي كان الاشتباه يضعف فيها، ألم يكن الحب استمراراً لهذا الاشتباه وتحولاً له؟ وبما أن الرغبة تتوجه عندنا دائماً نحو النقيض، فترغمنا على محبة ما يعذبنا، أليس هذا برهاناً على النجابة (وهو برهان يستعصي فهمه على العاشق)؟ وبالتأكيد تدخل في الافتتان بشخص ما، وبعينيه وفمه وقامته، تلك العناصرُ التي نجهلها والتي قد تجعلنا في غاية التعاسة بحيث يكون شعورنا بالانجذاب نحوه وببداية حبنا له أكثر براءة مما ندعي، وبحيث نقرأ جميع خياناته وأخطائه قراءة مختلفة.

إن تلك المفاتن التي - لِتَجْذبني - تمثل هكذا الأشياء الضارة والخطيرة والقاتلة لدى شخص ما، هل كانت بسمومها الغامضة ترتبط مباشرة ارتباط العلة بالمعلول أكثر من ارتباط الخصوبة المغوية والنسغ المسموم الذي يسري في عروق بعض الأزهار السامة؟ وقلت لنفسي ربما كان هذا هو عيب ألبيرتين نفسه، وهو العيب الذي سبب آلامي العتيدة، وهو العيب الذي أثار عند ألبيرتين تلك التصرفات الجميلة والصريحة التي تعطي انطباعاً بأن الألفة الصادقة والكاملة معها هي كالألفة مع رجل. إنه عيب يوازي ذلك العيب الذي أثار عند السيد «دو شارلوس» رهافة أنثوية في المشاعر والأفكار. وفي قمة العمى الكامل، تحافظ البصيرة على شكل الاصطفاء والعاطفة، بحيث يخطئ من يتكلم في الحب عن الاختيار السيّئ، إذ، عندما يكون هناك اختيار، لا يمكنه إلا أن يكون سيئاً. فقلت لأندريه:

- «عندما أتيت إلى البيت تبحثين عنها، هل كنتما تقومان بجولات في بوت شومون؟

- كلا، وذلك منذ أن عادت ألبيرتين معك من بالبيك، إلا ما قلته لك، إنها لم تفعل معي شيئاً بعد ذلك. لا بل إنها لم تعد تسمح لي بأن أكلّمها عن هذه الأشياء.

- ولكن، يا صغيرتي أندريه، لماذا ما زلت تكذبين؟ لم أكن أسعى إلى معرفة أي شيء، ولكنني عن طريق الصدفة المحضة عرفت كثيراً من التفاصيل عما كانت ألبيرتين تفعله قرب الماء مع إحدى الغسالات، قبل أن تموت بأيام فقط، وأستطيع أن أؤكد لك ذلك.

- ربما بعد أن تركتك، لا أعرف بالضبط. لقد شعرتْ بأنها لم تستطع ولن تستطيع قط أن تعيد إليك الثقة بها».

لقد كدرتني كلماتها الأخيرة هذه، ثم فكرت في غصن الليلك في ذلك المساء، وتذكرت أنني بعدها بخمسة عشر يوماً - وكانت غيرتي قد توجهت عندئذ نحو شخص آخر - سألت ألبيرتين إن أقامت علاقة مع «أندريه»، فأجابتني: «لم يحصل هذا قط، صحيح أنني أعبد أندريه وأنني أكنّ لها عاطفة عميقة، ولكنها كأختي، حتى ولو ظننت أنني أميل إلى هذه الأشياء. إنها آخر شخص أفكر فيه حول هذا الموضوع، وأستطيع أن أقسم لك بكل ما تريده، بعمتي وبقبر أمي المسكينة». فصدقتها مع أنني لم أسترب من التناقض بين اعترافاتها السابقة المجزوءة وبين الأشياء التي أنكرَتْها لاحقاً، ما إن رأت أنني لست حيادياً تجاه ذلك؛ وكان عليَّ أن أتذكر «سوان» واقتناعه بصداقات السيد «دو شارلوس» الأفلاطونية وتأكيده لي مساء ذلك اليوم الذي رأيت فيه صانع الصداري والبارون في باحة بيته. كان عليَّ أن أدرك وجود عالمين متناظرين، عالم يضم الأشياء التي يعلِن عنها الفضلاء والصادقون، وعالم يقبع خلف الأول ويضم الآثار التي خلفها هؤلاء وراءهم.. فعندما تتكلم امرأة عن شاب وتقول لك: «صحيح أنني أكنّ له صداقة هائلة، ولكنها صداقة بريئة جداً وطاهرة جداً، وأستطيع

أن أقسم بحياة والديّ رحمهما الله»، يتعين علينا، بدل أن نتردد أن نقسم أنها خرجت لتوها من الحمام الذي كانت تهرع إليه بعد كل موعد مع ذلك الشاب، كي لا تحمل منه. كان غصن الليلك يحزنني حتى الموت، طالما أن ألبيرتين صدقتني وقالت عني إنني مخاتل وأمقتها. أما أكاذيبها غير المتوقعة فصعب على عقلي أن يستوعبها. ذات يوم قالت لي إنها كانت في معسكر للطيران وإن الطيار صديقها (وقالت ذلك على الأرجح كي تحرف ظنوني بالنساء، ظناً منها أنني أقل غيرة بالنسبة للرجال)؛ وكان من الطريف أن أرى انشداه «أندريه» أمام ذلك الطيار وأمام أشكال التكريم والتبجيل اللذين يبديهما لألبيرتين، بحيث إن «أندريه» أرادت أن تعمل معه نزهة بالطائرة. والحال أن هذه القصة قد اختُلقت بكاملها، لأن «أندريه» لم تذهب قط إلى معسكر للطيران، إلخ...

عندما انصرفت «أندريه»، حان وقت العشاء فقالت لي أمي: «لن تخمن قط من زارتني لأكثر من ثلاث ساعات. قلت ثلاث ساعات، ومن الممكن أكثر. لقد وصلت تقريباً في الوقت الذي وصلت فيه الزائرة الأولى وهي السيدة «كوتار» (Cottard). ورأت أكثر من ثلاثين سيدة زرنني يدخلن ثم يغادرن، وهي جالسة دون أن تتحرك، ولم تغادرني إلا منذ ربع ساعة. لو لم تكن صديقتك أندريه معك، لناديتك.

- بالله عليك، من هي.

- شخص لا يزور قط.

- أميرة بارم؟

- بالطبع، لدي ابن أذكى مما ظننت. لم أتمتع بجعلك تبحث عن اسم من الأسماء، لأنك تجده فوراً.

- ألم تعتذر عن برودها أمس؟

- كلا، من الحماقة أن تعتذر، زيارتها كانت هذا الاعتذار؛ ولوجدته جدتك المسكينة مناسباً هكذا. يبدو أنها حوالي الساعة الثانية سألت أحد

خدم البيت إن كان عندي يوم للاستقبال. فأجابها بأنه اليوم، فصعدت».
ولم أجرؤ أن أكشف لأمي فكرتي الأولى، وهي أن أميرة «بارم» التي كانت محاطة أمس بأشخاص لامعين ووثيقي الصلة بها وتحب التحدث إليهم، عندما رأت أمي تدخل لم تحاول أن تخفي مشاعرها. وفي ذلك كانت تشبه تماماً النساء الألمانيات الكبيرات اللواتي يعوضن - كما نظن - عن كبريائهن باللطف الزائد. وظنت أمي، وظننت مثلها لاحقاً، أن أميرة «بارم» لم تعرفها بكل بساطة، وظننت بالتالي أنها ليست ملزمة بالاهتمام بها، وأنها بعد مغادرة أمي عرفت من هي، إما عن طريق دوقة «غيرمانت» التي التقت بها أمي في الطابق الأرضي، وإما عن طريق لائحة الزائرات اللواتي كان الحراس يسألونهن عن أسمائهن ويكتبونها في أحد السجلات. لم تجد من اللائق أن ترسل أحداً ليقول لأمي: «لم أعرفك» أو أن تقول ذلك هي. ولكن ما كان ينطبق بعض الشيء على أدب البلاطات الألمانية وعلى تصرفات الـ«غيرمانت»، حسب رأيي، هو التفكير في أن الزيارة - وهذا شيء استثنائي من طرف جلالتها - الزيارة التي دامت عدة ساعات ستقدم لأمي بشكل لا مباشر ومقنع تماماً، ذلك التفسير، وهذا ما حصل فعلاً.

بيد أنني لم أتوقف طويلاً عندما طلبت من أمي أن تروي لي أحداث زيارة الأميرة، إذ تذكرت عدداً من الوقائع الخاصة بأليبرتين كنت قد نسيتُها وأردت أن أسأل «أندريه» عنها. كم كانت زهيدة الأشياء التي أعرفها عن أليبرتين، وكم كانت مقتضبة تلك القصة عنها التي يمكنني أن أطّلع عليها والتي تهمني على وجه الخصوص، أو على الأقل التي يعاودني الاهتمام بها في بعض الأحيان. الإنسان هو كائن يستطيع في بضع ثوان أن يقلّص عمره سنوات عديدة، كائن يسبح بين جدران الزمن الذي عاش فيه، كأنه في حوض ماء يختلف مستواه باستمراره فيجعله أحياناً على هذا المستوى وأحياناً على ذلك. كتبت لـ«أندريه» أن تعود. فلم تتمكن من ذلك إلا بعد أسبوع. وقلت لها في بداية زيارتها تقريباً:

- «أخيراً، وبما أنك تدّعين أن ألبيرتين لم تعد تمارس هذا النوع من الأشياء عندما كانت تعيش هنا؛ في رأيك، هل تركتني لتمارسها بحرية أكبر، ولكن مع أية صديقة؟

- بالتأكيد كلا، ليس لهذا قطعاً.

- إذن لأنني كنت كريهاً جداً؟

- كلا، لا أعتقد ذلك. أظن أنها أُجبرت على تركك من أجل عمتها التي اختارت لها، كما تعلم، ذلك الشاب الوغد الذي أسميته أنت «أنا في حقل الملفوف»، ذلك الشاب الذي أحب ألبيرتين وطلب يدها. ولما رأى ذووها أنك لم تتزوجها خافوا من أن يحول استمرار بقائها الفاضح عندك دون أن يتزوجها ذلك الشاب. ولأن الشاب لم يكف عن التأثير في مدام «بونتان» فإنها استدعت ألبيرتين. في المحصلة كانت ألبيرتين تحتاج إلى عمها وعمتها، وعندما علمت أن الصفقة صارت مضمونة، غادرتك.»

بسبب غيرتي لم يخطر على بالي إطلاقاً هذا التفسير، فكرت فقط في شهوات ألبيرتين للنساء وفي رقابتي عليها، ونسيت أن مدام «بونتان» موجودة وأنها تستطيع أن تجد ما صدم أمي في البداية أمراً غريباً. وكانت مدام «بونتان» تخشى على الأقل ألا يصدم وضع ألبيرتين هذا الخطيب المحتمل، إذ كانت تحتفظ به كإجاصة لتروي من العطش، إن لم أقدم على الزواج من ألبيرتين. أما هذه - خلافاً لما كانت تظنه أم أندريه، فقد وجدت ضالتها في هذا الوسط البورجوازي. وعندما سعت لترى مدام «فيردوران»، وعندما كلمتها سراً، وعندما استشاطت هذه السيدة غضباً من أنني ذهبت للسهر دون إعلام ألبيرتين بذلك، وجدت أن الأحبولة التي يحيكانها لا تهدف إلى تعريف ألبيرتين بالآنسة «فانتوي» وإنما بترتيب لقاء مع حفيدها الذي كان يحب ألبيرتين. وكانت مدام «فيردوران» راضية عن بعض الزيجات التي تفاجئ عدداً من العائلات والتي لا تتماشى مع العقلية السائدة، لذا فإنها لم تصر على زواج ثري. والحال أنني لم أفكر مجدداً بذلك الحفيد الذي ربما أخرج ألبيرتين من عباطتها وبفضله أقدمت هي

على تقبيلي أولاً. وكان عليّ أن أجد بديلاً لمخطط هواجس ألبيرتين الذي وضعتُه أنا، أو كان عليّ أن أرفده بمخطط آخر قد لا يستبعد المخطط الأول، إذ إن ميلها نحو النساء لا يمنعها من الزواج. هل كان هذا الزواج هو السبب الفعلي لرحيل ألبيرتين؟ ألأنها كانت تحب نفسها وتتظاهر بأنها غير تابعة لعمتها، ألأنها لم تجبرني على الزواج منها، أبت أن تصرح لي بذلك؟ بدأت أتبين أن نظام الأسباب العديدة العائدة لفعل معين، والذي كان ينطبق على علاقات ألبيرتين بصديقاتها فتجعل كل واحدة منهن تظن أنها أتت من أجلها، لم يكن سوى رمز مصطنع ومقصود للوجوه المتعددة الذي يأخذها الفعل بناء على الزاوية التي ننظر منها إليه. لقد عجبت وخجلت من أنني لم أتساءل مرة واحدة عن كون ألبيرتين عندي هو وضع خاطئ قد يزعج عمتها؛ ولن تكون المرة الأولى ولا الأخيرة التي ينتابني فيها هذا العجب. وبعد أن حاولت فهم العلاقات القائمة بين شخصين والأزمات التي تؤدي إليها، كم مرة حصل وسمعت فجأة شخصاً ثالثاً يحدثني عن وجهة نظره هو، لأن علاقته بهذين الشخصين قوية؛ وقد تكون وجهة النظر هذه هي سبب الأزمة. فإذا بقيت الأفعال غير أكيدة على هذا النحو، فكيف لا يكون الأشخاص كذلك؟ إذا أصغينا للناس الذين يدعون أن ألبيرتين هي مخادعة أرادت الزواج من هذا أو ذاك، ولصعبَ علينا أن نفترض كيف نظروا إلى حياتها عندي. ومع ذلك أرى أنها كانت ضحية، وضحية لم تكن بريئة تماماً، وبالتالي مذنبة لأسباب أخرى، وذلك بسبب رذائلها التي لم تذكرها إطلاقاً.

ولكن يجب على المرء أن يقول لنفسه ما يلي: من جهة غالباً ما يكون الكذب سمة في الطباع؛ ومن جهة أخرى يكون، عند النساء اللواتي بدون ذلك يُعتَبرن غير كاذبات، دفاعاً طبيعياً وعفوياً ينتظم تدريجياً ليتصدى لذلك الخطر المفاجئ والقادر على تدمير كل حياة، ألا وهو الحب. أضف إلى ذلك أن الأشخاص المثقفين والحسّاسين يستسلمون دائماً - لا عن طريق الصدفة - لنساء أدنى منهم ويفتقرن إلى المشاعر؛ ومع ذلك

نراهم يتعلقون بهن، إلى أن يتبين لهم أن هؤلاء النساء لا يحببنهم ومع ذلك يبقون غير مستعدين للتضحية بهن. إذا قلت إن هؤلاء الرجال يحتاجون إلى أن يتألموا، فأنا مصيب، إذ ألغي الحقائق الأولية التي تجعل الحاجة إلى الألم - وهي غير إرادية إلى حد ما - نتيجة معقولة جداً لهذه الحقائق. أضف إلى ذلك أن الطبائع الكاملة نادرة، إذ إن الشخص المثقف جداً والحسّاس يفتقر بالعادة إلى الإرادة فيصبح ألعوبة العادة والخوف الفجائي من الألم، ويقدس الأوجاع الدائمة، لذا فإنه يكتفي بالنزر اليسير من الحب، ولكن يجدر بنا أن نتصور الألم الذي يسببه له الحب الذي يشعر به. ويتعين علينا ألا نرثي كثيراً لحال هذا الألم، لأن هجران الحبيبة أو موتها هما صدمتان هائلتان من صدمات الحب التعس، كأنهما نوبتان من نوبات الشلل التي تصعقنا في البداية، ولكن العضلات تعاود بعدها مرونتَها وحيويتها. إلى هذا، ليس هذا الألم دون تعويض. فهؤلاء الأشخاص المثقفون والحساسون قلما يميلون إلى الكذب. ويعتريهم الكذب على حين غرة؛ فعلى ذكائهم المفرط نراهم يعيشون في عالم الممكنات، وقلما تكون لهم ردود أفعال، ويستمرئون الألم الذي أنزلته بهم إحدى النساء بدل أن يدركوا بوضوح مراميها وأفعالها والأشياء التي تحبها؛ ولا يتأتى هذا الإدراك إلا للطبائع الحازمة التي تتدارك المستقبل بدل أن تبكي الماضي. فنرى أن هؤلاء الأشخاص يشعرون بأنهم مخدوعون دون أن يدروا كيف. ومن هنا فإن المرأة الوضيعة التي تتعجب من حبهم لها تثير عالمهم أكثر من المرأة الذكية. فخلف كل كلمة من كلماتها يشعرون بالكذب، وخلف كل بيت قالت إنها ذهبت إليه هناك بيت آخر، وخلف كل فعل هناك فعل آخر، وخلف كل شخص هناك شخص آخر. وعلى الأرجح إنهم يجهلون كل هذا، ويفتقرون إلى الحيوية وربما إلى إمكانية التوصل إلى معرفة ذلك. فالمرأة الكذابة تستطيع بحركة بسيطة جداً أن تخدع حشداً من الأشخاص، دون أن تكلف نفسها العناء لتبديل أحبولتها، فهي قادرة على أن تخدع الشخص نفسه عدة مرات، ويفترض

فيه أن يكتشف ذلك. وكل هذا يخلق، للمثقف الحساس، عالماً موغلاً في العمق تحاول غيرته سبرَه ويستمرئه ذكاؤه.

ودون أن أكون تحديداً من هؤلاء سيتسنى لي ربما - بعد أن ماتت ألبيرتين - أن أكتشف سرّ حياتها. ولكن هذه التلصصات التي لا تتم إلا بعد أن تنتهي حياة هذا الشخص الأرضية، ألا تُثبت أن لا أحد في المحصلة يؤمن بوجود حياة أخرى؟ إذا كانت هذه التلصصات حقيقية، يتعيّن علينا أن نخشى انتقام الشخص الذي نكشف أفعاله، عندما نلتقي به في السماء، مع العلم أننا كنّا نهاب ذلك أثناء حياته، وأننا كنا نعتقد أنفسنا ملزمين بإخفاء سرّه. وإذا تبيّن أن هذه التلصصات كاذبة ومختلفة، لأن ضحيتها رحلت دون تكذيبها، يجب علينا أن نخشى ونرتاع من غضب الميتة، إن كنا نؤمن بالسماء. ولكن لا أحد يؤمن بها.

وهكذا قد اعتملت مأساة كبرى في قلب ألبيرتين التي كانت تراوح بين البقاء عندي أو هجري، وقد هجرتني ربما بسبب عمتها أو بسبب ذلك الشاب، وليس بسبب نساء لم تفكر ربما فيهن إطلاقاً. والأنكى بالنسبة لي كانت «أندريه» التي لم يبق عندها شيء تخفيه عليّ من تصرفات ألبيرتين الأخلاقية، وأقسمت لي أنه لم يحدث شيء من هذا بين ألبيرتين من جهة والآنسة «فانتوي» وصديقتها من جهة أخرى (كانت ألبيرتين تجهل ميولها الشخصية عندما تعرفتْ عليهما؛ أما هما فكانتا - بسبب الخوف من ارتكاب الخطأ بالاتجاه المنشود، مما يخلق أغلاطاً تعادل الرغبة نفسها - تعتبرانها معادية جداً لهذه الأشياء. وربما اكتشفتا لاحقاً تطابق ميولهن، ولأنهما كانتا تعرفان ألبيرتين معرفة زائدة، ولأن ألبيرتين كانت تعرفهما كذلك، فيصعب أن تكونا قد فكرتا بممارسة هذه الميول معاً).

وفي المحصلة ما زلت لا أفهم لماذا تركتني ألبيرتين. إذا صعب على العينين أن تدركا صورة المرأة لأنهما لا تستطيعان التحديق في هذا الحيز المتحرك كله وفي الشفتين، فما بالك بالذاكرة التي تبدلها الغيوم حسب وضعها الاجتماعي وحسب ارتفاع الموقع الذي نكون فيه، وما بالك أيضاً

بالسحاب الكثيف المسدل الذي يفصل بين الأفعال التي نراها منها وبين دوافعها! إن الدوافع تكون على مستوى أعمق لا نراه، وتخلق أفعالاً تختلف عن الأفعال التي نعرفها وتتناقض معها تناقضاً مطلقاً. ففي كل عصر نجد مسؤولاً سياسياً ظنّه أصدقاؤه مسربلاً بالقداسة، ثم اكتشفوا بعدئذ أنه زيّف العملة وسرق الدولة وخان بلاده. ويحدث كل سنة أن يسرق محاسب سيده من النبلاء، مع العلم أن هذا الأخير ربّاه وأقسم أنه رجل طيب، وربما هو كذلك. والحال أن هذا الستار المسدل على دوافع الآخرين، كم هو عصيّ على الاختراق، إذا كنا نحب هذا الشخص! فالحب يعتّم قدرتنا على المحاكمة، كما يحجب أفعال تلك المرأة التي تشعر بأنها محبوبة فتكفّ فجأة عن الاكتراث للأشياء الخاصة بها، كالثروة مثلاً. وقد يدفعنا إلى التظاهر جزئياً بأننا نزدري الثروة على أمل أننا بتعذيبنا الآخرين ننال أكثر. وقد تختلط المساومة بأشياء أخرى؛ وحتى الأحداث الإيجابية في حياتها، ولنقل دسيسة لم تَبُحْ بها لأحد خوفاً من أن تنكشف لنا - وربما علم بها الكثيرون لو تاقوا لمعرفتها مثلنا، ولكنهم حافظوا على حرية أكبر في التفكير وأثاروا لدى المرأة المعنية أقل قدر من الشكوك - وهي دسيسة لم يجهلها بعضهم، مع العلم أننا لا نعرفهم ولا نستطيع أن نعرف أين هم. ومن بين الأسباب التي تجعل الموقف بيننا عصيّاً على الشرح، لا بد من إدراج هذه الطباع الخاصة التي تدفع الإنسان - إنْ إهمالاً لمصلحته وإنْ حقداً وإنْ حباً بالحرية، وإنْ لانفجارات غضبية مفاجئة وإن خوفاً مما يفكر فيه بعض الناس - إلى أن يتصرف على عكس ما نظن. وهناك أيضاً اختلافات البيئة والتربية، وهي اختلافات لا نريد تصديقها؛ وعندما نتحدث في ما بيننا نحن الاثنين نلغيها من كلماتنا، ولكننا نجدها عندما نكون بمفردنا، فنوجّه تصرفات كل واحد منا توجهاً معاكساً بحيث ينتفي كل لقاء حقيقي ممكن.

«ولكنك يا عزيزتي الصغيرة أندريه ما زلت تكذبين. تذكري (وأنت بُحتِ لي بذلك عندما خابرتك بالهاتف أمس، أتذكرين؟) أن ألبيرتين تاقت

وأخفت الأمر عني كأنني يجب أن أجهله، ألِتَحْضر صباحية الـ«الفيردوران» التي كان المفترض أن تأتي إليها الآنسة «فانتوي».

- نعم، ولكن ألبيرتين كانت تجهل تماماً أن الآنسة فانتوي ستأتي إليها.

- كيف ذلك؟ لقد قلتِ لي إنها قبل ذلك بأيام قد قابلت السيدة فيردوران. فمن غير المجدي يا أندريه، أن يخدع أحدنا الآخر. لقد وجدتُ ذات صباح في غرفة ألبيرتين كلمة من السيدة فيردوران تحثها فيها لحضور تلك الصباحية».

وأريتها تلك الكلمة التي حرصت «فرانسواز» على وضعها فوق أشياء ألبيرتين قبل مغادرتها لي بأيام؛ وخشيت من أن «فرانسواز»، بإبراز الورقة على هذا الشكل، كانت تريد دفع ألبيرتين إلى الظن أنني فتشت أغراضها، أو أنها على الأقل كانت تريد إعلامها بأنني رأيت تلك الورقة. وكثيراً ما تساءلتُ، إنْ كانت حيلة «فرانسواز» هذه سبباً وجيهاً لرحيل ألبيرتين التي أدركت أنها لم تعد تقوى على إخفاء أي شيء عني، وشعرتْ بأنها محبطة ومهزومة. وأريتها الورقة:

- «لا أشعر بأي تأنيب للضمير لأن مشاعري العائلية الحميمة تشفع فيّ»

- «تعلمين تمام العلم يا أندريه أن ألبيرتين قالت دائماً إن صديقة الآنسة فانتوي هي بالنسبة لها أم وأخت(*).

- ولكنكَ أسأت فهم هذه الورقة. فالشخص الذي كانت مدام «فيردوران» تريد أن تلتقي به ألبيرتين، لم تكن إطلاقاً صديقة الآنسة فانتوي وإنما الخطيب «أنا في حقل الملفوف»؛ أما المشاعر العائلية فهي تلك التي كانت مدام «فيردوران» تكنّها لهذا الخسيس الذي هو ابن أخيها. ومع ذلك

(*) إن نص بروست مبتور، وورد في المخطوط «إنني أريد إنقاذك من الرجل الغيور». ولكن بروست شطب هذه الجملة. (المترجم).

أعتقد أن «ألبيرتين» عرفت من ثم أن الآنسة «فانتوي» ستحضر، لأن السيدة «فيردوران» قد أعلمتها بذلك عرَضاً. لا شك أن فكرة رؤيتها صديقتَها أبهجتها وذكّرتها بماض جميل، ولكن كم تكون مسروراً إذا ما ذهبت إلى مكان ما وعلمت أن «إيلستير» فيه، ولكنك لم تعلم أكثر من ذلك. كلا، إن لم تقل لك ألبيرتين لماذا أرادت الذهاب إلى بيت السيدة «فيردوران»، فلأن حفلة موسيقية كانت تحضّر عندها ولم تَدْعُ إلى حضورها إلا عدداً قليلاً جداً من الناس، ومن بينهم ابن أخيها الذي التقيت به في «بالبيك» والذي كانت تريد تزويجه من ألبيرتين التي أزمعت التحدث إليه؛ لقد كان شاباً سافلاً. وأضافت أندريه أن لا حاجة إلى مزيد من الإيضاحات، إن الله يعلم كم كنت أحبّ «ألبيرتين»، تلك الفتاة الطيبة، وأحببتها بخاصة منذ أن أصيبت بحمى التيفوئيد (وذلك قبل تعرّفكَ علينا جميعاً بسنة)، لقد كانت دماغاً مشتعلاً. وفجأة تقززتْ مما كانت تفعله، وتغيرت بسرعة خاطفة، ولم تعرف هي نفسها لماذا؟ ذات يوم وصلتها برقية تستدعيها إلى باريس، وبالكاد استطعنا تحضير حقائبها. وفعلاً لم يكن هناك أي داع لذهابها؛ وجميع الذرائع التي قدمتها كانت خاطئة، وباريس كانت مملة بالنسبة لها. أما نحن فكنا جميعاً في «بالبيك»، ونادي الغولف لم يُغلق كما لم تنتهِ التحضيرات للجائزة الكبرى التي تاقت للحصول عليها. وبالتأكيد كانت ستحصل عليها، لو انتظرت ثمانية أيام فقط. ولكنها ذهبت مهرولة. وغالباً ما كلمتُها بعد ذلك عن ذهابها، فقالت إنها لا تعلم هي نفسها لماذا ذهبت، وقالت إن الحنين إلى الأوطان هو السبب (والأوطان هنا هي باريس، وأنت تعلم أرجحية ذلك) وإنها غير مسرورة في «بالبيك»، إذ كانت تظن أن بعض الناس يسخرون منها». كان شيء من الحقيقة في ما قالته «أندريه»، فإذا شَرَحت الاختلافاتُ بين الأذهان الانطباعاتِ المختلفة لدى هذا الشخص أو ذاك عن الفعل نفسه، فإن اختلاف المشاعر يشرح استحالة إقناع شخص لا يحبك؛ وهناك أيضاً الاختلافات في الطباع، وتتسبب هي أيضاً في الأفعال؛ لذا ما قالته «أندريه» ينطوي على شيء من

الصحة. ثم كففت عن التفكير في هذا الشرح وقلت لنفسي كم هو صعب على الإنسان أن يعرف الحقيقة في هذه الحياة.

لقد لاحظت فعلاً رغبة ألبيرتين في الذهاب إلى بيت السيدة «فيردوران» وإخفاءها عني، ولم أخطئ في ذلك. ولكن عندما نجد أنفسنا أمام حدث معيّن، ينسحب الآخرون، لأننا لا نرى إلا مظاهرهم، ولا تمر أمامنا إلا قامات باهتة، فنقول عندئذ لأنفسنا: هي كيت وكيت، وهي أو تلك هما السبب. لقد ظهر لي أن الكشف عن اسم الآنسة «فانتوي» هو التفسير، لا سيما وأن ألبيرتين بادرت وأخبرتني بذلك. ولاحقاً، ألم ترفض أن تُقْسم أن وجود الآنسة «فانتوي» لم يكن يسرّها؟ وهنا أتذكر شيئاً يتعلق بذاك الشاب. قبل ذلك بفترة، وبينما كانت ألبيرتين تقيم عندي، التقيت به، وكان خلافاً على تصرفه في بالبيك لطيفاً للغاية، لا بل ودوداً معي، فتوسّل إليّ أن أسمح له بالمجيء ليراني، وهو أمر رفضته لأسباب عديدة. وعلى بساطتي، أفهم الآن أنه عندما عرف أن ألبيرتين تقيم في بيتي، أراد تحسين علاقته بي كي تسهل عليه رؤيتها وخطفها مني، فاستنتجت أنه بائس. وعندما وردتني بعد ذلك أخبار هذا الشاب، بقيت أقول إنه لم يتلهف للمجيء إلى بيتي إلا بسبب ألبيرتين. ومع أنني وجدت الأمر مريباً تذكرت أنني في الماضي لم أذهب لزيارة «سان لو» في «دونسيير» إلا لأنني كنت أحب السيدة «دو غيرمانت». صحيح أن الحالة مختلفة، لأن «سان لو» لم يكن يحب السيدة «دو غيرمانت»، ولأن شيئاً من المخاتلة كان يشوب عاطفتي، على أنني لم أرتكب أية خيانة. ولكنني فكرت لاحقاً في أن تلك العاطفة التي نكنّها لشخص يملك الشيء العزيز الذي نبتغيه، نشعر بها أيضاً إذا ملك هذا الشخص ذلك الشيء وأحبّه لنفسه. لا شك أنه يتعين عندئذ التصدي للصداقة التي تؤدي مباشرة إلى الخيانة. وهذا على ما أظن، هو ما فعلته دائماً. ولكننا لا نستطيع أن نقول عن العاجزين إن الصداقة التي يصطنعونها مع مالك هذا الشيء ليست مجرد حيلة؛ إنهم يحسّونها بصدق ولذا فإنهم يظهرونها بحماس يجعل

الزوج أو العاشق المخدوع يستنكر خيانتهم مذهولاً فيقول: «يا ليتكم سمعتم عبارات الود التي كان هذا الوغد يمطرني بها! أن يأتي أحدهم لسلبك كنزك، أتفهم ذلك؟ ولكن عندما يحس بحاجة شيطانية إلى تأكيد صداقته لك أو لا، أجد الأمر على درجة من الخسة والدناءة لا يستطيع أحد تصورها». كلا، لا توجد متعة واضحة تماماً في الدناءة ولا في الكذب.

أجد عذراً آخر في اصطناع الصداقة التي خصني بها في ذلك اليوم خطيب ألبيرتين المزعوم، لأن هذا الاصطناع كان أكثر تعقيداً من كونه تفرعاً بسيطاً عن حبه لألبيرتين. ومنذ فترة وجيزة عرف واعترف وأراد أن يُعْلَن اسمُه كمثقف. وللمرة الأولى بزغت في حياته قيم غير رياضية وغير مجونية، ولأن «إيلستير» و«بيرغوت» كانا يقدرانني، ولأن ألبيرتين حدثته ربما عن طريقتي في الحكم على الكتّاب وعن تصورها لأسلوب كتابتي، فإنني صرت فجأة في نظره (أي في نظر الإنسان الجديد الذي ظن أنه أصبحه) شخصاً مهماً يسعده أن يرتبط به ويكشف له مشاريعه ويطلب منه ربما أن يقدمه لـ«بيرغوت». وكان صادقاً عندما طلب مني المجيء إلى بيتي وعبّر عن مودة اجتهد أن تكون صادقة، لأسباب ثقافية ولارتسام ظل ألبيرتين أيضاً. صحيح أنه لم يصر على زيارتي لهذه الغاية وعبّر عن استعداده للتخلي عن كل شيء، من أجل ذلك. ولكنه كان يجهل ربما هذا السبب الأخير الذي توج السببين الأولين، لأنهما كانا موجودين فعلاً، كما وجد فعلاً عند ألبيرتين - عندما أرادت في أصيل ذلك اليوم بعد التمرين الموسيقي أن تذهب إلى بيت السيدة «فيردوران» - رغبة شريفة تماماً في أن ترى صويحباتها أيام الطفولة ظناً منها أنهن لسن فاسقات وظناً منهن أنها ليست كذا، وفي أن تتحدث إليهن وتثبت لهن أن الصغيرة المسكينة التي عرفنها في الماضي صارت تُدعى إلى الصالونات الراقية. وراودتها أيضاً رغبة ربما في الاستماع إلى موسيقى «فانتوي». إذا صح كل هذا، فإن احمرار وجه ألبيرتين، عندما تكلمت عن الآنسة «فانتوي» كان مبعثه أنني

نوهت بذلك الصباح الذي أرادت إخفاءه عني بسبب مشروع الزواج الذي كان عليَّ ألا أعرفه. ولأن ألبيرتين رفضت أن تُقْسِم لي أنها لم تشعر بأية متعة في رؤية الآنسة «فانتوي» في ذلك الصباح قد فاقم عذابي وعزز شكوكي، ولكنها كانت تثبت لي بالتالي أنها حريصة على الصدق، وحتى في أمر بريء، وربما لأن هذا الأمر بريء. ومع ذلك بقي قائماً ما قالته لي «أندريه» حول علاقاتها مع ألبيرتين. إلا أنه لم يذهب بي الأمر إلى الظن أن «أندريه» اختلقتها كلها كي تحول دون إسعادي وكي لا أعتقد أنني متفوق عليها؛ وأستطيع القول إنها بالغت قليلاً في ما كانت تفعله مع ألبيرتين، وأن ألبيرتين - لتخفيفه ذهنياً - كانت تختزل ما فعلته مع «أندريه» مستخدمة، على طريقة اللاهوتيين اليسوعيين، بعض التعريفات التي صُغْتها أنا بحماقة حول هذا الموضوع، وأجد أن علاقاتها مع «أندريه» لم تنسجم مع ما اعترفت لي به، وأنها تستطيع إنكارها دون أن تكذب. ولكن لماذا أظن أنها هي الكاذبة وليست «أندريه»؟ كم الحقيقة والحياة هما عسيرتان! ويبقى لي منهما دون أن أعرفهما في المحصلة، انطباع يشوبه الحزن المثقل بالتعب. عندما تذكرت للمرة الثالثة أنني وعيت اقترابي من اللامبالاة المطلقة بألبيرتين (وشعرت هذه المرة أنني توصلت إلى ذلك) حدث ذلك ذات يوم في مدينة البندقية، بعد زيارة «أندريه» الأخيرة بمدة طويلة.



الفصل الثالث

أخذتني أمي لنمضي بضعة أسابيع في البندقية - إن للأشياء المتواضعة جمالها، كما للأشياء النفيسة - فتلذذت هناك بانطباعات تشبه تلك التي شعرت بها قديماً في «كومبريه»، ولكنها انطباعات منقولة بشكل مغاير وأغنى. وعندما كان الخدم يأتون في العاشرة صباحاً ليفتحوا نوافذ غرفتي، كنت أرى الملاك الذهبي في برج الجرسية التابع لكاتدرائية «القديس مرقص» يتوهج، عوضاً عن المرمر الأسود الذي أصبح يتلألأ فوق سطوح كنيسة «القديس هيلاريون». وكان الملاك الذهبي يحمر تحت الشمس فيصبح من المستحيل أن ينظر إليه المرء، ويعدني بجناحيه المبسوطين عندما سأصل إلى الساحة الصغيرة (Piazzetta) بعد نصف ساعة بفرح أكيد أكثر من ذاك الذي بشّر به البشر من ذوي النوايا الطيبة. لم أكن ألمح وأنا نائم إلا الملاك، ولكن بما أن العالم ليس إلا ساعة شمسية هائلة نعرف الوقت فيها من خلال أحد الجوانب المشمسة، فكرت منذ الصباح الباكر بدكاكين «كومبريه» المطلة على ساحة الكنيسة والتي أوشكتْ على الإغلاق عندما أتيت لحضور القداس، وكان هشيم السوق يبعث رائحة قوية تحت أشعة الشمس الحارة. ولكن ما رأيته في اليوم الثاني وأدهشتني عندما استيقظت ونهضت (إذ اختلط المشهد في ذاكرتي ورغبتي بذكريات كومبريه)، كان تلك الانطباعات التي حفظتها بعد النزهة الأولى في مدينة البندقية حيث الحياة اليومية لم تكن أقل واقعية مما هي

عليه في «كومبريه». ففي يوم الأحد صباحاً كان يطيب لنا في «كومبريه» أن ننزل إلى شارع يحتفل بالعيد، ولكن ذلك الشارع كان ينضح كله بالماء اللازوردية التي ترطبها الأنفاس الفاترة وكان لونه على درجة من الثبات بحيث استطاعت عيناي المتعبتان أن تحطا أنظارهما عليه كي ترتاحا دون أن تخشيا إذعانه لهما. وكالناس البسطاء في شارع «لوازو» (l'Oiseau) في «كومبريه»، كان سكان هذه المدينة الجديدة أيضاً يخرجون من بيوتهم المتلاصقة إلى الشارع الكبير. ولكن دور البيوت التي فرشت بعض الظل تحت أقدامها كان مرتبطاً في البندقية بقصور من الرخام السماقي واليشب؛ وفوق الأبواب المقوسة تظهر رؤوس آلهة ملتحية (وتتجاوز الخط المنظور، كطرّاقات الأبواب في «كومبريه»)، مما أدى إلى تغميق نورها المنعكس، وليس تغميق الأديم الرمادي بل تغميق الماء ذات الزرقة الرائعة. على الـ«بياتسا» (Piazza) كانت الظلال التي يسكبها شادر دكان الكلف وآرمة صالون الحلاقة في «كومبريه» يشبهان الأزهار الصغيرة الزرقاء المرسومة على البلاط المشمس والمقفر الذي تعلوه الرسوم الناتئة في إحدى الواجهات العائدة لعصر النهضة الإيطالية؛ وذلك لا يعني أن الناس في البندقية وفي «كومبريه» كانوا مضطرين عندما تسطع الشمس وحتى على ضفة القنال لإهدال ستائرهم. ولكن هذه الستائر كانت مسدلة ما بين مربعات الفصوص وغصنيات النوافذ القوطية. وسأقول الشيء نفسه عن واجهة فندقنا، إذ كانت تنتظرني أمي أمام أعمدة درابزونها وهي تنظر القنال بصبر ربما افتقرتُ إليه سابقاً في «كومبريه» وهي تحتني على آمال لم تتحقق بعدها، ولم تشأ أن تشعرني كم كانت تحبني. والآن أحسست بأن برودها الظاهري لم يعد يغيّر شيئاً وشعرت بأن الحنان الذي تغدقه علي كان كتلك الأطعمة الممنوعة التي يتوقف الناس عن رفضها للمرضى عندما يتيقنون أن شفاءهم مستحيل. إن السمات المتواضعة التي أعطت طابعاً شخصيا لنافذة غرفة عمتي «ليوني» (Léonie) المطلة على شارع «لوازو»، وإن عدم تناظر هذه السمات بسبب المسافة المتفاوتة بين النافذتين

المتقاربتين، وإن العلو الشاهق لإطارها الخشبي، وإن المسكة الملتفة لفتح درفاتها، وإن قطعتي السندس الأزرق الجامدتين والمفصولتين برباطين يباعدان بينهما كل هذا وجدته في هذا الفندق البندقي الذي سمعت فيه تلك الكلمات الخاصة والبليغة التي وطدت معرفتي بالفندق الذي كنا نعود إليه للغداء؛ وكل هذا يبقى في ذاكرتنا كشهادة تقول إن هذا الفندق كان منزلنا لفترة ما؛ ولكن الحرص على قول هذه الأشياء في البندقية كان مختلفاً عما كان عليه في «كومبريه» كما في أي مكان آخر بالنسبة للأشياء البسيطة جداً، لا بل القبيحة جداً؛ ونجم عن قنطرةٍ نصفها عربي في الواجهة، وصُبّتْ من هذه القنطرة مجسّمات اقتنتها جميع المتاحف وتُرى صورتها في جميع الكتب الفنية، وتُعتبر من روائع العمارة المنزلية في القرون الوسطى. وبعد تجاوزي مباشرة كنيسة القديس جورج الكبير، لمحت من بعيد هذه القنطرة المطلة عليّ وكان زخم أقواسها الحادة يضيف إلى ابتسامة الترحاب نظرة راقية متميزة تكاد لا تُفهَم. ولأن أمي كانت تنتظرني وهي تقرأ خلف أعمدة الدرابزون الرخامي المتعددة الألوان، مجمّعة رأسها بمنديل صغير من الشاش الأبيض الناصع كبياض شعرها الذي أحسست بأن شيبه يبكيها فتخفي دموعها، وراء قبعتها المصنوعة من القش، لا لتظهر أنيقة أمام نزلاء الفندق بل لتبدو لي أقل حداداً وحزناً وكادت تجد عزاءها بعد موت جدّتي؛ وما إن ناديتُها من فوق الغندول، حتى بثّت من أعماق قلبها حبها الذي لا يتوقف إلا عندما يفقد كل سند له، ونظرت إليَّ نظرة شغف سعت أن تكون أقرب القرب إليَّ، وحاولت أن ترفعها وتقرب شفتيها بابتسامة، خيّل إليَّ أنها تقبلني بها، ورأيت في إطار وتحت سقف الابتسامة القنطرةَ التي أضاءتها شمس الظهيرة: بسبب ذلك اتخذت هذه النافذة في ذاكرتي عذوبة الأشياء التي كان لها معنا وإلى جانبنا نصيبها في ساعة أزفت لنا وللأشياء؛ ولأن القواطع الحجرية لتلك النافذة العظيمة كانت تعج بالأشكال الرائعة، فكانت تلك النافذة بالنسبة لي كصورة حميمية لرجل عبقري أمضينا معه شهراً في المصيف نفسه وكَنّ

لنا فيه بعض الصداقة، فكلما رأيت نسخة من تلك النافذة في أحد المتاحف، اضطررتُ إلى حبس دموعي، لأن النافذة كانت وبكل بساطة تقول لي الشيء الذي يستطيع أن يؤثر فيّ بالغ التأثير: «إنني أتذكر أمك جيداً».

ولكي أذهب لأرى أمي التي غادرت النافذة، شعرت وأنا أترك حر الهواء الطلق برطوبة كنت أحس بها في «كومبريه» عند صعودي إلى غرفتي؛ ولكن في البندقية كان هناك مجرى هواء بحري ينمّي هذا الشعور، لا يخترق درجاً خشبياً ذا درجات متقاربة، بل يخترق درجات مرمرية فسيحة وراقية تنسكب عليها في كل حين أشعة شمسية مخضرة تنضاف فيها دروس الفنان «شاردان» (Chardin) التي أعطيت سابقاً إلى دروس الفنان «فيرونيزي» (Veronèse). وبما أننا نجد في البندقية الأعمال الفنية الرائعة التي من شأنها أن تعطينا انطباعات أليفة عن الحياة، أرى أن طابع هذه المدينة يندثر بذريعة أن البندقية - كما رآها بعض الفنانين - ذات جمالية باردة في جانبها المشهور (باستثناء الدراسات اللامعة التي كتبها «ماكسيم ديتوماس» (Maxime Dethomas)؛ ويندثر أيضاً عندما، على النقيض، لا تظهر فيها إلا الجوانب البائسة التي تلغي عظمتها، ولكي نجعل من البندقية مدينة أكثر حميمية وواقعية ما علينا إلا أن نشابهها بـ«أوبيرفيلييه» (Aubervilliers). وارتكب كبار الفنانين هذا الخطأ تصدياً طبيعياً لتلك البندقية المصطنعة التي رسمها أردأ الفنانين، وركزوا فقط على مدينة البندقية الواقعية جداً، مدينة الساحات المتواضعة والشوارع المحاذية للسواقي.

وغالباً في الأصيل حيث كنت أكتشف هذا الجانب من المدينة، عندما لا أخرج مع أمي. فيسهل عليّ أن أجد فيها نساء الطبقة الشعبية، كصانعات علب الكبريت وناظمات حبات الخرز وصانعات الزجاج والدانتيلا والعاملات الصغيرات المتشحات بالمناديل السوداء الفضفاضة والمهدّبة، واللواتي لم يمنعني شيء عن حبهن، بعد أن نسيت ألبيرتين إلى

حد كبير، فظهرن لي أكثر تشويقاً من غيرهن، وعندئذ تذكرتها قليلاً. من يستطيع أن يقول لي بالضبط في هذا البحث المحموم عن النساء البندقيات، ما بقي عندهن وعند أليبرتين من رغبتي التالدة في السفر إلى البندقية؟ إن أدنى رغبة فينا، مع العلم أن فرادتها هي كفرادة التناغم الموسيقي، تتضمن العلامات الموسيقية التي تنبني عليها حياتنا كلها. وأحياناً، إذا ألغينا علامة من علاماتها، مع أننا لا نسمعها ولا نعيها ولا ترتبط إطلاقاً بالموضوع الذي نتابعه، نرى أن كل رغبتنا في هذا الموضوع تتلاشى. كانت هناك أشياء كثيرة لم أسع إلى استخلاصها بسبب هرولتي المنفعلة بحثاً عن البندقيات.

كان الغوندول الذي ركبته يتجه نحو الأفنية الصغيرة؛ وكَيَدِ جني سحرية اصطحبتني في تلافيف تلك المدينة الشرقية، كانت الأفنية، كلما تقدمتُ، تشق لي طريقاً تحفره في قلب أحد الأحياء فتقسمه شقين وتكاد - بأخدود رقيق ترسمه اعتباطا - تفصل البيوت العالية ذات النوافذ الصغيرة بطرازها العربي؛ كأن الدليل السحري أمسك بشمعة بين أصابعه وأضاء لي الطريق؛ وكانت تلك الأصابع تجعل شعاع الشمس يتلألأ وتشق له الطريق. وبين المنازل الفقيرة التي فصلها القنال الصغير للتو والتي لولا ذلك لشكلت كتلة متراصة، كنت أشعر بأن الأمكنة كلها كانت للجميع وغير محجوزة. وهكذا كانت جرسية الكنيسة أو عرائش الحدائق تطل من علُ على الريو، كما لو كانت المدينة مغمورة بالمياه. ولكن في الكنائس كما في الحدائق، وبفضل التبديل نفسه كما في القنال الكبير، كان البحر مطواعا ليقوم بدور المَشْرَب أو الشارع، صغيراً كان أم كبيراً، في ضفتي القنال الصغير، وكانت الكنائس تسمق من الماء التي أصبحت حياً قديماً مكتظاً وفقيراً كأنها رعيّات دينية متواضعة ومطروقة تحمل طابعها المحتم عليها، طابعها كمكان يرتاده كثير من الناس البسطاء؛ وكانت الحدائق التي يشقها القنال تخلف وراءها في الماء أوراق شجرها أو ثمارها الذاهلة، وعلى حواف البيوت ذات الحجارة الصلصالية غير المنحوتة والخشنة كما

لو تم اقتطاعها دون تحضير، كان الأطفال المبغوتون والمحافظون على توازنهم ينزلون سيقانهم عمودياً في الفضاء كما يفعل البحارة الجالسون فوق جسر متحرك انفلق قسماه للتو فأتاحا للبحر أن يمر بينهما. وأحياناً كان يظهر صرح جميل زرع هنا فجأة كأنه علبة رحنا نفتحها، وظهر فيها هيكل عاجي صغير بطرزه الكورنثية وبتمثاله الرمزي ذي الهامة المستغربة بعض الشيء بين الأشياء المألوفة التي نسي فيها، فحاولنا جهدنا أن نفسح له مكاناً، ولكن رواق القنال ذا الأعمدة بدا كرصيف ميناء لشحن البقول. لقد اهتاجت رغبتي وخيّل إليّ أنني لست خارج بيتي، وأنني أتوغل في مكان سري؛ ودائماً كنت أجد شيئاً يحطّ في ذاتي هنا أو هناك، أجد صرحاً صغيراً أو ساحة غير متوقَّعين، فيبدو عليَّ الذهول من الأشياء التي أراها للمرة الأولى دون أن أدرك غاياتها وفوائدها تماماً. وعدت راجلاً عبر الأزقة الضيقة، واستوقفت بنات شعبيات كما قد تفعل ألبيرتين ذلك وتمنيت لو كانت معي. ولكن هؤلاء الفتيات لم يكن هن هن عندما زارت ألبيرتين البندقية، إذ كن ما زلن طفلات. ولكنني بسبب جبني بعد أن خنت أولاً كل رغبة من رغباتي التي خلتها فريدة، لأنني بحثت عن شيء مشابه، وليس عن الشيء الذي توخيته، أراني الآن أبحث بانتظام عن نساء لم تتعرف عليهن ألبيرتين، لا بل إنني لم أعد أبحث عن نساء أشتهيتهن سابقاً. أجل لقد حصل لي كثيراً أن تذكرت، وبرغبة عنيفة لا تصدق هذه الفتاة الصغيرة أو تلك في «ميزيغليز» (Méséglise) أو باريس، أو بائعة الحليب التي رأيتها ذات صباح في سفح رابية، أثناء رحلتي الأولى إلى «بالبيك». ولكن للأسف، كنت أتذكرهن كما كن عندئذ، أما الآن قد تغيّرن عليّ بالتأكيد. وهكذا إذا سبق لي أن طوعت انطباعي عن وحدانية الرغبة فاستبدلت تلميذة راهبات ضائعة بتلميذة أخرى مشابهة لها، لرأيت الآن أن الفتيات اللواتي عكّرن سكون صباي أو صبا ألبيرتين، يدفعني الآن للقبول باستثناء آخر مرتبط بمبدأ فردية الرغبة؛ إن اللواتي كان يتعيّن عليَّ البحث عنهن لسن أولئك الفتيات اللواتي كان عمرهن آنذاك ست

عشرة سنة، بل أولئك اللواتي ناهزن الآن السادسة عشرة، ذلك أنني الآن، لافتقادي ما هو خاص جداً عند الشخص وما غفلت عنه، أحب الشباب بخاصة. كنت أعلم أن شباب من عرفتهن لم يعد موجوداً إلا في ذاكرتي الملتهبة، وكنت أعلم- على توقي إلى بلوغهن عندما أتصورهن في ذاكرتي - أنهن لسن اللواتي يجب عليَّ أن أقطفهن، إن ابتغيت فعلاً أن أجني الشباب وزهرة السنة.

كانت الشمس ما زالت في كبد السماء عندما ذهبت لألتقي بأمي في الساحة الصغيرة (Piazzetta). فنادينا غوندولاً. وقالت لي أمي وهي تشير بإصبعها إلى قصر الدوقية الذي يطل على البحر حسبما صممه مهندسه المعماري وحافظ عليه بأمانة، علماً بأن القصر كان ينتظر بصمت قضاة المدينة الراحلين، قالت: «كم كانت جدتك المسكينة تحب هذه العظمة البسيطة جداً! لو كانت هنا لأحبت رقة هذه الألوان الوردية لأنها بدون تصنُّع، ولأحبّت البندقية وتلك الألفة التي قد تنافس ألفة الطبيعة، ولوجدت أشياء كثيرة في كل هذا الجمال لا تحتاج إلى أي تنظيم، لأنها تقدّم نفسها كما هي؛ فهناك قصر الدوقية بشكله المكعب، وهناك الأعمدة التي - كما قلتَ لي - أخذت من قصر هيرودوس في وسط الساحة الصغيرة، وهناك أعمدة مدينة عكا التي تنام هنا لأنهم لم يجدوا لها مكاناً آخر، وانظر إلى تلك الأحصنة التي تزين شرفة كاتدرائية القديس مرقص! لو كانت جدتك معنا لسعدت برؤية الشمس تغرب على قصر القضاة بدل أن تغرب على جبل من الجبال». وكان في ما قالته أمي شيء من الحقيقة؛ فبينما كان الغندول يصعد في طريق العودة نحو القنال الكبير، نظرنا إلى صف القصور التي كنا نمر بينها وهي تعكس الضوء والساعة على جنباتها الوردية وتتغير معهما، ولم تكن تشبه المنازل الخاصة والصروح الشهيرة بل كانت تشبه بالأحرى سلسلة من السفوح الرخامية يذهب الناس يتنزهون مساء تحت أقدامها ويمرون بالزوارق في قنال كي يشاهدوا غروب الشمس. وكذلك كانت المنازل القائمة على جانبي القنال تذكّر بمناظر

طبيعية، ولكنها من طبيعة خلقت روائعها بخيال بشري. وفي الوقت ذاته (وبسبب طابع الانفعالات المدينية دائماً فإن البندقية تظهر وكأنها في عرض البحر فوق تلك الأمواج التي نشعر بمدها وجزرها مرتين في اليوم والتي بارتفاعها وانخفاضها تغطي أدراج القصور الرائعة أو تبرزها)، كما كنا نفعل في باريس على الشوارع العريضة وفي الشانزليزيه وفي غابة بولونيا، إذ في كل شارع رئيسي راقٍ كنا نلتقي في ضوء المساء الشفيف بأكثر النساء أناقة، وهنّ في الغالب من الأجنبيات اللواتي يستندن بكسل إلى طنافس عَبّارتهن ويتتابعن ويقفن قرب أحد القصور كي يزرن فيه صديقة من صديقاتهن ويطلبن أن يسأل إن كانت موجودة، وفي انتظارهن الجواب كن يخرجن بطاقاتهن احتياطاً كما كن يفعلن في قصر الـ«غيرمانت»، وكن يبحثن في دليلهن عن عصر ذلك القصر وطرازه، وكأنهن فوق قمة الموج الأزرق فيهتززن عندما يتحرك الماء المتلألئ والملجوم والمذهول من حبسه بين الغندول الراقص والرخام الرنان. وهكذا فإن النزهات التي قمنا بها للزيارات أو ثنينا فيها بطاقات الزيارة كانت فريدة في البندقية وزادت ثلاث مرات، وفيها كانت المجاملات الاجتماعية في ذات الوقت كناية عن زيارات ساحرة لمتحف من المتاحف أو جولة بحرية.

لقد تحولت قصور كثيرة في منطقة القنال الكبير إلى فنادق. ولأن أمي كانت تحب تغيير الأماكن، ولأنها أرادت إظهار ودها للسيدة «سازيرا» (Sazerat) التي التقينا بها هنا (فالتعرف غير المتوقع وغير المناسب نجده في كل رحلة من رحلاتنا)، فقد دعتها، وأردنا ذات مساء أن نسعى للعشاء في فندق غير فندقنا إذ ادعى بعضهم أن الطبخ هناك أفضل. وبعد أن دفعت أمي النقود لصاحب الغندول ثم دخلت مع السيدة «سازيرا» إلى الصالون الذي حجزته، أردتُ أنا أن ألقي نظرة على صالة المطعم الكبرى ذات الأعمدة الرخامية والتي كانت في الماضي مغطاة كلها بجداريات سيئة الترميم. وكان نادلان يتحدثان بالإيطالية فترجمت أقوالهما.

«هل سيأكل العجوزان في غرفتهما؟ إنهما لا ينبهاننا أبداً. هذا مرهق

جداً، لا أعرف إن كان يجب عليَّ أن أحجز لهما طاولتهما. ثم سيكون الحق عليهما إن نزلا ووجداها مشغولة. لا أستطيع أن أفهم كيف يستقبل فندق راق جداً أجانب كهؤلاء. إنهما مختلفان عن الناس هنا».

وبالرغم من تعبير النادل عن احتقاره، فإنه أراد أن يعرف ما هو القرار الذي سيتخذه بالنسبة للطاولة، وكاد يطلب من عامل المصعد أن يصعد إلى طابق العجوزين للاستعلام، ولكن الجواب سرعان ما أتاه، فقد لمح السيدة العجوز وهي تدخل. وبالرغم من مسحة الحزن والتعب الناجم عن ثقل السنين، وبالرغم من إصابتها بنوع من القوباء أو الجذام الأحمر الذي غطى وجهها، لم يصعب عليَّ أن أتعرف على المركيزة «دو فيلباريسيس» التي كانت تضع قبعة ذات شبكة سوداء مصنوعة عند. W، والتي كان العوام يشبّهونها بقبعات الخادمات العجائز. وتشاء الصدفة أن المكان الذي كنت أقف فيه لأتأمل آثار الجدارية التي يحيط بها إطار مرمري، كان خلف الطاولة التي جلست إليها للتو مدام «دو فيلباريسيس».

فقال النادل: «إذن لن يتأخر السيد دو فيلباريسيس في النزول. فمنذ شهر وهما يقيمان هنا، لم يتناول أحدهما طعامه دون الآخر إلا مرة واحدة».

فتساءلت عن ذلك القريب من أقاربها الذي كانت تسافر معه ويطلق عليه اسم السيد «دو فيلباريسيس»، وإذا بي بعد لحظات أرى شخصاً يتقدم نحو طاولتها ويجلس بقربها، وكان عشيقها السابق السيد «دو نوربوا» (de Norpois).

وكانت السنون قد أضعفت صوته الجهوري، ولكنها بالمقابل أعطته شراهة في الكلام، بعد أن كان مقلاً جداً فيه. وقد يكمن السبب في شعوره بأنه لن يبقى له متسع من الوقت لتحقيق طموحاته فامتلأ جموحاً وعنفواناً، وربما لأنه أهمل من السياسة التي كان يتوق إلى الانغماس فيها، فظن، في رغبة ساذجة، أنه بانتقاداته الجارحة سيجبر الذين كان يريد أن يحل محلهم إلى تقديم استقالاتهم. وهكذا يرى عدداً من

السياسيين المخضرمين أن الحكومة التي لا يشتركون فيها ستعمر ثلاثة أيام فقط. ولكن من المبالغ فيه أن نصدق بأن السيد «دو نوربوا» قد فقد تماماً تقاليد اللغة الديبلوماسية. فما إن يتعلق الأمر بـ«القضايا الكبرى» حتى يجد نفسه، كما سنرى، أي يصبح ذلك الرجل الذي عرفناه، ولكنه في باقي الوقت كان ينهال على هذا أو ذاك بذلك العنف الذي يمارسه بعض المعمرين الذين تجاوزوا الثمانين فيصبّونه على نساء لم يعودوا يقدرون على إيذائهن بشدة.

ولمدة دقائق، حافظت السيدة «دو فيلباريسيس» على صمت المرأة العجوز التي أكدها تعب الشيخوخة من نقل ذاكرتها من الماضي إلى الحاضر. ثم انتقلت إلى الأشياء العملية الموسومة بحب متبادل مستديم:

- هل مررتَ إلى بيت «سالفياتي» (Salviati)؟

- نعم

- هل سيرسلون غداً؟

- لقد أتيت معي بالكوب. سأريك إياه بعد العشاء. لنر الآن لائحة الطعام.

- هل أعطيتم أوامر في البورصة ليتابعوا أسهمي في شركة السويس؟

- كلا، لأن البورصة تهتم الآن بسندات البترول. ولكن السرعة ليست ضرورية، لأن مؤشرات السوق ممتازة. هذه هي لائحة الطعام. من المقبلات عندنا سمك السلطان إبراهيم. هل تريدين أن نطلبه.

- أنا نعم، أما أنت فهذا ممنوع عليك. أطلب بدله صحن أرز ولحم. ولكنهم لا يعرفون تحضيره.

- لا يهم. يا نادل، إئتنا بسلطان إبراهيم للسيدة ولي صحن أرز ولحم.

ثم من جديد خيَّم صمت طويل.

«أتيتك بالجرائد، عندك «جريدة المساء» و«جريدة الشعب» إلخ. هل تعرفين أن هناك حركة ديبلوماسية الآن وسيكون أول كبش فداء فيها السفير

باليولوغ المعروف بأدائه الخفيف في صربيا؟ قد يحل لوزيه (Lozé) محله، وهناك منصب شاغر في القسطنطينية. ولكن السيد دو نوربوا» أردف محتدّاً أن سفارة بمثل هذه الأهمية - في جميع الأحوال إن لبريطانيا العظمى دائماً الدور الأول في المداولات - من الحكمة بمكان أن يشغلها رجال مخضرمون ومطّلعون جداً كي يتصدوا لمكائد الأعداء الذين يتربصون بحليفنا البريطاني، فهم أفضل من ديبلوماسيي المدرسة الجديدة الذين يقعون في الفخ صاغرين». وبطلاقة محتدّة قال السيد «دو نوربوا» هذه الكلمات، وسببُ احتداده أنه ذهب إلى الجرائد وأوصاها بذكر اسمه، ولكنها ذكرت أن صاحب الحظ سيكون وزيراً مفوضاً شاباً. فأضاف: «يعلم الله أن كبار السن مستبعدون بسبب المناورات الملتوية، فيستبدلون بموظّفين عاجزين. وعرفت عدداً كبيراً من هؤلاء الدبلوماسيين الأدعياء الذين يمارسون الطريقة التجريبية ويضعون كل آمالهم في بالون اختبار لا أتوانى عن تنفيسه. لا شك أن الحكومة إذا تهورت وسلمت زمام السلطة في الدولة لأيدٍ مضطربة، فإن المجندين عندما يدعوهم الواجب يجيبون دائماً: حاضر. ولكن من يعلم (وكان السيد دو نوربوا يعلم تمام العلم عمّن يتكلم)، ربما تتغير الأحوال ويأتون ذات يوم برجل مخضرم جهبذ ومحنك. أرى أن كل إنسان له وجهة نظر، ولكن منصب القسطنطينية يجب ألا يحسم قبل تسوية مشاكلنا المعلقة مع ألمانيا. لا ندين لأحد بشيء، ولكن لا يجوز أن يأتوا كل ستة أشهر، وبمناورات تدليسية وتعسفية، ليطالبونا ببراءة ذمة ترفع رايتها صحافة مرتزقة. يجب أن نضع حداً لهذا. وبالطبع فإن الرجل المفضال والمختبر، الرجل الذي يعتبر - إن صح القول - أُذُن الإمبراطورية يجب أن يحظى بمزيد من السلطة أكثر من أي شخص آخر، ليضع حداً للنزاع».

عندما أنهى السيد «دو نوربوا» عشاءه، سلّم عليه أحدهم، فقال المركيز:

- آه، هذا هو الأمير فوجي (Foggi).

- لا أعرف بالضبط من تعني، قالت السيدة «دو فيلباريسيس».

- أجل تعرفين. إنه الأمير «أودون» (Odon)، وهو صهر ابنة عمك «دودوفيل» (Doudeauville). أتتذكرين أنني اصطدت معه في «بونيتابل» (Bonnétable)؟.

- آه، أودون الذي كان يعمل في الرسم؟

- قطعاً لا، هو الذي تزوّج بنت الدوق الكبير نـ. . .

كان السيد «دو نوربوا» يقول كل هذا بنبرة كريهة تشبه نبرة الأستاذ المستاء من تلميذه، وكان بعينيه الزرقاوين يحملق في السيدة «دو فيلباريسيس».

وعندما انتهى الأمير من قهوته وغادر المائدة، نهض السيد «دو نوربوا» وحث خطواته نحوه وبإشارة جليلة تباعد وتقلص وقدّمه للسيدة «دو فيلباريسيس». وأثناء الدقائق القليلة التي بقي فيها الأمير واقفاً معهما، لم يكف السيد «دو نوربوا» لحظة عن مراقبة السيدة «دو فيلباريسيس» بحدقتيه الزرقاوين، إما لأن العاشق القديم كان متساهلاً وإما لأنه صارم، وكان يخشى بخاصة أن تستسلم إلى شطط كلامها الذي أحبه وصار الآن يخشاه. وما إن قالت للأمير شيئاً غير دقيق حتى صحح هو وحملق في عيني المركيزة المرهَقة والراضخة دون أن يغض طرفه عنها، كما يفعل المنوِّمون المغناطيسيون.

وأتى النادل ليقول لي إن أمي تنتظرني، فتبعته واعتذرت من السيدة «سازيرا» وقلت لها إنني تسليت برؤية السيدة «دو فيلباريسيس». ولدى تلفّظي هذا الاسم امتقع لون السيدة «سازيرا» وكادت أن يغمى عليها. وحاولت ضبط أعصابها فقالت لي:

- السيدة «دو فيلباريسيس»، الآنسة «دو بويون»؟

- نعم.

- ألا أستطيع أن أراها ولو لثانية؟ هذا حلم حياتي.

- لا تضيعي أية دقيقة، يا سيدتي، لأنها أوشكت أن تنتهي من عشائها، ولكن كيف يمكن أن تهتمي بها؟

- كان اسم السيدة «دو فيلباريسيس» من زواجها الأول: دوقة «دافريه» (d'Havré)، وكانت جميلة كالملاك وخبيثة كالشيطان، فجننت أبي وجعلته يفلس ثم تركته فوراً بعدها. نعم لقد حاولت كل جهدها أن تتصرف معه كأخس البنات، كانت السبب في أنني أنا وأفراد عائلتي عشنا بالضنك في «كومبريه». والآن بعد أن مات أبي، عزائي هو أنه تزوج أجمل امرأة في عصره؛ ولأنني لم أرها قط، من اللائق - بالرغم من كل شيء - أن...

فقُدْتُ السيدة «سازيرا» التي كانت ترتجف من التأثر، إلى المطعم وأريتها السيدة «دو فيلباريسيس».

وكالعميان الذين يحطون أبصارهم على الأماكن غير المقصودة، فإن السيدة «سازيرا» لم تحط ناظريها على مائدة السيدة «دو فيلباريسيس» بل على نقطة أخرى من الصالة:

- يجب أن تكون قد ذهبت، لا أراها حيث أشرت لي.

وكانت تبحث دائماً ناقلة بصرها الممقوت والمعبود الذي سكن مخيلتها منذ أمد طويل.

- إنها هنا، وراء المائدة الثانية.

- إننا لا نَعُدّ من النقطة ذاتها. حسب عدّي، وراء الطاولة الثانية، قرب رجل عجوز، امرأة قصيرة محنية الظهر محمرة الوجه ودميمة.

- هي بالذات!

ولكن السيدة «دو فيلباريسيس» طلبت من السيد «دو نوربوا» أن يجلس الأمير «فوجي». ودار حديث لطيف بينهم ثلاثتهم، فتكلموا عن السياسة؛ فصرح الأمير أنه غير مهتم بمصير الحكومة وأنه سيبقى أسبوعاً آخر بكامله في البندقية. وكان يأمل في غضون ذلك أن يتم تلافي كل تلك الأزمة الوزارية. وظن الأمير «فوجي» للوهلة الأولى أن تلك القضايا السياسية لا

تهم السيد «دو نوربوا»، لأنه بعد أن تكلم باحتدام شديد، لزم صمتاً كأنه صمت الملائكة الذي لن ينتعش بعد عودة الصوت إلا إذا انطلقت ترنيمة بريئة وشجية من تلحين «ميندلسون» (Mendelssohn) وسيزار فرانك (César Franck). وظن الأمير أن هذا الصمت ناجم عن تحفظ رجل فرنسي أمام رجل إيطالي ولا يريد الخوض في أمور إيطاليا. وفي الواقع كان خطأ الأمير خطأً فادحاً. ذلك أن الصمت والتظاهر باللامبالاة لم يكونا عند السيد «دو نوربوا» علامة على التحفظ بل المقدمة المعتادة للخوض في مسائل مهمة. وكما رأينا، كان المركيز لا يطمح في منصب سوى منصب القسطنطينية، بعد تسوية مسبقة للقضايا الألمانية، ولأجل ذلك كان يريد أن يضغط على حكومة روما. وكان المركيز يعتبر من جهته أن أي عمل ذي بُعد دولي قد يكون تتويجاً لائقاً لوظيفته، وربما أيضاً بداية لمكرمات جديدة ومهمات صعبة لم يتخل عنها. ذلك أن الشيخوخة تجعلنا أولاً عاجزين عن الإقدام، ولكن قادرين على الرغبة. وفي مرحلة ثالثة من مراحل الشيخوخة يتخلى الطاعنون في السن عن الرغبات، بعد تخليهم عن الأفعال، فيكفّون عن الانتخابات السخيفة بعد أن حاولوا كثيراً الفوز فيها، ولا سيما انتخابات رئاسة الجمهورية. فيكتفون بالتنزه والأكل وقراءة الجرائد، ويعيشون من قلة الموت.

ولكي يخلق الأمير جواً مريحاً للمركيز وليشعره بأنه يعتبره كمواطن له، راح يتكلم عن الأخلاف الممكنين لرئيس مجلس الوزراء الحالي، وقال إن رجلاً سياسياً من المستوزرين، وهي أسماء سمعها السفير السابق وعيناه الزرقاوان نصف مغلقتين دون أن يحرك ساكناً، قطع السيد «دو نوربوا» صمته أخيراً وتلفّظ بهذه الكلمات التي ستبقى خلال عشرين سنة مادة للحديث في السفارات، ومن ثم بعد أن طواها النسيان ستنبشها شخصية نشرتها في إحدى الجرائد ووقّعت عليها لقب «مطلع» أو «شاهد» أو «مكيافيل» وفعلت فعلها بعد كل هذا النسيان. إذن ذكر الأمير «فوجي» أكثر من عشرين اسماً أمام الدبلوماسي الذي بقي جامداً وصامتاً كأخرس،

فرفع السيد «دو نوربوا» رأسه قليلاً، وبالأسلوب الدبلوماسي الذي كُتبتْ فيه مداخلاته الدبلوماسية الأكثر وقعاً، ولكن هذه المرة بجرأة متزايدة واقتضاب أقل، تساءل بلباقة: «ألم يذكر أحد اسم السيد «جيوليتي» (Giolitti)؟» وعندها انقشعت الغشاوة من عيني الأمير «فوجي» كأنه سمع همسة سماوية. ثم راح السيد «دو نوربوا» يتكلم عن أمور متعددة ولم يخش أن يحدث ضجة، كما يفعل الناس بعد استماعهم لحناً رائعاً لسيبستيان باخ ينتهي بنغمة عالية، فلا يخشون بعدها التكلم بصوت عال والذهاب إلى الأمانات لاسترداد معاطفهم. وشدد على التأزيم عندما طلب من الأمير تبليغ احتراماته لصاحبي الجلالة الملك والملكة عندما تتاح له الفرصة أن يراهما؛ وعبارة النهاية هذه تعادل ما يقال في نهاية حفلة أوركسترا بصوت جهير: «نادوا الحوذي أوغست في شارع بيلوا (Belloy)». إننا نجهل تماماً انطباعات الأمير فوجي. لقد تهلل بالتأكيد لدى سماعه هذه الرائعة: «ألم يذكر أحد اسم السيد جيوليتي؟» ذلك أن السيد «دو نوربوا» الذي أخمدت السنون لديه أو بعثرت أجملَ خصاله، قد أتقن وهو يشيخ «نغمات المروءة»، شأنه شأن بعض الموسيقيين المسنين الذين تراجعوا في كل شيء ولكنهم في موسيقى الحجرة، وحتى آخر يوم، توصلوا إلى تحليق كامل لم يبلغوه من قبل.

وما حدث للأمير «فوجي» هو أنه، بعد أن قرر قضاء خمسة عشر يوماً في البندقية، عاد إلى روما في اليوم نفسه وقابل الملك بعد ذلك ببضعة أيام بشأن بعض ممتلكاته في جزيرة صقلية، كما نوهنا بذلك سابقاً. واستمرت الوزارة مراوحة في مكانها، أكثر من المتوقع. وبعد سقوطها، استشار الملك عدة رجال دولة عمن يليق به أن يرأسها. ثم استدعى السيد «جيوليتي» فقبل.

وبعد ذلك بثلاثة أشهر، روت إحدى الصحف وقائع المقابلة التي دارت بين الأمير «فوجي» والسيد «دو نوربوا»، ونقلت الحديث كما فعلنا نحن، ولكن بفارق بسيط. فبدل عبارة: «تساءل السيد نوربوا بلباقة»

قالت: «ذكر بابتسامته اللطيفة والساحرة التي عهدناها». ورأى السيد «دو نوربوا» أن كلمة «بلباقة» كانت تحمل قوة تفجير كافية لدى الدبلوماسي، وأن تلك الإضافة كانت على أقل تقدير في غير مكانها. فطلب من وزارة الخارجية الفرنسية أن تقدم تكذيباً رسمياً، ولكن مشاغلها كانت زائدة. ومنذ أن كشفت الجريدة النقاب عن المقابلة، راح السيد «باريو» (Barrère) يرسل إلى باريس عدة برقيات في الساعة ليعرب عن تذمره من أن سفيراً غير رسمي موجود في قصر «الكيرينال» لينقل استياء أوروبا كلها من ذلك. ولم يتجسد هذا الاستياء، ولكن السفراء المختلفين كانوا مفرطين في الأدب كي يكذّبوا السيد «باريو» الذي أكد لهم أن جميع الناس مغتاظون. ولأن السيد «باريو» كان لا يصغي إلا لرأيه، فقد اعتبر أن هذا الصمت المجامِل موافقة. وأرسل فوراً برقية لباريس تقول: «تكلمت لمدة ساعة كاملة مع المركيز فيسكونتي فينوستا (Visconti -Venosta)، الخ..» أما أمناء سرّه فقد كانوا مرهَقين.

بيد أن السيد «نوربوا» كان على علاقة طيبة بجريدة فرنسية قديمة جداً، خدمته خدمةً جليلة حتى في عام ١٨٧٠ عندما كان سفيراً لفرنسا في بلد ألماني. وكان أسلوب هذه الجريدة متقناً ورائعاً (لاسيما في مقالته الأولى التي لم تكن تحمل توقيعاً). ولكن هذه المقالة الأولى صارت تثير الاهتمام أكثر بكثير (وأطلق عليها في الماضي اسم «باريس الأولى» وتسمى اليوم افتتاحية، لا أعرف السبب في ذلك) عندما ساء أسلوبها وتكررت مفرداتها إلى ما لا نهاية. عندئذ كان كل قارئ يشعر منفعلاً بأن المقالة «مستلهمة»، وربما من السيد «دو نوربوا» وربما من معلم كبير آخر من معلمي الساعة. ولكي نعطي فكرة مسبقة عن أحداث إيطاليا سنظهر كيف أن السيد «دو نوربوا» استخدم هذه الجريدة عام ١٨٧٠؛ قد يقول البعض عبثاً، لأن الحرب وقعت مع ذلك. أما هو فكان يقول إن استخدامي لها كان فعالاً، لأن مبدأه كان يركز قبل كل شيء على تحضير الرأي العام. وكانت مقالاته التي وُزنت فيها كل كلمة، تشبه تلك النغمات

المتفائلة التي تعقب مباشرة موت المريض. فعشية إعلان الحرب في عام ١٨٧٠، مثلاً، وعندما أوشكت التعبئة العامة على الانتهاء، فكر السيد «نوربوا» (الذي بقي في الظل طبعاً) أنه من الضروري إرسال الافتتاحية التالية لتلك الجريدة المشهورة:

«يبدو أن الرأي العام يرجّح في الأوساط المأذونة أن الوضع، منذ أصيل أمس، دون إرعاب الناس طبعاً، قد يُنظر إليه كأنه جدّي لا بل يُعتبر في بعض جوانبه محرجاً. إن المركيز دو نوربوا قد قابل كما يقال وزير بروسيا عدة مرات ليتدارس معه وبروح من الحزم والتصالح، وبطريقة ملموسة جداً، شتى أسباب الخلاف، إن جاز التعبير هكذا. عندما بدأنا بطباعة هذا العدد، لم نكن قد استلمنا الخبر، لسوء الحظ، وهو أن معالي الوزيرين قد تمكّنا من الاتفاق على صيغة يمكن أن تكون أساساً لوسيلة دبلوماسية».

«آخر ساعة: لقد علمنا بارتياح في الأوساط الشديدة الاطلاع، أن انفراجاً خفيفاً قد طرأ، في ما يبدو، على العلاقات الفرنسية البروسية، ونعلق أهمية خاصة على اللقاء الذي تمّ بين السيد دو نوربوا «تحت ظلال الزيزفون» وبين الوزير الإنكليزي، والذي دام حوالي عشرين دقيقة. واعتبر هذا النبأ مُرضياً (وبعد كلمة Satisfaisante وُضعت كلمة Befriedigend بين قوسين). وفي اليوم التالي قرأنا في الافتتاحية ما يلي: «بالرغم من مرونة السيد دو نوربوا الفائقة، والجميع يقدّرون فيه تلك الحيوية المحنّكة التي بها دافع عن الحقوق الفرنسية غير القابلة للتقادم، فإن القطيعة – إن صح القول – لا يمكن تقريباً تلافيها».

ولم تستطع الجريدة إلا نشر بعض التعليقات على الافتتاحية، والسيد «نوربوا» هو الذي أرسلها إليها. وربما لاحظنا في الصفحات السابقة أن الزمن الفعلي الاحتمالي كان الصيغة النحوية المفضلة لدى السفير في الأدب الدبلوماسي. (فقال: «قد نعلق أهمية خاصة» بدل أن يقول: «يبدو أننا نعلّق أهمية خاصة»). ذلك أن صيغة الفعل بالحاضر، لا بمعناها

المعتاد، وإنما بمعنى التمني، لم يكن السيد «دو نوربوا» يكرهها. أما التعليقات التي أعقبت الافتتاحية فكانت كالتالي:

«لم يبرهن الجمهور قط عن مثل هذا الهدوء الرائع. (لقد كان يودّ السيد دو نوربوا أن يكون ذلك صحيحاً، ولكنه كان يخشى العكس) فقد تعب من الهيجان العقيم وعلم بارتياح أن حكومة جلالته ستضطلع بمسؤوليتها حسب الاحتمالات التي يمكن أن تحدث. ولا يطلب الجمهور أكثر من ذلك (صيغة التمني). وإلى جانب هدوء أعصابه الجميل، والذي هو مؤشر نجاح، نضيف نبأ طيباً لطمأنة الرأي العام، إن احتاج إلى ذلك. يؤكد بعضهم أن السيد دو نوربوا الذي كان من المتوقع له أن يعود إلى باريس لأسباب صحية كي يستجم قليلاً، قد غادر على الأرجح برلين حيث لم يعد يجد لحضوره فائدة ترجى».

«آخر ساعة: في هذا الصباح غادر جلالة الإمبراطور قصر كومبيين (Compiègne)» متوجهاً إلى باريس كي يتداول مع المركيز دو نوربوا ومع وزير الحربية والماريشال بازين (Bazine)، لأن الرأي العام يثق به ثقة خاصة. وقد ألغى جلالة الإمبراطور العشاء الذي كان ينوي إقامته لدوقة ألب (Albe) أخت الإمبراطورة. وما إن عُرف هذا الإجراء حتى أحدث في كل مكان انطباعاً إيجابياً جداً. واستعرض الإمبراطور قوات الجيش التي كان حماسها لا يوصف. وبناءً على أوامر التعبئة التي صدرت منذ وصول جلالتهما إلى باريس، فإن بعض الفيالق أصبحت، حسب كل الاحتمالات، جاهزة للتوجه إلى بلاد الراين».

حين كنت أعود أحياناً إلى الفندق في الغسق، كنت أشعر بألبيرتين الماضي، غير مرئية بالنسبة لي، ومع ذلك فقد كانت في أعماق نفسي كما في قيعان مدينة البندقية الداخلية، حيث يتسبب أحياناً حادث ما بإزاحة الغطاء المتصلب فيسمح لي بالانفتاح على هذا الماضي.

فمثلاً ذات مساء، وصلتني رسالة من سمساري في البورصة، ففَتَحْتُ

لبرهة أبواب السجن الذي كانت تعيش فيه ألبيرتين في داخلي، ولكنها كانت بعيدة جداً وقاصية، بحيث لم أستطع الوصول إليها. منذ وفاتها لم أعد أهتم بالمضاربات التي كنت أقوم بها لكي أحصل على المزيد من المال لأجلها. لكن الوقت قد مرّ، والكثير من القناعات الماضية قد كذّبتها القناعة الحالية، كما حصل في الماضي مع السيد «تيير» (Thiers) الذي كان يقول إن السكك الحديدية لا يمكن أن تنجح أبداً، وكما حصل أيضاً للسندات التي قال عنها السيد «دو نوربوا»: «إن عائداتها ليست مرتفعة على الأرجح، ولكن رأس مالها على الأقل لن يفقد من قيمته أبداً»، وكانت تلك العائدات هي التي انخفضت في أغلب الأحيان. لقد اضطررت إلى دفع فروقات كبيرة لمضاربي البورصة، فقط من أجل الديون الإنكليزية المجمدة ومصافي تكرير «ساي» (Say)، بالإضافة إلى الفوائد وتأجيل الاستحقاقات، لدرجة أنني في لحظة نزوية قررت أن أبيع كل شيء ووجدت نفسي أملك بالكاد خُمْس القيمة التي ورثتها عن جدتي والتي كانت لا تزال مِلكاً لي عندما كانت ألبيرتين حيّة. لقد أُذيع الخبر في «كومبريه» في أوساط ما تبقى من عائلتي ومن معارفي، وبما أنهم كانوا يعرفون أنني أخالط المركيز «دو سان لو» وعائلة «الغيرمانت» فقد قالوا: «انظروا إلى أين تقود أفكار العظمة». لكانوا سوف يندهشون كثيراً لو علموا أنه من أجل فتاة من طبقة متوسطة مثل ألبيرتين كانت تحت حماية «فانتوي» مدرس جدتي القديم للبيانو، أنه من أجل تلك الفتاة، قد قمت بهذه المضاربات. زد على ذلك، أنه في حياة «كومبريه» هذه حيث يصنَّف كل شخص بحسب عائداته المعروفة، كما في القبائل الهندية، لم يكن أحد يتصور مقدار الحرية الكبيرة التي تسود في أوساط «الغيرمانت»، حيث لا يعلق أحد أية أهمية على الثروة، وحيث يمكن أن يعتبر الفقر كأمر مزعج، ولكنه لا يُفقد الإنسان قيمته، ولا ينتقص من مكانته الاجتماعية بأكثر مما يفعله مرض في المعدة. وبالمقابل فقد كانوا يعتقدون في «كومبريه» بلا شك، أن «سان لو» والسيد «دو غيرمانت» كانا من النبلاء

الذين خسروا أموالهم، ورهنوا قصورهم وأنني كنت أقرضهم المال، في حين أنني لو فقدت أموالي لكانوا أول من يعرضون عليّ المساعدة ولكن دون جدوى. أما في ما يتعلق بانهيار حالتي الاقتصادية النسبي، فقد كنت منزعجاً بخاصة لأن اهتماماتي في مدينة البندقية انصبت منذ فترة قصيرة على بائعة زجاج شابة، كان لون بشرتها الوردية يقدّم للعيون المبهورة سلماً من تدرجات اللون البرتقالي والتي كانت تعطيني الرغبة في رؤيتها كل يوم، لدرجة أنني عندما شعرت بأننا سنغادر، أمي وأنا، مدينة البندقية عمّا قريب، قرّرت أن أهيّئ لها في باريس مكانة ما، تسمح لي بألّا أنفصل عنها. لقد كان جمالها ذو السبعة عشر ربيعاً على درجة من النبل والإشراق كلوحة أصلية للرسام «تيسيان» (Titien) يجب الحصول عليها قبل الرحيل. ولكن هل كان القليل الذي تبقّى لي من ثروتي يسمح لي بأن أحاول دفعها لترك بلدها والمجيء معي لتعيش لي وحدي في باريس؟

ولكني حين انتهيت من قراءة رسالة المضارب، قرأت العبارة التي يقول فيها: «سوف أهتم بتأجيل الوفاء بالنسبة لك»، لقد ذكرتني تلك العبارة المهنية والنفاقية، بجملة استخدمتها المستحمّة في «بالبيك» عندما تحدّثت مع «إيميه» عن ألبيرتين إذ قالت: «أنا التي أهتم بها». وتلك الكلمات التي لم ترد إلى ذهني أبداً، لعبت دور «افتح يا سمسم» على مفصّلات باب الزنزانة. ولكنها بعد هنيهات انغلقت على تلك المسجونة داخل الجدران - والتي لم أكن مذنباً لعدم رغبتي في الوصول إليها، بما أنه لم يعد باستطاعتي رؤيتها ولا تذكّرها، ولأن الكائنات لا توجد بالنسبة لنا إلا عن طريق الفكرة التي نكوّنها عنها -، المسجونة التي غدت مؤثرة بسبب الهجران، والتي مع ذلك لم تكن تعرف أنني تحسّرت لبرهة قصيرة على ذلك الزمن البعيد الذي كنت فيه أتألم ليل نهار من مصاحبة ذكراها لي. ومرّة أخرى في «سان جورجيو دي شيافوني» (San Giorgio dei Shiavoni)، أيقظ صقر مرسوم بالقرب من أحد الرسل، ومزخرف بالطريقة نفسها، أيقظ في داخلي الذكرى، بل الألم الذي سببه الخاتمان

اللذان نبّهتني «فرانسواز» إلى تشابههما واللذان لم أكن أعلم من أعطاهما لألبيرتين.

ومع ذلك، ذات مساء، عشت ظروفاً بدا لي فيها أن حبّي كان يمكن أن يولد من جديد. في اللحظة التي توقف فيها غندولنا قبالة درج الفندق، والتي أعطاني فيها البوّاب برقيّة، كان موظف التلغراف قد أتى بها ثلاث مرّات ليسلمني إياها، بسبب غموض اسم المرسل إليه (الذي فهمت من خلال تشويه الموظفين الإيطاليين له، أنه اسمي) وطلبوا وصل استلام يثبت بأن البرقية موجّهة لي. فتحتها ما إن دخلت إلى غرفتي، وألقيت نظرة سريعة على فحواها المليء بالكلمات السيئة النقل، فقرأت: «يا صديقي، كنت تعتقدني ميّتة، سامحني، إنني حيّة، وأريد أن أراك كي نتحدّث بأمر الزواج، فمتى تعود؟ بكل حنان. ألبيرتين». وحصل الشيء نفسه، ولكن بشكل معكوس، بالنسبة لجدّتي: عندما علمتُ أن جدّتي قد توفيت لم أشعر في البداية بأي حزن. ولم أتألّم فعلياً لموتها إلا عندما جعلتها ذكرياتي اللاإرادية حيّة بالنسبة لي. والآن عندما لم تعد ألبيرتين حيّة في ذاكرتي، لم يُسبب لي، خبر كونها حيّة، الفرح الذي كنت أعتقده. لم تكن ألبيرتين بالنسبة لي إلا شبكة من الأفكار. وكان بوسعها أن تستمر في الحياة بعد موتها المادي طالما بقيت هذه الأفكار حيّة في داخلي؛ وبالمقابل، بعد أن ماتت هذه الأفكار في داخلي، فإن ألبيرتين لم تبعث أبداً بجسدها بالنسبة لي. وعندما لاحظت أن بقاءها على قيد الحياة لم يفرحني، وأنني لم أعد أحبها، كان يجب أن أكون أكثر اضطراباً من شخص نظر إلى نفسه في المرآة، بعد عدّة أشهر من السفر أو من المرض، ليكتشف أن شعره قد ابيضّ وأن له وجه رجل ناضج أو كهل. هذا يبعث على الاضطراب، إذ يعني أن: الرجل الذي كنتهُ، الشاب الأشقر لم يعد موجوداً، وأنني رجل آخر. أوليس تغييراً عميقاً، وموتاً كاملاً للأنا الذي كنتُه، واستبدالاً كلياً بالأنا الجديد، عندما أُنعم النظر في وجه مجعّد يعلوه الشعر المستعار الأبيض الذي حلّ محل الشعر القديم؟ لكننا لا نتألم أكثر

لأننا أصبحنا أشخاصاً متناقضين في كل مرّة، إذ نغدو وخلال الفترة نفسها: الشرير والحسّاس والرقيق والفظ واللامبالي والطموح. والسبب الذي لا يجعلنا نتألم هو نفسه، أي أن الأنا الذي انخسف - مؤقتاً في الحالة الأخيرة وعندما يتعلق الأمر بالطباع، ونهائياً عندما يتعلق الأمر بالأهواء - لم يعد موجوداً ليترحّم على فقدان الأنا الآخر، الآخر الذي صار في هذه اللحظة أنتم جميعاً، فالفظّ يسخر من فظاظته لأننا أفظاظ، والناسي يحزن لفقدانه الذاكرة تماماً لأنه نسي.

كنتُ عاجزاً عن إحياء ألبيرتين لأنني عاجز عن إحياء نفسي، عن إحياء الأنا الذي كنته. الحياة، كعادتها وعبر الأعمال الصغيرة التي لا تنتهي والتي تهدف إلى تغيير العالم، لم تقل لي غداة موت ألبيرتين: «كن شخصاً آخر»، بل عن طريق التغيّرات غير الملحوظة، لكي تجعلني أنتبه بسبب طبيعة هذا التغيير، إلى أن كل شيء في داخلي قد تجدّد، بحيث إن فكري الذي اعتاد سيّده الجديد - أناي الجديد - عندما اكتشف أنه قد تغيّر، أمسك بهذا الجديد. إن تمسّكي بألبيرتين وغيرتي عليها، يأتيان كما رأينا، وبواسطة تداعي الأفكار، من انتشار نواة بعض المشاعر العذبة أو المؤلمة لذكرى الآنسة «فانتوي» في «مونجوفان» ولقبلات ألبيرتين العذبة على عنقي في المساء. ولكن وبقدر ما كانت تلك الأحاسيس تضعف، كان حقل الانطباعات الواسع الذي لونته بمسحة مقلقة أو عذبة، قد بدأ يستعيد ألوانه المحايدة. ما إن يستولي النسيان على بعض نقاط الألم أو السعادة المسيطرة، حتى تنهزم مقاومة الحب، فلم أعد أحبُّ ألبيرتين. كنت أحاول أن أتذكرها. قد انتابني حدس صحيح قبل ذهاب ألبيرتين بيومين، وارتعبت لفكرة أن أعيش ثمان وأربعين ساعة بدونها. هذا كان يحصل سابقاً عندما كنت أكتب لـ«جيلبيرت» قائلاً لها: إذا استمر الوضع سنوات هكذا، فإنني سأتوقف عن حبّها. وحين طلب مني «سوان» أن أعود وألتقي بـ«جيلبيرت» بدا لي الأمر مزعجاً كما لو أنني سألتقي امرأة متوفاة، لقد أدى الموت بالنسبة لألبيرتين - أو ما اعتقدته كذلك - نفس

العمل الذي تسبَّبت به قطيعة «جيلبيرت» الطويلة. إن الموت لا يفعل إلا فعل الغياب، فالوحش الذي ارتجف قلبي لدى ظهوره، هو النسيان، والذي كما اعتقدت، آل به الأمر إلى افتراس حبّي. إن خبر كونها على قيد الحياة، لم يؤد فقط إلى عدم إيقاظ حبّي لها، وإلى جعلي أكتشف كم كانت عودتي إلى اللامبالاة متقدمة، بل جعلني أشعر أيضاً في ذات الوقت بتسارع فجائي، حتى أنه حين كنت أستعيد الماضي، كنت أتساءل عن الخبر المعكوس، أي هو خبر موتها الذي حين أنهى رحيلها، قد أجّج على العكس حبّي وأخّر انحساره. أجل، ونتيجة لمعرفتي أنها على قيد الحياة، وأنني أستطيع الآن أن أجتمع بها، أصبحت فجأة قليلة الأهمية بالنسبة لي، وجعلني أتساءل إذا لم تكن تلميحات «فرانسواز» والقطيعة بحدّ ذاتها، حتى الموت (المتخيّل والذي اعتقدته حقيقياً)، لم تكن هي السبب في إطالة حبّي، إذ كثيراً ما كانت محاولات الآخرين ومحاولات القدر لإبعادنا عن امرأة ما، تزيد من تعلقنا بتلك المرأة. والآن يحدث عكس ذلك. فكنت أحاول تذكرها، وربما لأن إشارة مني كانت كافية لتعيدها لي، فإن الذكرى التي كانت ترد إلى ذهني، هي فكرة فتاة سمينة، ومسترجلة وتبرز من وجهها الذابل، مثل شرنقة دودة القزّ، الصورة الجانبية للسيدة «بونتان». ما قد تمكنتُ من فعله مع «أندريه» أو غيرها لم يعد يهمني على الإطلاق. ولم أعد أعاني من الألم الذي طالما اعتقدتُ أن لا شفاء له، وفي الواقع كان بإمكاني التنبؤ بذلك. إن أسفنا على عشيقة، وغيرتنا المستدامة، هما مرضان عضويان مثلهما مثل السل أو سرطان الدم. ولكن يمكننا أن نميّز داخل الأمراض العضوية، الأمراض الناجمة عن عامل فيزيائي بحت، والأمراض التي لا تؤثر على جسمنا إلا بواسطة العقل. وخاصة إذا كان الجزء المستخدم من العقل كوسيلة للنقل هو الذاكرة - أي أنه إذا زال السبب أو ابتعد - مهما كان الألم شديداً، أو مهما بدا الاضطراب الذي أصاب الجسد عميقاً، فإنه من النادر ألا يكون التشخيص إيجابياً، ذلك أن العقل يمتلك قدرة على التجدّد، أو بالأحرى، يعجز عن الحفاظ على ما لا

تملكه أنسجة الجسم الأخرى. في نفس الوقت الذي يلزم لموت مريض مصاب بالسرطان، فإنه من النادر ألا يشفى أرمل أو والد مكلوم. وهكذا كانت حالي. أمن أجل الفتاة التي أتصورّها الآن منتفخة والتي هرمت بلا شك كما هرمت الفتيات اللواتي أحبتهنّ، هل يجب أن أتخلى من أجلها عن الفتاة المشرقة التي شغلت ذاكرتي في الأمس، وصارت أملي في الغد، (والتي لا يمكن أن أعطيها أي قرش، كما لا يمكنني إعطاء أي شيء لفتاة أخرى، إذا ما تزوجت ألبيرتين)، يجب أن أتخلى عن «ألبيرتين الجديدة» تلك، «ليست ألبيرتين التي رآها عالم الموت» «وإنما ألبيرتين المخلصة، والفخورة، وحتى المتوحّشة قليلاً»؟ إنها الآن ما عنته لي ألبيرتين في السابق: إن حبي لألبيرتين ما هو إلا شكل عابر من أشكال عبادتي لمرحلة الشباب. نعتقد أننا نحب فتاة شابة، ولا نحب فيها، للأسف، إلا هذا الصبح الذي يعكس وجهها، بحمرته المؤقتة. لقد انقضى الليل. وفي الصباح أعدت البرقية لبواب الفندق قائلاً له إنها أُعطيت لي عن طريق الخطأ وإنها ليست لي. فأجابني بما أنها قد فُتحت الآن فإنه سوف يتعرض لبعض الصعوبات، وأنه من الأفضل أن أحتفظ بها، فأعدتها إلى جيبي وقطعت على نفسي عهداً بأن أتصرف كما لو أنني لم أستلمها قط. لقد توقفت نهائياً عن حب ألبيرتين. إن ذلك الحب، الذي ابتعد تماماً عن الشكل الذي قايسته بحبي لـ«جيلبيرت»، وبعد أن اضطرني إلى الالتفاف الطويل والمضني، انتهى هو الآخر، بعد أن كان استثناء، وعاد إلى قانون النسيان العام. كما كان حال حبّي لـ«جيلبيرت».

ولكنني فكرت قائلاً: كنت متمسكاً بألبيرتين أكثر من تمسّكي بنفسي، ولم أعد متمسكاً بها الآن لأنني توقفت عن رؤيتها منذ بعض الوقت. إن رغبتي في ألّا أنفصل عن ذاتي بسبب الموت، وفي أن أبعث بعد الموت، إن هذه الرغبة لم تكن تشبه رغبتي في ألّا أنفصل عن ألبيرتين، لقد استمرت تلك الرغبة دائماً. ولكن هل مرد ذلك هو اعتقادي بأني أهمّ منها، وبأني حين كنت أحبها كنت أحبُّ نفسي أكثر من محبتي لها؟ لا.

إن ذلك قد حدث لأني حين توقفت عن رؤيتها توقفت في الوقت نفسه عن حبّي لها، وإنني لم أتوقف عن حبي لنفسي لأن علاقتي اليومية مع ذاتي لم تنقطع كما انقطعت علاقتي بألبيرتين. ولكن ماذا لو انقطعت علاقتي بجسدي وبذاتي؟ لا شك أن الأمر ذاته كان سيحدث. إن حبنا للحياة ما هو إلا علاقة قديمة لا نعرف كيف نتخلص منها. ذلك أن قوتها في استمراريتها. ولكن الموت الذي يقطعها يشفينا من الرغبة في الخلود.

بعد الغداء، عندما لم أكن أتسكّع في شوارع البندقية، كنت أحضّر نفسي في غرفتي للخروج مع أمي، ولكي آخذ الدفاتر التي كنت أدوّن فيها ملاحظات تتعلق بدراسة كنت أقوم بها عن «روسكين» (Ruskin). أمام الضربة المفاجئة لزوايا الحائط التي كانت تتسبّب في انزياح أضلاعه، كنت أشعر بالقيود التي يفرضها البحر وبشحّ الأرضية. وعندما نزلت للقاء أمي التي كانت تنتظرني، في تلك الساعة، إذ كنّا في «كومبريه» نستمتع بالشمس القريبة جداً وننعم بالعتمة التي تحافظ عليها مصاريع النوافذ المغلقة، هنا من أعلى الدرج الرخامي وإلى أسفله، وكما في لوحة من عصر النهضة، لم يكن باستطاعتنا أن نعرف إذا كان هذا الدرج في قصر أو في سجن، وكنّا نحسّ بنفس الطراوة والشعور بجمال الخارج بسبب الخيمة التي تتأرجح أمام النوافذ المفتوحة باستمرار والتي يمر عبرها، من خلال تيّار هوائي مستمر، الظلُّ الدافئ والشمس المخضرّة كما على سطح خفّاق، مُذكرة بالجوار المتحرك، وإشعاع الأمواج غير المستقرة وانعكاساتها. كنت أذهب في أغلب الأحيان إلى كاتدرائية القديس مرقص، وبرغبة كبيرة، لأنه كان علينا أولاً أن نركب غوندولاً للذهاب إلى هناك، لم تكن الكنيسة تبدو لي مجرّد بناء، بل نهاية رحلة فوق المياه البحرية والربيعية، التي كانت الكاتدرائية تشكل معها، بالنسبة لي، كُلاً حيّاً، لا يتجزأ. كنّا ندخل، أنا وأمي، إلى جرن المعمودية (baptistère)، دائسين بأقدامنا فسيفساء الرخام والزجاج التي تبلّط الأرض، وأمامنا القناطر العريضة التي أحنى الزمن قليلاً واجهاتها الواسعة والزهرية اللون،

فأعطى الكنيسة، هناك في الموضع الذي حافظ الزمن فيه على نضارة الألوان، انطباعاً يقول إنها بنيت من مادة ناعمة ومطواعة كشمع خلايا النحل العملاقة؛ أما في الأماكن التي تسبب فيها الزمن بتصلب المادة أو التي خرمها الفنانون وطلوها بالذهب، فكانت على العكس تبدو وكأنها غلاف إنجيل البندقية الضخم، الثمين والمصنوع من جلود قرطبة. وعندما كانت أمي ترى أنني سأمكث طويلاً أمام الفسيفساء التي تمثل معمودية المسيح، وعندما كانت تشعر بالرطوبة الجليدية التي تهبط فوق جرن المعمودية، كانت ترمي شالاً فوق كتفي. وعندما كنت في «بالبيك» مع ألبيرتين، كنت أظن أنها تكشف عن أحد تلك الأوهام المتقلبة، التي تملأ رأس العديد من الناس الذين لا يفكرون بوضوح، وعندما كانت تتحدث معي عن المتعة - التي بالنسبة لي لا ترتكز إلى شيء - كانت تحسها لمّا ترى معي إحدى اللوحات. حالياً، أنا واثق على الأقل من أن هذه المتعة موجودة، متعة أن ترى، أو أنك قد رأيت شيئاً جميلاً مع إنسان معين. لقد جاءت ساعة حين تذكرت فيها جرن المعمودية، أمام أمواج نهر الأردن حيث غمر يوحنا المعمدان السيد المسيح بالماء، بينما كان الغندول ينتظرنا بجانب «البيازيتا»، لم أكن غير مبال بأن تكون إلى جانبي، في هذا الظل الرطب الخفيف، امرأة متلفعة بحزنها الورع الجليل وحماس تلك المرأة المسنة التي نراها في البندقية في لوحة «كارباتشيو» (Carpaccio) المسماة «القديسة أورسولا»، وأن تكون هذه المرأة ذات الخدين الحمراوين والعينين الحزينتين، في غطائها الأسود، والتي لا يمكن لأي شيء أن يخرجها من معبد كاتدرائية القديس مرقص الخفيفة الإضاءة، لأنني متأكد من أنني سأجدها لأن مكانها محفوظ وثابت كفسيفساء، أن تكون تلك المرأة هي والدتي.

إن «كارباتشيو» الذي ذكرته لتوي، هو الرسام الذي كنا نزوره غالباً حينما لم أكن منهمكاً في «كاتدرائية القديس مرقص»، وهو الرسام الذي أوشك يوماً على تأجيج حبي لألبيرتين مرة ثانية. كنت أرى للمرة الأولى

لوحة «البطريرك دي غراندو وهو يطرد الأرواح الشريرة من رجل ممسوس». كنت أتأمل السماء الرائعة القرمزية والبنفسجية اللون التي تبرز فيها مداخن عالية ومرصعة، ويذكّرنا شكلها الممشوق واحمرار أزهار التوليب المتألق، بالعديد من لوحات الرسام «ويستلر» (Whistler) التي رسم فيها مدينة البندقية. ثم كانت عيناي تنتقلان من جسر «ريالتو» (Rialto) العتيق المصنوع من الخشب إلى جسر «فيكيو» (Ponte Vecchio) الذي بني في القرن الخامس عشر، إلى قصور الرخام المزخرفة بتيجان العواميد المذهبة، ثم تعودان بعدها إلى القنال والمراكب التي يديرها مراهقون يرتدون سترات زهرية اللون وقلنسوات تعلوها قنزعات شبيهة إلى حد كبير بتلك التي يصورها «كارباتشيو» في لوحته الرائعة «أسطورة يوسف» التي رسمها كل من «سيرت» (Sert)، و«شتراوس» (Strauss) و«كيسلر» (Kessler). في النهاية، وقبل أن تترك عيناي اللوحة، كانتا تعودان إلى الضفة الحافلة بمشاهد من حياة البندقية في ذلك العصر. كنت أنظر إلى الحلاق وهو يمسح شفرته، والعبد الذي يحمل برميله، وأحاديث المسلمين، والنبلاء سادة البندقية في ملابسهم المصنوعة من البروكار الفضفاض والدمقس مع قبعات من المخمل الكرزي اللون، عندها شعرت فجأة بنهشة صغيرة في قلبي. على ظهر «رفيق الكالزا»، الذي نميزه من تطريزات الذهب واللؤلؤ التي كانوا يوشّون بها أكمامهم أو ياقاتهم، بشعار الجمعية السعيدة التي كانوا ينتمون إليها، لقد تعرفت لتوي على المعطف الذي ارتدته ألبيرتين لكي تأتي معي في سيارة مكشوفة إلى «فرساي» في ذاك المساء الذي لم أكن أشك فيه مطلقاً أن خمس عشرة ساعة كادت تفصلني عن موعد رحيلها من بيتي. كانت دائماً مستعدة لكل شيء، عندما طلبت إليها الذهاب في ذاك المساء الحزين الذي ذكرَتْه في رسالتها الأخيرة «وكان ثنائي الغسق، لأن الليل قد حل، ولأننا سنفترق»، لقد رمت فوق كتفيها معطفاً من عند «فورتوني» أخذته معها في الغد ولم أعد أراه في ذكرياتي. وكان فتى البندقية العبقري قد أخذ هذا المعطف من

لوحة «كارباتشيو» تلك، وانتزعه عن كتفي «رفيق الكالزا» لكي يرميه على أكتاف العديد من الباريسيات، اللواتي كن يجهلن بالتأكيد، كما كانت هي حالي حتى تلك اللحظة، أن الزي كان موجوداً وسط مجموعة من السادة، وفي المستوى الأول للوحة «بطريرك دي غرادو» في قاعة من أكاديمية البندقية. لقد تعرفت على كل شيء، والمعطف المنسي للحظة فتح عيني وقلب ذاك الذي كان يستعد للذهاب إلى «فرساي» مع ألبيرتين، لقد اجتاحني لعدة لحظات شعور مضطرب شتته الحزن والرغبة.

أخيراً كانت هناك أيام لم نكتف فيها، أنا ووالدتي، بزيارة متاحف وكنائس البندقية، وفي إحدى الزيارات كان الطقس جميلاً بشكل استثنائي، فذهبنا لرؤية تلك «الرذائل» وتلك «الفضائل» التي أعطاني السيد «سوان» صوراً لها والتي على الأرجح لا تزال معلقة في غرفة الدراسة في منزل «كومبريه»، ذهبنا حتى «بادوفا» (Padou)، وبعد أن اجتزنا تحت الشمس حديقة «الأرينا» (Arena)، دخلت إلى كنيسة «الجيوتو» (Giotto) التي توحي قبتها الزرقاء الكاملة وخلفية اللوحات الجدارية الزرقاء فيها، بأن النهار الرائع اجتاز العتبة هو أيضاً مع الزائر، وأتى ليضع للحظةٍ سماءه الصافية في الظل والبرودة، سماءه الصافية التي كانت تكمد لأنها تخلصت من تذهيبات الضوء، أسوةً بتلك الوقفات القصيرة التي كانت تقطع أجمل الأيام، عندها لم نرَ في السماء أية غيمة، والشمس قد أشاحت لبرهة بنظرها إلى جهة أخرى، وغدت الزرقة الآن أكثر رقة، ثم اكمدّت. وعلى السماء المرسومة على الحجر المزرق كانت تطير ملائكة عاينتُها للمرة الأولى، لأن السيد «سوان» لم يعطني إلا صور «الرذائل» و«الفضائل»، ولم يعطني صور الجداريات التي تحكي قصة العذراء والسيد المسيح. وهكذا في طيران الملائكة، كنت أستعيد نفس الشعور الفعلي، والحقيقي تماماً، الذي أعطتني إياه إيماءات «المحبة» أو «الحسد». وبكثير من الورع السماوي، أو على الأقل بحكمة واجتهاد طفوليين، كان الملائكة يقربون أيديهم الصغيرة، فيبدون في «الأرينا» (Arena)، كأنهم طيور من نوع

خاص وُجدِتْ فعلاً، وظهرت في التاريخ الطبيعي للأزمنة التوراتية والإنجيلية. هذه الكائنات الصغيرة لم تكن تتوانى عن الطيران أمام القديسين أثناء نزهاتهم، وكان دائماً هناك بعض الملائكة فوقها، وبما أن الملائكة هم كائنات حقيقية ويطيرون بالفعل، فقد كنا نراهم يرتفعون ويرسمون منحنيات، وينفّذون بسهولة كبيرة حركاتٍ بهلوانية، متوجهة نحو الأرض، فيوجهون رؤوسهم نحو الأسفل وبمساعدة كبيرة من الأجنحة التي تسمح لها بالبقاء في وضعيات تتعارض مع قانون الجاذبية، كان هؤلاء الملائكة يُذكّروننا خصوصاً بنوع منقرض من الطيور أو بتلامذة «فونك» (Fonck) الصغار الذين يتدربون على التحليق، أكثر مما يذكروننا بملائكة عصر النهضة أو العصور اللاحقة، إذ لم تكن أجنحتهم إلا رموزاً وكانت وقفتهم هي بالعادة نفس وقفة الشخوص السماويين غير المجنحين.

لدى عودتي إلى الفندق وجدت شابات أتين من النمسا بشكل خاص إلى مدينة البندقية لقضاء أيام الربيع الأولى التي لا زهر فيها. وكانت إحداهن لا تشبه ألبيرتين في ملامحها ولكنها أعجبتني لأن لها نفس نضارة وجهها ونظرتها الباسمة والخفيفة نفسها. وشعرت من ثمّ بأنني أقول لها نفس الكلام الذي كنت أقوله في البداية لألبيرتين وبأنني كنت أخفي عنها نفس الألم الذي كنت أحسه عندما كانت تقول لي إنها لن تراني في الغد لأنها ستذهب إلى «فيرونا» (Vérone)، فاعترتني فوراً الرغبة في الذهاب إلى «فيرونا» أنا أيضاً. لكن ذلك لم يَدُم، إذ كان عليها العودة إلى النمسا وقد لا أراها أبداً. ومع هذا الشعور الغامض بالغيرة الذي ينتابنا عندما نبدأ بالعشق كنت، وأنا أنظر إلى وجهها الساحر والمحيِّر، أتساءل ما إذا كانت هي الأخرى تعشق النساء، وما إذا كانت هذه الأشياء مشتركة بينها وبين ألبيرتين: نضارة وجهها ونظراتها ومظهرها الصريح الذي يغري الجميع والذي يأتي من أنها لا تسعى لمعرفة ما يفعله الآخرون، لأن ذلك لا يهمها أبداً. ما يهمها هو أن تخفي أفعالها هي تحت غطاء من الكذب الطفولي؛ فتساءلتُ ما إذا كانت كل هذه الخصائص تشكل الصفات

التكوينية الخاصة بالمرأة التي تحب النساء. أكان هذا الشيء الذي فيها والذي لم أدركه بشكل عقلاني هو الذي جذبني إليها وأثار قلقي (ربما كان سبب انجذابي الشديد هو ميلي لما هو مؤلم)، فجعلني حين أراها أشعر بالكثير من المتعة ومن الحزن، كتلك العناصر المغناطيسية الموجودة في الهواء والتي لا نراها وتسبب لنا في بعض المناطق الكثير من الوعكات الصحية؟ للأسف، لن أعرف الجواب أبداً. وودِدتُ وأنا أقرأ وجهها أن أقول لها: «يجب عليك أن تخبريني به، هذا الأمر يعنيني لأنني مهتم بمعرفة قانون التاريخ الطبيعي للإنسان»، ولكنها لم تجبني؛ كانت تصرح بكرهها الخاص لكل ما يشبه الرذيلة، وكانت تعامل صديقاتها ببرود. ربما هذا هو الدليل على أنها كانت تخفي شيئاً ما، ربما لأنها تعرّضت للسخرية أو للنبذ بسبب ذلك، وأن هذا المظهر الذي كانت تتخذه لتحاشي التفكير بهذه الطريقة، كان يشبه هذا الابتعاد الموحي للحيوانات، عن الأشخاص الذين ضربوها وأساؤوا معاملتها. أما بخصوص الاطلاع على حياتها، فكان مستحيلاً. آه كم من الوقت مر حتى عرفت بعض الأشياء عن ألبيرتين! لقد اقتضى الأمر أن تموت لكي تنفك عقدة الألسن. كم كانت ألبيرتين تتصرف تماماً كهذه الشابة باحتراز يقظ! وحتى عن ألبيرتين، هل أنا متيقن من معرفتي شيئاً؟ وبما أن شروط الحياة التي طالما حلمنا بها لا تعنينا، إذا ما توقفنا عن حب الإنسان الذي على الرغم منا كان يجعلنا نتمناها لأنها تسمح لنا بالعيش قربه وبإرضائه قدر المستطاع، كذلك الحال بالنسبة لبعض الاهتمامات الفكرية. إن الأهمية العلمية التي كنت أوليها لمعرفة جنس الرغبة الكامنة تحت تويجات تينك الخدين المائلين إلى اللون الزهري، في الضياء الصافي بلا شمس كالفجر، وفي تينك العينين الشاحبتين في تلك النهارات التي لم تُحْكَ أبداً، كل هذه الأهمية سوف تذهب حتماً عندما أكف عن حب ألبيرتين أو عندما أتوقف عن حب هذه المرأة الشابة.

كنت أخرج وحيداً في المساء، وسط المدينة السحرية فأجد نفسي،

في الأحياء الجديدة، كشخصية من شخصيات «**ألف ليلة وليلة**». ولم يكن من النادر أن أكتشف في تجوالي بالصدفة ساحة مجهولة وواسعة لم يسبق أن حدّثني عنها أي دليل أو مسافر. وتوغلت في شبكة من الشوارع الصغيرة (Calli) في المساء، وكانت مداخنها العالية والواسعة التي تلونها الشمس بتدرجات اللون الزهري الفاقع والأحمر الفاتح، كحديقة تزهر فوق المنازل، بتدرجات مختلفة تبدو مزروعة فوق المدينة، كأنها حديقة هاو لأزهار توليب «ديلفت» (Delft) أو «هارليم» (Haarlem). ومن جهة أخرى كان التقارب الشديد بين المنازل يجعل من كل نافذة إطاراً تنظر منه ربة منزل فتحلم، أو صبية جالسة تسرّح لها شعرها عجوز يبدو وجهها في الظل وكأنه وجه ساحرة، كان المشهد أشبه بمعرض لمئة لوحة هولندية متقابلة، لكل منزل فقير، صامت وقريب بسبب الضيق الشديد لهذه الأزقة. وكانت هذه الأزقة تنضغط على بعضها وتتفرع من شتى الاتجاهات فتشكل بمساريها ذلك الجزء من مدينة البندقية المتوازع بين القنال والهور (la lagune)، كأنه تجسد في تلك الأشكال اللامعدودة والدقيقة والرقيقة. وفجأة وفي نهاية أحد تلك الشوارع، بدا لي أن المادة المتجسدة قد تمددت، وإذا بميدان واسع (campo) وفخم لم يخطر على بالي وجوده في نسيج الأزقة الضيقة تلك، لم أكن أتصور حتى وجود ساحة، إذا به يمتد أمامي، محاطاً بقصور رائعة، شاحباً تحت ضوء القمر. إنه أحد تلك المجمعات المعمارية التي، في المدن الأخرى، تتجه نحوها الشوارع وتقودك صوبها وتشير إليها. أما هنا فتبدو وكأنها عن عمد مخبأة بين تقاطعات الأزقة، كقصور الحكايات الشرقية التي نجلب إليها في الليل شخصية روائية، ثم نعيدها إلى منزلها قبل طلوع الفجر، بحيث لا تجد المسكن السحري وينتهي بها الأمر إلى الاعتقاد بأنها لم تذهب إليه إلا في الحلم.

ذهبت في الغد بحثاً عن ساحتي الليلية الجميلة، كنت أتبع تلك الأزقة التي تتشابه كلها والتي ترفض إعطائي أية معلومة، إلا لكي تزيدني تيهاً.

وأحياناً كانت إشارة غامضة، اعتقدت أني قد تعرفت عليها، تقودني إلى الاعتقاد بأني سأرى، داخل انعزالها ووحدتها وصمتها، ساحتي الجميلة والمنفية تبرز للعيان. في تلك اللحظة، كان بعض الجان الخبثاء الذين اتخذوا مظهر حارة ضيقة جديدة، يجعلونني أعود أدراجي رغماً عني وكنت أجد نفسي فجأة وقد عدت إلى القنال الكبير. وبما أنه لا توجد فروقات كبيرة بين ذكرى الحلم وذكرى الحقيقة، كنت أتساءل في نهاية المطاف إذا كان الأمر قد حصل أثناء نومي، وداخل بلورة معتمة مصنوعة في مدينة البندقية، ذلك التموج الغريب، الذي يقدّم مكاناً واسعاً ومحاطاً بقصور رومانسية للتأمل المديد في ضوء القمر.

ولكن الرغبة في ألا نفقد إلى الأبد بعض النساء، أكثر من فقدان بعض الساحات، كانت تشعرني باستمرار، وأنا في البندقية، باضطراب أصبح محموماً يوم قررت أمي أننا سنغادر، وعندما حُملتْ حقائبنا على الغندول لإيصالها إلى المحطة، قرأت على سجل الغرباء الذين يُنتظر وصولهم إلى الفندق: «البارونة بوتبوس وحاشيتها» (Putbus). وفي الحال، رفع الشعور بكل ساعات المتعة الجسدية التي سيحرمني منها رحيلنا هذا، تلك الرغبةَ الموجودة في داخلي بشكل مزمن، رفعها إلى درجة العاطفة وأغرقها في الكآبة والغموض؛ فطلبت من أمي تأجيل موعد رحيلنا عدة أيام أخرى، لكن شكلها الذي أوحى إليّ بأنها لم تأخذ بعين الاعتبار ولا بشكل جدي رجائي هذا، أيقظ في أعصابي المتوترة بسبب ربيع البندقية تلك الرغبة القديمة في مقاومة مؤامرة وهمية حاكها أهلي ضدي، إذ كانوا يتخيلون أنني مرغم على طاعتهم، أيقظ إرادة القتال التي دفعتني في السابق إلى فرض إرادتي بعنف على الأشخاص الذين كنت أحبهم أكثر من غيرهم، حتى ولو أنني التزمت في نهاية الأمر بإرادتهم ولكن بعد أن نجحتُ في جعلهم يستسلمون. قلت لأمي إنني لن أذهب، ولكنها لتصورها أنه من الأفضل ألا يبدو عليها الاعتقاد بأنني كنت أتكلم بجدية، التزمتْ الصمت ولم تجبني حتى. فأضفت بأنها سترى جيداً ما إذا

كنت جاداً أو غير جاد. جاء البواب بثلاث رسائل، اثنتين لها وواحدة لي وضعتُها في محفظتي وسط رسائل أخرى دون أن أنظر حتى إلى غلافها. وحينما أتت الساعة التي ذهبتْ فيها أمي إلى المحطة، بعد رحيل كل أغراضي، طلبت شيئاً أشربه على الشرفة، ثم جلست أراقب غياب الشمس بينما كان موسيقي يغني أغنية «وحيد أنا» (*Sole mio*) في مركب متوقف قبالة الفندق.

كانت الشمس لا تزال تهبط. ولم تعد أمي بعيدة الآن عن المحطة. سوف ترحل قريباً، وأبقى وحدي في البندقية، وحيداً مع حزني لإدراكي أنني تسببت بألمها، ولأنها ليست هنا لمواساتي. كانت ساعة رحيل القطار تقترب. وكانت وحدتي الكاملة تبدو قريبة جداً، حتى بدت كأنها قد ابتدأت فعلاً وكأنها كاملة. فشعرت بأنني وحيد؛ وغدت الأشياء غريبة بالنسبة لي، لم يكن عندي الهدوء الكافي لأخرج من قلبي المرتجف تلك الأشياء وأدخل إليها بعض الاستقرار، هذه المدينة التي هي أمامي الآن لم تعد مدينة البندقية. كانت شخصيتها واسمها يبدوان لي كسرديات خيالية كاذبة، ولم تعد عندي الشجاعة الكافية لأرسخها في الحجارة. بدت لي القصور وقد تقلصت إلى أجزاء وبدت كميات رخامها متشابهة، وبان لي الماء كخليط من الهيدروجين والآزوت الأزلي، الأعمى، داخل وخارج البندقية، متجاهلاً قصر «الدوجات» (Doges) ولوحات «تورنير» (Turner). ومع ذلك فإن هذا المكان التافه كان غريباً كالمكان الذي نصل إليه ولا يعرفنا بعد، أو كالمكان الذي تركناه لتونا والذي نسينا الآن. لم يكن باستطاعتي إعلامه بأي شيء عني، أو ترك أي شيء مني يرتكز عليه، فجعلني أنكمش على ذاتي، ولم أعد إلا قلباً يخفق وانتباهاً مشدوداً يتابع بقلق تطور أغنية «وحيد أنا». حاولت جاهداً أن أشد تفكيري إلى الانحناءة الجميلة في جسر «ريالتو»، لكنه لم يبد لي، بحكم تفاهة الأشياء البديهية، إلا جسراً لا قيمة له، بل بدا غريباً أيضاً عن الفكرة التي كونتها عنه؛ إن هذا الممثل على الرغم من شعره المستعار الأشقر وثيابه السوداء، رأيتُ

أنه في جوهره لم يكن هاملت. وكذلك الحال بالنسبة للقصور والقنال وجسر «الريالتو» وقد جردت جميعها من فرادتها وذابت في موادها التافهة. لكن في الوقت ذاته، بدا هذا المكان التافه أقل تنائياً. في حوض صناعة السفن وبسبب العنصر العلمي الذي هو خط العرض، كانت الأشياء تتميز بخصوصية، وهي وإن كانت شبيهة بالأشياء التي نجدها في بلدنا، إلا أنها كانت تبدو غريبة في المنفى وتحت سماء أخرى؛ كنت أشعر بأن هذا الأفق القريب الذي أستطيع الوصول إليه بعد ساعة من الإبحار، كان انحناءة لأرض مختلفة تماماً عما هي عليه في فرنسا. كان انحناءة بعيدة وُجدت، بسبب طبيعة السفر المصطنعة، راسية بالقرب مني لكي تذكرني أكثر فأكثر بأنني بعيد عن وطني، لدرجة أن حوض السفن التافه والبعيد هذا، كان يملأني بمزيج من الاشمئزاز والخوف الذي أحسست به للمرة الأولى عندما كنت طفلاً وذهبت بصحبة والدتي إلى حمامات «دولينيي» (Deligny)، في هذا الموقع الرائع ذي الماء الداكن الذي لا تكسوه سماء ولا شمس والذي كان مع ذلك محاطاً بغرف صغيرة، كنا فيه نشعر بالتواصل مع أعماق لامرئية مكسوة بأجساد بشرية. فتساءلت ما إذا كانت الخيام تحجب تلك الأعماق المخبأة عن الناس وتمنع رؤيتها من الشارع، تساءلت عما إذا كان مدخل البحار الجليدية يبدأ هنا، وعما إذا كان القطبان قد اندمجا فيها، وعما إذا كان هذا المكان الضيق هو البحر الحر للقطب. وفي هذه البندقية اللاحقيقية التي لا ترأف بي حيث سأبقى وحيداً، كان لحن «**وحيد أنا**» يعلو كرثاء للبندقية التي عرفتها، كان بمثابة شاهد، وكان ينبغي الكف عن سماعه، لو أنني أردت الالتحاق بأمي وركوب القطار معها؛ وكان ينبغي أن أقرر رحيلي بدون أن أضيّع ثانية واحدة. كان عقلي، لكي يتجنّب اتخاذ القرار، مشغولاً بأكمله في تتالي الجمل في أغنية «**وحيد أنا**». لا شك أن هذه الأغنية التافهة التي سمعناها مئة مرة، لم تكن تهمني على الإطلاق. لم أكن أقوى على إسعاد أي شخص، ولا إمتاع نفسي بسماعها خشوعاً إلى آخرها. وفي النهاية ما من

جملة من جملها التي كنت أعرفها سلفاً، وتروي الحكاية العاطفية المبتذلة، كانت قادرة على تزويدي بالقرار الذي كنت أحتاج إليه؛ بل أكثر من ذلك، كانت كل جملة لدى مرورها تشكل حاجزاً يحول دون هذا القرار، أو بالأحرى كان تجبرني على اتخاذ القرار العكسي بألا أرحل، فتفوّت عليَّ موعد السفر. ومن هنا كان هذا الانشغال بسماع «**وحيد أنا**»، هذا الانشغال الخالي من أية متعة بحد ذاته، كان ينوء بثقل حزن عميق وشبه يائس. كنت أشعر في الواقع أنني ببقائي هنا دون حراك، كنت أتخذ القرار بعدم الرحيل، فقلت لنفسي: «لن أرحل»، ولكني لم أستطع قوله بهذه الطريقة المباشرة بل على الشكل التالي: «سأسمع جملة أخرى من أغنية **وحيد أنا**»، هذا ممكن ولكنه مؤلم لدرجة كبيرة، لأن المعنى الحقيقي لهذه اللغة المجازية لم يكن يفوتني، فقلت لنفسي: «إني لا أفعل أكثر من سماع جملة إضافية من الأغنية»، وأدركت أن هذا يعني: «سأبقى وحدي في مدينة البندقية». وربما كان هذا الحزن، الذي يشبه نوعاً من البرودة المخدرة، هو الذي أعطى كل هذا السحر، سحر الأغنية اليائس والآسر؛ فكانت كل نغمة يؤديها صوت المطرب بقوة وفخامة شبه عضلية، تصيبني في صميم قلبي. عندما كانت الجملة تنتهي في القرار وتبدو كأنها انتهت، لم يكن المغني يقفلها وإنما يعيدها عالياً كما لو كان بحاجة إلى الإعلان مرة أخرى عن وحدتي ويأسي. وبنوع من الاحترام الأخرق لموسيقاه، كنت أقول لنفسي: «لا يمكنني أن أقرر بعد، لنكرر ذهنياً قبل كل شيء هذه الأغنية من الأعلى». ففاقمت وحدتي، إذ كانت تهبط جاعلة هذه الوحدة من دقيقة لأخرى أكثر اكتمالاً، ونهائية عما قريب.

لم تكن أمي في هذه الأثناء بعيدة عن المحطة. وسوف ترحل عما قريب. شدّد القلق سطوته عليّ، بعد أن رأيتُ القنال يصغر منذ أن انطلقت منه روح البندقية وروح ذلك الريالتو التافه الذي لم يعد ريالتواً، وعبر أغنية اليأس التي غدته «**وحيد أنا**» والتي، بعد أن صدحت أمام القصور الواهية، أنجزت تفتيتها وكرّست دمار البندقية؛ وشهدتُ التحقق البطيء لتعاستي

يُبنى بصورة فنية، دون استعجال، وعلامة بعد علامة، بصوت المغني الذي كان ينظر بذهول إلى الشمس المتوقفة خلف كنيسة «القديس جورج الأكبر»، بحيث خلق هذا النور الغسقي في ذاكرتي، مع ارتعاشة انفعالي وصوت المغني البرونزي، مزيجاً ملتبساً وثابتاً وممضاً. وإذا بالبندقية التي سأبقى فيها بدون والدتي تمتد أمامي الآن. لم تكن فقط لا تضم أمي، ولكن لأنني لا أملك الهدوء الكافي لأترك تفكيري يتركز على أحد تلك الأشياء التي أراها أمامي، فإن هذه الأشياء لم تعد تتضمن أي شيء مني، لا بل توقفت عن تشكيل مدينة البندقية، كما لو أنني أنا وحدي من بث روحاً في هذه الأحجار والقصور وماء في القنال.

وهكذا بقيت جامداً، وبإرادة خائرة، بدون قرار واضح؛ لا شك أن القرار قد اتخذ في هذه اللحظات: إن أصدقاءنا بأنفسهم هم غالباً الذين يستطيعون التنبؤ بذلك. أما نحن فلا، وإلا لكنا تجنبنا الكثير من الآلام.

وفي النهاية، من كهوف أشد ظلمة من تلك التي ينبثق منها المذنَّب الذي نستطيع التنبؤ به - بفضل قوة العادة الدفاعية المتأصلة التي لا تخطر على بال، وبفضل المؤن الخبيثة التي يقذف بها في اللحظة الأخيرة إلى المعركة، بفضل تحريض مفاجئ - انبثق فعلي أخيراً فأطلقتُ ساقي للريح، ووصلت بعد إغلاق البوابات ولكن في الوقت المناسب لأجد أمي وقد احمرت من شدة الانفعال، وهي تغالب دموعها، لأنها كانت تظن أنني لن آتي. «هل تعلم، قالت لي، كانت جدتك المسكينة تقول: يا للغرابة، لا يمكن لأي شخص أن يكون أكثر إزعاجاً أو أكثر رقة من هذا الصغير. ثم شاهدنا أثناء رحلتنا مديني «بادوفا» و«فيرونا» تأتيان أمام مقدمة القطار لوداعنا، وبينما كنا نبتعد، بقيتا هما دون ارتحال واستعادتا حياتهما واسترجعت إحداهما حقولها والأخرى هضبتها.

ومرت الساعات، ودون استعجال فتحت أمي رسالتيها لتقرأهما، وحاولت ألا تجعلني أسحب محفظتي مباشرة لقراءة الرسالة التي أعطاني إياها بواب الفندق. كانت تخشى دائماً أن أجد الرحلة طويلة جداً، أو

متعبة جداً، ولكي تشغلني في الساعات الأخيرة، كانت تؤخر إلى أبعد حد الوقت الذي كانت تخرج فيه البيض المسلوق وتعطيني الجرائد وتفك رزمة الكتب التي اشترتها دون أن تخبرني. نظرت في البداية إلى أمي التي كانت تقرأ رسالتها بدهشة، ثم رفعت رأسها، وبدت أنها تنقل ناظريها بين ذكريات مختلفة وغير متجانسة ولا تستطيع تقريبها من بعضها. بيد أنني تعرفت على خط «جيلبيرت» على مغلفي. ففتحته. كانت «جيلبيرت» تخبرني بزواجها من «سان لو». وقالت لي إنها أرسلت لي برقية بهذا الخصوص إلى مدينة البندقية ولكنها لم تتلق جواباً. وتذكرتُ كم كانوا يحدثونني عن سوء خدمة البرقيات البريدية. فأنا لم أستلم قط برقيتها. ربما لا تريد تصديق ذلك. وفجأة لمع في ذهني حدث كان كامناً على شكل ذكرى، ثم ترك مكانه وأعطاه لحدث آخر، إن البرقية التي استلمتها مؤخراً والتي حسبتها من ألبيرتين، كانت من «جيلبيرت». وبما أن ابتكار «جيلبيرت» المصطنع في الكتابة يكمن خاصة في طريقة كتابتها للسطر، إذ إنها تضع في السطر الذي فوقه حواجز من حرف الـ t مهمتها لفت الانتباه للكلمات أو وضع النقاط على حرف الـ i، وكانت هذه الحروف تبدو وكأنها تقطع جمل السطر الأعلى، وبالمقابل كانت تقطع السطر الأسفل بذيول ورقوش الكلمات التي كانت فوقها، لذلك كان من الطبيعي أن يقرأ عامل التلغراف دوائر حرف الـ s أو حرف الـ y الموجودين في السطر الأعلى، كمقطع للكلمة «ine» وهو ينهي كلمة «جيلبيرت». والنقطة على حرف الـ i الموجود في اسم «جيلبيرت» قد صعد إلى الأعلى وشكّل إشارة تعجب. أما بالنسبة إلى حرف الـ G، فكان يشبه حرف الـ A الغوطي. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك كلمتان أو ثلاث مقروءة بشكل سيّئ، وقد تداخلت (حتى بدا بعضها لي غير مفهوم)، كان هذا كافياً لتفسير تفاصيل خطأي، ولم يكن لهذا الأمر أي داع. كم حرفاً يقرأه في كلمة شخصٌ مشتت الانتباه وتم تحذيره بخاصة، شخص ينطلق من فكرة أن الرسالة قد أرسلها شخص آخر؟ وكم كلمة يقرأ من الجملة؟ إننا نخمّن حين نقرأ،

ونخلق؛ كل شيء ينطلق من خطأ نرتكبه في البداية، والأخطاء التي تليه (ليس فقط في قراءة الرسائل والبرقيات، ليس فقط في أيّة قراءة كانت)، مهما بدت غريبة للشخص الذي لا ينطلق من نقطة البداية نفسها، هي طبيعية كلها. إن جزءاً كبيراً مما نعتقد، وحتى في النتائج الأخيرة هو هكذا، ويأتي من التباس أولي في قراءة مقدّمات القياس، ونقوم به بنفس العناد وحُسن النيّة.

الفصل الرابع

«هذا غير معقول، قالت أمي، اسمع، لا شيء يدهش الإنسان عندما يصل إلى عمري. ومع ذلك لا شيء أغرب من الخبر الذي تحمله لي هذه الرسالة. فأجبتها: اسمعي جيداً، مهما تكن غرابتها فإنها لا تفوق تلك التي في رسالتي. إنه خبر زواج. سوف يتزوج «روبير دو سان لو» من «جيلبيرت سوان». أجابتني أمي، إذن بلا شك هذا هو الخبر الذي تحمله الرسالة التي لم أفتحها بعد، لأنني تعرّفت على خط صديقك». وابتسمت لي أمي بهذا التأثر الخفيف الذي صار فقدُها لوالدتها يطغى عندها على كل حدث؛ مهما كان بسيطاً، إذ كان يَهمّ كائناتٍ حيةً جديرة بالألم والذكرى ولها أيضاً أمواتها. وهكذا ابتسمت لي أمي وقالت بصوت عذب، كما لو أنها خشيت، في حال لم تأخذ خبر هذا الزواج بجديّة، أن يسبب شجبها له مشاعر حزن لابنة وأرملة «سوان» ولأم «روبير» المستعدة للانفصال عن ابنها والتي كانت أمي تسبغ عليهم مشاعرها البنيوية والزوجية والأمومية. قلت لها: «هل كان معي الحق عندما قلت إني لا أجد شيئاً أكثر غرابة من ذلك؟» - «أجل، أجابتني بصوتها العذب، أنا من حصلت على الخبر الأكثر غرابة، لن أقول لك الأكبر، والأصغر، لأن ذلك الاستشهاد بالسيدة «دو سيفينيه» (de Sévigné) الذي يقوم به كل الناس الذين لا يعرفون إلا هذه الجملة، كان يدفع جدّتك إلى الغثيان بقدر ما تفعله عبارة «ما أجمل الذبول!». إننا لا نقبل باللجوء إلى هذا

الاستشهاد بالسيدة «دو سيفينيه» الذي يستعمله الجميع. وتُبلغني هذه الرسالة بزواج «كامبريمير» (Cambremer) الصغير. - «هكذا إذاً، قلت لها بلا مبالاة، زواجه ممن؟ على أية حال، تلغي شخصية العريس من هذا الزواج كل طابع مشوّق». - إلا إذا كانت شخصية العروس هي التي تعطيه إياه». - ومن هي هذه الخطيبة؟» - لو قلت لك فوراً من هي، لما استحق الأمر العناء، من هي هذه الخطيبة؟» هيّا ابحث قليلاً، قالت لي أمي التي حين لاحظت أننا لم نصل بعد إلى «تورينو»، أرادت أن تُنسيني همومي. «ولكن كيف تريدين مني أن أعرف؟ هل سيتزوج من امرأة لامعة؟ إذا كان «لوغراندان» (Legrandin) وأخته سعيدين، يمكننا أن نتأكد من أن هذا الزواج سيكون زواجاً مبهراً. - بالنسبة لـ«لوغراندان» لا أعرف لكن الشخص الذي أخبرني بهذا الزواج يقول إن السيدة «دو كامبريمير» في غاية السعادة. ولا أعرف إذا كنت تسمي ذلك زواجاً ناجحاً. أما أنا فيذكرني بالزمن الذي كان فيه الملوك يتزوجون من راعية، ولكنها رائعة، مثل هذا الزواج يدهش جدتك ولا تستغربه. - وأخيراً قولي من هي تلك الخطيبة؟ - إنها الآنسة «دولورون» (d'Oloron) - هذا يبدو اسماً فخماً، ليست راعية على الإطلاق، ولكني لا أعرف من هي. إنه لقب كان موجوداً في عائلة الـ«غيرمانت». - تماماً، وقد أعطاه السيد «دي شارلوس» لابنة أخ «جوبيان» (Jupien) عندما تبنّاها. هي التي ستتزوج «كامبريمير» الصغير. - ابنة أخ «جوبيان»! هذا غير معقول! - هذه هي مكافأة الفضيلة. إنه زواج جدير بخاتمة رواية من روايات السيدة «جورج صاند» (Sand)، قالت أمي. وفكرتُ قائلاً: «لا بل إنه ثمن الرذيلة، إنه زواج في نهاية رواية لـ«بلزاك» (Balzac). قالت أمي في النهاية «إذا فكرنا فسوف نجد هذا الأمر طبيعياً. ها هي عائلة «كامبريمير» وقد ترسّخت في عشيرة الـ«غيرمانت» حيث لم يكونوا يحلمون أبداً بنصب خيمتهم؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الصغيرة ستحصل على أموال طائلة، وهذا أمر ضروري للـ«كامبريمير» بعد أن فقدوا أموالهم؛ وفي المحصلة، هي فتاة بالتبني،

وعلى الأرجح الفتاة الحقيقية - الفتاة اللاشرعية - لشخص يعتبرونه أميراً من أمراء الأسرة المالكة. إن الزواج من لقيط ينحدر من سلالة شبه ملكية، كان يعتبر دائماً كارتباط مغر للنبلاء الفرنسيين والأجانب. ودون الحاجة إلى البحث بعيداً، منذ ستة أشهر لا أكثر، في «لوسانج» (Lucinge)، هل تتذكر زواج صديق «روبير» من فتاة لا قيمة اجتماعية لها سوى أنهم كانوا يحسبونها، خطأً أو صواباً، ابنة غير شرعية لأمير متسلط. لأن أمي لا تزال متمسكة بالجوانب الطبقية في «كومبريه»، ممّا سيصدم جدتي لو أنها عرفت بأمر هذا الزواج، فرغبت في إظهار الحكم القيمي الذي كانت ستطلقه أمها، أضافت قائلة: «أجل إن هذه الصغيرة كاملة الأوصاف، ولم تكن جدتك العزيزة بحاجة إلى طيبتها الكبيرة وتسامحها اللامتناهي لكي توافق على اختيار الشاب «كامبريمير». هل تتذكر كم وجدتُ منذ أمد بعيد تلك الصغيرة متميزة، يوم جاءت لتخيط تنورتها؟ لم تكن وقتها إلا طفلة. والآن على الرغم من أنها تقدمت في السن وأصبحت فتاة عانساً، فهي الآن امرأة أخرى وكاملة أكثر بألف مرة مما كانت عليه. ولكن جدتك انتبهت بنظرة واحدة إلى ذلك كله. لقد وجدت ابنة أخ صانع الصداري أكثر نبلاً من دوق غيرمانت. لم يكن يكفي أمي أن تمتدح جدتي، بل كان عليها أن تصرح بأن الأفضل أنها لم تعد موجودة هنا. كانت هذه هي الغاية القصوى لحنانها، كأنها تريد أن تجنبها حزناً أخيراً. قالت لي أمي «ولكن هل تعتقد مع ذلك، إن الأب «سوان» - الذي لم تعرفه أنت حقاً - كان يمكن أن يفكر في يوم من الأيام أنه سيرزق بابن حفيد أو ابن حفيدة تجري في عروقهما دماء الأم «موزير» (Moser) التي قالت: «سباح الخير يا زادة» «Mezieurs Ponchour» ودماء دوق «دو غيز» (de Guise)! - لكن لاحظي يا أمي، أن الأمر أغرب أيضاً مما تقولين. لأن عائلة «سوان» كانت عائلة جيدة جداً، وكان يتمتع ابنهم بمكانة مرموقة، فلو أنه أقدم على زواج جيد، لكان بإمكان ابنته أن تتزوج بشكل ناجح أيضاً، لكن كل هذا قد فشل لأنه تزوج من امرأة تافهة. - تافهة، أعتقد أننا كنا أشراراً، وأنا

لم أصدق كل ما قيل. - بلى، إنها تافهة، وسأكشف لك ذات يوم، أسراراً عائلية ولكن في يوم آخر». ثم قالت وهي لا تزال تسبح في حلمها: «ابنة امرأة ما كان يسمح لي والدك قط بتحيتها، تتزوج من ابن أخ السيدة «فيلباريسيس» (Villeparisis) التي لم يسمح لي والدك بزيارتها في بادئ الأمر، لأنه كان يرى أنها تنتمي لعالم أرفع من عالمي!» ثم أضافت: «ابن السيدة «كامبريمير» الذي كان «لوغراندان» (Legrandin) يخشى أن يوصينا به لأنه لم يكن يجدنا «أكابر» كفاية، يتزوج من ابنة أخ الرجل الذي كان لا يجرؤ على الصعود إلى بيتنا إلا على درج الخدم!.. ومع ذلك، كانت جدتك المسكينة على حق، هل تتذكر عندما كانت تقول إن الأرستقراطية الكبرى تفعل الأشياء التي تصدم البرجوازية الصغرى، وإن الملكة «ماري - أميلي» (Marie - Amélie) كانت مدللة بسبب محاولاتها التقرب من عشيقة أمير «كوندي» (Condé) لكي تجيّر ذلك لصالح دوق «أومال» (Aumale)؟ هل تتذكر؟ لقد صُدمتْ جدتك من الفكرة القائلة بأن بنات منزل «غرامون» (Gramont) اللواتي كن قديسات بحق، يحملن، منذ قرون، اسم «كوريزاند» (Corisande) بسبب علاقة إحدى جداتهن بالملك «هنري الرابع» (Henri IV). هذه الأشياء قد تحصل ربما في أوساط البرجوازية، ولكنهم يخفونها أكثر فأكثر. هل تعتقد أن هذا كان سيسلي جدتك المسكينة!» هذا ما قالته أمي بحزن - لأن المتع التي تألمنا لحرمان جدتي منها، هي متع الحياة البسيطة، وهي كناية عن قراءة قصة أو حضور مسرحية أو حتى أقل من ذلك، يمكن أن يسليها الانطباع بذلك فقط. ثم أضافت أمي: «هل تعتقد أن ذلك كان سيدهشها! أنا متأكدة من أنه سيصدمها، كم تؤلمها زيجات كهذه، أعتقد أنه من الأفضل ألا تعرف بها»، ذلك أن أمي كانت تحب الاعتقاد أن جدتي سوف تشعر حيال أي حدث بانطباع خاص عائد إلى فرادة طبيعتها الرائعة. أمام أي حدث حزين تصورناه في يوم من الأيام، كفقدان أحد أصدقائنا القدامى حظوته أو ثروته، أو كوقوع مصيبة اجتماعية ما أو وباء أو حرب أو ثورة، كانت أمي

تقول دائماً، من الأفضل ألا ترى جدتي أياً من هذا، لأنها كانت ستتألم كثيراً وربما لن تستطيع تحمله. وحين يتعلق الأمر بحدث فاضح، كذاك الذي وقع، كانت أمي، وبعكس تصرف الأشرار الذين يسرهم الاعتقاد بأن من يكرهون قد تألموا أكثر مما نتصور، كانت أمي ترفض، بسبب عطفها الكبير على جدتي، وخوفاً من أن يصيب جدتي أي حزن أو مكروه. كانت دائماً تتصور جدتي فوق كل أذية أو شر يقع، وتقول لنفسها إن وفاة جدتي في النهاية، كانت أمراً حسناً لأنها جنّبت طبيعة جدتي النبيلة، التي ما كانت لتستسلم لهذا الوضع، مشهدَ هذا العصر الراهن البشع. ذلك أن التفاؤل هو فلسفة الماضي. فالأحداث التي وقعت، ومن بين كل أحداث ممكنة، هي الوحيدة التي يمكننا معرفتها، ونرى أن الضرر الذي سببته كان يبدو أمراً محتوماً، كما نرى القليل من الخير الذي لم تستطع إلا أن تجلبه معها، هي تلك الأحداث التي نُجلّها، ونتخيل أنه لولاها لما تحقق ذلك. كانت تحاول في الوقت نفسه التكهن بما كانت ستشعر به جدتي لو علمت بكل تلك الأحداث، وتعتقد في آن أنه يستحيل على عقولنا الأقل رفعة من عقلها أن تتكهن به. قالت لي بداية: «هل تصدق! كم كانت جدتك المسكينة ستذهل من جراء ذلك!» وكنت أشعر أن أمي تتألم لأنها لا تستطيع إخبار جدتي بذلك، وتأسف لأن جدتي لم تعلم بالأمر، وترى أنه من الظلم أن تأتي الحياة في يوم ما، بأشياء لم تكن جدتي لتصدقها، في الوقت نفسه ترى أن معرفة جدتي للأشياء وللمجتمع، خاطئة وناقصة. إن طبيعة زواج ابنة عائلة «جوبيان» من ابن أخ «لوغراندان» كان من شأنها تغيير المفاهيم العامة لجدتي، - في حال تمكنت أمي من إيصاله لها - ومنها خبر التوصل إلى حل المشكلة التي اعتقدتها جدتي بدون حل، كمشكلة الملاحة الجوية ومشكلة التلغراف اللاسلكي. ولكن سنرى أن هذه الرغبة في مقاسمة جدتي فوائد العلوم، بدت رغبة أنانية جداً بالنسبة لأمي. إن ما علمته - لأنني لم أستطع إدراك كل ذلك وأنا في البندقية - أن الآنسة «فورشفيل» كان قد طلب يدها دوق

«شاتيلورو» (Châtellerault) والأمير «دو سيليستري» (de Silistrie) بينما كان «سان لو» يسعى للزواج من الآنسة «دانتراغ» (d'Entragues) ابنة دوق لوكسمبورغ. وهذا ما حصل. بما أن الآنسة «دو فورشفيل» (de Forcheville) كانت تملك مئة مليون، فقد اعتقدت السيدة «دو مارسانت» (de Marsantes) أن ذلك سيكون زواجاً رائعاً لابنها. لكنها اخطأت في قولها إن تلك الفتاة رائعة حقاً، وأنها تجهل تماماً ما إذا كانت غنية أو فقيرة، وأنها لا تريد أن تعرف ذلك، وأنه حتى بدون مهر، فإن الزواج من امرأة مثلها يعتبر ضربة حظ حتى بالنسبة للشاب الأكثر تطلباً. لقد كان الأمر جريئاً جداً بالنسبة لتلك المرأة التي أغراها مبلغ المئة مليون وجعلها تغض الطرف عما تبقى. ثم فهمنا فيما بعد أنها كانت تفكر بابنها. فأطلقت الأميرة «دو سيليستري» أعلى الصيحات معلنة أنه إذا تزوج «سان لو» من ابنة «أوديت» وزوجها اليهودي، فإن حي «سان جيرمان» (Saint - Germain) سيختفي تماماً. وعلى الرغم من ثقة السيدة «دو مارسانت» الشديدة بنفسها، إلا أنها لم تجرؤ على المضي أبعد من ذلك، فانسحبت أمام صيحات الأميرة «دو سيليستري» التي تقدمت بطلب الزواج لابنها. غير أن السيدة «دو مارسانت» رفضت الاعتراف بهزيمتها، فاتجهت فوراً إلى الآنسة «دانتراغ» ابنة دوق لوكسمبورغ. وبما أن هذه الأخيرة لم تكن تملك إلا عشرين مليوناً، فقد كانت تناسبها بشكل أقل، لكنها قالت للجميع إن «سان لو» لا يمكن أن يتزوج الآنسة «سوان» (ولم يطرح أبداً موضوع «دو فورشفيل»). بعد مدة من الوقت، قال أحدهم من دون قصد، إن دوق «شاتيلورو» كان يفكر في الزواج من الآنسة «دانتراغ»، وبما أن السيدة «دو مارسانت»، التي كانت لا يعجبها العجب، نظرت إليه بترفع، وغيرت مسارها، وعادت إلى «جيلبيرت» وطلبتها لـ«سان لو»، وتمت الخطوبة مباشرة.

لقد أثارت تلك الخطوبة تعليقات عنيفة في مختلف الأوساط. بعض

صديقات أمي اللواتي قابلن «سان لو» في المنزل، أتين في «يومه هذا» للتأكد من أن الخطيب هو صديقي نفسه. وذهب بعض الأشخاص إلى الادعاء بأن قصة الزواج الأخرى، لا تخص عائلتي «كامبريمير» و«لوغراندان». وقد اعتمدوا في معلوماتهم تلك على مصدر موثوق، ذلك أن المركيزة التي كان اسمها «لوغراندان» قبل الزواج، قد نفت الخبر تماماً عشية اليوم الذي أعلنت فيه الخطوبة. وتساءلتُ من ناحيتي، لماذا السيد «دو شارلوس» من جهة، و«سان لو» من جهة أخرى، وقد سنحت لهما فرصة الكتابة إليّ، واللذان أخبراني عن مشاريعهما ورحلاتهما التي كانت تستبعد إمكانية القيام بتلك الاحتفالات، لم يعلماني بأي شيء عن موضوع الخطوبة. وتوصلتُ إلى النتيجة التالية، وذلك دون التفكير بالأسرار التي نحب أن نحتفظ بها في مثل هذه المواقف، وهي أنني لم أكن الصديق الذي كنت أظن، وهذا ما حزّ في نفسي وخاصة بالنسبة لعلاقتي بـ«سان لو». وبما أنني كنت قد لاحظت أن اللطف والادعاء بالمساواة والزمالة، ما هو إلا كذبة في الأوساط الأرستقراطية، فلماذا أتعجب لكوني لم أستَثْنَ من تلك المعاملة؟ في بيت النساء - حيث صار يتردد عليه كثير من الرجال - وحيث ضَبَطَ السيد «شارلوس» «موريل» (Morel)، وحيث «معاونة ربة العمل»، وقارئة مجلة الـ«غولوا» (*Gaulois*) المخضرمة، كانت تعلق على أخبار المجتمع، تلك القوّادة، - في معرض حديثها إلى ذلك الرجل الضخم الذي كان يأتي ليشرب عندها الشامبانيا مع مجموعة من الشبان، والذي كان ضخماً في كل الأحوال، وقرر أن يصبح سميناً بحيث لن يستدعى، في حال نشوب حرب، إلى الجيش -، قالت: «يبدو أن «سان لو» هو «هكذا»، وكذلك هي حال «كامبريمير» الشاب. يا للزوجات المسكينات! على أية حال إذا كنتم تعرفون هذين الخطيبين فأرسلوهما لنا، سيجدان هنا كل ما يريدان، ويمكن أن نربح منهما الكثير من المال». وعليه فإن الرجل السمين الذي كان هو أيضاً «هكذا»، والذي كان يتشبه بالأكابر، قال إنه كان يلتقي غالباً بـ«كامبريمير» و«سان لو» عند أبناء عمومة

«داردونفيليه» (d'Ardonvilliers)، وأنهما كانا من هواة النساء وبعكس «هذا» تماماً. «هكذا إذن» قالت «معاونة ربة العمل؟ صاحبة المقهى» بصوت يشوبه الشك، ولكنها لم تكن تمتلك أي دليل على ذلك، بل كانت مقتنعة بأن انحراف أخلاق عصرنا هذا يتفوق حتى على افتراءات الثرثارين. إن بعض الأشخاص الذين لم أرهم، كتبوا لي وسألوني «عن رأيي» بهذين الزواجين، وكان سؤالهم أشبه بإحصائية حول طول قبعات النساء في المسرح، أو حول الرواية النفسية. لم أجد الشجاعة للرد على تلك الرسائل. إذ افتقرت إلى رأي بشأن هذين الزواجين. ولكني كنت حزيناً للغاية، كما لو أن جزءين من ماضيك قد رسيا بالقرب منك، وبنيت عليهما يوماً بعد يوم، ربما بسبب الكسل، بعض الآمال التي لم تبح بها، وها هما يبعدان نهائياً كسفينتين، بطقطقة لهيبهما الفرحة، تتجهان نحو مصير غريب. أما بالنسبة للمعنيين نفسيهما، فقد أحسا تجاه زواجيهما بمشاعر طبيعية جداً، ذلك لأن الأمر لا يتعلق بالآخرين، بل بهما. لم يحصلا قط على هذا القدر من السخرية بسبب هذه «الزيجات الكبرى» المبنية على ثغرة متخفية. وحتى الـ«كامبريمير» المتحدرون من بيت عريق جداً، وذوو الطموحات المتواضعة جداً، كانوا أول من نسي «جوبيان»، ليتذكروا فقط عظمة بيت «دولورون»، باستثناء الشخص الذي كان من المتوقع أن يسر على وجه الخصوص بسبب هذا الزواج، وهو المركيزة «كامبريمير - لوغراندان». ولكن بما أنها كانت شريرة بطبيعتها، فقد كانت تستمتع بإذلال ذويها أكثر من استمتاعها بتمجيد نفسها. ونظراً لأنها لم تكن تحب ابنها أيضاً، ولأنها قد كرهت مبكراً كنّتها المستقبلية، فقد أعلنت أنه من المؤسف لشخص من عائلة «كامبريمير» أن يتزوج من امرأة لا نعرف أصلها، بالإضافة إلى أن أسنانها ليست مصفوفة بشكل جميل. أما بالنسبة لميل «كامبريمير» الشاب إلى الاختلاط برجال الأدب من أمثال «بيرغوت» (Bergotte) وحتى «بلوك» (Bloch)، فإن هذه المصاهرة المتميزة لم تجعله أكثر تصنعاً، ولكنه بدأ يعتبر نفسه وريث دوقيّي

«دولورون» «الأمراء الحاكمين»، كما قالت عنهم الصحف، فقد كان مقتنعاً كفاية من رفعة مكانته لكي يختلط بأي كان. وتخلى عن الأرستقراطية الصغرى ليعاشر البرجوازية الذكية في الأيام التي لم يكن يخصص نفسه لأصحاب الجلالة. إن ملاحظات الصحف، المتعلقة خاصة بـ«سان لو»، أعطت صديقي، صاحب الأصول الملكية المعروفة، عظمة جديدة ما كانت إلا لتزيد من حزني، كما لو أنه أصبح شخصاً آخر، سليل «روبير لو فور» (Robert le Fort) أكثر من كونه الصديق الذي جلس منذ مدة قريبة على مقعد السيارة الذي يطوى، لكي أجلس مرتاحاً في الصدر. إن عدم معرفتي مسبقاً بزواجه من «جيلبيرت»، الذي ظهر فجأة في رسالتي، مختلف جداً عما فكرت فيه أمس حول كليهما، كان الخبر مفاجئاً أن الزيجات في المجتمع تتم هكذا فجأة في أغلب الأحيان لكي تعوض عن توليفة مختلفة كانت قد فشلت. إن الحزن البائس، كالانتقال من السكن، والمُر كالغيرة، الذي سببه لي هذان الزواجان من جراء المفاجأة والصدمة، كان عميقاً جداً لدرجة أن بعضهم ذكرني به فيما بعد، وأنا أفتخر بشكل عبثي، كما لو أن الأمر هو عكس ما حصل في ذلك الوقت، حدس مضاعف، بل مضاعف ثلاث أو أربع مرات.

كان المجتمع الراقي الذي لم يعر «جيلبيرت» أي اهتمام، يسألني بتلهف بالغ: «آه، هذه هي الفتاة التي ستتزوج المركيز «دو سان لو»؟ ويعاينها بنظرة متفحصة، ليست فقط كنظرة الأشخاص الولعين بمعرفة أحداث الحياة الباريسية، بل أيضاً الأشخاص الذين يبحثون عن المعرفة والواثقين من عمق نظرتهم. أما الذين لم يكونوا يعرفون إلا «جيلبيرت» فكانوا على العكس ينظرون إلى «سان لو» باهتمام شديد، ثم يطلبون مني (كانوا غالباً من الأشخاص الذي يعرفونني بالكاد) أن أدلهم عليه، وبعد أن أقدمهم له كانوا يعودون مزدانين بأفراح الاحتفال قائلين لي: «إن له شخصية رائعة». كانت «جيلبيرت» مقتنعة بأن اسم المركيز «دو سان لو» أكبر ألف مرة من اسم دوق «أورليان»، ولكن بما أنها كانت تنتمي قبل كل

شيء إلى جيلها المتذاكي، أرادت ألا تبدو أقل ذكاء من الآخرين، وكان يحلو لها أن تقول «الأم الساميّة» (mater semita) ثم كانت تضيف لكي تبدو أكثر ذكاء بالنسبة لي على العكس، إنه والدي (Pater).

قالت لي أمي «يبدو أن الأميرة «دو بارم» (de Parme) هي التي رتبت زواج كامبريمير الشاب»، وكان ذلك صحيحاً. إن الأميرة «دو بارم» كانت تعرف منذ زمن أعمال «لوغراندان» الذي وجدته رجلاً مميزاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت تعرف السيدة «دو كامبريمير» التي كانت تغير الحديث عندما تسألها الأميرة ما إذا كانت أخت «لوغراندان». وعرفت الأميرة الأسف الذي شعرت به السيدة «لوغراندان» لكونها بقيت على أبواب المجتمع الأرستقراطي، الذي لم يكن أفراده يستقبلونها. وعندما سألت الأميرة «دو بارم»، التي أخذت على نفسها عهداً بإيجاد مكانة للآنسة «أورولون»، عندما سألت السيد «دو شارلوس» ما إذا كان يعرف شخصاً لطيفاً ومثقفاً يدعى «لو غراندان دو ميزيغليز» (Legrandin de Méséglise) (هكذا صار يلقب نفسه لوغراندان الآن)، أجاب البارون بالنفي في أول الأمر، ثم تذكر فجأة أنه تعرف بمسافر في مقطورة قطار ليلي قد ترك له بطاقته الشخصية. فابتسم ابتسامة غامضة. قال لنفسه «ربما هو الشخص نفسه». وعندما علم أنه ابن أخت «لوغراندان» قال: «إنه أمر غريب حقاً! لن يزعجني الأمر إذا كان يشبه خاله، لقد قلت دوماً إن بإمكانهم أن يكونوا أفضل الأزواج. - من هم؟ سألته الأميرة. لو كنا نلتقي أكثر لشرحت لكِ الأمر يا سيدتي. لأنه يمكن التحدث معك. سعادتك ذكية جداً، قال «شارلوس» الذي أحس فجأة برغبة في البوح لكنه كظمها. كان اسم «كامبريمير» يعجبه مع أنه لم يكن يحب الأهل، لكنه كان يعرف أنه أحد بارونيات مقاطعة «بروتاني» (Bretagne) الأربع، وأنه أفضل ما كان يأمل بالنسبة لابنه بالتبني، كان اسماً قديماً ومحترماً وله صلات قوية في مقاطعته. كان تزويجها من أمير أمراً مستحيلاً، بل وغير مرغوب فيه. كان هو المناسب. ثم جاءت الأميرة بعد ذلك

بـ«لوغراندان». كان شكله قد تغير، وللأفضل، منذ وقت قصير. مثل النساء اللواتي ضحين نهائياً بوجوههن لكي يحافظن على رشاقتهن، ولم يعدن يغادرن «مارينباد» (Marienbad)، فقد اتخذ «لوغراندان» الهيئة الرشيقة لضابط في الخيالة. بقدر ما تثاقل وتباطأ «دو شارلوس»، بقدر ما أصبح «لوغراندان» ممشوقاً وسريعاً؛ إنه التأثير المعاكس للسبب نفسه. على أية حال كان وراء هذه السرعة سبب نفسي. فقد اعتاد ارتياد بعض الأماكن السيئة حيث لم يكن يرغب في أن يراه أحد داخلاً إليها أو خارجاً منها، لذلك كان يغوص في داخلها. عندما حدثته الأميرة «دو بارم» عن الـ«غيرمانت» وعن «سان لو»، قال إنه عرفهم منذ أمد طويل، إذ خلط نوعاً ما بين معرفته لاسم أسياد قصر «غيرمانت» ولقائه في بيت عمتي بـ«سوان» شخصياً، هذا الذي سيصبح والد السيدة «دو سان لو» المستقبلية، «سوان» هذا الذي رفض «لوغراندان» في كومبريه أن يخالط زوجته أو ابنته. حصل أنني سافرت مؤخراً مع أخ دوق «دو غيرمانت» السيد «دو شارلوس». لقد فتح الحديث بشكل عفوي، وهذا مؤشر حسن، فهذا يثبت أنه ليس ثرثاراً ولا مدعياً. أعرف ما قال عنه، لكنني لا أصدق هذا. على أية حال فإن حياة الآخرين الشخصية لا تعنيني. لقد بدا لي رجلاً حساساً ومثقفاً. عندها تحدثت الأميرة «دو بارم» عن الآنسة «دورلون». كانوا في أوساط الـ«غيرمانت» يشفقون على نبالة قلب السيد «دي شارلوس»، الذي اختار - لطيبته الدائمة - أن يسعد فتاة فقيرة ورائعة. ربما أن دوق غيرمانت الذي كان يتألم من سمعة أخيه، أوحى أن هذا الأمر مهما بدا جميلاً فهو في النهاية طبيعي جداً. ولفرط ذكائه كان يقول بشكل أخرق: «لا أعرف إذا كنتم تفهمونني جيداً، كل ما في هذا الأمر طبيعي جداً. لكن هدفه كان الإشارة إلى أن الشابة كانت ابنة أخيه التي اعترف بها. وكان هذا يفسر حالة «جوبيان» (Jupien). لقد لمّحت الأميرة «دو بارم» إلى هذه الرواية لكي تظهر لـ«غراندان» أن «كامبريمير» الشاب يستطيع في النهاية أن يتزوج من شخص يشبه الآنسة «دي نانت» إحدى فتيات لويس الرابع عشر غير

الشرعية، اللواتي لم ينبذهن لا دوق «أورليان» ولا أمير «كونتي» (Conti).

وهذان الزواجان اللذان كنا نتحدث عنهما أنا وأمي في القطار الذي يحملنا إلى باريس، قد أثرا تأثيراً ملحوظاً على بعض الشخصيات التي ظهرت حتى الآن في هذه الرواية. في البداية حول «لوغراندان»: لا داعي للقول بأنه دخل كالإعصار إلى فندق السيد «دو شارلوس»، تماماً كما يدخل إلى بيت مشبوه لا يجب أن يُرى فيه، وكان ذلك في الوقت نفسه لإظهار شجاعته وإخفاء عمره - لأن عادتنا ترافقنا حتى إلى الأماكن التي لا تخدمنا فيها بأي شيء - ولم يلاحظ أحد تقريباً أن السيد «دو شارلوس» وهو يقول له صباح الخير، قد وجّه له ابتسامة خفيفة من الصعب ملاحظتها ومن الصعب أيضاً تفسيرها، هذه الابتسامة التي تشبه في الظاهر وفي الواقع عكس ذلك تماماً، التقيا في مكان سيّئ السمعة [مثلاً «الإليزيه» (Elysée) حيث كان الجنرال «دو فروبرفيل» (de Froberville) يلتقي سابقاً بـ«سوان»، فكان حين يلمح «سوان» يرمقه بنظرة التواطؤ الساخرة والغامضة لرجلين من رواد الأميرة «دي لوم» (des Laumes) كانا يتعرضان للشبهات عند السيد «غريفي» (Grévy)]. لكن الأمر الجدير بالملاحظة هو التحسن الحقيقي الذي طرأ على طبيعته. كان «لوغراندان» ينمي منذ زمن بعيد - منذ كنت طفلاً يذهب لتمضية عطلاته في «كومبريه» - علاقات أرستقراطية مجزية في أكثر الأحيان، من دعوة منفردة إلى مصيف غير مُنْجز. ثم جاء زواج ابن أخته فجأة فوصل هذه القطع المتباعدة، وحصل «لوغراندان» على مكانة اجتماعية أثْرَت في بنائها علاقاته القديمة مع أناس لم يخالطوه إلا بشكل فردي وحميمي مما أعطاها نوعاً من المتانة. بعض السيدات اللواتي كنا نظن أننا نعرّفهن عليه، أخبرنا أنه قضى خمسة عشر يوماً عندهن في بيوتهن الريفية، وأنه هو من أهداهن مقياس الضغط الجوي الجميل الموضوع في الصالون الصغير. لقد اندمج صدفة بمجموعات فيها العديد من الدوقات الذين أصبحوا الآن من أنسبائه. بيد أنه منذ أن حصل على هذه المكانة الاجتماعية توقف عن الاستفادة منها.

وذلك ليس لأنه أصبح معروفاً الآن ومقبولاً في هذه الأوساط بل لأنه لم يعد يستمتع بهذه الدعوات، فمن بين الرذيلتين اللتين كانتا تتنازعانه، أفسحت الرذيلة الأقل طبيعية، وهي التفذلك، المجال لأخرى أقل تصنعاً لأنها تدل على الأقل على نوع من العودة، وإن كانت ملتوية، إلى الطبيعة. لا شك أن الرذيلتين لم تكونا متعارضتين، إذ يمكن أن نذهب لاكتشاف منطقة أو ناحية ونحن خارجون من حفل استقبال دوقة. لكن البرودة الناجمة عن التقدم بالسن كانت تبعد «لوغراندان» عن مراكمة الكثير من الملذات، وعن الخروج إلا برويّة، وعن الأحاديث التي تأخذ وقتاً طويلاً وتجعله يقضي معظم وقته مع الشعب، تاركة القليل من الوقت لحياته الاجتماعية. حتى إن السيدة «كامبريمير» ذاتها غدت غير مبالية كثيراً بلطف دوقة «غيرمانت». وبما أن دوقة «غيرمانت» التي كانت مجبرة على معاشرة المركيزة، لاحظت كما يحصل غالباً في كل مرة نعايش فيها الأشخاص أكثر، أي أننا نلمس الكثير من الفضائل التي نكتشفها في نهاية المطاف أو تظهر لنا العيوب فنعتادها في آخر الأمر، لاحظت أن السيدة «دو كامبريمير» كانت امرأة تتمتع بذكاء وثقافة، لم أكن أنا شخصياً أقدرهما، لكنهما كما يبدو أثارا إعجاب الدوقة. لذلك كانت تأتي غالباً في المساء لرؤية السيدة «دو كامبريمير» وقضاء الكثير من الوقت في زيارتها. لكن تلك الأخيرة عندما لاحظت أن الدوقة تسعى لرؤيتها، فقدت شعورها بالسحر الرائع الذي كانت ترى أن دوقة «دو غيرمانت» تتمتع به. فكانت تستقبلها أدباً وليس عن سرور.

لقد حصل أيضاً تغير أكثر أهمية لدى «جيلبيرت»، تغير موازٍ ومختلف في الوقت نفسه عن التغير الذي طرأ على «سوان» بعد زواجه. لا شك أن «جيلبيرت» كانت سعيدة في الأشهر الأولى لاستقبالها في بيتها المجتمعَ المخملي، ولكن وبحكم العادة، كان يدعى الأصدقاء الحميميون الذين تتمسك بهم أمه، ولكن في بعض الأيام يكونون وحدهم منزوين وبعيدين عن الأكابر، كما لو أن احتكاك السيدة «بونتان» (Bontemps) أو السيدة

«كوتار» (Cottard) مع أميرة «غيرمانت» أو أميرة «بارم»، سبّبَ كوارث لا يمكن إصلاحها كالتي تحدث عندما يحتك نوعان من البارود غير المصفى. إلا أن الـ«بونتان» و«كوتار» والآخرين، على الرغم من شعورهم بالخيبة لأنهم كانوا يأكلون وحدهم، فإنهم كانوا يفخرون لاستطاعتهم القول: «لقد تعشينا عند المركيزة دو سان لو»، وتذهب الجرأة بهم فيدعون معهم السيدة «دو مارسانت»، فكانت تظهر نفسها كسيدة عظيمة حقيقية مع مروحتها المصنوعة من درع السلحفاة (d'écaille) والريش، كل ذلك كان يصب في مصلحة الإرث. كانت تحرص فقط من حين لآخر على مدح الأشخاص الخجولين الذين لا نراهم إلا إذا هي بادرتهم بتحية لبقة ومتعالية، كان هذا التلميح موجّهاً لمن أراد أن يسمعه من آل «كوتار» و«البونتان»، إلخ. ربما بسبب عشيقتي في «بالبيك» وبسبب العمة التي كنت أحب أن تراني في هذه الأوساط، كنت أفضل أن أكون جزءاً من هذه المجموعة. ولكن «جيلبيرت» التي كانت تعتبرني الآن مجرد صديق لزوجها ولآل «غيرمانت» (وربما أيضاً من أيام «كومبريه» عندما كان أهلي لا يزورون أمها، ومنذ العمر الذي لا نكتفي فيه بإضافة هذه الحسنة أو تلك على الأشياء، بل نصنّفها بحسب أنواعها، منذ تلك الفترة، كانت «جيلبيرت» قد خصّتني بتلك الأبّهة التي لا نفقدها بعد ذلك) ؛ فكانت تعتبر أن هذه السهرات غير جديرة بي وكانت تقول لي عندما أذهب: «لقد سررت جداً برؤيتك ولكن الأفضل أن تأتي بعد غد لكي نتمكن من رؤية خالتي «غيرمانت» والسيدة «دو بوا» (de Poi)؛ لقد دعوتُ اليوم أصدقاء أمي لكي أسعدها». لكن ذلك استمر فقط عدة أشهر ثم تغيّر جذرياً فيما بعد. هل السبب هو أن حياة «جيلبيرت» الاجتماعية يجب أن تبدي نفس التناقضات الموجودة في حياة «سوان»؟ على أية حال لم تكن «جيلبيرت» قد أصبحت المركيزة «دو سان لو» إلا منذ فترة قصيرة (وعما قريب ستصبح، كما سنرى، دوقة «غيرمانت»)، وبما أنها قد حصلت على الأرفع والأصعب، اعتقدت أن اسم «غيرمانت» قد امتزج بها كطلاء مينا أسمر

اللون ومُذهب، وأنها - وإن عاشرت أي شخص - فسوف تبقى بالنسبة للمجتمع دوقة «غيرمانت» (وهذا خطأ لأن ألقاب النبلاء مثل سندات البورصة، تصعد عندما نطلبها، وتهبط عندما نعرضها للبيع). فكل ما يبدو لنا غير فان ينزع نحو التهدم؛ إن المكانة الاجتماعية، مثلها مثل أي شيء آخر، لا تُبنى لتبقى إلى الأبد، كما تبنى عظمة الإمبراطورية في كل لحظة بواسطة نوع من الخلق المستمر، مما يفسر الشذوذ الواضح في التاريخ الاجتماعي أو السياسي خلال نصف قرن. إن خلق العالم لم يتم في البداية، بل تم يوماً بعد يوم. كانت المركيزة «دو سان لو» تقول لنفسها: «أنا المركيزة دو سان لو»، وكانت تعرف أنها رفضت بالأمس ثلاث دعوات موجهة إليها من قبل بعض الدوقات. ولكن حتى ولو أن اسمها يرفع، إلى حد ما، من سوية الوسط الأقل أرستقراطية الذي كانت تستقبله، فإن هذا الوسط الذي تستقبله المركيزة كان وبحركة معاكسة يقلل من شأن الاسم الذي تحمله. لا شيء يمكنه مقاومة حركات كهذه، وأكبر الأسماء سوف تؤول إلى السقوط. ألم يعرف «سوان» تلك الأميرة من بيت فرنسا (La maison de France) التي فقد صالونها مرتبته لأنها كانت تستقبل فيه كل الناس؟ في اليوم الذي ذهبت فيه الأميرة «دي لوم»، بنوع من أنواع الواجب، لتقضي بعض الوقت مع جلالتها، فلم تجد إلا أناساً لا معنى لهم. ثم عندما ذهبت بعد ذلك إلى بيت السيدة «لوروا» (Le roi) قالت لـ«سوان» وللمركيزة «دو مودين» (de Modène): «أخيراً وجدت نفسي في بلد صديق. لقد أتيت من بيت الكونتيسة فلانة...، ولم يكن هنك ثلاثة وجوه معروفة. أي أنها كانت توافق رأي إحدى شخصيات الأوبيريت الذي أعلن: «إن اسمي يعفيني، على ما أظن، من أن أقول المزيد». وبدأت تبدي احتقارها لكل ما حلمت به طويلاً، وراحت تعلن أن سكان حي «سان جيرمان» هم أغبياء ولا يمكن معاشرتهم، وأتبعت أقوالها بالأفعال وامتنعت عن الاختلاط بهم. إن الناس الذين تعرفوا عليها بعد تلك الفترة، والذين في بداية معرفتهم بها، سمعوا دوقة «غيرمانت»

هذه تسخر بطريقة مضحكة من المجتمع الراقي الذي تستطيع مقابلته بسهولة، أدركوا أنها لم تكن تستقبل أي شخص ينتمي لهذا المجتمع، وإن تجرأ أحد أفراده، وحتى أذكاهم، على زيارتها، كانت تتثاءب في وجهه. كان هؤلاء الأشخاص الحديثو المعرفة بها، يحمرون خجلاً لأنهم انبهروا ببعض مظاهر هذا العالم الكبير، ولم يجرؤوا أبداً على البوح بضعفهم الماضي لامرأة كانوا يعتقدون أنها بسبب ترفعها الطبيعي، لا يمكنها أن تفهم مواطن الضعف هذه. كانوا يسمعونها تسخر بمهارة من الدوقات، وكانوا يرونها، وهذا أمر أشد دلالة، تساوق بين سلوكها وبين هذه السخرية! لا شك أنهم ما كانوا يتوقون لمعرفة أسباب الحادث الذي جعل من الآنسة «سوان» الآنسة «دو فورشفيل»، ومن الآنسة «دو فورشفيل» المركيزة «دو سان لو» ثم دوقة «غيرمانت» فيما بعد. ربما لم يكونوا يفكرون أيضاً بأن هذا الحادث لن يخدم، لا بنتائجه ولا بأسبابه، في تفسير الموقف اللاحق لـ«جيلبيرت»، ذلك أن مصاحبة الدهماء لم تكن مماثلة للطريقة نفسها التي تتصورها الآنسة «سوان» أو التي تتصورها سيدة يدعوها الجميع «السيدة الدوقة»، وكانت الدوقات اللواتي يسببن لها الملل هن «ابنة عمي». إننا نحتقر بسهولة هدفاً لم ننجح في تحقيقه أو هدفاً حققناه تماماً. ويبدو لنا أن هذا الاحتقار يشكل جزءاً من الأشخاص الذين لا نعرفهم. لو تمكّنا من العودة إلى الماضي، هل كنا سنجدهم ممزقين بعنف، أكثر من أي شخص، بسبب هذه الأخطاء نفسها التي استطاعوا التستر عليها بشكل كامل أو تغلبوا عليها بحيث لا نعتقد فقط أنهم منزّهون عن ارتكاب تلك الأخطاء، بل عن مسامحة الآخرين إذا ارتكبوها، لأنهم عاجزون عن تصور وجودها. ومن جهة أخرى فقد اتخذ صالون الماركيزة الجديدة «دو سان لو» طابعه النهائي (على الأقل في نظر المجتمع، لأننا سنرى بعد ذلك أية اضطرابات سوف يعاني منها بالتالي). إلا أن هذا الطابع كان مفاجئاً في تلك الناحية. لا نزال نذكر أن الاستقبالات الأكثر فخامة والأكثر رقياً في باريس، تلك التي تعادل في بريقها استقبالات أميرة

«غيرمانت»، كانت حفلات استقبال السيدة «مارسانت» أم «سان لو». ومن ناحية أخرى، في الآونة الأخيرة، ما كان صالون «أوديت» المصنف بشكل أقل بكثير، يقل عنها روعة بسبب فخامته وأناقته. إلا أن «سان لو» الذي أسعده الحصول على كل ما كان يشتهيه من رغد بسبب ثروة زوجته، لم يكن يفكر في أكثر من أن يرتاح بعد عشاء جيد كان فيه الفنانون يقدمون له الموسيقى الراقية. وهذا الشاب الذي بدا في يوم من الأيام شديد الفخر والطموح كان يدعو بعض الأصحاب الذين كانت أمه تستقبلهم، لمشاطرته ترفه. أما «جيلبيرت» فقد كانت من طرفها تطبق قول «سوان»: «إن النوعية لا تهمني كثيراً ولكنني أخشى الكمية». و«سان لو» الذي كان جاثياً أمام زوجته، لأنه يحبها ولأنه بفضلها كان يتمتع بهذا الرخاء، لم يكن يقوى على معارضة أهوائها القريبة جداً من أهوائه. بحيث إن كل حفلات الاستقبال الكبيرة التي أقامتها السيدة «دو مارسانت» والسيدة «دو فورشفيل» خلال سنوات وخاصة بمناسبة الزواج الباهر لولديهما، لم تشمل أبداً هذه الدعوات قط السيد والسيدة «دو سان لو». كانا يملكان أجمل الخيول ويمتطيانها، وأجمل يخت للرحلات البحرية - وما كانا يصطحبان فيه أكثر من مدعوين فقط؛ وبنوع من التراجع الطبيعي ولكن غير المتوقع، استعاضا في النهاية بعش صامت، بدل بيتَي الطيور الكبيرين اللذين كانت تمتلكهما والدتاهما.

إن الشخص الذي استفاد في أقل درجة من هذين الزواجين، هو الآنسة «دولورون» التي كانت مصابة بالحمى التيفية يوم الزواج الكنسي، فجرّت نفسها جراً إلى الكنيسة وماتت بعد أسابيع. وبطاقة نعيها التي كُتبت بعد موتها بأيام قليلة كانت تجمع بالإضافة إلى أسماء عديدة مثل «جوبيان» كل أسماء عظماء أوروبا من أمثال الفيكونت والفيكونتيسة «دو مونمورانسي» (de Montmorency)، وصاحبة الجلالة، والكونتيسة «دو بوربون - سواسون» (de Bourbon - Soissons) والأمير «دو مودين - إيست» (de Modène-Este)، والفيكونتيسة «دي ايدوميا» (d'Edumea)

والليدي «اسيكس» (Essex)، إلخ، إلخ. ولكن حتى بالنسبة للذين يعرفون أن المرحومة هي ابنة «جوبيان» فإن عدد هذه العلاقات العائلية الكبرى لم يكن مفاجئاً. كل ما يتطلبه الأمر هو الحصول على صلة قربى مع عائلة كبيرة. وهكذا فإن حالة التضامن قد لعبت دورها، وموت الفتاة التي تنحدر من عامة الشعب جعل جميع عائلات الأمراء الأوروبيين في حالة حداد. لكن الكثير من شبان الجيل الجديد الذين لم يكونوا يعرفون الوضع الحقيقي، بالإضافة إلى أنهم كانوا يستطيعون الاعتقاد أن «ماري أنطوانيت دولورون» (Marie-Antoinette d'Oloron)، مركيزة «كامبريمير» هي سيدة نبيلة المولد، وقد يرتكبون الكثير من الأخطاء كذلك لدى قراءتهم بطاقة النعي تلك. ولو أن تجوالهم عبر فرنسا عرفهم قليلاً بمنطقة «كومبري»، فإنهم لدى رؤيتهم أسماء السيدة «ل. دو ميزيغليز» (L. de Méséglise) والكونت «دو ميزيغليز» في أول الأسماء وبالقرب من اسم الدوق «دو غيرمانت» لن يدهشوا للأمر: إن جانب منازل «غيرمانت» وجانب منازل «ميزيغليز» قريبان جداً من بعضهما، فطبقة النبلاء العتيقة التي تعيش في نفس المنطقة ربما تصاهرت من بعضها منذ أجيال عديدة، هذا ما كانوا سيقولون. من يدري؟ ربما هو فرع من الـ«غيرمانت » هذا الذي يحمل اسم «ميزيغليز». «إلا أن الكونت «ميزيغليز» لم تكن له أي علاقة مع الـ«غيرمانت» حتى أنه لا يشكل فرعاً جانب منازل «غيرمانت» بل جانب منازل «كامبريمير»، لأن الكونت «دو ميزيغليز»، الذي بسبب تقدمه السريع، لم يبق إلا سنتين باسم «لوغراندان دو ميزيغليز»، إنه صديقنا القديم «لوغراندان». لقب مزيف من أجل لقب مزيف، لا شك أنه لم يكن هناك شيء يكرهه الـ«غيرمانت» أكثر من كرههم هذا الشخص. لقد كانوا فيما مضى أقرباء لكونتات ميزيغليز» الحقيقيين، الذين لم يتبق منهم إلا امرأة واحدة، ابنة أناس غامضين ومزعجين وقد تزوجت من مزارع كبير اغتنى لأن خالتي اشترت منه «ميروغران» (Mirougrain)، لقد كان اسمه «ميناجيه» (Ménager)، وهو الآن يلقب نفسه «ميناجيه دي ميروغران»،

بحيث يقال إن زوجته قد وُلدت في «ميزيغليز» وإنها من «ميزيغليز» كما أن زوجها هو من «ميروغران».

إن أي لقب مزيّف آخر كان ليسبب مشاكل أقل بالنسبة للـ«غيرمانت». ولكن الأرستقراطية تحسن تحمل ذلك، وأشياء أخرى أيضاً، بمجرد أن يدخل في الموضوع أمر زواج يعتبر مفيداً من وجهة نظر ما. وهكذا بتغطية من دوق «غيرمانت» أصبح «لوغراندان» يخص قسماً من هذا الجيل، وسيغدو كذلك للبقية التي ستأتي فيما بعد، أي لعائلة الكونت «ميزيغليز» الحقيقي.

خطأ آخر قد يرتكبه أي قارئ شاب ليس على دراية تامة بالأمور، كأن يعتقد أن اسمَي البارون والبارونة «دو مورشفيل» كانا قد ذُكرا لأنهما من أهل وعائلة حمى المركيز «دو سان لو»، أي أنهما من جانب منازل «غيرمانت». ولكن لا يمكن أن يذكرا من ذلك الجانب لأن «روبير» هو الذي كان قريب الـ«غيرمانت» وليس «جيلبيرت». كلّا، إن بارون وبارونة «دو فورشفيل» وعلى الرغم من المظهر الخادع، هما حقاً من أقرباء العروس، وليس من ناحية «كامبريمير»، وليس بسبب «غيرمانت» بل بسبب «جوبيان»، والذي يعرف قارئنا المضطلع بأن «أوديت» هي ابنة عمه الشقيق.

لقد انصب كل اهتمام السيد «دو شارلوس» بعد زواج ابنته بالتبني من المركيز الشاب «دو كامبريمير» الذي كانت ميوله مطابقة لميول البارون، ولكن دون أن تمنعه من اختياره كزوج للآنسة «دولورون». وكان من الطبيعي أن يقدر تلك الميول بشكل أكبر عندما أصبح أرمل. لكن ذلك لا يعني أن المركيز لم يكن يتحلى بصفات أخرى لتجعل منه صاحباً رائعاً للسيد «دو شارلوس». لكن الموضوع يتعلق برجل رفيع المقام، وهي خصلة لا ينكرها الشخص الذي قبل به في حياته الخاصة، كما أنها تجعل منه الرجل الملائم لأنه يحسن أيضاً لعبة الورق «الويست» (whist). لقد كان ذكاء المركيز الشاب لافتاً، وكما كان الناس يقولون في «فيتيرن»

(Féterne)، فهو لا يزال طفلاً، وكان إلى «جانب جدته» تماماً، متحمساً مثلها وموسيقياً أيضاً. وكان يعيد أيضاً بعض صفاتها ولكنها كانت بدافع الوراثة. وهكذا بعد وفاة زوجته بوقت قصير، تسلمت رسالة موقعة باسم «ليونور» (Léonor)، وحسب ما أذكر فإن هذا الاسم الصغير لم يكن اسمه، وعرفتُ فقط هوية الشخص الذي كتب لي عندما قرأت العبارة النهائية: «ثق بصدق عاطفتي». وعندما وضعت كلمة «صدق» في مكانها أضافت إلى اسم «ليونور» كنية «كامبريمير».

كان القطار قد وصل إلى محطة باريس ولم نزل أنا وأمي نتكلم عن هذين الخبرين، لكي لا يبدو لي الطريق طويلاً، أرادت أمي أن تحتفظ بهما للقسم الثاني من الرحلة ولم تطلعني عليهما إلا بعد أن اجتزنا مدينة ميلانو. لقد عادت أمي سريعاً إلى وجهة النظر التي كانت هي الوحيدة بالنسبة لها، إنها وجهة نظر جدتي. قالت أمي في البداية إن الخبر سيدهش جدتي، ثم قالت إنه سيحزنها، وكل ذلك كان يعني ببساطة أن جدتي كانت ستسر من خبر مدهش كهذا، وأن أمي لم تكن تتحمل أن تحرم جدتي من متعة ما، لذلك كانت تفضل الاعتقاد أن الامور تسير نحو الأفضل، وأن هذا الخبر لم يكن ليجلب لها إلا الحزن. ما كدنا ندخل إلى المنزل حتى شعرتْ أن الأسف الشديد الأنانية يكمن في عدم إشراك جدتي في كل هذه المفاجئات التي تدخرها الحياة لنا. وآثرتْ الاعتقاد أن هذه المفاجآت لن تبغت جدتي، بل تؤكد توقعاتها. كانت تحب أن ترى فيها تأكيداً لرؤى جدتي التنبئية، وبرهاناً على أن جدتي كانت تمتلك تفكيراً أكثر عمقاً، وبصيرة وصحة سليمتين أكثر مما نعتقد. ولكي تصل أمي إلى وجهة نظر الإعجاب الصافي تلك، بادرت قائلة: «ومع ذلك، من يدري، هل توافق جدتك المسكينة على ذلك؟ لقد كانت متسامحة جداً. ثم إنك تعرف أن المكانة الاجتماعية لم تكن تعني لها شيئاً، المهم هو هذا التميّز الطبيعي. لكن تذكّرْ، تذكّرْ، كم هذا غريب، لقد أعجبتْ بكلتيهما. هل تذكر تلك الزيارة الأولى للسيدة «فيلباريسيس»، عندما عادت وعبّرت لنا عن شعورها

بأن السيد «دو غيرمانت» شخص عادي، في حين أنها أثنت كثيراً على «جوبيان». يا لأمي المسكينة، هل تذكر؟ كانت تقول عن الأب: لو كان عندي فتاة أخرى لكنت زوجتها إياه، وابنته هي أيضاً أفضل منه. و«سوان» الصغيرة كانت تقول عنها: إنها رائعة، سوف ترون، إنها ستوفّق في زواج جيد. يا لأمي المسكينة، لو كان باستطاعتها أن ترى ذلك، لقد صدقت تنبؤاتها! حتى النهاية، وعلى الرغم من أنها رحلت عنا، إلا أنها تستمر في إعطائنا دروساً في البصيرة والطيبة وحسن تقدير الأشياء. وبما أننا كنا نتألم لحرمان جدتي من هذه المسرات فإنها كانت مسرات صغيرة ومتواضعة في الحياة: كنبرة صوت ممثل كان من الممكن أن تسليها، أو طبق كانت تحبه، أو رواية جديدة لكاتب كانت تفضّله. كانت أمي تقول: «كم ذلك سيدهشها»، أو كم كان سيسليها! بأية رسالة جميلة كانت سترد! «وكانت أمي تستطرد قائلة: «هل تعتقد أن «سوان» المسكين الذي كان يتمنى كثيراً أن تستقبل عائلة الـ«غيرمانت» ابنته «جيلبيرت»، هل كان سيسعد إذا أصبحت ابنته فرداً من عائلة «غيرمانت»؟ - باسم غير اسمه، أن تقاد إلى مذبح الكنيسة تحت اسم الآنسة «دو فورشفيل»، هل تعتقد أنه كان سيفرح لذلك؟ - آه، حقاً، لقد نسيت - السبب الذي منعني من أن أفرح من أجل هذه الصغيرة «الشريرة» هو أن قلبها طاوعها على ترك اسم أبيها الذي كان طيباً جداً معها - أجل، معكِ حق، في النهاية، ربما كان من الأفضل لها ألا تعلم بذلك». بالنسبة للأموات كما بالنسبة للأحياء، لا يمكننا أن نخمّن إذا كان هذا الأمر سيسبب لهم السعادة أم الحزن! يبدو أن عائلة «سان لو» سوف تسكن في «تانسونفيل» (Tansonville). إن الأب «سوان» الذي كان يرغب كثيراً في أن يعرّف جدَك المسكين على مستنقعه، هل كان بإمكانه أن يفترض أن دوق «غيرمانت» كان سيراه بكثرة، وخاصة إذا علم بزواج ابنه المخزي؟ في النهاية، أنتِ الذي حدثتِ «سان لو» مطولاً عن الأشواك الزهرية وعن الليلك والسوسن في «تانسونفيل»، سوف يفهمك بشكل أفضل. إنه هو الذي سوف يمتلكها». وهكذا كان يدور في قاعة

الطعام في بيتنا، وعلى ضوء المصباح الصديق، كان يدور أحد تلك الأحاديث فتستحوذ حكمةُ العائلات، وليس حكمة الشعوب، على بعض الأحداث، كالموت أو الخطبة أو الميراث أو الإفلاس، ثم تضعها تحت عدسة الذاكرة المكبرة، فتزيدها نتوءاً، وتفصل، وتؤخر، وتضع في المنظور وفي النقاط المختلفة من المكان والزمان، ما يبدو بالنسبة للذين لم يعرفوها، أن أسماء المتوفين والعناوين المتلاحقة وأصول الثروة وتغيراتها، وانتقال الملكية قد اختلطت على سطح واحد. ألم تكن هذه الحكمة من وحي الإلهَة التي يجب أن نتنكر لها أطول وقت ممكن، إذا أردنا الاحتفاظ ببعض الانطباعات الطازجة أو ببعض الفضائل الخلاقة؟ ولكن حتى أولئك الذين تجاهلوها سوف يقابلون في إحدى أماسي حياتهم، في أحد أروقة الكنيسة الريفية القديمة، وفي ساعةٍ يشعرون فيها فجأة أنهم أقل تحسساً للجمال الأزلي الذي تعبّر عنه منحوتات المذبح، من تحسسهم لمعرفتهم الأقدارَ المختلفة التي ستعيشها تلك المنحوتات، فتنتقل من المجموعات الخاصة إلى كنيسة صغيرة ثم إلى متحف ثم تعود إلى الكنيسة مجدداً، أو من تحسسهم أنهم حين يسيرون فإنهم يطأون بلاطة تكاد تكون عاقلة، ومصنوعة من بقايا رماد «أرنو» (Arnauld) أو «باسكال» (Pascal)(*)؛ أو أنهم بكل بساطة تخيلوا ربما وجه فتاة ريفية نضرة أثناء محاولتهم قراءة أسماء بنات الأعيان أو النبلاء الريفيين من على اللوحة النحاسية للمصلى الخشبي، وسوف يقابلون ربة الإلهام التي جمعت كل ما رفضته ربات الإلهام من فلسفة وفنون، كل ما هو غير مؤسس حقاً، وكل ما هو عرضي، ولكنهم سيكتشفون قوانين أخرى: هل سيكتشفون التاريخ؟

لقد جاءت بعض صديقات أمي القديمات، وكلهن من «كومبريه» تقريباً، لرؤيتها والتحدث معها عن زواج «جيلبيرت» الذي لم ينشدهن له

(*) في القرن السابع عشر لمع اسم «أرنو» اللاهوتي و«باسكال» العالم والمساجل. وكانا كلاهما من مؤيدي اللاهوت الجانسيني المأساوي. (المترجم)

إطلاقاً. هل تعرفين من هي الآنسة «دو فورشفيل»؟ إنها ببساطة الآنسة «سوان». وشاهِدُها في عقد الزواج البارون «دو شارلوس» كما كان يلقب نفسه؛ ليس سوى ذلك الكهل الذي كان يرعى فيما مضى أمها على مرأى ومسمع من «سوان» الذي كان يرى في ذلك مصلحته». فاحتجت أمي قائلة: - «ولكن ما هذا الذي تقلنه؟ أولاً لقد كان «سوان» غنياً جداً. - يجب أن يصدق المرء أنه لم يكن على هذه الدرجة من الثراء كي يحتاج إلى مال الآخرين. ما الذي تمتلكه تلك المرأة إذن لكي تسيطر على عشاقها بهذه الصورة؟ لقد وجدت الوسيلة لكي يتزوجها الأول ثم الثالث وها هي تكاد تنشل الثاني من القبر لكي تستخدمه كشاهد على زواج ابنتها من عشيقها الأول أو من عشيق آخر فكيف يستطيع الإنسان أن يتعرف على نفسه وسط هذه الكمية؟ هي نفسها لم تعد تعرف أي شيء! أقول الثالث، ولكن يجب أن نقول إنه رقم ثلاث مئة. فيما تبقى فأنتِ تعرفين أنها ليست من عائلة «فورشفيل» أكثر منك أو مني، وهذا يتناسب تماماً مع الزوج الذي هو بطبيعة الحال ليس نبيلاً. تعرفين أنه يجب أن يكون الرجل مغامراً ليتزوج من تلك الفتاة. يبدو أنه السيد «فلان» أو «علان»، أو أي شيء من هذا القبيل. ولو لم يوجد حالياً في «كومبريه» هذا العمدة الراديكالي الذي لا يسلّم حتى على الكاهن، لكنت عرفت أدق التفاصيل. إنه شيء جميل جداً بالنسبة للصحف وأصحاب دكاكين القرطاسية الذين يبعثون بطاقات الدعوات الخاصة ويذيّلونها بلقب الماركيز «دو سان لو». هذا أمر لا يزعج أحداً، وإنْ أمتعَ هؤلاء الناسَ البسطاء، فلست أنا الذي سيعيب عليه هذا، لأنه لا يؤثر فيّ بأي شكل من الأشكال. كيف لا أعاشر ابنة امرأة جعلت الناس ينالونها بأحاديثهم كثيراً، فبإمكانها أن تكون مركيزة تحكم سيطرتها على خادماتها. ولكن الأمر مختلف تماماً في سجلات الأحوال المدنية. آه لو أن ابن عمي «سازيرا» (Sazerat) ما زال المعاون الأول في هذه المؤسسة، لكنت كتبت له، ولأخبرني تحت أي اسم بالضبط سجّلَ الزواج».

من ناحية أخرى كنت أرى في تلك الفترة بكثرة «جيلبيرت» التي عادت علاقتي بها من جديد، لأن حياتنا على طولها، ليست محسوبة حسب حياة صداقاتنا. بعد مرور فترة من الوقت نرى من جديد ظهور علاقات صداقة بين نفس الأشخاص الذين كانوا أصدقاء فيما مضى (كما في السياسة تعود بعض الوزارات وكما تعود إلى المسرح بعض المسرحيات المنسية فيعاد تمثيلها). بعد مرور عشر سنين يفقد هذا المرء الأسباب التي دفعته للحب بشدة ويفقد هذا الآخر الأسباب التي جعلته لا يطيق تحمّل هذا التسلط الشديد التطلب، إن هذه الأسباب لم تعد موجودة. وحدها اللياقة تبقى، وكل ما رفضت أن تعطيني إياه «جيلبيرت» فيما مضى، سوف تعطيني إياه بسهولة لأني لم أعد أرغب فيه. وما بدا لها غير مقبول أو مستحيلاً آنذاك، دون أن يعرب المرء أبداً عن سبب التغيير، فإنها سوف تكون مستعدة دائماً لتأتي إليّ، غير مستعجلة لهجري، ذلك لأن الحاجز قد اختفى: ألا وهو حبي.

كنت سأذهب بعد حين لقضاء عدة أيام في «تانسونفيل». في الواقع كان هذا السفر يزعجني لأنه كان عندي فتاة تنام في البيت الذي استأجرته كموطئ قدم لي في باريس. كما يحتاج البعض إلى عطر الغابة وخرير النهر، كنت أحتاج إلى نومها بالقرب مني ليلاً، وبقائها تلاصقني في سيارتي، نهاراً. الحب لا يُنسى ولكنه يحدد شكل الحب الذي سوف يتبعه. حتى العادات اليومية التي كانت موجودة في حبنا السابق، والتي لم نعد نذكر أصلها! إنه قلق اليوم الأول الذي جعلنا نتمنى بشغف بعض الأشياء، ثم نتخذها بشكل دائم كالعودة بالسيارة إلى بيت الحبيبة، أو إسكانها في بيتنا، أو وجودنا أو وجود شخص نثق به في كل هذه النزهات: كل هذه العادات هي نوع من الطرق الكبيرة الموحدة في شكلها التي يعبرها حبنا كل يوم والتي انصهرت سابقاً في النار البركانية لعاطفة متأججة. لكن هذه العادات تبقى حتى بعد رحيل ذكرى المرأة، فتغدو الشكل المعتمد لجميع قصص حبنا، أو على الأقل لبعض القصص التي

يمكن أن تتناوب فيما بينها. وهكذا فقد فرض عليَّ، كذكرى لـ«ألبيرتين» المنسية، وجود عشيقتي الحالية التي أخفيتها عن زائري والتي ملأت حياتي كما ملأتها «ألبيرتين» في السابق. وكي أذهب إلى «تانسونفيل» أصررت على أن تقبل بأن يحرسها في غيابي لعدة أيام أحد أصدقائي الذين لا يحبون النساء. ذهبتُ لأنني علمتُ أن «جيلبيرت» بائسة لأن «روبير» قد خدعها، ولكن ليس بالطريقة الذي يظنها الناس، والتي تظنها هي، كما قالت على أية حال. لكن حب الذات، والرغبة في خداع الآخرين، وخداع أنفسنا والمعرفة الناقصة بالخيانات، التي هي معرفة جميع المخدوعين، خاصة وأن «روبير» الذي هو فعلاً ابن أخ السيد «دو شارلوس»، كان يتعمّد الظهور بصحبة عدد من النساء مما أساء لسمعتهن فاعتقد الناس و«جيلبيرت» أيضاً أنهن عشيقاته... وفي أوساط المجتمع كنا نلاحظ انه لا يخجل من ملاحقته الشديدة لإحدى النساء في السهرات ثم إيصالها إلى بيتها، تاركاً السيدة «دو سان لو» تتدبّر أمر عودتها كيفما تيسّر لها. من كان يجرؤ على القول إن تلك المرأة التي كان يورطها بهذه الطريقة، لم تكن في الواقع عشيقته، فيُعتبر ساذجاً وأعمى أمام الحقيقة الساطعة. ولكنني لسوء الحظ وجدت الحقيقة التي سببت لي ألماً لا يوصف، بسبب عدة كلمات قالها «جوبيان» عن غير قصد. كم كانت دهشتي عظيمة حين ذهبت قبل عدة أشهر من سفري إلى «تانسونفيل» لأسأل عن أخبار صحة السيد «دو شارلوس» الذي كان يعاني من اضطرابات قلبية مقلقة للغاية، وحينما تحدثت مع «جوبيان»، الذي وجدته بمفرده، عن رسالة غرامية موجهة إلى «روبير» ومذيلة بتوقيع «بوبيت» ليس إلا عازف الكمان ومدوّن الأخبار الذي تحدثنا عنه والذي لعب دوراً كبيراً في حياة «دو شارلوس»! كان «جوبيان» يتحدّث عنه بتقزز قائلاً: «كان هذا الصبي حراً يتصرف على هواه. ولكن إذا كانت هناك ناحية لا يحق له أن ينظر إليها، فهي ناحية ابن أخ البارون. لا سيما وأن البارون كان يحب ابن أخيه كما لو كان ابنه؛ لقد حاول تهديم تلك العائلة، يا للعار! فكان

لا بدّ من أن يضع حيلاً جهنمية، إذ كان المركيز «دو سان لو» بطبيعته يعارض تلك الأشياء أكثر من أي شخص كان. هل اقترف كثيراً من الحماقات من أجل عشيقاته! لا، لقد ترك هذا العازفُ البارونَ بطريقة قذرة، ويمكننا أن نقول ذلك إذ كانت القذارة اختصاصه. ولكن أن يتحول إلى ابن الأخ! فهذه أشياء لا يقبل بها أحد. لقد كان «جوبيان» صادقاً في استيائه؛ فإنه عند الأشخاص اللاأخلاقيين، يكون الحس الأخلاقي قوياً كما هي الحال بالنسبة للأشخاص الآخرين، ولكن موضوع الاستياء هو الذي يتغير. بالإضافة إلى ذلك فإن الأشخاص الذين لا يكون قلبهم هو المستهدف مباشرة، يستطيعون الحكم على العلاقات التي يجب تفاديها، والزيجات السيئة، كما لو أن الناس أحرار في اختيار من يحبون، فهم لا يأخذون بعين الاعتبار الملذات التي يبرزها الحب والتي تغلف بشكل كامل ومتفرد الشخص المعشوق، حتى أن «الحماقة» التي يرتكبها رجل ما حين يتزوج من طباخة أو من عشيقة أعز صديق له، هي على وجه العموم التصرف الشاعري الوحيد الذي يقوم به خلال حياته كلها.

علمت أن قطيعة كادت تقع بين «روبير» وزوجته (وذلك دون أن تعي «جيلبيرت» ماذا حصل تماماً) وكانت السيدة «دو مارسانت» التي هي أم مُحبّة وطموحة وفيلسوفة هي التي أصلحت كل شيء وفرضت المصالحة. كانت تنتمي إلى تلك الأوساط التي يتم فيها باستمرار التزاوج بين الأقارب، مما يجعل الثروات تتناقص، فتتفاقم في مجال الأهواء الرذائلُ والشبهات المتوارثة والمصالح أيضاً. وهكذا فقد دافعت بنفس الحمية القديمة عن زواج السيدة «سوان» وزواج ابنة «جوبيان» وزواج ابنها من «جيلبيرت»، مستخدمة من أجله، وبإذعان مؤلم، نفس الحكمة الموروثة التي وظّفتها لمصلحة الحيّ بأكمله. ألم تسرّع كثيراً هي نفسها زواج «روبير» من «جيلبيرت» في وقت من الأوقات مما كلفها مشقة وحزناً أقل مما سببتها لها قطيعته مع «راشيل» (Rachel)؟ وخشيت أن يعيد الكرّة مع امرأة سخيفة أخرى - أو ربما مع «راشيل» نفسها لأن «روبير» لم ينسها

بسهولة - ظناً منه أنه يجد خلاصه في هذا الزواج الجديد. لقد فهمتُ الآن ما أراد «روبير» أن يخبرني به في بيت أميرة الـ«غيرمانت» إذ قال: «من المؤسف أن صاحبتك القديمة في «بالبيك» لا تملك الثروة التي تتطلبها أمي، أعتقد أننا كنا سنتفاهم نحن الاثنين». لقد أراد أن يقول إنها من مدينة «عمورة» كما أنه هو من مدينة «سادوم»، وحتى وإن لم يكن قد أصبح كذلك، فهو لم يكن يستمتع إلا بالنساء اللواتي يستطيع أن يحبهن بوضعية من الوضعيات وبوجود نساء أخريات. لقد كان بإمكان «جيلبيرت» كذلك أن تخبرني عن ألبيرتين. لو أنني، باستثناء بعض التراجعات، لم أفقد الفضول لمعرفة أي شيء عن صديقتي، لكان بإمكاني سؤال «جيلبيرت» وحتى زوجها عن ألبيرتين. في الواقع لقد كان ذلك هو الدافع نفسه الذي دفعنا أنا و«روبير» إلى الرغبة في الزواج من ألبيرتين (أي أنها تحب النساء). لكن أسباب رغبتنا، وكذلك أهدافها كانت متعارضة. فكان دافعي أنا هو اليأس الذي أحسست به حين علمت بالأمر، أما «روبير» فقد كان دافعه الرضى؛ أنا لكي أمنعها عن ممارسة أهوائها بواسطة مراقبتي الدائمة لها، أما «روبير» فقد كان من أجل تنمية هذا الميل لديها عن طريق الحرية التي كان يتركها لها في استقبال صديقاتها.

إذا كان «جوبيان» يعيد إلى وقت قريب نبأ الميل الجديد، المختلف تماماً عن الأول، والذي توجهت نحوه أهواء «روبير» الجسدية، فإن حديثاً جرى بيني وبين «إيميه» قد آلمني كثيراً وأظهر لي أن مدير مطبخ «بالبيك» القديم يعيد هذا الاختلاف وهذا الانقلاب إلى تاريخ أبعد من ذلك بكثير.

كانت مناسبة هذا الحديث إقامتي في «بالبيك» لعدة أيام، حيث كان «سان لو» في إجازة طويلة، وقد جاء مع زوجته التي لم يكن يبتعد عنها في البداية مقدار خطوة واحدة. لقد أعجبتُ بتأثير «راشيل» الواضح على «روبير». إن عريساً جديداً كانت له عشيقة لفترة طويلة، هو الوحيد الذي يعرف نزع معطف زوجته قبل الدخول إلى المطعم، ويعرف كيف يعاملها بالتقدير والاحترام اللازمين. لقد تلقى خلال علاقته التربيةَ التي يجب على

الزوج الصالح معرفتها. على مقربة منه، وعلى طاولة مجاورة لطاولتي، كان يجلس «بلوك» (Bloch) وسط مجموعة من الجامعيين الأدعياء الشباب، متظاهراً كذباً بأنه على سجيته، وهو ينادي عالياً أحد أصدقائه ويمرر له بتباه لائحة الطعام بحركة أدت إلى وقوع إبريقي ماء: «لا، لا يا عزيزي اطلب عني! طوال حياتي لم أعرف كيف أختار وجبة، وكيف أطلبها طوال حياتي!»، كرّر ذلك في تفاخر غير صادق، مازجاً بين الأدب والشراهة للطعام، ثم وافق بسرعة على زجاجة شمبانيا كان يحب أن يراها وهي تزيّن الحديث بصورة رمزية تماماً. أما «سان لو» فكان يعرف ماذا يجب أن يطلب. كان جالساً بالقرب من «جيلبيرت» الحامل (والتي لم تتوقف فيما بعد عن إنجاب الأولاد له) وكان ينام بالقرب منها على السرير المزدوج في الفندق. لم يكن يكلم إلا زوجته، وباقي من في الفندق بدا وكأنه غير موجود بالنسبة إليه، ولكن في اللحظة التي كان يقترب منه نادل الفندق ليسجل طلبه، كان يرفع بسرعة عينيه الفاتحتين ويرميه بنظرة لا تستمر أكثر من ثانيتين، ولكنها بوضوح بصيرتها كانت تشهد على نمط من الفضول والبحث المختلفين تماماً عن الدافع الذي يحرك أي زبون آخر حين ينظر مطولاً إلى صياد أو بائع متجول لكي يكوّن عنه انطباعات هزلية يرويها فيما بعد لأصدقائه. إن هذه النظرة القصيرة واللامبالية كانت تدل على أن النادل قد لفت انتباهه بحد ذاته، وكشف للأشخاص الذين كانوا يراقبونه أن هذا الزوج المثالي والعشيق الذي تدله بحب «راشيل» في السابق، كان له في حياته مخطط آخر أهم بكثير من هذا الذي يقوم به بحكم الواجب. ولكن الأمر لم يكن يظهر إلا أثناء ذلك. فقد عادت عيناه إلى «جيلبيرت» التي لم تلحظ شيئاً، فعرّفها على أحد أصدقائه ثم ذهب للتنزه بصحبتها. لكن «إيميه» حدثني عن زمن أقدم بكثير أيضاً، زمن تعرفتُ فيه على «سان لو» عن طريق السيدة «فيلباريسيس»، هنا في «بالبيك».

قال لي: «أجل يا سيدي، هذا معروف تماماً، وأنا أعرفه منذ زمن بعيد. في السنة الأولى من إقامته في «بالبيك» كان السيد المركيز يختلي مع

صبي المصعد بحجة أنه يريد تظهير صورة السيدة جدّة السيد. لقد حاول الصبي أن يشتكي، وقد واجهنا مشقة كبيرة لخنق القصة. إن السيد يتذكر بلا شك اليوم الذي أتى فيه للغداء في المطعم بصحبة المركيز «دو سان لو» وعشيقته التي كان يتخذها كستار له. وربما يتذكر السيد أيضاً أن المركيز قد غادر مفتعلاً سورة من الغضب. أنا لا أريد القول إن السيدة على حق، فقد كانت تريه نجوم الظهر. لكن في ذلك اليوم لا يمكن لأحد إقناعي بأن غضب السيد لم يكن مفتعلاً وأنه كان بحاجة إلى إبعاد السيد والسيدة. ولكن في ذلك اليوم بالذات، إذا لم يكن «إيميه» يكذب متعمداً، فقد كان مخطئاً من البداية وحتى النهاية. لقد تذكرت تماماً الحالة التي كان عليها «روبير» والصفعة التي وجّهها للصحفي. وكذب عندما تكلم أيضاً عن «بالبيك»: إما أن صبي المصعد الذي كان يكذب أو أن «إيميه» قد كذب. على الأقل هذا ما اعتقدته، ولا يمكنني التوصل إلى يقين تام. إننا لا نرى إلا جانباً واحداً من الحدث، ولو أن هذا الموضوع لم يؤلمني إلى هذه الدرجة، لكنت وجدت في الأمر بعض الجمال، بينما كانت مهمة صبي المصعد عند «سان لو» بالنسبة إلي، الوسيلة المريحة لكي أوصل له رسالة وأستلم ردّه؛ أما بالنسبة له، فقد كان مناسبة للتعرف على شخص قد أعجبه. في الواقع، إن الأشياء مزدوجة على الأقل إن لم نقل أكثر. حول أسخف فعل نستطيع أن نفعله، يسهب رجل آخر في سلسلة من الأفعال المختلفة كلياً. من المؤكد أن مغامرة «سان لو» وصبي المصعد، في حال أنها قد حدثت فعلاً، فإنها لم تكن لتمثل لي أكثر من إرسال رسالة عادية، كما يكون الأمر بالنسبة لشخص لا يعرف من أعمال «فاغنر» (Wagner) إلا ثنائي «لوهنغرين» (*Lohengrin*)، فلا يربط بينه وبين استهلال «تريستان» (*Tristan*)، صحيح أن الأشياء لا تُظهر للناس إلا عدداً محدوداً من خصائصها اللامعدودة، وذلك لضحالة حواسهم. إنها ملونة لأننا نمتلك أعيناً. كم من الخصائص تفقد قيمتها لو كنا نمتلك مئات الحواس؟ بيد أنه من السهل أن نفهم هذا المظهر المختلف الذي تستطيع الأشياء

اتخاذه، إذا اعتبرنا أن أصغر حدث يمر معنا في هذه الحياة وعرفنا جزءاً منه ولكننا اعتبرناه الكل، فنظر إليه شخص آخر فرآه عبر نافذة أخرى مفتوحة من الجهة الأخرى للمنزل ومطلة على مشهد آخر. في حال أن «إيميه» لم يكن مخطئاً فإن احمرار وجه «سان لو» عندما حدّثه «بلوك» عن صبي المصعد لم يكن سببه الوحيد هو أنه كان يلفظ كلمة «صبي المصعد» بشكل خاطئ. لكني كنت مقتنعاً بأن تطور «سان لو» النفسي لم يكن قد بدأ في تلك المرحلة وأنه كان لا يزال يحب النساء فقط. وأكبر دليل على ذلك، أني عندما أعود إلى الوراء أستطيع أن أميّز الصداقة التي أبداها لي «سان لو» في «بالبيك». فهو لم يكن يقوى على القيام بصداقة حقيقية إلا لأنه كان لا يزال يحب النساء فقط. وبعد ذلك، وخلال فترة من الزمن على الأقل، كان يتجاهل الرجال الذين لم يكونوا يثيرون اهتمامه بشكل مباشر، وكان صادقاً جزئياً في تجاهله لهم على ما أظن، لأنه غدا بارداً جداً وكان يغالي في موقفه ليظهر أنه لا يهتم إلا بالنساء. ولكني مع ذلك تذكرت أنه في أحد الأيام في «دونسيير»، عندما ذهبت للعشاء في بيت عائلة «الفيردوران» (Verdurin)، وبعد أن نظر مطولاً إلى «شارلي» (Charlie) قال لي: «يا للغرابة، لقد أخذ هذا الصغير شيئاً من ملامح «راشيل». ألا يدهشك ذلك؟ أرى أنهما يتماثلان في عدة أشياء. على أية حال هذا لا يعنيني. ومع ذلك فقد بقيت عيناه طويلاً ساهمتين في الأفق كما يحصل لنا عندما نفكر قبل أن نستأنف لعبة ورق أو قبل الذهاب للعشاء في المدينة، فنتذكر أحد تلك الأسفار التي نعتقد أننا لن نقوم بها قط والتي مع ذلك شعرنا للحظة بالحنين إليها. ولكن إذا كان «روبير» يجد في «شارلي» شيئاً من «جيلبيرت»، فإن «جيلبيرت» كانت تسعى للتشبه بـ«راشيل» لكي تعجب زوجها، فكانت تضع مثلها في شعرها عقدة من الحرير الأحمر الفاقع أو الزهري أو الأصفر، وتسرّح شعرها مثلها لأنها كانت تحسب أن زوجها لا يزال يحبها وكانت تغار منها. من الممكن أن حب «روبير» كان في بعض اللحظات يقع على الحدود التي تفصل حب

الرجل للمرأة عن حب الرجل للرجل. على أية حال فإن ذكرى «راشيل» لم تكن تلعب في هذا الصدد إلا دوراً جمالياً. ومن المرجح أنها لم تلعب فيما مضى أدوراً أخرى. ذات يوم طلب إليها «روبير» أن ترتدي زي رجل، وأن تترك إحدى خصلات شعرها الطويلة متدلية، ومع ذلك فقد اكتفى بالنظر إليها دون أن يشبع. وبالرغم من ذلك كله لم يخفف تعلّقه بها وظلّ يسدّد لها بدقة الريعَ الهائل الذي وعدها به، ولكن ذلك لم يمنعه لاحقاً بعد من استعمال أبشع الأساليب. لم تكن «جيلبيرت» لتتألم من كرمه تجاه «راشيل» لو أنها علمت أن مردّ هذا الكرم كان فقط الوفاء بوعد ليس للحب أية علاقة به. أما عن الحب، فقد كان بعكس ما يتظاهر به تجاه «راشيل». يمكن للمثليين أن يكونوا أفضل الأزواج في العالم لو أنهم لا يتظاهرون بحب النساء. وعلى أية حال فإن «جيلبيرت» لم تتذمر بسبب ذلك. فقد اعتقدت لفترة طويلة أن «راشيل» كانت تحب «روبير» وهذا ما جعلها ترغب فيه، وجعلها تتخلى من أجله عن فرص أجمل لها بكثير، لقد بدأ بزواجه منها وكأنه يقدّم لها نوعاً من التنازل. وفي الحقيقة أن المقارنة بين المرأتين لم تكن في الفترة الأولى (وكانتا متباينتين جداً من حيث السحر والجمال) لصالح «جيلبيرت» اللذيذة. ولكن تلك الأخيرة كانت تكبر في عين زوجها في حين كانت مكانة «راشيل» تتناقص بشكل ملحوظ.

وهناك شخص آخر قد كذّب نفسه، ألا وهو السيدة «سوان». إذ بدا «روبير» قبل زواجه بالنسبة لـ«جيلبيرت» محاطاً بالهالة المزدوجة التي خلقتها من جهة حياته مع «راشيل» التي كانت تكشفها باستمرار شكاوى السيدة «دو مارسانت»، ومن جهة أخرى افتتان والدها الدائم بعائلة «الغيرمانت» هذا الافتتان الذي ورثته عنه، فقد كانت السيدة «فورشفيل» تفضل بالمقابل زواجاً أكثر بهرجاً، وربما زواجاً أميرياً (فقد كانت هناك عائلات ملكية فقيرة تقبل بالمبلغ - الذي هو أقل بكثير من الثمانين مليوناً الموعودة - والذي نظّفه اسم «فورشفيل») وبصهر لم يفقد خطواته إلى هذه الدرجة بسبب الحياة التي قضاها بعيداً عن العالم. لكنها لم تستطع التغلب

على إرادة «جيلبيرت» فاشتكت بحرارة للجميع وفضحت صهرها. وذات يوم تغيّر كل شيء وغدا الصهر ملاكاً ولم يعد أحد يسخر منه إلا خفية. ذلك أن تَقدّم العمر أزال عن السيدة «سوان» (التي أصبحت السيدة «دو فورشفيل» ميلها القديم بأن تعيش على حساب أحدهم)، ولكن بسبب ابتعاد معجبيها عنها فقد حرمها من إمكانية تحقيق هذا الميل. كانت تحلم كل يوم بعقد جديد وثوب جديد مرصع بالأحجار البراقة وسيارة أكثر فخامة ولكنها كانت تملك ثروة صغيرة لأن لقب «فورشفيل» قد ابتلع كل شيء - أيّ طالعٍ يهودي يا ترى كان يتحكم بـ«جيلبيرت»؟ - كان عندها ابنة رائعة، ولكنها شديدة البخل، تعُدّ المال لزوجها، وتعدّه بدقة كبرى لأمها. ولكنها فجأة اشتمّت هذا المنقذ ووجدته فيما بعد بشخص «روبير». ولأنها لم تعد صبية شابة فلم يكن الأمر مهماً بالنسبة لصهر لا يعشق النساء. كل ما كان يطلبه من حماته هو أن تذلل هذه العقبة أو تلك بينه وبين «جيلبيرت»، فيحصل على موافقتها في أن تدعه يسافر مع «موريل» (Morel). وما إن تباشر «أوديت» بمسعاها، حتى تكافأ بياقوتة رائعة. ومن أجل ذلك وجب على «جيلبيرت» أن تكون أكثر كرماً مع زوجها. وكانت «أوديت» تعظها بذلك بحرارة شديدة لأنها كانت هي المستفيدة من ذاك الكرم. وهكذا وبفضل «روبير» استطاعت وهي على أعتاب الخمسين (والبعض يقول الستين) أن تُبْهِر كل مائدة أكلت عليها وكل سهرة بدت فيها بأناقة لا توصف وذلك دون أن تحتاج، كما في الماضي، إلى «صديق»، إذ لم تعد الآن تستطيع إيقاعه بجمالها أو تسييره إلى حديث تريد. وهكذا دخلت على ما يبدو مرحلة العفة النهائية ولم تعرف في حياتها أناقة أكثر من أناقتها الآن.

لم يكن الخبث وحده أو حقد الفقير القديم على سيده الذي أثراه (كان هذا في طبع السيد «دو شارلوس» أكثر مما هو في مفرداته) والذي أيضاً أشعره باختلاف مكانتيهما، هو الذي دفع «شارلي» باتجاه «سان لو» لكي ينكل بالبارون. ولكن ربما المصلحة كانت السبب في ذلك. شعرتُ

بأن «روبير» كان يجود عليه بالمال. وعندما التقيت به في إحدى السهرات قبل أن أذهب إلى «كومبريه»، وبسبب الطريقة التي يتعمد أن يظهر فيها إلى جانب امرأة أنيقة يظهرها وكأنها عشيقته، ويلتصق بها، بحيث يشكل معها كائناً واحداً، ويتغطى بتنورتها على الملأ، كل هذا ذكرني وربما بشيء أكثر عصبية وأكثر ارتعاشاً، بنوع من التكرار اللاإرادي لحركة قديمة كنت قد لاحظتها عند السيد «دو شارلوس»، الذي كان يغلف نفسه تماماً بمحيط السيدة «موليه» (Molé)، وهو يرفع راية حب النساء مع العلم أنه لم يكن هكذا، وكان يحب ذلك دون وجه حق، إما لأنه وجد فيها حماية وإما لأنه وجدها جميلة، فذهلت بالمقابل لرؤيتي هذا الفتى الذي كان كريماً جداً في فقره والذي أصبح الآن مقتصداً. أن يتعلق المرء بما يمتلكه فقط، وأن يدّخر آخر الذهب الذي نادراً ما كان يستطيع امتلاكه، كل هذا يشكل بلا شك ظاهرة عامة، ولكني رأيت أنها اتخذت هنا شكلاً خاصاً. لقد رفض «سان لو» استئجار عربة، ورأيت أنه احتفظ ببطاقة نقل في الترامواي. لا شك أن «سان لو» كان يظهر هنا، ولغايات مختلفة، المواهب التي اكتسبها خلال علاقته بـ«راشيل». إن الشاب الذي عاشر طويلاً إحدى النساء ليس عديم الخبرة كالفتى البكر الذي تكون زوجته هي المرأة الأولى التي عرفها. في المرات النادرة التي اصطحب فيها «روبير» زوجته إلى المطعم، كان يكفينا أن نرى الطريقة الماهرة والمحترمة التي يأخذ فيها أغراضها، وفنه في طلب العشاء، وكيف يخدم نفسه على المائدة، والاهتمام الذي يبذله وهو يمسد أكمام «جيلبيرت» قبل أن تعيد ارتداء سترتها، كي نفهم أنه كان لفترة طويلة عشيق امرأة أخرى، قبل أن يصبح زوج هذه المرأة. وكما كان يهتم بأدق تفاصيل بيت «راشيل» لأنها من جهة، لم تكن تفهم شيئاً في هذا المجال، ولأنه من جهة أخرى وبسبب غيرته أراد أن تكون له الكلمة الأخيرة في الأمور المنزلية، فقد استطاع عن طريق إدارة ممتلكات زوجته والعناية بالمنزل أن يستمر في لعب هذا الدور الماهر، وربما أيضاً لأن «جيلبيرت» لم تكن تحسن القيام به فتخلت له عنه طواعية، لكنه بلا شك

كان يقوم بهذا الدور لكي يستفيد «شارلي» من أدنى المدّخرات، فيستطيع بذلك أن يصرف عليه بسخاء دون أن تنتبه «جيلبيرت» لذلك أو تتألم. ربما أيضاً لاعتقاده بأن عازف الكمان مبذر «كحال جميع الفنانين» (هكذا كان «شارلي» يلقب نفسه بغير قناعة ولا فخر لكي يعتذر عن عدم الرد على الرسائل بسبب العديد من الأخطاء التي كان يعتقد أنها تشكل جزءاً أكيداً من نفسية الفنانين). أما أنا شخصياً فقد كنت أرى أن الأخلاق لا دخل لها في مسألة شعورنا بالمتعة مع رجل أم مع امرأة كما أنه من الطبيعي والإنساني جداً أن نبحث عمن نحب وحيث يمكن أن نجده. فلو لم يكن «روبير» متزوجاً لما كانت علاقته بـ«شارلي» لتزعجني في شيء. ومع ذلك كان يداخلني شعور بأن إحساسي سيكون بنفس الحدة لو أن «روبير» بقي عازباً. على أية حال، لم يكن يعنيني ما كان يفعله. ولكنني كنت أبكي عندما أفكر بأني شعرت فيما مضى تجاه «سان لو» المختلف، بعاطفة عميقة وأشعر أنه الآن بحركاته الجديدة الباردة والبعيدة لا يبادلني هذا الشعور، فمنذ أن غدا الرجال قادرين على إثارة رغباته، لم يعد بإمكانهم أن يثيروا مشاعر الصداقة لديه. كيف ولد ذلك في رجل طالما أحب النساء ورأيته يائساً لدرجة أنني خشيت فيها أن يقتل نفسه لأن «راحيل التي ذكرها الرب» أرادت أن تتركه؟ إن الشبه بين «شارلي» و«راشيل» - الذي اختفى عن أنظاري - كان كل تلك النقلة التي أتاحت الفرصة لـ«روبير» كي يتجاوز أذواق أبيه ويصل إلى أذواق عمه، وذلك ليكمل التطور الفيزيولوجي الذي ظهر عند هذا الأخير أيضاً في مرحلة متأخرة؟ ومع ذلك فقد كانت عبارات «إيميه» تقلقني أحياناً؛ تذكرتُ «روبير» تلك السنة في «بالبيك»، كانت طريقته في التحدث إلى صبي المصعد دون أن ينتبه إليه، قد ذكرتني كثيراً بطريقة السيد «دو شارلوس» عندما كان يخاطب بعض الرجال. ولكن يمكن أيضاً أن يكون «روبير» قد أخذ ذلك عن السيد «دو شارلوس»، لا سيما من تعاليه على بعض الوضعيات الجسدية الخاصة بعائلة «الغيرمانت» وليس على أذواق البارون الخاصة نفسها. وهكذا فإن دوق «دو غيرمانت»

الذي لم تكن لديه تلك الميول، كان له نفس طريقة «دو شارلوس» النزقة في تدوير معصمه، كما لو أنه يشدّ حوله كمّاً من الدانتيل، وكذلك كانت في صوته تلك النبرة الحادة والمتصنعة، كل هذه التصرفات التي أعطاها «دو شارلوس» دلالة مختلفة، كان يعطيها هو نفسه دلالة أخرى، فالفرد يعبّر عن خصوصيته بواسطة هذه الملامح غير الشخصية والموروثة التي ما هي إلا خصائص قديمة ومتأصلة في الحركة والصوت. وبحسب هذه النظرية الأخيرة التي تنحصر في مجال التاريخ الطبيعي، لا يمكن اعتبار السيد «دو شارلوس» فرداً من عائلة «الغيرمانت» أصيب بعلة وكان يعبّر عنها جزئياً بواسطة ملامح «الغيرمانت» وإنما دوق «غيرمانت» هو من وُجِد في عائلة منحرفة، وهو ذلك الشخص الاستثنائي الذي لم يصبه هذا المرض الوراثي والذي فقدت آثاره الخارجية عنده كل معنى لها أذكر أني عندما لمحت «سان لو» للمرأة الأولى في «بالبيك»، كان كثير الشقرة، شقرة مصنوعة من مادة ثمينة ونادرة، ووجدتُه، وهو يلوح بنظارته أمامه، على شيء من التخنث الذي لم ينجم بالتأكيد عمّا عرفته عنه الآن، وإنما عن العذوبة الخاصة التي تميز بها «الغيرمانت»، إنها رقة بورسلين مدينة «ساكس» (Saxe) التي صنعت الدوقة منها أيضاً. وأتذكر كذلك مودته لي، والطريقة اللينة والعاطفية التي كان يعبّر بها عن هذه المودة، إن هذا الأمر الذي يمكن أن يخدع كل الناس، كان يعني شيئاً آخر، حتى أنه كان يعني نقيض ما عرفته اليوم. ولكن إلى متى يعود ذلك؟ إذا كان يرجع للسنة التي عدت فيها إلى «بالبيك»، فكيف لم يأت ولو مرة واحدة ليرى صبي المصعد؟ لماذا لم يحدثني عنه أبداً؟ أما بالنسبة للسنة الأولى، فكيف كان بإمكانه أن يلتفت إليه وهو الذي كان يعشق «راشيل» ويتيَّم بها؟ في تلك السنة الأولى، وجدت في «سان لو» شخصاً خاصاً، كما هي حال «الغيرمانت» الحقيقيين. ولكنه كان أكثر خصوصية مما حسبته. ولكن المسائل التي لم نعرفها بحدسنا المباشر وإنما علمنا بوجودها عن طريق الآخرين فقط، لم تعد لدينا، بعد فوات الأوان، أية وسيلة لنعلّم روحنا

بها، لأن اتصالها بالواقع قد أغلق، وهكذا لم يعد بمقدورنا الاستمتاع بالاكتشاف، إذ تأخر الوقت. على أية حال لم أستطع أن أستمتع روحياً بهذا الاكتشاف، لأنه آلمني كثيراً. لا شك أنه بعد ما قاله لي السيد «دو شارلوس» في بيت السيدة «فيردوران» في باريس، تيقنت من أن حالة «روبير» تلك هي حالة العديد من الأشخاص الشرفاء وحتى أذكاهم وأفضلهم. لم أكن لأبالي لو عرفت ذلك عن طريق أي شخص آخر، لكن باستثناء «روبير». لقد لطخ الشك الذي تركته في نفسي كلمات «إيميه» كل الصداقات التي عشناها في «بالبيك» وفي «دونسيير»؛ ومع أني لا أؤمن بالصداقة ولا أعتقد أبداً أني شعرت بصداقة حقيقية مع «روبير»، إلا أنني عندما أتذكر قصة صبي المصعد وقصة المطعم الذي تناولت فيه طعام الغداء، مع «سان لو» و«راشيل»، كان عليّ أن أبذل مجهوداً كبيراً لأمنع نفسي عن البكاء.





المحتويات

هذا الكتاب

رواية «بحثاً عن الزمن المفقود» يروي فيها الكاتب مارسيل بروست صراعه مع الزمن بأسلوب مرهف الحس، يجعلك تعيش الماضي كأنه واقع، ولم يعتمد بروست على الأسلوب المعروف في الروايات، بل صنع لنفسه أسلوباً خاصاً به يقوم على الجمل الطويلة التي تبدو معقدة، والتفاصيل المكثفة، واستطاع بالفعل أن يثبت أن البساطة لا تصنع الجمال وحدها، وإنما التعقيد أيضاً قد يصنع الجمال. في هذه الرواية ينتبه الكاتب إلى أن الزمن ينفلت من بين يديه، وبدلاً من أن يتتبع هذا الزمن ويحاول اللحاق به أراد أن ينقضّ على الزمن باستحضار ذكريات الماضي وإحيائها حتى تصير هي الواقع... استطاع بروست أن يستحضر الماضي حتى يعيشه القارئ ويشعر بكل تفاصيله، فلا يمكن لقارئ هذه الرواية أن يمرّ سريعاً على المقاطع دون أن يشعر بما فيها من أحاسيس ومشاعر كأنه هو بطل هذه الرواية...






ISBN 978-9922605487
9 789922 605487

الغلاف : سكينة صلوَن